عبد الكريم الفيلالي

التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير

الجزء الرابع

إن الأمة التي لا تعرف ماضيها تتمزق في حاضرها
وتعرف الذل والتحقير والبخس والإهانة في مستقبلها
المؤلف

التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير

عبد الكريم الفيلالي

الطبعة الأولى
20 اغسطس 2006

الجزء الرابع

رقم الإيداع القانوني
2006/1287
5 يونيو 2006

الترقيم الدولي
(ردمك) 2-0-8702-9954

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

للطبعة
شركة ناس للطباعة
23 ش رشدي - عابدين - القاهرة
هاتف: 002023925376

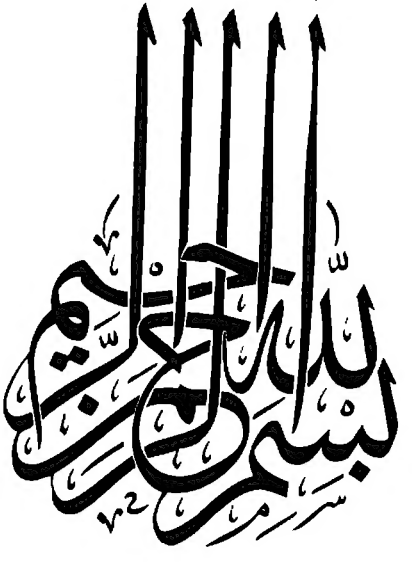
بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع عشر

الفصل الثاني عشر بعد المائة

زيدان وابن أبي محلي

في الوقت الذي رجع فيه زيدان إلى مراكش بعد الحروب التي حصلت بينه وبين ابن أخيه عبد الله الشيخ بن المامون بفاس، انقطع للهوه وما عرف به من مجون، تاركا البلاد وقد تعرضت شواطئها لغزو الأسبان ولا من يذود عنها غير أمثال أولاد النقسيس والمصامدة بتطوان وآزمور وأهل القصبة، الرباط، وسلا،(797) أما في الجنوب فقد كانت البلاد فوضى خصوصا الأطلس المتوسط وما جاور جهة الجنوب الشرقي، وفي هذه المرحلة ظهر ابن أبي محلي(798) الذي اكتسح ولم يتوقف إلى أن أخرج زيدان ذليلا من قصره بمراكش فارا إلى السوس.

إنه العالم الوطني الغيور أحمد بن عبد الله بن القاضي السجلماسي المولود بزاوية القاضي من سجلماسة عام 967 هـ /1559م المقتول يوم 8 رمضان 1022هـ 30-11-1613م. كان ابن محلي وقتها أحق من يتصدر في هذا المجال، لولا ما عرف التاريخ حول شخصيته من آراء حول المهدوية وما راج في شأنها مما قرره اليوسي رحمه الله في المحاضرات، وذلك لأن كل الذين عرفوا كأبطال مجاهدين اعتمدوا على عصبية أو قوة كان لها ظهور في الميدان أو على تنظيمات عسكرية برية أو بحرية شدت أزرهم، ودفعت بهم إلى تحقيق ماراموا من عمل في سبيل الدين والوطن، أما ابن أبي محلى الذي كان في موطن ناء عن كل ما يمكنه من القوة والدفع من مال وسلاح- كبني عباس بأرض توات(799) - فهو في نظرنا أحق بالمقارنة مع عبد الله بن ياسين، والمهدي ابن تومرت،

---

(797) راجع العلاقة الأنجليزية المغربية لروجرز 55-87 ط 1981 : **وبكاستر مصدر** سابق، وملخص تاريخ تطوان 1/48-62

(798) راجع ترجمته في أعلام المراكشي 2/286-94 ط 1974.

(799) موطنه الأصلي زاوية القاضي بتافيلالت سجلماسة وهي معروفة حتى اليوم، ولعله رحل إلى آيت العباس قومه يلتمس منهم القوة والعون بعدما اتصل بآل عبد الجبار بقصر لمعيز بفجيج وأخذ عنهم العلم =

ومحمد المهدي بن أحمد القائم، وإذا نحن تعمقنا في التحليل لا نجد كبير فرق بينه وبين أي منهم، بل استطاع بن أبي محلي أن يحقق أهدافه في زمن أقل مما قضاه أي واحد ممن ذكرنا وهي فترة لم تتجاوز الثلاث سنوات(1019-1022) اكتسح فيها قوة السلطان القائم زيدان، وكاد يقضي على دولته لولا صدفة هيأ لها زميله في الدراسة أبو يحيى زكريا بن عبد الله بن سعيد الحاحي الذي انتصر لزيدان.

لقد برهن بن أبي محلي على حيويته ومدى استفادته من المعارف التي حصل عليها، والتي جمعت بين الفقه والأدب والسياسة، تلك التي مكنته من أن يستفيد القدرة على هضم المجتمع الذي وجد فيه، والذي كان قد بلغ النهاية في السقوط والانحطاط السياسي بيد أولاد احمد المنصور بعد موت أحمد المنصور إلى درجة أن سلطة الدولة أصبحت غير موجودة إلا في ما حول السلطان وجنوده، أو من يمثله في قليل من الجهات، بل سلطان الدولة تحول إلى لصوصية وإرهاق ونهب ما بأيد الناس والسطو على أرزاقهم وأعراضهم كما عرفت فاس وتعرف في الوقت الذي سيتحرك فيه ابن أبي محلي ضد سلطان الدولة من أجل بناء دولة أخرى مكانها تتسم بالعدل والأمان.

كان انفراج الحالة في نظر بن أبي محلي لا يقتصر على الجهاد ضد العدو الأجنبي، كما ذهب جل علماء المغرب الذين ضربوا على هذا الوتر وقتها، بل كان يحتاج إلى قيادة سليمة واعية تختلف عن قيادة الخمور والفجور المتمثلة في أولاد المنصور وأحفاده، وما حولهم من السفهاء الذين يتربصوه بالمجاهدين، وكانت هذه القيادة في نظر ابن أبي محلي وفي مجتمع إسلامي مستمسك بدينه كالمغرب، لا توجد إلا في ظل الإسلام وخلق الإسلام وسلوك المسلم الصادق الإيمان عقيدة وسلوكا، إذ الدين وكما قرر ابن خلدون هو الذي ينجذب نحوه المغاربة بدون قيد ولا شرط، وبقوة دافعة لتوحيد الصفوف والقيام في وجه الحاكم الظالم أولا، ثم ضد العدو المهاجم ثانية، ونحن لا نوافق الذين حللوا فكرة المهدوية التي انتحلها إبن أبي محلي حسب الظاهر الذي تدركه

= زمن أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار الذي أجازه إجازة علمية ذكرها في الإصليت وذلك سنة 1008 هـ/ 1599م، كما تصاهر مع ابن أبي سماحة، ونجد ابن أبي محلي يقول إن أمه برزوزية، والبرززريين الأدارسة منهم آل عبد الجبار بقصر لمعيز من فجيج، وفي الوقت الذي كان ابن أبي محلي وقتها في المنطقة كانت صولة آل عبد الجبار العلمية لها وزنها، ومن يدريك أنه أراد أن يستفيد من ذلك.

الدهماء، والتي كانت الدافع للذين ارتموا ثم اندفعوا بقوة خلف ابن أبي محلي لتحقيق الهدف الذي كان يرمي إليه، وما قيل عن الذين بقوا بعد قرنين أو أكثر ينتظرون عودة المهدي ما هي إلا من اختلاق بعض المؤرخين، كما قيل في حق ابن تومرت، وكما قيل في تاريخ العباسيين زمن المستعين في القرن الثاني للهجرة، بل المهدوية سواء في عهد ابن تومرت أو ابن أبي محلي كانت لونا من ألوان العمل السياسي يستعملها ذو علم ومعارف كما كانت تستعمل المذاهب للفتك بالخصوم بواسطة الذين ينقادون للفكرة طائعين ومندفعين متحمسين، كما يفعل اليوم محترفو السياسة مع المذاهب والإيديولوجيات والبرامج السياسية المتطرفة، التي كثيرا ما نجد الداعين إليها لايؤمنون بها من قريب ولا من بعيد، وإنما هي حبال توصل إلى الحكم أو الغرض في ظل المذهب المؤثر في الجمهور المراد حكمه والإستيلاء على مصيره، بل إن تخطيطات بعض السياسيين لا تزيد على أنها خيال يجمع به الزعماء والمتمذهبون الدهماء ليحققوا لهم الوصول إلى الحكم، وبعدها ينتهي كل شيء، وهذا في نظرنا ما فعله ابن تومرت وابن أبي محلي من أجل هدم الظلم والدفع بالجماهير إلى بناء حكم إسلامي قائم على العدل، ولولا الجانب السياسي الذي اخترناه من حياة ابن أبي محلي وانتحينا جانبا من جوانب إنتاجه الفكري لأكدنا هذه الحقيقة أكثر من خلال معارفه ومؤلفاته التي منها : الإصليت، والمنجنيق، والمهراس، والسيف البارق، وغيرها مما نتوفر عليه من إنتاجه.

لقد اعتمد ابن أبي محلي في عمله السياسي الذي أوصله إلى ما قصد، على تخطيطه الخاص الذي يتلاءم وعقلية الذين يريد أن يحقق بهم أهدافه، ومما يدل على دهائه الكبير أنه زمنا غير قليل كان يدعو بالنصر والتمكين لزيدان جهرا وهو الناقم عليه سرا، ثم هو يصف للقوم أوضاع البلاد المتمزقة وما تعانيه من فساد كان ابن أبي محلى ينسبه لما حول السلطان زيدان، ولا أحد مسؤول في الحقيقة غير زيدان، إن انتقادات ابن أبي محلى الواضحة في كثير مما كتب تظهر شخصيته ومدى واسع إطلاعه وكفاءته وطلاقة لسانه الذي كان بلا شك مثل قلمه، بل إن المتتبع لأطوار حياة بن أبي محلى والمجتمعات التي تقلب فيها من موطنه وموطن أبيه سجلماسة، وما كانت تزخر به في عهده من علماء، إلى مدينة فاس التي درس بها وما كان لمجتمعها الحافل وقتها بأمثال

أستاذه أحمد المنجور 929 – 995 هـ /1522– 1586م من أثر في نفسه التي عاشت في أوساط العلماء الذين كانت انتقاداتهم أحوال أولاد المنصور وما حولهم تصك أذن ابن أبي محلي، بل ورحلة إبن أبي محلى إلى المشرق وقد اشتد عوده ثم اتصاله بعلماء الحرمين وغير الحرمين في مصر وما سمع عن أحوال آل عثمان وعلاقتهم بالآخرين، وكذا ما استورد من المشرق من فتاوي وما خاض من مواضيع، كل ذلك يعطينا صورة على ابن أبي محلى، وأنه كان من النوع الذي يعرف كيف يخطط لتحقيق أهدافه في مجتمع لم يتغير عما كان عليه زمن ابن ياسين وابن تومرت، ومحمد المهدي بن أحمد القائم، حقا إن ابن تومرت في حياته الأولى كان يظهر غير ما عرف به ابن أبي محلى، وأنه في وسيلته وتنظيمه كان أقوى وأشد تمكينا في الجانب التنظيمي، وأن ابن أبي محلى لم يكن كذلك، خصوصا من نظر إليه بالمنظار الذي يسلط على ابن المبارك الزعري وما كان يتجمع حوله من أتباع، وحتى لا يكون ابن أبي محلى في نظر من تعرفوا على الزعري أنه كذلك، وجب أن نستعرض أصله والجانب الذي نتعرف به على حقيقته ولو بإيجاز.

ابن أبي محلي هو أحمد بن عبد الله بن أبي محلى ويرفع نسبه إلى العباس بن عبد المطلب، وكما كتب عن نفسه في كتابه الإصليت الذي اعتبر هو المصدر الأول في التعرف عليه، والذي كتبه سنة 1016هـ/1607م، أي في الوقت الذي شبت فيه الفتن بين زيدان وأخيه وابن أخيه وهو بلاشك كما عرفنا لم ينتقل إلى بني عباس إلا بعد ما تزود من علماء سجلماسة حيث كان والده مؤذنا بقصر زاوية القاضي وقبل أن يرحل ليتزود من آل عبد الجبار الذين كانت مدرستهم بفجيج من أرض الجنوب، تزخر بالعلم والعلماء، وبعدما نهل من مجتمع العلماء والأشراف الذين كانت لهم سطوة عالية في ذلك المجتمع وقتها، فقد كان ثمت إلى جانب آل عبد الجبار البرزوزي الحسني المعضادي الفيلالي(800) الذين امتد سلطان عملهم شرقا وغربا، ومثلهم الرشيديون الحسينيون أولاد محمد الذين

---

(800) نسبة إلى قصر المعاضيد أعلى ناحية تيزيمي تافيلالت، ولقد كان ابن أبي محلى ممن درسوا على أبي القاسم محمد بن عبد الجبار كما أخبر بذلك عن نفسه في مؤلفاته.

ولقد كان لآل عبد الجبار أوثق صلة بعلماء سجلماسة حيث وقفنا على الكثير من آثارهم بين مخلفات علمائها خصوصا في زاوية القاضي حيث أثر أحمد الحبيب وبقية خلفه وعلماء الغرفة وقبيلة السفلة.

لا يقلون عنهم علما ومكانة بقصر الواد غيريين أكبر واهم قصور فجيج في ذلك العهد، والذين كان لهم الفضل الكبير بعد في التمكين للدولة العلوية في تلك الناحية.

وابن أبي محلى الذي يرجع هو الآخر إلى أسرة عالمة عرفت قبل بزاوية القاضي من أرض سجلماسة، لما نزل بينهم - أي آل عبد الجبار - تصاهر مع عبد القادر بن محمد، دفين بني ونيف وهو ابن أبي سماحة دفين مراكش، لم يكن له وهو ذو أسرة قدم بها من سجلماسة أن تقبل مصاهرته ما لم يكن قد بلغ في هذا المجتمع مكانا عليا، ولقد كان مجتمع فجيج ولا يزال حتى اليوم يعتز بالأصالة ، وتفخر الأسر العريقة فيه بانتمائها لآل البيت، وأن الأنساب في هذا المجتمع بقيت ولا تزال محافظ عليها بقوة واعتزاز لم ولن يعرف لغيره، والسبب في ذلك ليس الرغبة في الامتياز الطبقي بقدر ماهو ديني وخلقي، فذوا الأصالة عندهم لا يقبل الدنايا ولا يرضى لأسرته أن تنعت بغير ما يليق بالشريف النفس العريق الأصيل السليم النسب، وتلكم هي السمة المميزة لكل فجيجي حتى اليوم، وفي القصور السبعة بدون استثناء كما عشت ورأيت.

وفي هذا المجتمع بلا شك قيل في حق نسب ابن أبي محلى ما يظهر انه من غير آل البيت الأمر الذي يحول بينه وبين الهدف الذي يخطط له بين قوم جمعوا بين العلم والنسب، لذلك اختار وهو المعروف بموطنه سجلماسة القريبة من الساورة، وبني عباس، وأرض توات، بالعباسي أن ينتحل الانتساب للعباس بن عبد المطلب، ومهما يكن فهو من زاوية القاضي ومن آل إليسع المعروفين بها، والعباسيون معروفون بتافيلالت ولا يزالون يحملون هذا اللقب حتى اليوم بقصر "إرارة" وقصر "تابع صامت" وكثيرا ما نجدأسماء العلماء منهم في ما لدينا من وثائق ومخطوطات، وقد كانوا بكثرة زمن الشريف بن علي الحسني، إلى زمن أحمد الحبيب اللمطي حيث كانت جنبات معهده تعج بالعلماء منهم، لكن الذي يسلط الأضواء على أن ابن أبي محلى كان صادقا وهادفا هو أنه لم يتخذ النسب مطية، بل أورد رواية قيلت له في ما يرجع لأصله رغم افتعالها وعدم تصديقه لها، ذلك أن طالبا قال له : أنه كان بيده كتاب في الأنساب نقل فيه أن أولاد أبي محلى ينسبون إلى عبد الله بن جعفر، وأنهم خرجوا من مكناسة بقصد تعليم الدين والعلم، ولهم إخوة بناحية تلمسان، يقال لهم مكناسة، ولما سأله الكتاب قال إنه احترق؟ أو ليس هذا

نوع من الدهاء السياسي للبحث عن عصبية ولو من مكناسة التي هي أقرب إليه من زاوية القاضي، بل القريبة من عرب المعقل المحيطين به في فجيج وفي أرض توات، والذين تربطهم بمكناسة أحلاف ومصاهرات، بل حتى رواية العباسية نفسها، نسبها لأحد القواد الذين هم من خواص المنصور(801)، بل وحتى يكون أقرب إلى عقول العلماء يورد قول أستاذه الصومعي الذي لطمه زيدان السلطان بنعل على وجهه بسبب خلاف حول لفظ، وكأنه يذكر أصحاب الرأي من العلماء بذلك حتى ينقموا ويذيعوا نقمتهم – نسب إلى الصومعي أنه قال، إن لأولاد أبي محلى وجهين : إما مغراوة أو لمتونة، وأنه رأى ذلك في مختصر الذيل لابن السمعاني عام 891 هـ بمراكش، أولا يدرك من هذه الجولة في الأنساب ما يدرك من رجل عرف كيف يخدم فكرته وأهدافه وأنه يطمح إلى تحقيق النفوذ والسلطان والجاه، وأنه في كل ما أورد لم يصدر منه حتى لا يتعرض للطعن أو التكذيب، أما عن أمه التي قال إنها برزوزية فأنا لا أقول بذلك لكن أيضا ماذا يقصد بقوله ذاك وآل عبد الجبار الكرام لهم في أعلى طبقات المجتمع علما ودينا وخلقا وسلوكا من السلطان ما لم يكن لغيرهم وهو بينهم .

مهما يكن فابن أبي محلى ولد بقصر زاوية القاضي المذكورسنة 967هـ 1559م وإذا ما بلغ سن الثالثة عشرة من العمر كان مؤهلا لأن يرحل إلى مدينة فاس سنة980هـ/1572م، وهو سن مبكر بالنسبة لما عرف به الذين كانوا يرحلون إلى مدينة فاس لأن ما يدرس في هذا السن وأعلى منه كان متوفرا في سجلماسة وقتها، والتي كانت مقر نواب السلطان ويقصدها العلماء بكثرة من مختلف جهات المغرب، بل ومنذ ما قبل هذا الزمان، كما يخبرنا الشريشي أحمد بن عبد المومن القيسي 559هـ 619هـ/1163م–1222م الذي زارها، ثم وضع شرح غريب المقامات لأبنائها باقتراح خاص(802)، بل كان كعب علمائها أعلى وقتها كما يخبر أبناء عبد الجبار البرزوزي وأحمد بن يعقوب الولالي وأبو سالم العياشي ثم اليوسي بعد، بل إن ما ضاع واندثر من أثر الأندلس وجدناه بسجلماسة ولم نجده في غيرها(803) رغم الحروب الطاحنة التي عرفها أهلها.

---

(801) الإصليت م خ والنزهة ص 242.

(802) توجد نسخة بخزانة المؤلف، ثم راجع كشف الظنون ط ا دار السعادة ص 498 س ا

(803) يوجد بخزانتنا مخطوط "الملخص" للفخر الرازي الذي لا وجود له مطلقا، وكتاب لغة الطيور والأزهار للعز بن عبد السلام وجـ ا من كفاية المقتصد لإبن رشد وغيرها من النوادر التي بقيت في سجلماسة.

لكن ما الذي دفع ابن أبي محلي إلى الهجرة في هذا السن المبكر إن لم يكن ثمت دافع خاص كأن يكون الحاجة إلى الرعاية إذ ربما كان لأبيه زوجة ثانية، أو كما عرف عن غيره من الذين خرجوا في سن مبكر وكان الدافع هو التوجيه للبعد عن مجتمع عرف بفتنة المال والاتجار مع السودان، حيث كان الشباب يرحلون مع القوافل ولا يعودون لطلب العلم، بل كان في هذه المرحلة بسجلماسة شباب عرف بالإندفاع خلف المال بشكل نجده في مختلف الرسوم والعقود التي بين أيدينا حول المعاملات في ذلك العهد، وكان ثمت طبقة أخرى من الذين كانوا يستهلكون في خيلاء ما كان يجلب آباؤهم من ثروات بواسطة تجارتهم الرائجة بكثرة في كل من تمبكتو ومراكش وفاس، وتلمسان، قبل أن يفتحها المنصور سنة 999 هـ/ 1590م بل وبعد فتحها بقيت سجلماسة على اتصال بتنبكتو إلى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد الثالث عشر للهجرة.

رحل إبن أبي محلى إلى مدينة فاس حيث قضى بها ما يقرب أو يزيد على الخمس سنوات درس فيها النحو والفقه، ثم ظهرت الفتنة التي انتهت بمعركة وادي المخازى كما يسميه وما واكبها من دعوة إلى الجهاد الذي شارك فيه أحد أولاد عبد الجبار البرزوزي سنة 986هـ/1578م، وفي هذه السنة كان سن ابن أبي محلى لا يتجاوز التاسعة عشرة، وهو سن لا يؤهله وهو الطالب الغريب في عرف المغرب وغيرة المغاربة لحمل السلاح والذهاب ضمن قوافل المتطوعين، لذلك اختار وقد تعطلت الدراسة أن يغادر مدينة فاس، ولربما إلى الأطلس المتوسط وبالذات حيث قبيلة آيت مكيلد اليوم "أرض العسل والسمن"، وليكون في طريق القوافل المارة ذهابا وإيابا بين سجلماسة وفاس.

وفي هذه الفسحة الجبرية لم يركن ابن أبي محلى لشيء غير العمل على تحقيق الهدف الذي من أجله اغترب فقد حفظ متن الرسالة لإبن أبي زيد القيرواني، وتلك هي المقدمة لمن يريد أن يكون فقيها يعرف كل ما يتعلق بأحوال الناس من عبادات ومعاملات حسب أصول مذهب مالك، وابن أبي محلى كما يخبر عن نفسه، لم يكن يرغب في مجال المعرفة أن يكون غير فقيه متمكن من الفقه ومختلف فنونه وأصوله، وهذا كان طابع سجلماسة وقتها والذي تحفظه لنا مؤلفات علمائها ورجالات الفكر فيها، وفي رحلته الحجازية عام 1002هـ، ووقتها كان قد مضى من عمره خمسة وثلاثون سنة، وهو سن

يؤهله للاستفادة من الرحلة أحسن الفوائد، وقتها وكما رأينا كان أحمد المنصور قد دلع مع هواه، ولم يهتم بشيء أكبر من اهتمامه بتحقيق ما عاش ورأى عند آل عثمان كما سبق أن فصلنا ذلك ووضحناه. بل وكما رأينا وقتها حين انجلى الموقف بعد معركة وادي المخازن.

بعد معركة وادي المخازن عاد الطالب إلى مدينة فاس، ووقتها اكتشف أن الفقه وحده لا يجدي، فلما قدرت له زيارة أبي يعزى شعيب الهسكوري، وهو آل النور محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الإلاني الإدريسي الحسني المولود بهسكورة قرية بوادي درعة عام 500هـ رالمتوفي عام 572هـ، ولقد ترجم له صاحب السلوة الذي تعودنا منه عدم التثبت بالإضافة إلى خرافاته التي أضفت القداسة على الخيل والبغال والحمير، وهو الذي قال عنه في جـ 1/ 172–175 محمد يلنور بن سليمان.. والصحيح ما أوردناه، وبه قال ابن الخطيب وغيره، ومهما يكن فهو المدفون بتاغيا، وله مزار معروف، حيث تستجاب الدعوة؟» ومنه طلب ابن أبي محلى أن يكون من الراسخين في كل العلوم ولم يعد يقتصر على الفقه والنحو اللذين تمكن منهما، ولم يطل به المقام كثيرا، بل في أقل من سنة إنتقل إلى زاوية سليمان الذي أصبح بعد يعرف بمحمد بن مبارك الزعري الجراري المتوفي بالطاعون 1006 هـ/ 1595م، والذي كان مقامه بتاساوت تحيط به جماعة من الذين كانوا يرغبون في تحقيق مستوى من التهذيب النفسي على طريق المتصوفة ، وفي جو الزاوية التي طال مقامه بها والتي كانت بلا شك تجمع ألوانا من التفكير والأذواق حيث عرفت مثل هذه الأوساط وقتها بكامل الحرية وعدم تعرض ذوي السلطان لكل من يلوذ بها، لأنه في نظرهم هروب مما يتزاحم الناس عليه من متاع ونفوذ، وهو ما يسمونه الزهد، وقد كان ولا يزال حال المتفقرة من هذا النوع كثيرا ما يصيحون صيحات عالية، تارة باسم الجلالة بشكل ملفت للنظر مثل «الله أكبر» كالدرقاوية، وتارة بعبارات مبهمة ذات مدلول يدرك وأحيانا لا يدرك.

في هذا الجو الذي عاش فيه ابن أبي محلي سنوات، تكيف وأصبح هو الآخر يردد بين القوم وفي ظلام الليل وبصوت عال «أنا سلطان» يرددها مرات متعددة تارة

يرددها على مقربة من الشيخ وأخرى بين الرفاق، وفي إحداها وقد سمعه رفيق يقول أبو علي اليوسي(804) فرد عليه ثلاث سنوات غير ربع؟؟! وهو قول واضح الإفتعال ما كان لأبي علي أن ينطلي عليه لأن المدة بعد كانت كذلك، وفي مرة أخرى قيل وقد سمعه الشيخ، ولربما انزعج منه فرد عليه بقوله :«هب أنك سلطان إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا» لكن الزعري لم يكتف بهذا الرد بل اختار له أن يعود إلى موطنه سجلماسة ولربما أراد أن يتخلص منه ومما يحدثه في نفوس من حوله وما سيجره على الزاوية إذا ما انتشر قوله إن صح هذا الزعم ثم وصل للحكام، وحتى يرضيه زوده ببرنوسه ونعله وعصاه، ثم وضع على رأسه قلنسوة عبارة عن قطعة من قماش وضعها بيده اليمنى وكأنه حصل له نوع من الذوق أصبح معه مؤهلا لنشر الدعوة في موطنه سجلماسة، التي كانت عامرة بمثل هذا النوع بلا دعوة ولا رهبنة اللاهم إلا ما كان من الشجرة الخضراء أو أمثال المعتوه الذي قبل أبو علي اليوسي يده كما اخبرنا بعد اقتداء بأهل البلد، وبعدها وجد ميتا حيث سقط في بئر فقيل إنه أخرق وقد بقي هذا النوع من البشر في المغرب إلى العصر الذي نحياه.

وفي سجلماسة اختار إبن أبي محلى مهنة التعليم وقد أقبل عليه الناس بلا شك، خصوصا وأنه من بيت علم جاء بما يشد أزر الذين كانوا وقتها يكونون شبه تحزب حول فكرة التوحيد ومعرفة جوهر الشهادة، حتى إن سجلماسة تمزقت زمنا غير قصير بسبب الخوض في هذا الموضوع الذي نتوفر على كتابات وفتاوى حول ما طرحه أبو الحسن الصغير الزرويلي صاحب التقييد على المدونة والذي ولي القضاء الفاسي زمن أبي الربيع لمريني بعد عزل أبي غالب المغيلي ومنظومة الهبطي (خ ن 361) وفيها يقول : من قال لا إله إلا الله منهم كبغل ناهق هل تراه ..إلخ ولقد تعرض لهذا أبو علي اليوسي في المحاضرات ص 92–94 مما دفع به إلى الكتابة حول "مناهج الخلاص من كلمة الإخلاص كما نص على ذلك.

وفي الفترة التي قضاها ابن أبي محلى بسجلماسة كان يتردد على ابن مبارك الزعري الذي اكتشف كما قال أنه لولاه لهلك؟ وفي سنة 1002 هـ/ 1593م، وكان قد عاد

(804) المحاضرات 106 – 107 ط 1976.

من حجه حيث تعرف على أبي يحيى الفاسي والبدخشي من بخارى، كما درس البلاد جغرافيا أثناء رحلته وتعرف على المكان الذي يكون المجال فيه أليق لأفكاره، بل وفي هذه السنة كانت زياراته للشيخ الزعري قد بلغت اثنى عشر مرة، وفيها قال له الشيخ "ابتلاك الله أكثر مما ابتلاني"(805) وكان قد قال له قبل "إذهب يا أحمد إنك سلطان"؟ ولعل هذه الكلمة إذا صح الخبر كان لها في نفس أبن أبي محلى أكبر الأثر والدفع، بل كانت أهم محرك اعتمل في نفسه، وزاد أكثر عندما رحل بأهله إلى المكان الذي اختاره أثناء رحلته إلى الحجاز، وقد تعرف عليه وعلى قابلية أهله له وهو وادي الساورة وبني عباس، حيث أسس له زاوية أخذ يهاجم منها المتهالكين على طريق القوم بلا علم، مما جمع حوله جموعا أكثر مما تعود وعرف. ولربما كان الجو مواتيا وقتها لأن المنطقة عرفت من سلامة العقيدة ما مكن له آل عبد الجبار، والونشريسيين قبلهم، ثم آل الرشيديين الذين كانوا من خيرة ما أنتج الفكر المغربي علما وسلفية وسلامة عقيدة كما هو مثبت فيما خلفوه من أثر علمي رحمهم الله.

وإذا كان ابن أبي محلى قد درس على أحمد المنجور وأحمد باب التمبوكتي فإن انتقاداته خصوصا السياسية منها لا شك يكون لها أساس قوي من العلم نتعرف عليه من أسلوبه في الكتابة ومن معاملة أحمد المنصور لكل من المنجور وكبير آل أقيت أحمد بابا الذي أهان أحمد المنصور بأدب حتى إنه مات، ولم يسمح له بالعودة إلى موطن عزه وأهله، كل هذا بلا شك كان له أثر في أفكار ابن أبي محلى، وبلا شك كان في تلك الناحية التي عرفت بالعلم والعلماء ذوي الأصالة حتى إن سليمان الونشريسي قبل شد الرحال إليها ليجاز من أحمد بن عبد الجبار بفجيج(806)وفي تلك الناحية فجيج وما حولها، كانت أصداء الصراع العلمي بتافيلالت تتجاوب أولا بأول، مع مجتمع فجيج وعلماء فجيج الذين خلفوا لنا من آثارهم الفكري ما يستدل به على أنهم تناولوا نفس المواضيع التي كانت محل اهتمام علماء تافيلالت، وكان من بين الذين تناولوا الكتابة في

---

(805) يقصد منه الدعاء له، النزهة 203.

(806) نتوفر على تلك الاجازة م خ نا 499 وفيها دلالة على المستوى الذي انتهى إليه القوم وقتها في مجال المعرفة.

هذا الموضوع ردا على ما ورد من قول ابن عمر محمد بن محمد بن عبد العزيز البومحلي(807) الذي لا ندري علاقته بابن أبي محلي الذي نقل الموضوع المزمن من موطنه بحدة إلى ناحية فجيج وما حولها، ثم أطلق العنان لقلمه ولسانه مؤيدا بالفتاوى المستوردة من المشرق حول تكفير من ينطق بالشهادة ولا يعرف معناها، وقد راج البحث في الموضوع بالمنطقة المذكورة ما بين مؤيد ومفند، وهي معركة تشبه ما عرف عن قضية الهبطي عبد الله بن محمد(808) المتوفي سنة 963 هـ/ 1556م مع أهل عصره حتى امتحنوه بسبب الوشاية، التي تزعمها اليسيتني عند السلطان.

ومهما يكن فإن مكانة ابن أبي محلى وما يقدر أن يكون له من خطر في مثل هذه المواقف يتعرف عليه من خلال كتاباته وشروحه المبسطة ومنظوماته التي نتوفر عليها في هذا المجال، بل وفي العقائد والصفات، وهذه أسماء(809) بعض كتبه وآثاره ومنها ما لم يعرف قبل وهي :

1) عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج إلى سادات مصر وقادة العصر، وهو عبارة عن مجموعة منظومات في العقائد وفتاوى من بعض رجالات المشرق حول الشهادة والعقائد، وحكم من يجهلها، وأما الذين استفتاهم وأورد فتاويهم أثناء حجه عام 1002 هـ فهم :

أ- امام الدين أحمد المرشدي العمري مفتى الحنفية بمكة

ب - علي بن عاصم الدين بن علي الشافعي

جـ - محمد بن صالح بن محمد الحنفي المدني.

د - علي بن عبد الله بن الجمال التميمي شيخ المالكية بالمدينة المنورة(810).

---

(807) كانت نتيجة هذا الصراع كتب متعددة صدرت في تلمسان عن محمد بن يوسف السنوسي، وفي سجلماسة "الجيش الكمين في الرد على من كفر عامة المسلمين" للشيخ محمد بن مبارك العنبري المسيفي السجلماسي م م نا 519.

(808) مخطوط خ نا رقم 519.

(809) راجع خ ع 3042 - 2167 د. مجموع ص 138 إلى 141، وكذ الحياة السياسية والإجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن العاشر للأستاذ عبد القادر العافية 372 - 382 فضالة 1982.

(810) راجع نشر المثاني 35/1، وروحة الناشر - ص 7-14 ط 1977 والنزهة 180 204، وشجرة النور 298 والأعلام للعباس التعارجي السوسي 83/1-87 واعلام الزركلي 155/1 والأنوار السنية لأحمد بن عبد العزيز ط1966 والمحاضرات لليوسي 72 وتاريخ بروكلمان 464/2.

هـ علي بن زين العابدين بن السمهود الشريف.
2) سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة والخلق.
3) رحلة تحدث فيها عن المهدي المنتظر،
4) مهراس رؤوس الجهلة..
5) منظومة في التوحيد وفيها يقول :

فجهل العقائد كفر فسل ولا تلهينك دنيا الغرور
ونصح الخلائق مفترض وقد ظهر الكفر كل الظهور
فكم قارئ عابد ناطق بلفظ الشهادة وهو كفور(811)

6) منجنيق الصخور، في الرد على أهل الفجور، ولعله كتبه لما ساءت العلاقة بينه وبين صهره عبد القادر بن محمد بن سليمان، دفين بني ونيف بن أبي سماحة، دفين مراكش، كما سبق، خصوصا بعدما طلق ابن أبي محلى ابنة أبي سماحة،(812) ولعل ذلك ما دفعه لتأليفه وهو إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت.
7) سم ساعة في تقطيع أمعاء مفارقٍ الجماعة.

هذا إلي جانب ما عرف له من شعر في الهجو، وفي الجهاد متبادل مع أبي زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد الحاحي زمن سلطانه بمراكش، ولسنا هنا ونحن بصدد البحث في جانبه السياسي مهتمون بالبحث في صواب انتاجه أو خطئه، سواء فيما يرجع للعقائد أو المهدوية التي تحدث عنها اليوسي وغيره(813) لكنهم جميعا أشادوا بكفاءة ابن أبي محلى رغم اعتراضهم على مهدويته.

كان ابن أبي محلى قبل وهو لا يزال طالبا في طريق القوم قد بدأ وهو رفيق لمحمد بن أبي بكر الدلائي في زاويتهم بالأطلس المتوسط قد بدأ محاولة الإصلاح، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنه لم ينجح(814) لأن بربر صنهاجة في هذه المنطقة تغلب

(811) م خ نا رقم 487.
(812) راجع الزاوية الدلائية د. محمد حجي ص 132ط 1963
(813) المحاضرات المصدر السابق 72/ والنزهة 206.
(814) المحاضرات 106.

عليهم شهوات أنفسهم وقد انتشرت بينهم فكرة العكاكزة الشهوانية التي تزعمها بعد امهاوش وقتها(815) ورغم ذلك فقد كانت تلك البداية القاتلة لم يسايره فيها رفيق الدلائي لتحد من عزمه، بل مكنته من معرفة الطريقة التي يتمكن بها بعد من جلب الناس بدل الصدام، والتي بلا شك طبقها حين حل بين عرب المعقل وقبائل زناتة المجاورين لوادي الساورة، والذين استهواهم بواسطة أفكاره، ثم دعوته للجهاد، إلى جانب سلوكه الذاتي وتمسكه بالدين، مما دفع بهم للتهافت عليه والإعتقاد في مهدويته. وتشير المصادر إلى أن ابن أبي محلى لم يقتصر في نشاطه على تربية الأفراد مباشرة ليحقق بهم أهدافه، بل سلط طريقة أخرى للتعريف بنفسه ونشر أفكاره بالمراسلة التي عمت جهات المغرب، حتى إن بعضهم ينسب إليه أنه الذي دفع بابن أبي الليف والنقسيس إلى قتل الشيخ المامون السعدي، لما سلم مدينة العرائش للأسبان كما أورد ذلك اليفراني «ص199/ط1888» مما يدل على اتصاله بشمال المغرب بعدما تمكنت الدعاية له في جنوبه، وبالطبع كان يشير في كل مراسلاته إلى فكرة المهدي المنتظر، وعلامات ظهوره وأسبابها، وفي كل ذلك لا محالة كان يعني نفسه، حتى أصبحت الجموع بتأثير أسلوبه والدعاية المركزة حول شخصه، تعتقد فيه اعتقادا لا قدرة لغيره علي مزاحمته، بل أصبح حديث الناس في مختلف جهات المغرب، وحتى إذا تضايق منه السعديون فإن الموقع الذي اختاره لنشاطه لم تكن لهم به صلة في تلك الفترة التي أخذوا يتدحرجون فيها نحو السقوط، وحتى لو اختاروا المغامرة والمقامرة من أجل محاربته فقربه من الحدود حيث حكم الأتراك. كان مما يشد أزره ويجعله في مأمن منهم، ويخبرنا أحمد التواتي الذي روى عنه الوفراني(816) أن ابن أبي محلى وقتها بلغ في نظر العامة درجة (إنحشر الناس لزيادرته، وقصدوه فرادى وأزواجا، وبعد في البلاد صيته وكثرت أتباعه»، بل أصبح له من التلاميذ من بعد صيتهم علما مثل سعيد بن إبراهيم قدورة المتوفي عام 1066هـ /1656م عالم الجزائر ومفتيها وصاحب شرح السلم بين علمائها(817) والذي قدم على ابن أبي

---

(815) راجع كتاب العكاكزة لليوسي م خ ع 2224 من ص 167 إلى 187، والمحاضرات 170، والنزهة 204، وقد تزعم اليوسي محاربتهم وتحريض السلطان إسماعيل ضدهم فقطع من رؤوسهم 102 علقت بمكناس.

(816) النزهة 205-207 .

(817) راجع معجم أعلام الجزائر ص 75 ط بيروت 1971، وله بخزانتنا شرح على خطبة خليل رقم 358.

محلى مهنئا يقول الوفراني(818) إلى سجلماسة، وإذا كان ابن أبي محلى عند الآخرين كذلك، فإنه يكون في سجلماسة موطنه وموطن آبائه أكثر والتي ربما اتصل بزعماء القوم فيها فهيأوا له بوسائلهم ما لم يستطعه لو لم يكونوا بجانبه، وإذا نحن أحطنا بالجو العام وقتها، دراسة وتحليلا، نجد من تصرفات السعديين وولاتهم بالمغرب عموما، وبسجلماسة حيث الحاج بن المير المغلوب على أمره خصوصا ما يدفع الفلاليين إلى إحكام التنظيم لفائدة كل من يسعى للخلاص من السعديين وسلطانهم، ناهيك إذا كان مثل ابن أبي محلى الذي سوف تكون ثورته تمهيدا لأولاد الشريف بن علي ولو بعد خمس وعشرين سنة. لأنهم أصبحوا بعد المولى علي الشريف سادة الموقف وأصحاب القرار في العلاقة بين أهل سجلماسة .

كان الفيلاليون بلا شك وقد عرفت بلادهم بكثرة أحزابها المعارضة التي كانت وقتها، والتي ستظهر بعد أكثر، قد نظموا أنفسهم وأسلوب مقاومتهم لظلم ولاة السعديين تنظيما سريا محكما لم يتعرف عليه أنصار زيدان ولا عامله بسجلماسة وقتها الحاج بن المير، وإلا كيف يعلل قيام إبن أبي محلى معتمدا على أربعمائة فارس قاصدا أول غزوه سجلماسة مركز السلطة في الجنوب، والتي تقول المصادر إن عاملها الحاج بن المير إعترضه بأربعة آلاف، فهل كان فرسان ابن أبي محلى يحققون الانتصار وهم يكونون نسبة واحد على عشرة بالنسبة لقوات زيدان التي كانت مرابطة بسجلماسة، لولا أن الطعنة القاتلة كانت من الخلف؟ خصوصا وأن سجلماسة كغيرها من مختلف جهات المغرب كانت قد انتهت إلى تذمر وسخط عنيف على السعديين بسبب تطاحنهم وما جروه على المغرب من جانب وبعداوتهم لأسرة علي الشريف حفيد الحسن بن قاسم الداخل التي كانت صاحبة الرأي والمشورة والنفوذ في سجلماسة في هذه المرحلة من جانب آخر، بل والتي كانت تضمر العداء للسعديين كما عبر عن ذلك بعد محمد بن الشريف لما قام وانتصر ثم حصلت مراسلاته مع زيدان وهي المراسلات التي كتبها كما سنرى أحد أبناء الشريف أيضا وهو الحفيد.

---

(818) النزهة المصدر السابق، وقدورة تونسي الأصل جزائري الموطن ت 1066 هـ 1656م راجع هدية العارفين 393/1 وتعريف الخلف 62/1 واليواقيت الثمينة 162/1.

ومهما يكن فقد قام ابن أبي محلى بعدما اشتد ساعده بالرجال الذين اختار منهم أربعمائة فارس، ثم توجه من وادي الساورة إلى سجلماسة التي احتلها بعدما انهزمت أمامه حاميتها، وعلى رأسها عامل المدينة وصاحب السلطة في الجنوب الذي قتل وكثير من جنوده، وإذا كانت سجلماسة بلا شك وهي موطنه وموطن آبائه وربما فيها تلامذته من العلماء، قد رحبت به واستقبلته أحسن استقبال الشيء الذي عرض حكم السعديين للزوال فإنها بلا شك مكنته كذلك من الثورة التي كانت تتوفر عليها أكثر من أي مكان في المغرب وقتها، وذلك حتى يستمر في فتوحاته، خصوصا وأن المغرب في هذه المرحلة قد تمزق وساءت أحواله الإقتصادية إلى حد كبير، الأمر الذي مكن ابن أبي محلى وقد اختار لثورته الجنوب البعيد عن مركز الدولة وحتى يكون في مأمن عن كل نجدة يحاولها زيدان أو أنصاره.

وفي هذا السياق ربما كان ابن أبي محلى يقتصر على سجلماسة زمنا لولا أنه لم يجد القوة الدافعة من جانب، ثم قيام جيوش زيدان بدرعة لمواجهته ومحاولة صده من جانب آخر وكان على رأس جيش زيدان الذي استنفر من درعة برئاسة عبد الله الزبدة أخو زيدان، وحتى تكون المبادرة من ابن أبي محلى، وتكون المعارك بعيدة من سجلماسة، قام وتوجه بقوة أكثر إلى درعة التي دخلها بعد انهزام الزبدة وجنوده، بل لاقى هذا الأخير نفس المصير الذي لاقاه الحاج بن المير عامل سجلماسة، بل قتل من جند الزبدة ثلاثة آلاف، وفي درعة القريبة من عاصمة زيدان مراكش حيث أصبحت انتصارات ابن أبي محلى حديث الكبير والصغير من المتذمرين وسط الجند وعامة الناس، وقع قائد من قواد زيدان تحت تأثير الدعاية التي أحدثت الرعب في النفوس وهو يونس اليوسي(819) ففر مسرعا إلى جانب ابن أبي محلى ليكون من الناجين الأولين، ولا يمكن لقائد أن يفر إلا إذا كانت معه قوة تناصره وتؤيد ما ذهب إليه، بل وإذا هو التحق بالمنتصر، عليه أن يبرهن عن حقيقة اقتناعه بما يكشف له من أسرار صاحبه، ومكامن الضعف التي تساعد على الإنتصار عليه، وفعلا فقد كان ما حمله يونس من أسرار. أكبر عامل في قيام ابن

---

(819) النزهة 219.

أبي محلى متوجها إلى مراكش ليهاجم زيدان في قعر داره، لكن طالع النحس الذي كان يلازم زيدان دفع به للفرار إلى آسفي، بعدما جمع كل ما في قصره من مدخرات أمن عليها قنصل فرنسا "جان فيليب كاستيلان" حتى الكتب التي بلغ عددها في مختلف الوان المعرفة الثلاثة آلاف، والتي ترقد اليوم بمكتبة الإسكوريال في إسبانيا، حيث وضع وبإتفاق مع "جان فيليب كاستيلان" الكل في سفينة فرنسية اعتزم الرحيل بها إلى بلاد الأسبان، وإذا هو تراجع في ظرف غامض وربما خوفا من الذين خرجوا عن طاعته ثم كونوا لهم جمهوريات بالرباط، والقصبة، وسلا، والذين أدخل في روعه أنهم سيعترضون طريقه داخل البحر، مما دفع به إلي تغيير وجهته نحو سوس، فذهبت السفينة محملة بما فيها إلى فرنسا، لكن قطع عليها الطريق في البحر وأصبحت في بلا الأسبان الذين تأزمت الحالة بينهم وبين الفرنسيين بسبب ذلك، بل تسبب ذلك في أزمة بين المغرب وفرنسا كذلك، وتقول الرواية إنه في موقف غير هذا – بل في حرب فاشلة مع ابن أخيه – أرسل كاتبه عبد العزيز الثعلبي محملا بعشرة قناطير من الذهب إلى سلطان آل عثمان لينجده بجنوده، ولما أعدهم «ونزلوا البحر غرقوا ولم ينج منهم إلا غراب واحد فيه شرذمة قليلة»(820) وإذا صحت الرواية، فلا أدل من ذلك على أن زيدان كان طالع نحس، وقد أرادت قدرة الله له أسوأ خاتمة.

لما توجه زيدان إلى سوس كان من المحقق أنه لا يقصد غير أبي يحيى زكريا بن عبد الله بن سعيد الحاحي، الذي كان يمثل أكثر قوة روحية ومادية في أرض سوس وذلك قصد طلب النجدة التي كان في أشد الحاجة إليها، لكن زيدان لما عاد وانتصر بمساعدة يحيى، تنكر ونفى أنه طلب منه ذلك، بل ادعى أن الزيارة لسوس إنما كانت تبركا لمآثر الآباء والأجداد، فكان لهذا التنكر من العواقب غير ما قدر زيدان كما سنري.

دخل ابن أبي محلى مدينة مراكش دخول الفاتح حيث قصد قصرها الذي يقول المؤرخون أنه تزوج فيه بأم زيدان ولعلها فرية للحط من قدر هذا الأخير، وإظهار غدر أخواله "الشبانات"، وحتى إن كانت هذه الفرية يكون مصدرها مؤرخ نفسه علوي بعد،ذلك أنهم زادوا فقالوا إنها ولدت له مولودا سماه زيدان، وهذا يتنافى مع ما عزم عليه زيدان

---

(820) الوفراني 239.

من رحيل جمع له كل محتويات قصره، ثم هو يعتزم مغادرة المغرب إلى بلاد الأسبان ويترك أمه من ورائه، وقد رأينا أن الشيخ المامون لما فر أخذ معه أمه الخيزران، ولم تفارقه إلى أن ماتت وهي وراء شيطانه، بل هي وغيرها شاهدات على ما كان عليه أحمد المنصور السعدي الذي خلف أولاده من الاجنبيات المولدات فكانوا لخؤولتهم أقرب.

كان ابن أبي محلى لما دخل قصر السلطان أطلق يد الناقمين لقتل كل من ينتمي إلى زيدان حتى بلغ عدد قتلاه في يوم واحد يقول زيدان نفسه ولا أظنه صادقا في مراسلة لأبي زكريا نحو الخمسمائة، ولكم كان في حاجة وقتها إلى من يذكره ما فعل من إجرام في مدينة فاس، وما ارتكبه من فظائع في حق الأبرياء من أهلها، ولقد عم البلاد الجنوبية حكم ابن أبي محلى، وأصبحت عاصمة الملك تحت سلطانه، ووافته الوفود مهنئة من كل النواحي، حتى رفاقه بزاوية ابن مبارك الذين حاول أحدهم وكما قيل أن يذكره ويصف الواقع المتناقض مع كل ما يهدف إليه، مما دفع بابن أبي محلى إلى أن يتنبه منه الضمير فيسكب العبرات كما ورد في المحاضرات لأبي علي اليوسي(821)، الذي أورد الخبر من غير تحليل.

---

(821) 106 -107 والوفراني107.

الفصل الثالث عشر بعد المائة

الحاحي أبو زكريا (822)وابن أبي محلى

لقد حقق ابن أبي محلى انتصاره على زيدان الذي فر هاربا إلى سوس، ثم أصبح ابن أبي محلى سلطانا يعيش في القصر الذي كان يشيع حوله الحقد والكراهية من المتظلمين الذين اندفعوا إلى النقمة على أصحابه، وإذا هو نشر الرعب بالقتل وإطلاق أيدي الناقمين، فإنه بذلك أوجد حول البلاد حالة من الخوف والذعر نشأ عنهما نفور مما حصل في الوقت الذي يوجد بالقرب من ابن أبي محلى، وعلى مقربة من مراكش رجال أقوياء لهم من الطموح ما لا يقل عن طموحه، ومن هؤلاء أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد الذي كان السبب في نهاية ابن أبي محلى، وعودة زيدان تحت وقع حالة نفسية لأبي زكريا ندم عليها بعد حين كتب إلى قاضي المحمدية عيسى بن عبد الرحمن السكتاني يستفتيه في الخروج على زيدان، وهو الذي ناصره ورده إلى دار ملكه.

استعمل أبو زكريا مالديه من نفوذ مادي وأدبي في استنفار قبائل سوس وما حول مراكش، وبعد مواجهة وتصادم وتبادل هجو بالشعر والنثر بين الزميلين في الدراسة على "المنجور"، كانت المعركة التالية فيصل النهاية، حيث صادفت أول رصاصة من جانب أبي زكريا رأس ابن أبي محلى، وإذا هو وأصحابه لم يحسنوا التصرف في مدينة مراكش وبين أهلها رغم ما كان يروم من العدل والوقوف عند الشرع، فإن جيوشه المكونه من شتات وبلا عصبية سرعان ما تفرقت وقطع رأس سلطانهم في شهر رمضان ليعلق على سور المدينة ولا ينزل إلا بعد اثنتي عشرة سنة كما فعل الأتراك برأس محمد الشيخ، أما

---

(822) هو يحيى بن عبد الله، بن سعيد، بن عبد المنعم، الداودي المنالي الحاحي : النزهة 208– 209– 210– 211 إلى 233، كان أول لقاء بينهما في ساحة الحرب يوم8 رمضان 1022 هـ /1613 م، ويحيى هو الذي ذكر له المرحوم محمد المختار السوسي في كتابه سوس العالمة ص 183 ط فضالة 1960 : "أجوبة في مسائل شتى" ج "مؤلف في الجداول".

جثته- وفي هذا دليل على إحترام العلم في شخصه-، فقد دفنت بروضة أبي العباس السبتي تحت المكتب المعلق على المسجد، وقد رمز أحمد المريدي لقيام ابن أبي محلى ووفاته بما يوافق تاريخ القيام والموت حيث قال " عاش طيشا ومات كبشا" أي قام 1019 ومات 1022هـ/ 1610-1613م.

لكن ماذا كان مصير التاريخ ووجهته لو لم تصادف الرصاصة الأولى رأس ابن أبي محلى الذي قضى على سلطان السعديين رغم محاولات زيدان الفاشلة؟ لقد كانت حركة ابن أبي محلى أكبر عامل في الدفع بأبناء علي بن الشريف في سجلماسة إلى العمل على جمع شمل الفيلاليين، والدفع بهم إلى التحرر من سلطان السعديين نهائيا ثم سلطان الذين حلوا محلهم كأبي حسون السملالي وذلك ما سنتعرف عليه بعد حين كلامنا عن الدولة العلوية، وما عرف وقتها من صراع بين العلويين وأهل إيليغ ثم بينهم وبين الدلائيين.

لما انتصر يحيى على ابن أبي محلى دخل قصر الملك بمراكش هو الآخر، لكنه بكلمة لينة مفتعل فيها استسلام من زيدان، أجبرت خاطر يحيى فخرج ليعود زيدان بن أحمد المنصور إلى قصر والده، لكن هل اتعظ زيدان، وهل بدل من سلوكه،؟ بل عاد إلى القصر ليكون في صف البرتغاليين الذين كانوا بالجديدة، بل ليجمع الآلاف من المغاربة ويذهب ليصد عنهم هجوم المجاهدين أمثال سعيد الدكالي الذي انضم إليه قائد آزمور، ولولا أنه قتل في المعركة وتفرقت جموعه لأمكنه وقد اعترف البرتغاليون بما أوقعهم فيه من ضيق أن يدفع بهم إلى البحر(823)ومثله إبراهيم كانون سنة 1036هـ 1626م(824)لكن زيدان الذي كانت صلته بالمحتلين بلغت درجة الهيام دفعت به إلى عدم التراجع والثقة بالمغاربة مما عرض البلاد إلى الفتن، ثم جعلها في الأطراف والشواطئ تتحول إلى أرض "السيبة أكثر".

في هذه المرحلة وقد رجع يحيى بن عبد الله الحاحي إلى مقر زاويته وربما لم يكن

---

(823) راجع الاستقصا 69/6.

(824) نفس المصدر ص 70.

(825) كان مقر زاويته بزداغة إلى الشمال من تارودانت على ضفة الوادي المعروف أسيف بن تاتامنت.

يفكر في الملك لولا ما رأى من فساد زيدان وعدم أهليته، بل وعدم رجوعه إلى الجادة، حتى إن عليا الملقب أبو حسون حفيد أحمد بن موسى المتقدم ذكره زمن محمد الشيخ السعدي قام هو الآخر ودعى لنفسه ضد زيدان، وقد كان على وشك أن يفعل ما فعل ابن أبي محلى لولا قيام يحيى بمواجهته والقضاء على طموحه بعد معارك بلغت النهاية في الشدة والعنف والضراوة من الجانبين القويين كل في منطقة نفوذه إنتهت بدخول يحيى منتصرا مدينة تارودانت "المحمدية".

كان يحيى كما سبق أن أشرنا زميلا لإبن أبي محلى في الدراسة على المنجور بالإضافة إلى دراسته على والده عبد الله المتوفى 1012هـ/ 1603م، وفي عهده كانت أسرتهم قد بلغت درجة مرموقة من الزعامة دفعت بالمنصور إلى أن يبعث عبد الرحمن بن منصور لعلج ليقبض على عبد الله، لكنه نجا(826) أما يحيى اليوم فإنه لم يكن في نفس الموقف، وإذا هو دخل واستقر بتارودانت، ولربما كان بالقرب منه مذكراته التي كتب فيها جميع ما حصل بينه وبين ابن أبي محلى من مراسلات وهجو بالشعر والنثر، وبمراجعتها أدرك أن زميله ابن أبي محلى إنما كان يحاول إنقاذ الدين والوطن مما جره عليهما زيدان، لكن السلطة أوقعته في مخظور، وبذلك عبر لرفاقه في الطلب حين زاروه، ومثل ذلك حصل ليحيى، وأن ما قام به يحيى لصالح زيدان لم يعد بالخير، بل بالشر على الدين والوطن، فالناس فوضى لاسراة لهم والسلطان لا شغل له غير الزهو واللهو والاشتغال بنفسه وملذاته مع بياتريس، وهذا هو المنكر المطلوب بل المأمول النهي عنه، وإذا ما حدثته نفسه بطلب البيعة ليصبح مكان زيدان فعليه أن يبدأ باستشارة قاضي المدينة التي حل بها، وأرسل إلى عيسى بن عبد الرحمن السكتاني(828) يستفتيه، لكن القاضي بعدم وعي رد بالنفي وعدم شرعية الخروج على "الإمام" دون توفر الشرط

---

(826) نفس المصدر 210.

(827) ورد في نزهة الحادي ص 211، والمعسول 51/2 وقد سماه "التجلي فيما وقع بين يحيى وابن أبي محلى" وقد رآه السكتاني.

(828) له مجموعة فتاوي م خ نا رقم 522، وهي في الفقه والمعاملات كتبت بخط تلميذه أحمد بن الحسن السوسي الوداني يوم السبت 2 شوال 197 1هـ

(829) النزهة 212- 226- 233.

المطلوب والمنصوص عليه، ولو أن القاضي كان له فهم وتدبر لقوله صلى الله عليه وسلم "أنتم أدرى بشؤون دنياكم"، ثم قارن ما كان عليه زيدان من ضلال وفساد لأفتى بوجوب القضاء عليه وليس خلعه فقط، لكن القدر كان بالمرصاد لطالع النحس زيدان رغم عدم إفتاء السكتاني، مما دفع بأبي زكريا لمحاولة قتل القاضي، ففر هاربا إلى مراكش حيث أزم العلاقة بين زيدان ويحيى أكثر، إلى درجة أن عيسى أخرج كل ما في نفسه على يحيى، وزاد في ما كتب من أجوبة على مراسلات يحيى لزيدان.

وإذا كان يحيى لم يفعل مثل ما فعل ابن أبي محلى، فإنه اكتفى بتسيير المنطقة التي رفض أهلها الرجوع إلى حكم زيدان ونفوذ ولاته، وبقي زيدان يحاول بالمراسلات الدالة على الضعف كلما وجه إليه يحيى طلبا في صيغة أمر يتعلق بمن احتمى به واستجار حتى ولو كان العكاري الذي سرق لزيدان من الأموال ما ذكر في مراسلته ليحيى، وهي ألف مثقال، لكن يحيى توفي رحمه الله ليلة يوم الخميس 6 جمادى الثانية سنة 1036هـ/ 1626م، وبذلك خلا الجو لأبي حسون السملالي، وأما زيدان فقد بقي بعد يجر أيامه مدحورا في مدينة مراكش ولنتركه إلى أن نعود إليه بعد جولتنا مع الذين أصبحوا قوة في المغرب يصدون عنه العدو ويحمونه من محاولات الاحتلال التي كثرت حتى انتهت إلى احتلال شواطئه والتوسع حولها، ومن هؤلاء أبو عبد الله العياشي ورجالات جمهوريات كل من الرباط، القصبة، وسلا، والدلائيين، لكن أبا عبد الله العياشي كان بحق أقواهم وأكثرهم قدرة على تحرير الشواطئ والجهاد ضد الاحتلال الأجنبي.(830).

(830) راجع ما كتبه حوله كاتبه الخاص عبد الهادي بن عبد الله بن علي بن طاهر خ ح 2992، ولوالده2993.

الفصل الرابع عشر بعد المائة

ظهور أبي عبد الله العياشي والجمهوريات الثلاث

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي الزياني، يرجع أصله إلى قبيلة مالك بن زغبة، وهم عرب بالمغرب، ولقبه العياشي لا يعني رجوعه لقبيلة آيت عياش التي ليست من صنهاجة والتي موقعها بأعلى ملوية في الأطلس المتوسط، بل قبيله يعرفون بأولاد زيان الذين يكونون النصف الثاني لسفيان وهم اليوم بالمكان المعروف بهم شمال القنيطرة وشرقها تجاه سوق الأربعاء، وهم كما في العبر عند ابن خلدون يفصلون عن زغبة بأربعة عشر أدناهم زيان بن يعقوب بن موسى بن يعقوب بن نصر إلخ.

لم يعرفنا التاريخ عن نشأة هذا الرجل الأولى وتاريخ ولادته أين ومتى، لكنه عرف بعلاقته التربوية الدينية، مع العالم الجليل والمربى المعروف الشريف الودغيري الفجيجي عبد الله بن حسون السلاسي(831) دفين سلا والمتوفي يوم 12 محرم 1013هـ/ 1604 وأنه كان يتمتع عنده بسلوك حسن وخلق أحسن الأمر الذي دفع بابن حسون إلى تكريم تلميذه محمد العياشي عندما قدمت عليه القبائل المجاورة بفرس هدية، فقدمه بدوره لتلميذه الذي أمره بالركوب عليه بعدما أسرجه، ثم أمره بالرحيل إلى قبيلة أولاد بوعزيز بأزمور(832) قرب مدينة لبريجة والتي كانت وقتها ترسف في أغلال الاحتلال البرتغالي، وإذا هو دخل المعركة كمقاتل إلى جانب المجاهدين، فإن قائد السلطان زيدان وقتها كان يرفع في حقه من التقارير ما جعل السلطان يعيره اهتماما خاصا، خصوصا وأن العياشي الموفق استطاع أن يلفت أنظار الجميع بما في ذلك القبائل المجاورة وجيش

---

(831) الاستقصا 109/6.

(832) مدينة أزمور من المدن التي شيدها البربر قديما، واستولى عليها البرتغاليون في الوقت الذي استولوا فيه على طنجة وأصيلا ومزجان "لبريجة"، وقد كانت مركزا لصيد السمك على نهر أم الربيع راجع د. الإسلامية 46-45/2.

السلطان والبرتغاليون أنفسهم، وحتى يطمئن السلطان إلى عدم خروج العياشي عليه أسند إليه قيادة الحامية حين توفي قائدها، وبذلك انطلق العياشي أكثر دون أن يعلم أن السلطان لا يريد منه ذلك، بل ضيق على حامية البرتغاليين الذين اشتد ضيقهم وكانوا على اتصال قريب بزيدان كما نعلم وهذا لم تكن رغبة في تحرير لبريجة وإخلائها من أصدقائه الذين سيجد فيهم الملجأ إن هو تعرض لمثل ما صدر من ابن أبي محلى وأبي زكريا الحاحي، بل دام على ودهم رغم غدرهم واختلاسهم للسفينة المحملة بالذخائر والكتب زمن تغلب ابن أبي محلى، بل إن البرتغاليين هذه المرة ركزوا في اتصالهم بزيدان على التنبيه ضد العياشي وماوراءه من خطر على السلطان إن استمر في القيادة، وعززوا ملاحظتهم بالهدايا المرفوعة إلى زيدان، ومثلها إلى بعض أفراد حاشيته التي انساق جلها في اتجاه زيدان، وإذا ماقوى نفوذ العياشي بين الجند، ثم انتشر اسمه في المنطقة، فإن علي زيدان أن يهتم برأي قيادة البرتغاليين فيه، ثم يوجه قائده محمد السوسي في أربعمائة من الجند للقبض على العياشي والعودة به مقيدا في الأغلال إلى مراكش، لكن وطنية السوسي أبت عليه ذلك وأرسل إلى العياشي سرا يخبره وهو في طريقه إليه أن السلطان يريد به غدرا، وأن الجيش في طريقه إليه وعدده أربعمائة، الأمر الذي دفع بالعياشي قبل الرحيل أن يختار معه نفس العدد، ثم تقدم بهم نحو لبريجة حيث جر حاميتها لمعركة حامية قتل فيها مآت، ثم فر بنفس الكتيب التي كانت معه إلى مدينة سلا دون أن يعلم أن قدره يسوقه إلى ما هو أشرف وأعظم كعمل وطني يقوم به مجاهد مغربي وقتها، ومع ذلك فقد نعته بعض الأذناب من المرتزقة المعاصرين العملاء بنعوت بذ يئة وبروح استعمارية(833) هي الخبث والدناءة والسقوط.

---

(833) راجع ما قيل عنه « تاريخ العروي»، وترجمة قرقوط، ص 259، ط بيروت، والكتاب في مجموعه أفكار مشوشة مضطربة فجة غير متمكنة، وليس لصاحبها إلمام بغيرما صدر للأجانب حول تاريخ المغرب، بل الكتاب سرقات مكشوفة لأفكار غير مهضومة، قيل عنها«التركيب». كما يظهر أنه ليس للمترجم ولو أقل معرفة بتاريخ المغرب، حتى إننا لنراه يعبر عن بعض المسميات بنفس التعبير المكتوب بالحروف اللاتينية، وكما أطلقه الكتاب الأجانب، والكتاب الذي وصف صاحبه المجاهد العياشي بالمرتزق يزعم أنه محاولة في التركيب . وهذا اللون من الكتابة الذي هو وضع غربي لم يعرف بعد بالقدر الكافي في الدراسات العربية، ولذلك جاء الكتاب مشوها في مجموعه متسما بالغموض والتفاهة التي منها وصف أكرم مجاهد مغربي في مطلع القرن الحادي عشر الهجري، كما وصفه أكرم المؤرخين المغاربة=

في الوقت الذي حل السوسي بآزمور ثم ألقي القبض علي بعض أهل الفحص عقابا لهم - إفتعالا منه - لأنهم تركوا العياشي يلوذ بالفرار، وقتها كان العياشي قد حل بمدينة سلا موطن أستاذه والتي تردد فيها صدى جهاده حيث وجد أهلها في ضيق وكرب مما حل بالمعمورة التي احتلها الأسبان بعد العرائش، وبعدما طردوا منها ألفين من الأنجليز ومعهم أربعون سفينة أغرق بعضها في المون. وأنهم أخذوا يركزون فيها وحولها قواتهم المقاتلة، وأن هذه القوات قد بلغت الألف من الرماة دون الفرسان، وأنهم إن استمروا في الزيادة سوف لا يقفون عند حد المعمورة، بل سيتطلعون إلى العدوة الشرقية لمدينة سلا، في هذا الجو ومدينة سلا تغلى كالمرجل قدم العياشي وحوله الرجال الذين اختاروا جانب الجهاد معه، وماكاد يدرك الموقف ويجمع آراء أهل سلا حوله حتى توجه للجهاد بمن قدموا معه وقد أضاف إليهم أربعمائة من رجال مدينة سلا والرباط، والقصبة، حيث قصد المعمورة التي كانت أول معركة خاضها ضد الأسبان بالمعمورة، مما جعل أهل سلا يدركون أن في استطاعتهم إن هم وجدوا القيادة الرشيدة أن يحققوا الإنتصار ضد الاسبان، وها هي القيادة قد وجدت في رجل ليس بالغريب عنهم.

كانت القبائل المجاورة لمدينة سلا مثل بقية مدن المغرب وجهاته، تراقب أعمال أولاد المنصور الذين تمزق شملهم، وقد بعثوا التذمر في كل مكان من أرض المغرب ، لكن الناس لم يجدوا وسيلة تمكنهم من التعبير عن تذمرهم، ولو بالمقاومة ضدهم وضد التدخل الأجنبي في آن واحد، وإذا هو وجد مثل العياشي فإن جماعة من المرابين والمندسين أصبحوا يشيعون أن لاجهاد خارج راية « الأمير » ببيعة شرعية، وقد بلغ ترديد هذا الى سمع العياشي الذي استطاع أن يجد له حلا عندما أجمعت الوفود من كل جهات المغرب آزمور، وتادلا وتافيلالت، وزعير، إلى مدينة فاس، وتازة، وفجيج، ثم القصر الكبير، طالبة منه أن يتقدم الصفوف ويقودهم إلي الجهاد، وقتها طرح العياشي السؤال الذي وجه إلى

= وهو محمد العياشي بالمرتزق، بيد أن أحط درجات الارتزاق هي تقلب المرء سياسيا من التطرف نحو اليسار إلى التطرف نحو اليمين، وكما يصدق ذلك عن المتصنع مذهبيا يصدق على ما يكتبه حول التاريخ الذي وضع العلم له قاعدة هي أهم قواعده، وهي الوثيقة. راجع كتاب « النقد التاريخي » الذي ترجمه عن الفرنسية والألمانية الدكتور عبد الرحمن بدوي- ط مصر 1963 لتعرف معنى التركيب التاريخي.

العلماء والأعيان، فكان الجواب بفتوى تحتم وجوب الجهاد خارج راية الأمير المتقاعس، بل الخائن زيدان خصوصا إذا كانت البلاد مهددة، ناهيك وأن زيدان نفسه إلى جانب العدو يطارد المجاهدين ويساعد على احتلال الكافر لبلاد الاسلام من أجل أن يمكن لسلطانه المرفوض. حتى مات وحل محله ولده عبد الملك الذي هو الآخر لم يكن بالرشيد كما سنرى.

وقتها طلب العياشي من كل الذين يهمهم الأمر أن ينظموا شبه انتخاب معزز بفتوى، وإذاهم فعلوا كانت النتيجة الإقبال كلية وبدون تحفظ علي العياشي الذي بويع بالاتفاق علي مناصرته والوقوف عند رايه أمرا ونهيا، فعلا تمكن حكم العياشي وقويت صفوف المجاهدين بقيادته سنوات طوال حرر فها الكثير من الشواطئ، ولما سمع زيدان بما حصل غضب وأرسل إلى قائده الزعروري بالرباط، حيث أمره بقتل العياشي، وكانت الرباط ، والقصبة وسلا(834) كلمة واحدة فيما يرجع للجهاد ضد العدو، الأمر الذي جعلهم يواجهون الزعروري برفضه ورفض أوامره ثم يقومون بحراسة العياشي وحمايته، بل دبر أهل الرباط مكيدة ضد الزعروري طوحت به ثم ألقي عليه القبض من طرف سلطانه ليحل مكانه عامل جديد اسمه اعجيبا، وذلك بعدما نهبت دار الزعروري بتدبير من الأندلسيين الذين كان زيدان في حاجة إليهم وليمدوه بالحامية النظامية التي كان قوامها أربعمائة تتركز في درعة وإذا كانوا قد أبدوا تذمرهم من التجنيد والغربة إلى درعة، فإنهم مقابل أن يتخلصوا من الزعروري قد أظهروا خلاف ما بلغ عنهم الزعروري إلي زيدان، وأنه وحده المسؤول عن انحراف بعضهم عن السلطان، الأمر الذي دفع زيدان أن يقع في ما دبر ضده وضد قائده، لكن الزمان نفسه كان ضد زيدان الذي كان طالعه نحسا، فانقطع حده خلف وادي أم الربيع ولم يعد له نفوذ على الرباط، خصوصا وقد ظهرت قوة العياشي التي حررت سلا من الفوضى، والمعمورة من العدو، وهو في طريقه

(834) أورد ابن عبد المنعم الحميري في الروض المعطار خ نا 21/2 رقم 101 عن مدينة سلا أنها مدينة ازلية فيها اثر الأول، معروفة بضفة متصلة بالعمارة التي أحدثها هناك أحد ملوك بني عبد المومن، وكان قد اتخذ أرباب البلد مدينة بالعدوة الشرقية وهي المعروفة الآن بسلا الحديثة، وهي علي ضفة البحر، وقد أطال الحميري في التعريف بمكانة سلا الاقتصادية، ثم علاقتها بالأندلس، وقنطرتها التي كانت قائمة على ثلاثة وعشرين معدية مدت عليها أوصال الخشب.

لتحرير مدينة فاس من ظلم الشراقة بعد موت عبد الله الشيخ المامون الذي قضى عليه سكره وإدمانه.

وإذا ما تحرر أهل الرباط أنفسهم من العامل أعجيبا الذي أرسله زيدان مكان الزعروري فإنهم كونوا لهم نظاما جمهوريا نيابيا، قوامه مجلس شورى مكون من ستة عشر عضوا ينتخبون من أعيان القصبة والمدينة(835) يرأسه رئيس لمدة معينة ثم يجدد بانتخاب، وقد رأس هذه الجمهورية رؤساء عرفهم التاريخ السياسي بمعاملاتهم كدول مع أوربا.

ومثل هذه الجمهورية كانت بالقصبة، وأخرى بمدينة سلا، وقد عرفت هذه الجمهوريات الثلاث بمعاملاتها وعلاقتها السياسية والإقتصادية مع دول أوربا بتوقيع(836) عامر بن محمد، وأبو الطيب بن عبد الرحمن، والحاج يوسف السنسياض، بل كان لكل من هذه الجمهوريات أسطولها، وكان من القوة إلى درجة أنه كان يرعب كل قوة أوربية في البحر، وكان يمول بالعمل الدائم لصنع السفن قرب جامع حسان حيث كان الصناع يستمدون ما يحتاجون من مواد من هولاندا، كما كانوا يستولون على الأسرى بالمآت، وعلى السبايا والأموال حتى إن أسراهم بلغوا ما بين 1028–1038هـ/1618– 1628م يقول "دوكاستري" حوالي 6000 نفر، ومن الأموال 15.000.000 دوكا، ومن 1039 إلى 1049 هـ/1629ـ 1639 بلغت غنائمهم 27000.000 دوكا، وفي مدة سنتين غنموا أربعين مركبا كانت بسواحل أوربا تصطاد الحوت(837) وكانت الغنائم كلها ومدخول المرسي قاسم مشترك بين الجميع باتفاق عقد بعد اتحاد الجمهوريات الثلاث حول فكرة الجهاد، لكن أهل الرباط خصوصا منهم المستجدون، عادوا فرفضوا استمرارالعلاقة مع العياشي الذي أصبح

---

(835) مقدمة الفتح ص 134 ط 1345/ الرباط، ودائرة المعارف الإسلامية جـ 10/ 17–28.

(836) وقف أبو جندار على معاهدة سياسية بإمضاء هؤلاء مع بعض دول أوربا مؤرخة ب 8 رجب 1053 هـ/ 1643م، راجع مقدمة الفتح ص 50–51، ومختصر تاريخ تطوان 1/51–56 حول أولاد النقسيس الذين كانت لهم نفس العلاقة مع بعض دول أوربا، وكذا دوكاسترى.

(837) نفس المصدر لأبي جندار، وعند دوكاسترى جـ 3/284– 187 ط 1936م، نص معاهدة وقعها باسم العياشي إبراهيم بن علي العربي الأندلسي، وعن بريطانيا وفرنسا وإيرلاندا القبطان هيرنال بتاريخ 8 حجة 1046هـ / 5 ماي 1637م.

القوة الفعالة، خوفا من سيطرته ومن حوله، وأرادوا الإستقلال بمداخيلهم، وكذا التحرر في علاقتهم التي كان العياشي يرى فيها خطرا عليه وعلى فكرة الجهاد التي كان العلماء وقتها قد فصلوا فيها بشكل أوضح وأكثر تفصيلا، ويكفي أن يكون بجانب العياشي من العلماء أمثال عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري الأندلسي المتوفي عام 1040هـ/ 1631م، وهو صاحب النظم، وعبد الهادي بن عبد الله بن علي بن طاهر صاحب الكتب المتعددة في مختلف العلوم والفنون(838)ومنها الجهاد اقتداء بوالده، ولعل هذه الرفقة هي التي كونت من العياشي رجل سيف وفكر، ثم نشرت ذكره بين العلماء ورجالات الفكر الذين قدروه وأكبروه وقتها، ثم دونوا أعماله بكل صدق وأمانة.

كان أهل الرباط والقصبة قد عقدوا معاهدة مع الأسبان، وإن كان بعضهم قد نفاها، وبسببها تأزمت الحالة بينهم وبين العياشي الذي وجه مدافعه لضرب الرباط، كما أرسل ولده عبد الله على رأس خمسة آلاف لمحاصرة الرباط والقصبة، وإذا هو لم يفد من هذا الحصار، فإن الخلاف د ب بين أهل القصبة والرباط، بسبب الخلاف حول العياشي المجاهد في نظر أهل القصبة، وكان الإنتصار في جانب خصومه أهل الرباط الذين استولوا على القصبة ونفوا رجالاتها، وكثيرا من العائلات بها إلى الجزائر وتونس، كما لجأ بعضهم إلى مدينة سلا عند العياشي، الذي كان بعيدا حين رحل أهل القصبة بقيادة عبد الله بن علي القصري، فلما بلغه الخبر رجع مسرعا(839) حيث وجد أمامه الأسطول الأنجليزي في حرب مع أهل الرباط، وهو الذي هدم ما وضعوا من قنطرة لغزو سلا، كما تبادل الأسرى الذين كانوا عند العياشي مقابل سلاح هو عبارة عن مدافع مما دفع محمد الشيخ بن زيدان السعدي أن يقوم بأكبر قوة وهجوم لإيقاف مد العياشي الذي قيل إنه تعاهد مع الأنجليز، لكن سمعة العياشي بين قبائل المغرب لم تتأثر بما أثاره الشيخ، بل انقلبت عليه وتمزق جيشه الذي وجد نفسه معرضا للهلاك بعدما أحرقت المزارع في طريقه، فبقيت خيله عرضة للضياع، ورجع السلطان، إلى مراكش بخيبة زادت ما كان

---

(838) له فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة خ. ع 2992 - وكتاب ولده، وقد أشرنا إلى منظومته في الأصول مخطوط خزانتنا 142 في مجموع.

(839) مقدمة الفتح 238.

ينقص لتقويض دولة السعديين، كما كان رجوعه انهزاما لأهل الرباط، أمام العياشي الذي شدد حصاره على الرباط، فانقسم أهله بسبب ذلك قسمين قسم منهم مع القصرى وآخر ضده، وحاول هؤلاء الإتفاق مع العياشي، لكنه اشترط عليهم شروطا رفضوا واحدا منها وهو الأخير وهذه الشروط هي :

1) إصلاح جميع ما حصل بسلا من خراب 2) أن يعطوا نصف مداخيل الديوانه 3)أن يعطو نصف الغنائم البحرية. 4) إرجاع الأندلسيين القدامى إلى القصبة وإعطاؤهم أموالهم.

وإذا كان هذا الشرط الأخير هو سبب عدم الاتفاق، فإن أهل الرباط لم يبق أمامهم غير التوجه إلى الشيخ بن زيدان الذي أرسلوا إليه وفدا وضمنه القصرى الذي كان أهل الرباط قد رفضوه، لكن السلطان أعاده عليهم برفقة تاجر أنجليزي للتفاوض مع الأسطول الذي كان لا يزال بالمنطقة، وفعلا عاد القصري ووقع الاتفاق مع الأسطول أن يغادر مقابل استلام الأسرى الذين كانوا بالرباط، فسلموهم في متم شهر غشت 1637م/1047هـ، وبذلك عاد القصرى إلى الانتقام الذي زاد الجو تعقيدا، كما أن العياشي نفسه أصبح موجها كل جهوده لمحاربة أهل الرباط تارة، وأهل القصبة أخرى، حتى إنه في سبيل ذلك اتفق مع الأنجليز ومع الفرنسيين، كما اتفق القصري مع الأسبان خصوم العياشي، وهكذا وجد العياشي نفسه وسط جو خانق ساهم في تعكيره ظروف المستجدين الواردين من الأندلس من جانب، وكذا ما عرف من تصرفات بعض القبائل المحيطة من جانب آخر، ثم تصرفات ولده عبد الله الذي ركب نفسه هو الأخر، ذلك أنه أطلق العنان لتلك القبائل كي تنهب وتمزق خصوم أبيه الذين هم أهل الرباط، ولما حاول كبح جماحها لم تقف بل أدبرت عنه حتى انتهى بعضها إلى خيانات سافرة مع الأسبان ضد العياشي نفسه، فأضيف مشكلهم إلى مشكل الأندلسيين الموريسكيين الذين قيل إنهم كذلك تواطؤا مع الأسبان ثم أصبحوا يتآمرون على العياشي.

لقد لاقى العياشي الأمرين من الجانبين، الأمر الذي دفع به إلى محاربة بعض الأعراب الذين استمرؤا النهب، بل أصبحوا يكونون عصابات ضد العياشي ويجاهرونه العداء إلى درجة تمنعهم من مقاتلة العدو الذي هو الأسبان، حتى قبيل العياشي الذين

هم بنو مالك وسفيان أصبحوا قطاع طريق على أنصاره من المجاهدين، مما دفع مختلف جهات المغرب لاستنكار سلوكهم والدعوة لكسر شوكتهم، ثم دفع بالعياشي إلى الاجهاز عليهم ، الأمر الذي روع الأندلسيين فاتفقوا جميعا على محاربة العياشي بجموعهم الكثيرة، مما اضطرهم إلى الفرار، بحيث منهم من فر إلى مراكش ومنهم من فر إلى الجزائر والبعض فر إلى الزاوية الدلائية عند محمد الحاج، الذي أرسل يتشفع فيهم لدى العياشي، لكن هذا الأخير رفض شفاعة الدلائي، فكان ذلك سبب أول خلاف بين الطرفين رغم ما عرف بينهما من ود وتعاون أيام فتنة الشراقة بفاس.

كان الدلائيون في هذه المرحلة من التاريخ قد أصبحوا قوة في الأطلس المتوسط حتى إنهم أفادوا بقوتهم العياشي عندما قام عرب الشراقة كعادتهم بفتنة روعوا بها مدينة فاس، وكانت أعدادهم بكثرة تحتاج معها قوة العياشي إلى مساعدة للقضاء على شرورهم وما ارتكبوه من ظلم ضد الآمنين من أهل فاس، فكانت قوات الدلائيين إلى جانب العياشي مما يعتبر دينا للدلائيين عليه، لكنه نسي ورفض شفاعة رئيس الدلاء(841) الذي كان يبحث عن وسيلة تمكنه من الصدام مع العياشي الذي كان يفرض سلطانه على أكثر جهات المغرب، حتى إنه حال دون توسع الدلائيين ولو في المنطقة القريبة منهم رغم ما أصبحوا يتوفرون عليه من قوة وسلاح، وفعلا كانت الوسيلة التي وجدوها وقد اهتزت أركان العياشي لها هم الأندلسيون الذين تعلقوا بهم بواسطة الذين استجاروا بزاوية الدلاء ومالها من مكانة لم يقدرها العياشي ولم يقبل تدخلها.

كان الوضع قد تدهور أكثر بالنسبة للسعديين في هذه المرحلة، وكان بلاطهم قد اعتاد وجوه الفرنسيين والأنجليز كأطباء، وتجار، وسفراء، متزاحمين فيما بينهم للحصول على امتيازات أكثر، وقد عملت إسبانيا في هذه المرحلة على إيقاف نشاط البحارة المغاربة المجاهدين، لكنها لم تفلح كما عملت فرنسا في هذه المرحلة بواسطة البحار "إيزاك دي برازين" الذي اتخذت منه سفيرا تردد على المغرب خمس مرات زمن عبد الملك بن زيدان (1039–1044) ثم الوليد بن زيدان (1044–1045هـ 1634– 1635م)، حيث استطاع

(841) النزهة 270.

هذا السفير بعد صدام بين الفرنسيين والعياشي بسلا، أن يعقد معاهدة مع الوليد، وهي أول معاهدة عقدها الفرنسيون مع المغرب تنص على:

1) تحرير الأسرى المسيحيين المسترقين بالمغرب
2) السماح بإقامة قناصل فرنسيين بموانئ المغرب
3) حرية التجارة للرعايا الفرنسيين ماداموا يؤدون الضريبة الجمركية
4) حرية ممارسة الطقوس(842) الدينية أثناء إقامتهم بالبلاد المغربية.

لكن هذه المعاهدة لم يكن لها أثر مادام البحارة من أهل الرباط وسلا لا يخضعون لنفوذ الوليد، بل أخذوا يغيرون ويستولون على كل ما يجدونه في عرض البحر ويرجع إلى الفرنسيين أو الأسبان، وفي هذه الفترة نشط بحارة الانجليز، والهولانديين، في مجال بيع الأسلحة لرجال جمهورية الرباط، لأن البحارة الأنجليز كانوا يمارسون القرصنة في عرض البحر كذلك.

بل في الوقت الذي كان أبو عبد الله العياشي يقوم بحملاته الجهادية ضد الأسبان وغيرهم توفي زيدان بمراكش في شهر المحرم 1037هـ 1627م(843) ووقتها قام الدعى ولده أحمد الأصغر الذي قصد فاسا بعد شهر ونصف من موت زيدان ثم دخلها يوم الجمعة 25 صفر، وفي 13 شوال قتل ابن عمه محمد الشيخ بن المامون المعروف بزكودة الذي كان قد استولى على ما كان عبد الله مستوليا عليه، وفي 11 حجة سجن عبد الملك بدار الملك من مدينة فاس، ولم يتم له الأمر، بيدان البيعة لعبد الملك بن زيدان، لكن عبد الله الذي تعرض لثورة الوليد التي انتصر عليها، إلا أنه كان فاسدالأخلاق والسلوك، فلم ينعم بالملك طويلا لأنه كان مخمرا لا يفتر عن شرب الخمر إلى درجة الإدمان مما أدى إلى قتله، فتولى الوليد الذي دشن عهده بسجن أخيه محمد الشيخ وقتل أبناء عمومته وأفراد أسرته حتى قضى على أكثرهم، لكنه هو الآخر قتل بأيدي أربعة من الأعلاج بدافع أنه قتر عليهم، وذلك يوم الخميس 14 رمضان 1045 هـ 1635م، فبويع بعده محمد الشيخ الأصغر الذي أخرج من سجنه يوم الجمعة 15 رمضان لكنه كان خاملا وليس له من مؤهلات الملك قليل ولا كثير وفيه يقول الوفراني «منكوس الراية مهزوم الجيش وبذلك لم

(842) مقدمة الفتح مصدر سابق 238.
(843) نفس المصدر 243-244.

يصف له غير مراكش»،(844) بل في عهده انقسم المغرب، وأصبح صاحب إيليغ يحكم بمعزل عنه، كما أصبح محمد بن الشريف بسجلماسة، وأحمد الحاج بالدلاء.

في هذا الوضع الممزق المضطرب استطاع العياشي أن يفرض على الغزاة احترام المغرب وتقدير تلاحم المجاهدين من أبنائه بقيادة العياشي، لكن تصرفات بعضهم في جمهورية كل من الرباط والقصبة وكذا القبائل القريبة من الرباط وسلا، والتي تعرضت لكيد بعض الأندلسيين أدت إلى سوء المنقلب حين أعلنها محمد الحاج الدلائي حربا على العياشي المجاهد، ولم يكن له من مبرر غير الرغبة في السطو على تركة السعديين التي أصبحت نهبا بين الثوار الطامعين، بل اندفع الدلائي لتحقيق رغبته وطموحه على حساب العياشي المجاهد بصدق وإخلاص في سبيل الدين والوطن، دون أن يحفل بمظاهر الملك، وقد امتد سلطانه من مليلية إلى لبريجة معرجا على فاس وما حولها.

كان العياشي كما أشرنا قد تعرض لإجهاض من كل من حوله لأنه ضرب على أيدي الذين أرادوا السلب والنهب من رجال القبائل، ثم على أيدي الأندلسيين الذين استعملوا الطرق الملتوية للتفريق بين الإخوة في الرباط والقصبة وسلا، وكان الدلائيون على علم بكل أحواله وما آلت إليه ظروفه، ولذلك لما التقى الجمعان انهزم الدلائيون عن قصد، ثم تراجعوا قصد الاستعداد أكثر مما دفع بالعياشي إلى الإعتقاد أنهم تراجعوا نهائيا ولم يعودوا فاختار بدل أن يترك المجال لأنصاره كي يفكروا في حرب إخوانهم المغاربة أن يتوجه بهم لمحاصرة طنجة، ولم يدرك أن تراجع الدلائيين إنما كان خطة مدبرة لجمع فلولهم بعدما تعرفوا على قوة العياشي، وما هي الجهة التي يمكنهم الإعتماد عليها في الحرب ضده، وفعلا عاد الدلائيون بقواتهم الكبيرة، ومعهم خصوم العياشي الذين ضرب على أيديهم قبل، يقودهم التاغي(845) وعلى الكرادي، كما انحاز الخلط كيدا

---

(844) نفس المصدر 246 ومع ذلك فإن الأنجليز استمروا في استغلالهم للموقف، وقد كانوا أسسوا لهم ما عرف ب "شركة بلاد البربر" التي سعى في تأسيسها "المستربليك" الذي كانت سفارته للمغرب بتاريخ 13 جمادى الثانية 1047هـ/ 22.9.1637م صحبة جودر راجع تاريخ العلاقات الأنجليزية المغربية.

(845) تقول بعض الروايات إن السلطان الرشيد العلوي هو الذي نقلهم ناحية سجلماسة، كما نقل أخاه قبل محمد بن الشريف أهل أنكاد الذين يعرفون اليوم بأولاد يوسف بوادي أفلي بتافلالت، كذلك قوم التاغي يعرفون في قصر لمعاضيد بتزيمي باسم التغيان، وهم أصلا من معقل ويكونون الفرقة الثالثة في جماعة لمعاضيد إلى جانب لمكابرة والعبادلة ومثلهم فعل السلطان إسماعيل بكثير من القبائل التي بدل مواطنها إذ كانت سياسة الترحيل في عهد الأوائل من العلويين قد أثمرت وحققت ما كان يقصد بها من استقرار "كما سنرى بعد مع قبيلة جروان عام 104 أهـ.

ودسيسة إلى جانب العياشي، في الوقت الذي كان اتصالهم سرا مع الدلائيين بتدبير من الأندلسيين وأهل الرباط.وإذا ما أصبح العياشي في موقف ضعف، وقد أنهكته المعارك المفروضة عليه فإنه اختار أن يلجأ إلى قومه بني مالك وهم الذين سيقتلونه غدرا خصوصا بعدما خاض حربا ضروسا مات فيها فرسه من تحته، وربما أصيب هو نفسه بما يحتاج إلى علاج ورعاية، لكنهم بدلا من ذلك غدروا به وقتلوه في المكان المعروف بعين القصب يوم 9 محرم سنة 1051هـ/ ابريل 1641م، ثم حزوا رأسه وحملوه إلى خصومه الذين هم أهل الرباط، والدلائي محمد الحاج، وبذلك تحولت المدن التي كانت تحت حكم العياشي إلى سلطة الدلائيين ونفوذهم وبدل أن يستمر الدلائيون في طريق الجهاد الذي انقطع له العياشي، ورغم ما أصبحوا عليه من قوة لم يتوفر عليها رحمه الله، فإنهم تركوا ذلك واتجهوا بكل قواهم ضد ما تبقى من قوة السعديين، وما جد حولهم ونتج عن ضعفهم، كأبي حسون السملالي بإليغ ومحمد بن الشريف بسجلماسة.

وهكذا طويت صفحة أكبر مجاهد محتسب للدين وللوطن، لم يضيع زمانه الذي طال أكثر من ثلاثين سنة في غير الدفاع عن الوطن ومطاردة المحتل الأجنبي، والذي لولا جهاد العياشي مع ما عرف المغرب من ضعف وتمزيق على يد أبناء المنصور لأصبح عبارة عن الأندلس التي تمزقت ثم انهارت وتشرد أهلها، لكن الدلائيين مع الأسف لاقوا مصيرا أنكى وأشد عنفا مما لقيه العياشي، وذلك على يد الرشيد بن الشريف كما سنرى بعد، وإذا ما قوي سلطان الدلائيين وتمكنوا من فاس ثم ولوا عليها سنة 1052هـ عاملهم أبو بكر التاملي ثم أحمد ولد محمد الحاج الذي تصادم مع علي بن إدريس الجوطي، ثم أخرجه إلى المخفية، وبعد أخرجه من فاس، بل اتسع نفوذ الدلائيين وتمكن أكثر، خصوصا بعد وقعة بوعقبة التي كشفوا بها ما تبقى للسعديين، فتعرض محمد الشيخ الأصغر إلى ثورات هشتوكة، والشياظمة الذين هزموه عند جبل الحديد، بل انتهى به الحال إلى تهنئته محمد بن الشريف لما بويع من طرف أهل فاس،(846)، وتوفي الشيخ الأصغر ليحل مكانه ولده أحمد الذي وقع تحت رحمة أخواله الشبانات الذين طوعته لهم أمه فقتلوه سنة 1069هـ/ 1658م، لينصب مكانه عبد الكريم الشباني الحرزي وبذلك

(846) النزهة 245.

تعرضت دولة السعديين للإنقراض، وبالطريقة التي تنبأ بها محمد بن الشريف في القصيدة التي وردت في جوابه على رسالة الشيخ الأصغر ومنها قول صنوه الحفيد:

أماالشبانة فاحذرن من غيها لا بد تغدر بالأخير وتخذل

وهكذا انتهت دولة السعديين الأدارسة بعد ملك دام مائة وخمسين عاما والملك لله، وفي الوقت الذي أشرفت فيه دولة السعدين على الزوال بعد زيدان وقبيل نهاية أبي عبد الله العياشي حاول لخضر غيلان أن يسلك نهج صاحبه وسلفه العياشي، لكنه لم يكن في المستوى، ووقتها ظهرت قوة العلويين بسجلماسة بإمرة محمد بن الشريف، في الوقت الذي تمكنت فيه قوة أبي حسون في سوس، والدلائيون في الأطلس المتوسط، لكن القوة التي تمكنت وكانت منها الدولة العلوية هي قوة سجلماسة التي نزلت بالضربة القاضية على الدلائيين رغم انتصارهم وعدم استمرارهم بسبب الثورات المضادة، واتفاق أهل الغرب مع أهل فاس، وسلا، ثم البربر، ضدهم سنة 1061هـ كماسنرى حيث التقوا بوادي الشراط، في المعركة التي انهزم فيها خصوم الدلائيين، ثم أيضا في 1062هـ لكن انتصارات محمد الحاج دفعت به إلى الشطط خصوصا ما فعله بالحياينة، بدسيسة من أهل فاس في نفس السنة، ومثلهم لخضر غيلان الكرفطي، بأهل القصر والفحص سنة1063هـ، والذين قتل منهم كثيرا، فكأنهم بذلك العنف إنما كانوا يهيئون الجو لقيام الدولة العلوية، خصوصا بعد موت أحمد بن محمد الحاج الدلائي سنة 1064، وتولية ولده محمد، ثم موت أحمد العباسي السعدي سنة 1065هـ إلى غير ذلك من الحوادث التي مهدت الطريق للعلويين الذين أصبحوا قوة فعالة في موطنهم تافيلالت بعد صراع بينهم وبين أبي حسون بالسوس، ثم الدلائيين بالأطلس المتوسط، ، ومع الزبيريين الخوارج وأهل تابع صامت في سجلماسة، والانتصارات التي حققها محمد بن الشريف في الناحية الشرقية، عبر توات وفجيج كما سنرى حين تناولنا لتاريخ تأسيس الدولة العلوية الذي هو موضوع الدارسة بعد، وبجانبه طبعا سنتعرف على آل أحمد بن موسى من أشراف تازروالت بإليغ(847)، وكذا على الدلائيين آل محمد بن أبي بكر من المجاطيين(848)

(847) راجع إليغ قديما وحديثا للمرحوم محمد المختار السوسي/ط الملكية بالرباط عام 1966

(848) راجع الزاوية الدلائية للدكتور محمد حجي المشار إليها قبل.

وإلى هنا أودع السعديين تاركا لمن أراد معرفة بعض الجوانب التي تركتها أن يرجع إلى ما كتبه «دييكو طوريس» باسم تاريخ الشرفاء ترجمة د/محمد حجي، ود محمد الأخضر ط/الدار البيضاء 1409هـ/1988م.

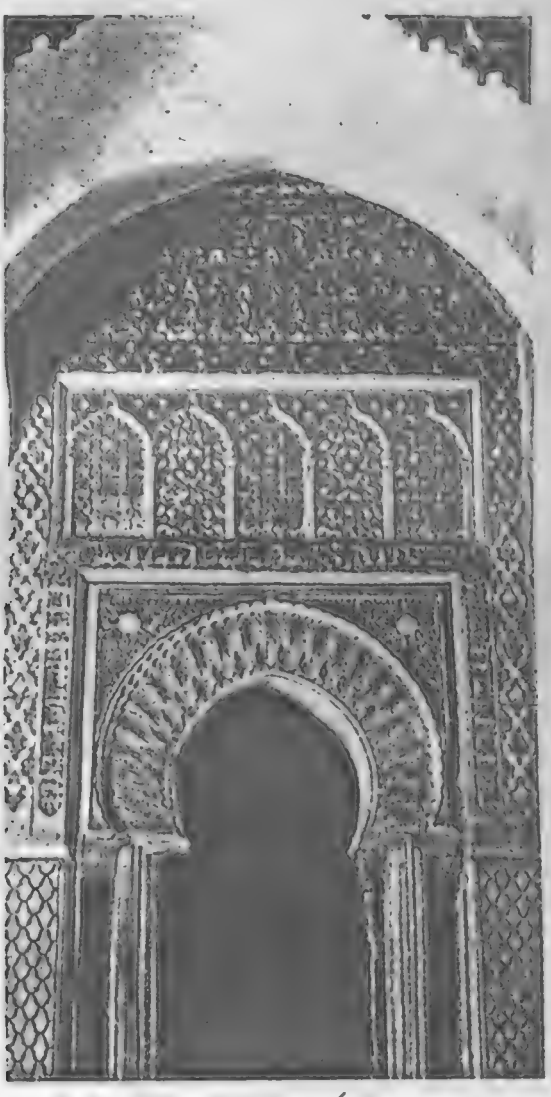

محراب مسجد من آثار الأندلسيين المهاجرين الى المغرب

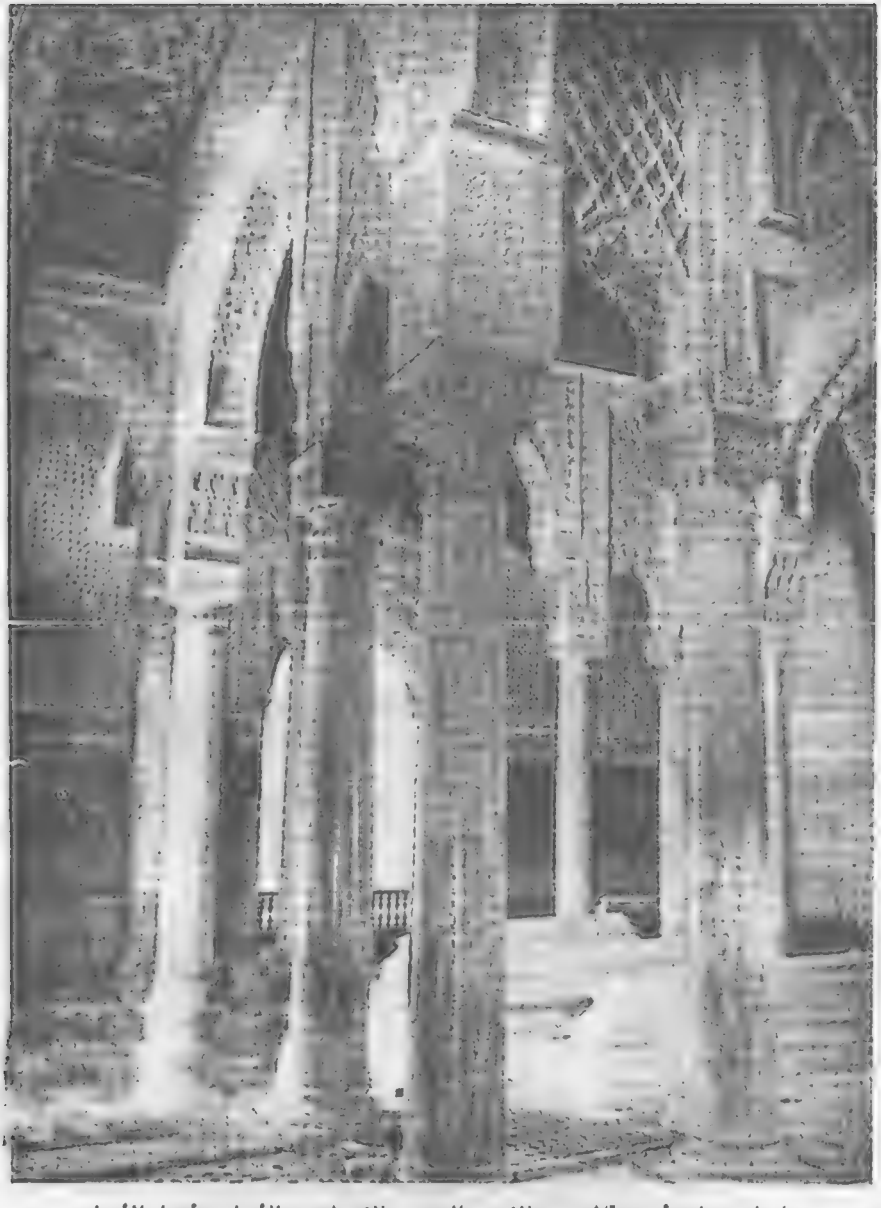

إنها حضارة أحمد "المنصور الذهبي السعدي الذي اهتم بالأموات وأهمل الأحياء

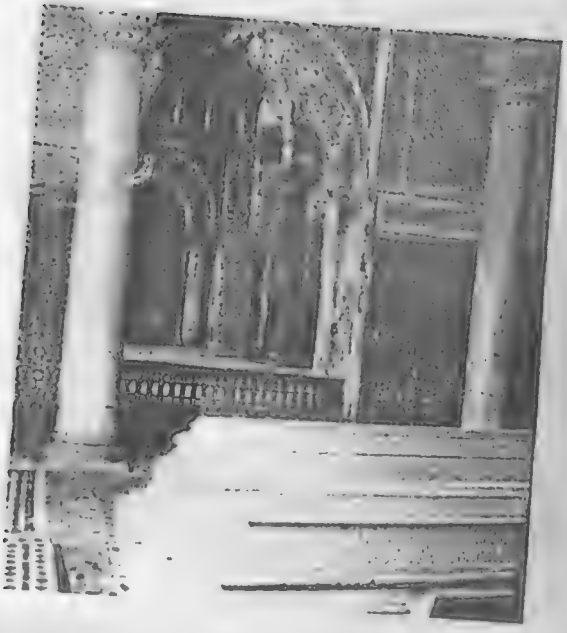

قبور السعديين

قبور السعديين من الخارج

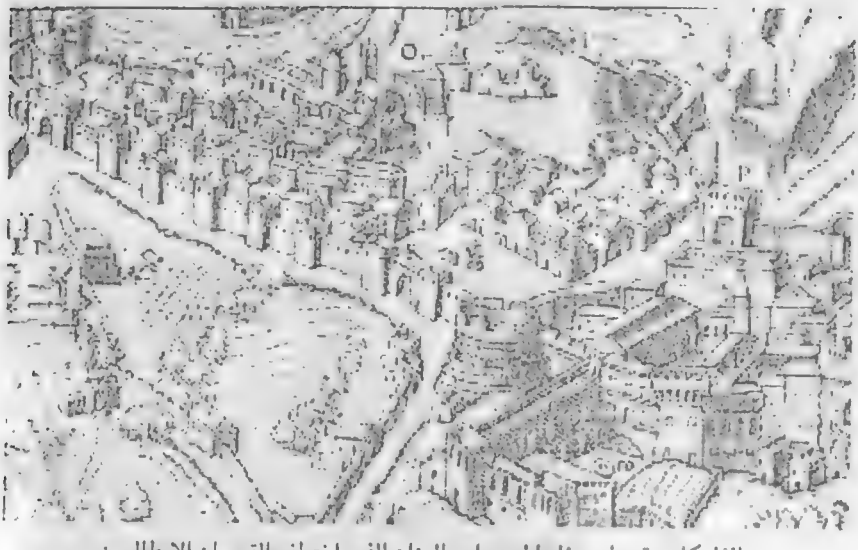

الفاتكان وقت ان دخله الحسن ابن الوزان الذي اختطفه القرصان الإيطاليون

البابا ليون العاشر: هو الذي حكم على لوثر باسم شارلكان في 26 افريل1521 وهو الذي أهدى له القرصان الإيطاليون الحسن الوزاني المغربي الغرناطي المولد الفاسي النشأة والذي وقع في الاسر عام 926هـ/1520م، وهو الذي حرض على التعجيل بالحرب ضد المسلمين في غرناطة، راجع ترجمته في الجزء الاول من وصف إفريقيا ترجمه د. محمد حجي ود. محمد لخضر ط 2 بيروت 1983.

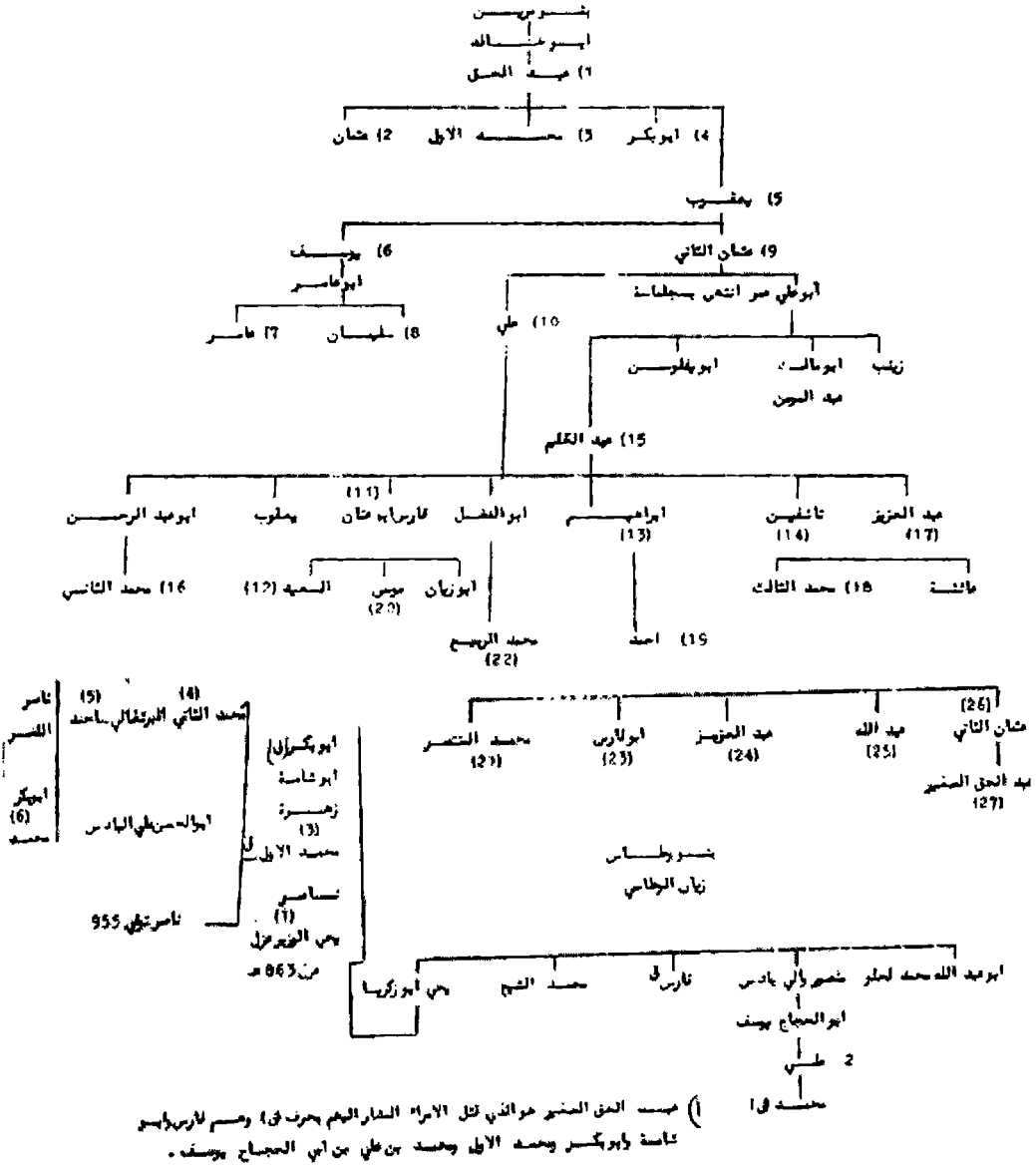

1) عبد الحق الصغير هو الذي قتل الامراء المشار اليهم بحرف (ق) وهم فارس وابو شامة وابو بكر ومحمد الاول ومحمد بن علي بن ابي الحجاج يوسف.

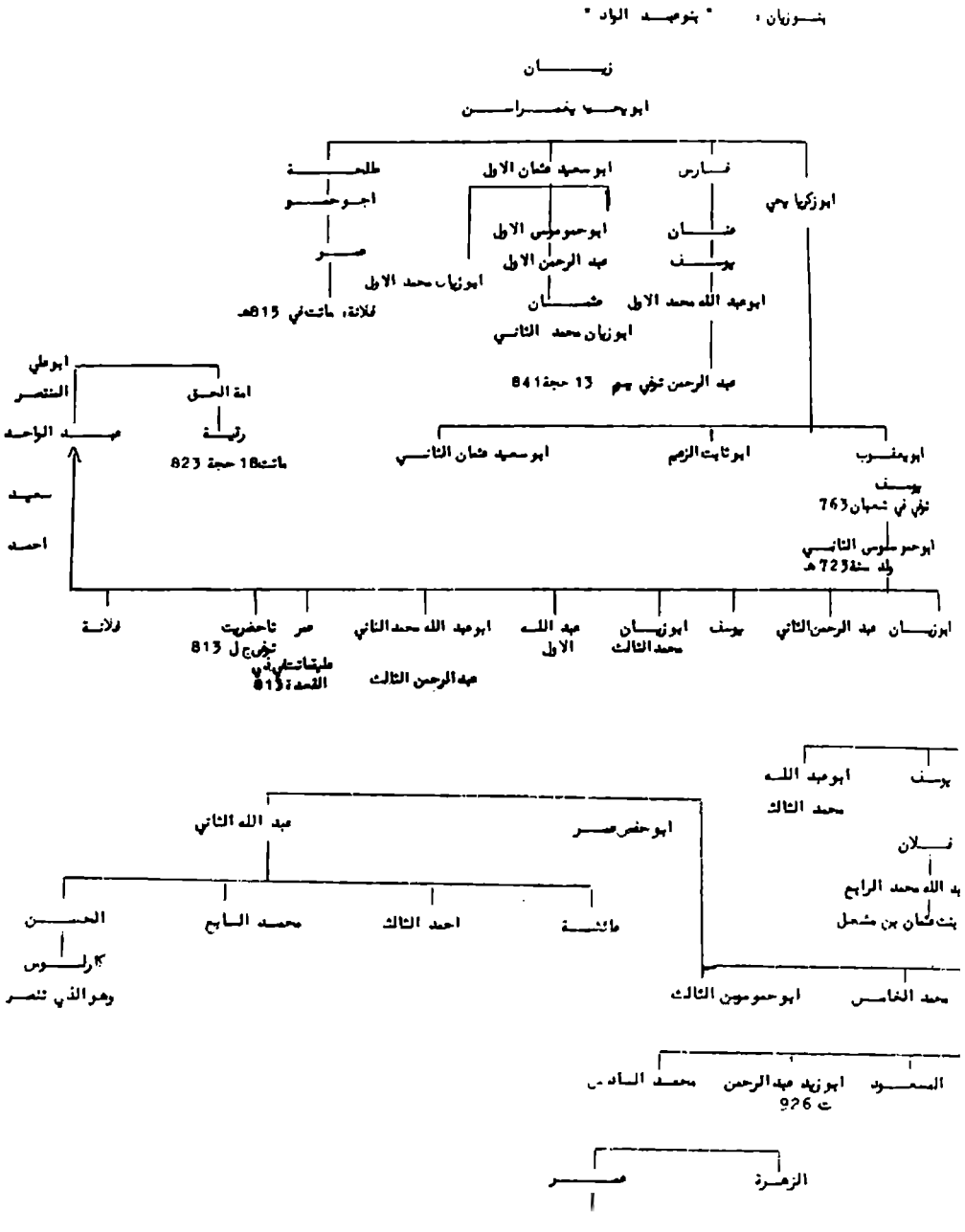
بنو زيان : " بنو عبد الواد "
زيان
ابو يحيى يغمراسن
ابو زكريا يحيى
فارس
ابو سعيد عثمان الاول
طلحة
اجو حمو
عمر
فلانة، ماتت في 815هـ
عثمان
يوسف
ابو عبد الله محمد الاول
ابو حمو موسى الاول
عبد الرحمن الاول
عثمان
ابو زيان محمد الثاني
ابو زيان محمد الاول
عبد الرحمن توفي يوم 13 حجة 841
ابو يعقوب
ابو ثابت الزعيم
ابو سعيد عثمان الثاني
يوسف
توفي في شعبان 763
ابو حمو موسى الثاني
ولد سنة 723 هـ
ابو علي
المنتصر
امة الحق
رقية
ماتت 18 حجة 823
عبد الواحد
سعيد
احمد
ابو زيان
عبد الرحمن الثاني
يوسف
ابو زيان
محمد الثالث
عبد الله
الاول
ابو عبد الله محمد الثاني
عبد الرحمن الثالث
عمر
تاحضريت
توفي ج ل 813
عليها ماتت في ذي
القعدة 813
فلانة
يوسف
ابو عبد الله
محمد الثالث
فلان
عبد الله محمد الرابع
بنت عثمان بن مشعل
ابو حفص عمر
عبد الله الثاني
عائشة
احمد الثالث
محمد السابع
الحسن
كارلوس
وهو الذي تنصر
محمد الخامس
ابو حمو موسى الثالث
المسعود
ابو زيد عبد الرحمن
ت 926
محمد السادس
الزهرة
عمر

ملـــوك الدولـــة السعديـــة

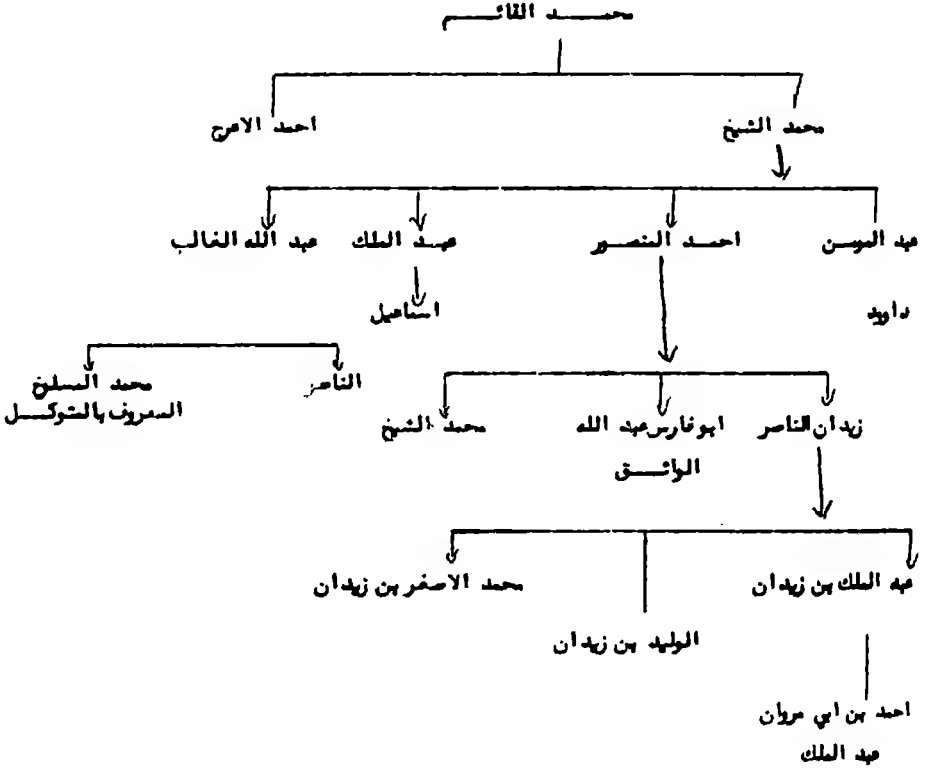

ملوك دولة السعديين

	بويع سنة هـ	م
- أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله بن عبد الرحمن بن علي	916	1510
- أبو العباس أحمد الأعرج " مراكش 935 هـ	923	1517
وقيل 943هـ		
- أبو عبد الله محمد "الأول" المهدي بن محمد القائم		
المعروف	955	1548
بالشيخ ولد 893هـ		
- أبو محمد عبد الله الغالب بن محمد المهدي	964	1556
- أبو مروان عبد الملك " الأول" بن محمد المهدي	984	1576
19 ربيع الثاني		
-أبو العباس أحمد المنصور بن محمد المهدي	986	1578
- أبو عبد الله محمد الثالث الشيخ المامون بن المنصور،		
- أبو فارس عبد الله الواثق بن المنصور ادعى		
الأمر لنفسه لكنه انهزم 1015هـ توفي 1018هـ		
- زيدان الناصر بن المنصور ادعى الأمر لنفسه بفاس.		
- زيدان وحده بلا منافس	1016	1607
إبن أبي محلى أحمد بن عبد الله العباسي		
السجلماسي 1019-1022هـ		
أحمد بن زيدان الدعى 1037.		

– أبو مروان عبد الملك "الثاني" بن زيدان	1039	1629
– الوليد بن زيدان.	1044	1634
– محمد الرابع الأصغر بن زيدان	1045	1635
– أحمد الثاني بن أبي مروان عبد الملك ت 1064	1046	1636

ولاة السعديين في السودان

	هـ	م
– جوذر	998	1589
– محمود بن علي زركون قبض على سلطان التكرور محمد كاغ	999	1590
– محمود بن عبد الرحمن	1003	1594
– محمود طايع	1006	1597
– عمار الفتى	1007	1598
– سليمان	1008	1599
– محمود لنك	1012	1603
– علي بن عبد الله التلمساني قتله ما هي التركي صبرا، ثم دفن بالإصطبل بدون غسل ولا صلاة	1020	1611

ـ أحمد بن يوسف العلجي	1026	1617
– حدو بن يوسف اليزناسني ت أخر المحرم 1029	1027	1617
– محمد بن أحمد الماسي، قتل ليلة الجمعة 16 ربيع النبوي	1028	1618
– يوسف بن عمر القصري	1031	1621
– ابراهيم بن عبد الكريم الجراري	1036	1626
– علي بن عبد القادر	1037	1627
– علي بن المبارك الماسي لمدة 3 أشهر انتقل إلى تنديرم، ثم إلى بلدة شب، ولم يعد إلى المغرب	1041	1631
– سعود بن أحمد عجرود الشرقي يوم الأربعاء 2 ربيع الثاني (تاريخ تمبكتو لعمراقيت م خ نا 493)	1042	1632
– عبد الرحمن بن أحمد بن سعدون	1043	1633
– سعيد بن علي المحمودي	1044	1634
– مسعود بن منصور الزعري	1046	1636
– محمد بن محمد بن عثمان	1052	1642
– أحمد بن علي التلمساني	1056	1646

- حميد بن عبد الرحمن الحيوني 1057 1647

- يحيى بن محمد الغرناطي 1058 1649

- حدو بن حدو اليزناسني 1061 1650

- محمد بن موسى 1064 1653

- محمد بن ق أحمد بن سعدون الشياظمي(849) 1065 1654

(849) هذا، وقد أستمر حكم المغاربة للسودان إلى ما بعد سنة 1161 هـ/ 1748م، بعدما تعاقب على الحكم نحو اثنين وثمانين من الولاة، منهم من تكرر حكمه مرات متعددة، وبلغوا في مجموعهم 154، راجع تاريخ تمبكتو لأحمد أقيت مخطوط خ نا 493، والأسر الحاكمة لزامباور 1/132-136 ط ج فؤاد 1951، وما وضع الحد لعلاقة السودان بالمغرب إلا حرب الوارثة وما حصل بعد موت المولى إسماعيل وانشغال جيش البخاري بالفتن كما سنرى بعد.

الفصل الخامس عشر بعد المائة

العلويون بالمغرب

أصول وفروع

الأشراف العلويون هم أبناء عمومة الأدارسة، يلتقون معهم في عبد الله الكامل بن الحسن المثني، الذي يفصله عن الحسن الداخل، من الآباء سبعة عشر أبا، والعلويون لم يكونوا يعرفون قبل تأسيسهم الملك بهذا الإسم وإنما عرفوا بالحسنيين، نسبة إلى الحسن السبط ابن علي وفاطمة الزهراء رضي الله عنهم، ولعلهم في العلوية اقتدوا بالأدارسة الذين ينتسبون لإدريس بن عبد الله الكامل، كذلك هم تميزوا بالانتساب لعلي الشريف السجلماسي(1) الذي كان له شأن عظيم في تاريخ المغرب والأندلس كما سنرى، كما عرفوا بعد عند المؤرخين بالفيلاليين، والسجلماسيين نسبة إلى الموطن كذلك.

وأصل العلويين بالمغرب من ينبوع النخل بأرض الحجاز، من جبل رضوى، بل ومن قرية تعرف ببني إبراهيم،(2) وأول من قدم منهم المغرب هو الحسن بن قاسم بن محمد، المعروف بالداخل سنة 664 هـ/ 1265م استقدمه ركب الحجيج الذي كان على رأسه أبو إبراهيم العمري(3) ومناع المعقلي(4)، ولعل سبب استقدامه رغم ما ينسج حوله من قصص وما قيل في حقه من أقوال جلها مما لا يقبله العقل بسهولة، وهي في نظرنا بعيدة عن مجرى الحوادث الدافعة وقتهالاستقدام شخصية في مستوى الحسن بن قاسم ومكانته، ثم مكانة والده بين قومه وفي وسط أهله، وما كان له من عز وجاه لا يسمحان

---

(1) أو بالانتساب إلى الحسن الداخل بحكم القرب وهذا أضعف.

(2) وهي رواية أبي القاسم الزياني عن المولى محمد بن عبد الله؟ البستان ص : 4 م خ ع.

(3) هو جد الشرقاويين أهل أبي الجعد، ودفين سجلماسة حيث يعرف قصر خلفه حتى اليوم باسمه أولاد أبى ابراهيم.

(4) نسبة إلى جيل بشرق المغرب وغرب الجزائر، حيث يعرف قبيله بذوي المنيع.

لمن هو كذلك أن يهاجر إلى بلد بعيد كالمغرب، مالم يكن له وللذين أقنعوه بذلك هدف أكبر وغرض يؤدي إلى أحسن مما هو عليه أو إلى تحقيق أمل تتعلق به الأسرة من بعيد.

لقد عرف عن الحسن بن قاسم أنه كان من رجال العلم، وأنه من الذين ركزوا علم البيان في سجلماسة، حتى كان من نتائج ذلك التركيز أمثال أبي محمد القاسم صاحب "المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع" والمتوفى سنة 704 هـ/1304م، بل والذي قيل إن هذا الفرع من علم البلاغة لم يكن معروفا بسجلماسة، وبالتالي في المغرب قبل قدومه إليها، ولقد ذهب بعض المؤرخين الذين طبعوا كلام كل من أتى بعدهم إلى القول بأنه استقدم من طرف السجلماسيين تبركا بنسبه في زمن انتهى فيه نخيلهم إلى ضعف وأفواههم إلى مرض حتى يكون بفضل نسبه بركة عليهم وعلى نخيلهم وشفاء لأفواههم إلى آخر ما قيل من خرافة.

ومهما يكن فمن خلال حوادث التاريخ نتبين : هل استقدم من أجل ذلك أو هل كانت ثمت أسباب أخرى كخلاف عائلي أو أسباب اجتماعية كطلب للرزق دفعت به إلى مثل تلك الهجرة البعيدة أو أسباب سياسية تعرف من واقع المغرب وسجلماسة وأهلها كل هذه الاستفهامات لم يكن من استنتاجها التاريخي ما يدفع إلى القول بها أو ترجيح ما يقرب منها في كل ماتناوله المؤرخون حول استقدام الحسن بن قاسم، ومن ثمت وجب أن نعود إلى ظروف وأحوال البلد الذي حل به الحسن بن قاسم العزيز في قومه، والميسور والده بين أهله، نعود إلى سجلماسة وما كانت عليه وقتها اجتماعيا وسياسيا وما عرفت به وقتها من صراع يدفع القادرين على إبداء الرأي بين ذويها إلى اقتراح استقدام مثل الحسن الداخل والمجيء به من موطن الأشراف، لقد قيل تبركا بآل البيت(5) –وهذا زعم لأن سجلماسة كانت تحتوي على الأدارسة الحسنيين ثم العلويين نسبة إلى علي بن أبي طالب، وكما أشرنا– وقيل إن نخيل سجلماسة لم يعد يثمر ويحتاج إلى "ذكار" ببركة آل البيت؟ فهل القادم سيبدل المناخ أو له خبرة زراعية لم تكن موجودة في البلد... كل ما قيل تظهر فيه آثار صنعة الكلام والوضع والافتعال الذي كان وقتها من وحي آثار

(5) الأنوار الحسنية لأحمد بن عبد العزيز الذي حققناه ص : 27 ط : 1966م وموطن هؤلاء الاشراف معروف بالينبوع يمر عليه ركب الحجيج المغاربة باستمرار، راجع الرحلة العياشية جـ 1/ط دار المغرب الرباط 1977.

"التشوف إلى رجال التصوف" لذلك اخترنا أن نعالج الموضوع من وجهة نظرنا وما توحي به الأسباب والدوافع لأهل سجلماسة وقتها، حتى يقدموا على استقدام رجل في الستين من عمره يرجع إلى أسرة لها طموحات قديمة ثم هي تعرضت لحروب طويلة ومتعددة حتى يقضى على طموح أفرادها وتطلعاتهم التي فقدت النصير في المشرق، ناهيك وأن غيرها من الذين طعن في نسبهم مثل العبيديين (الفاطميين) الذين وجدوا مجالا في المغرب، وانتهى بهم المطاف إلى اتخاذ مصر القاهرة عاصمة لهم، ولم يعد لهم أثر في المغرب الذي أو شكت فيه دولة الموحدين البربرية على الزوال، ويحاول بنو مرين من زناتة الذي هم في صراع مع بني عبد الواد على سجلماسة، الاستيلاء على الدولة وتأسيس الملك، وفي هذه المرحلة كان المشرق قد عرف سقوط الدولة العباسية في بغداد.

وسجلماسة(6) التي أصبحت تعرف كذلك بـ "تافيلالت"(7) كانت هي أم القرى في الجنوب المغربي والدول التي تعاقبت عليه منذ أقدم عصور التاريخ، حيث عرفت كقبائل استوطنها العمالقة قبل عهد "يوبا" وكمدينة إسلامية تأسست على عهد بني مدرار140هـ/746م بل عرفت سجلماسة كأغنى مدينة في المغرب بثرائها الذي انتقلت آثاره إلى الأندلس التي تعامل أهلها بدنانير سجلماسة العشرية،(8) بل عرفت بما كانت تستورد من تبر السودان بمآت القناطر كما سبق، وبعلمائها ورجالاتها،وجمال الطبيعة والبشر فيها قبل أن تتبدل ويهجو أهلها أبو علي اليوسي(9).

كانت سجلماسة إحدى الطرق الواصلة بين المغرب والسودان وما جاورها من

(6) راجع المادة في دائرة المعارف الإسلامية 298/11 ـ 302 وابن عذاري 344/2 بل راجع المصادر الوارد ذكرها في موضوع بني مدرار سابقا من هذاالكتاب.

(7) نفس الدائرة جـ 521/4.

(8)استعملت في عهد السعيد بن الرشيد الموحدي يقول ابن عذاري 344/2.

(9) يظهر من القصيدة التي هجى بها الذي قال عنه السجلماسي "ولعله عبد الملك التاجموعتي الذي كان له معه موضوع خاص م خ نا رقم 138 ثم راجع الجيش العرمرم لاكنوس م خ نا رقم 110 ص 74 ولعل من يريد التعرف على سجلماسة أن يراجع مصادر التاريخ الإسلامي عموما فقد ذكرها البكري وابن سعيد وابن حوقل واليعقوبي وابن أبي زرع وابن خلدون وغيرهم كثير، كالشريشي والمقري الجد والقيسي وابن الخطيب وعاملها زمن محمد بن عبد الله أبو القاسم الزياني كما وردت بكثرة في شعر أبنائها الذين آلت إليهم رآسة علماء المغرب، سواء بفاس أو غيرها، أمثال ابن المبارك العنبري واحمد بن عبد العزيز الهلالي وابراهيم الصنهاجي الهلالي صاحب الفتاوي وأحمد الحبيب اللمطي وعبد الرحمن بن حبيب وغيرهم.

أقطار وعواصم، من تمبكتو إلى غانة وبلاد التكرور وشمال النيجر، كما كانت عنوان النعمة والقوة والسلطان، وقد رأينا أنها ماساندت دولة من الدول التي قامت بالمغرب إلا وانتصرت بالقوة والسلطان، وما تراجعت عنها وصدت إلا تعرضت للمتاعب، ولقد عرفت سجلماسة كذلك بحضارتها، ومختلف صناعاتها، ومعارف أهلها وجامعتها، ورجال الفكر فيها، كما عرفت بقصورها، ومساجدها، ومدارس العلم المتعددة فيها، منذ عهد بني مدرار إلى عهد بني مرين 592 ـ614 هـ/ 1195ـ1217م، وهو العهد الذي بدأت تضعف فيه سجلماسة بسبب كثرة الحروب، وما سلط عليها من نقمة ضمن بلاد المغرب بسبب الانتقام من الذين قتلوا عبد الحق بن محيو مؤسس الدولة المرينية، بل ومن الذين قتلوا عاملها من قبل بني مرين بعد، وهم المنبات من بني منصور، الذين صارعوا كثيرا في التاريخ السياسي لسجلماسة كما يخبر السرخسي في رحلته لما مر لمراكش ونزل بها ضيفا على سليمان بن عبد المؤمن وقت بيعة محمد الناصر، ومثله أبو عبد الله محمد القسطلاني الذي دخل على نفس الأمير بسجلماسة، وبين يديه إقطاع عليها رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق بين سجلماسة وغانة من أرض السودان.

كانت سجلماسة تابعة لبني عبد الواد بتلمسان في أول عهد بني مرين ونهاية الموحدين، إذ استولى عليها أبو بكر بن عبد الحق المريني سنة 655هـ/1257م وذلك في الوقت الذي كان أخوه يعقوب محاصرا لمراكش ضد أبي دبوس وعمر المرتضى، وإذا كان بنو عبد الواد قد استولوا عليها بعد الحرب التي خاضها أبو يحيى يغمراسن الذي ناصره بعض سكانها من المنبات سنة 648 هـ/1250م ضد استبداد ولاة الموحدين بالمكان المعروف تاحسنونت، والتي هي عند الزياني في الترجمان المعرب(10) "تاحسنانت" فإن تصرفات بني عبد الواد الاستبدادية دفعت أهل سجلماسة إلى الانقلاب ضدهم فأعطوا ظهرهم نحو بني مرين الذين تمكنوا منها نهائيا بعد كما سنرى، عندما لاتجدى فكرة استيراد الحسن بن قاسم، وتتعرض سجلماسة بسببه إلى نيران مدافع المرينيين بعد.

لقد كان لسجلماسة في كل العصور التي ظهرت فيها الدول المتعاقبة على المغرب، دورها الواضح في قيام تلك الدول وسقوطها، وبذلك استهدفت للقصف بالمدافع سنة

(10) مخطوط خ نا ص 308.

672هـ/1273 يقول صاحب الذخيرة السنية ص 158، وذلك وقت ظهور استعمالها من قبل أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني 656 ـ 685هـ/ 1258 ـ 1286م، بل ولأعظم كارثة هي طمس عين الحياة فيها بعد على يد أبي الحسن الذي كان في حرب مع ولده أبي عنان، تلك العين المعروفة اليوم بـ «عين تيمدرين» والتي غورها بحفر الآبار حولها، ثم طمسها بالرصاص والقطران والصوف والرمال، وبذلك تحول ما حولها من تجويف إلى شبه بحيرة أصبحت معروفة في الخريطة الجيولوجية (للمياه) الجوفية في المنطقة وأصبح ما يخرج من مائها كأنه حامض الكبريت، بل لاتزال تلك المياه كلما وجدت منحدرا اندفعت في قوة تحدث دويا اعتاد أهل قصر المعاضيد سماعه وتحسسه في التجاويف المعروفة جوفا مقابل مزارعهم حتى اليوم، وتلك جريمة لا يغفرها التاريخ لأبي الحسن المريني واسطة عقد بني مرين، لكن ما هي الدوافع التي جعلته يقدم على مثل ذلك العمل الفظيع، الذي غير وجه الحياة بعد في ذلك الاقليم الذي كان يرفل في النعم الناتجة عن ازدهار الفلاحة التي كان من جملتها الأرز الذي لا ينتج إلا في كثرة المياه، بل إن الانتاج الفلاحي لسجلماسة أخذ الحديث عنه حيزا مهما من كلام المؤرخين عن هذه المدينة كالبكري وابن حوقل وابن سعيد وابن عبد المنعم والحميري في الروض المعطار.

لقد كانت سجلماسة بحكم ثراء أهلها وكثرة علمائها وحيوية مجتمعها، مكان صراع سياسي يحتد كلما ظهرت دولة أو أخذت أخرى في طريق الزوال، وكمثال لذلك دولة الموحدين المصامدة التي كان رجال سجلماسة يمثلون في تنظيمها السياسي والعسكري جانبا مهما يدفع بهم إلى مقاومة سقوطها وزوال سلطانها، عندما آل أمرها إلى التدهور وبدأت دولة بني مرين بالظهور في المغرب الأوسط ثم دخلت المغرب عن طريق گرسيف الذي يعتبر الناحية الشرقية لسوق سجلماسة، التي كانت تعتمد تلمسان في ترويج صناعاتها الرقيقة، خصوصا المنسوجات الصوفية والحريرية التي كانت تصدر إليها في جعاب القصب بالمآت كما يقول ياقوت الحموي وغيره، وعن طريق سجلماسة تمكنت هذه الصناعة في فجيج وما حوله من قصور.

كان أول من بادر لمقاومة المرينيين من زناتة في الجنوب أهل سجلماسة خصوصا منهم عرب سليم، وهلال ومعقل ورياح وصباح والمنبات من ذوي منصور، يساندهم من

البربر مغراوة، ومكناسة، فكان على دولة زناتة الجديدة أن تعمل على كسر شوكتهم عندما اشتد صراعها مع بني عبد الواد، خصوصا وأنهم أظهوا معارضتهم الشديدة ومقاومتهم العنيفة زمنا غير قصير ضد الطرفين، وأخيرا وبعدما أثقلتهم الحروب وتمكن بنو مرين من حكم مدينتهم والذين بعدما أزاحوا حكم بني عبد الواد الذين كانوا قد نصبوا عليها عاملا من قبلهم هو يحيى بن زيان سنة 660هـ/ 1262م عادوا إلى الثورة من جديد فقتلوا العامل سنة 662هـ/1263م، قتله عرب المنبات من ذوي منصور يقول أبو القاسم الزياني(11) والذين فضلوا العودة إلى الأضعف الذين هم بنو عبد الواد، فآثروا بها يغمراسن وحملوا أهلها على القيام بدعوته ثم وجهوا له، فقدم عليهم وضبط البلد ورتب حاميتها، وأنزل بها ولده يحيى وابن أخته عبد الملك بن حنينة، وابن عمه يغمراسن بن حمامة، وحاشيتهم من بني عبدالواد، وأقام بها يحيى إلى أن هلك وتولى عليها عبد الملك بن حنينة، وفي هذه المرحلة اشتغل يعقوب بأمر مراكش(12).

ولما كان بنو عبد الواد بحكم ظروفهم وصراعاتهم مع أبناء عمومتهم لم يتمكنوا من تحقيق آمال الفيلاليين، فكر هؤلاء في تكوين دولة مستقلة عن الجانبين بني مرين، وبني عبد الواد، وإذا كانت القبائل المتساكنة في المدينة، والقبائل البربرية المحيطة، كل منها يكون قوة لا تقبل تفوق الأخرى، والخضوع لسلطانها، فإن قيادتهم جميعا وبلا شك قد اتفقت على أنها في حاجة إلى رمز يجمع الشمل ويوحد الصفوف من أجل تحقيق الفكرة

---

(11) راجع الترجمان ص326 م.خ.ع 658د.

(12) نفس المصدر وممن تولوا حكم سجلماسة أيام الموحدين عبد الله الناصر محمد بن أبي يعقوب المنصور وأيام ولده يوسف المستنصر تولى أبو الربيع سليمان بن أبي حفص عمر بن عبد المومن الموحدي، سنة 612هـ، ثم أبو محمد عبد العزيز بن يوسف بن عبد المومن من 613 هـ إلى سنة 618 هـ راجع المعجب للمراكشي ص: 328 ـ 329 بل وفي عهد الموحدين زمن السعيد 640 ـ 646هـ /1242 ـ 1248. كان خازن المال بها هو اليهودي ابن شلوخة ذلك أنه كان لليهود بها صولة بسبب كثرتهم واستعمال الدولة لهم في صناعات الذهب الذي كانت قناطر التبر منه ترد على سجماسة، ومن يهود سجلماسة أيضا حبر مراكش صامويل الفاسي، الذي تحول إلى المسيحية في عهد المرابطين، وله كتاب يدل على معرفته بالقرآن والتوراة ترجم لأول مرة من العربية إلى اللاتينية عام1339م بباريز بقلم الدومينيكان الموسوعة ملحق 1 ص121. ومنهم أيضا أبي حصيرة البعصامي نسبة إلى قصر تابع صامت وهو دفين طنطا من القطر المصري، ولليهود بتافيلالت مقبرة تضم رفات كبار ربييهم وقد عاشوا في أمن وسلام إلى أن توجه أعقابهم إلى فلسطين بعد تأسيس اسرائيل، وذلك حين أعلن استقلال المغرب 1956م وكلهم حتى اليوم يحملون الجنسية الاسرائيلية المغربية؟؟.

التي استقرت في عقول العامة بعد ما اتفق عليها العلماء والأعيان وكبار القوم، وأخيرا انتهوا إلى رأي يحول دون تطاحن ذوي الطموح فيهم، وهو تكليف ركب الحجيج الذي كانت قيادته عادة تتكون من الكبار القادرين على الحماية في الطريق الطويل، أن يستمدوها من أرض الحجاز التي تعتبر موطن آل البيت، ومكان تعلق الجميع بلا خلاف، وكان شيخ الركب لسنة 663 هـ/1264م هو الشيخ الوقور أبو ابراهيم العمري(13) ومعه مناع المعقلي على رأس مآت من الحجاج كعادة السجلماسيين في السنوات الخالية من الحرب، لقد كان الركب عادة يتصل بسكان ينبوع النخيل من أرض الحجاز، وكانت قيادته تعرف مكان الصدارة بين الأشراف منهم، وبلا شك كان قاسم بن محمد بن أبي القاسم في طليعة القوم بل "أكبر شرفاء أهل الحجاز في وقته شهرة وديانة يقول اليفراني في الروضة ص15" خصوصا وأن من يستقبل مآت الحجيج ولو كضيوف لوجبة واحدة، لاشك يكون أعلى وأكبر ما بين الجميع، وإذا صحت رواية الأولاد الثمانية ومن بينهم الحسن بن قاسم الذي كان في الستين من عمره، وبذلك يكون الأكبر اللائق لتحقيق الرجاء المشترك بين الفلاليين ليحققوا استقلالهم، وبين الشريف الحسني المحروم من حق آبائه الشرعي في "الخلافة" من جانب آخر، خصوصا أهل جبل رضوى الذين يحتفظون بذكرى الأسباب التي جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يقطع لابن عمه وصهره علي بن أبي طالب ما أقطعه من تلك الأرض التي فتحت يوم خيبر، والتي اعتبرها خير مكان يليق باستقرار خلفه الذين كان من أحفادهم قاسم، بن محمد، بن أبي القاسم، بن محمد، بن الحسن، بن عبد الله، بن أبي محمد، بن عرفة، بن علي، بن قاسم، بن محمد النفس الزكية، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي، عليه السلام وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، وإذا كان قاسم وابنه قد عرفا بالعلم،

(13) يقول حفيده المتوفى عام 903 هـ ورفيق علي الشريف في جهاده بالأندلس، وذلك في مناقبه أن ورود أسرة العمريين على المغرب كان في أول الدولة المرينية، وقدوم المرينيين على المغرب كان سنة 610هـ راجع م خ ع1574 ك ص : 24 وهذا يرد به شك الزياني الذي أورده في البستان ص 4 م خ نا،بلفظه "يقال إنه عمري"وذلك في حق أبي ابراهيم، وعند ابن الحاج في كتابه الذي قرر أن القدوم كان سنة 664هـ هو عبد الله بن علي بن طاهر كما نص على أنه الذي في الدر السني للقادري، وعند المقري في كنوز الأسرار، أن الحسن الداخل قدم في عهد عبد الواحد بن إدريس الموحدي، وعبد الواحد هذا كانت بيعته 629هـ وتوفي عام 640 هـ وما عهدنا في القادري أن يقع في هذا الذي أوقعه فيه المقري كما أوقع غيره حتى انتهى الأمر إلى الشك في توثيق المقري.

فإنهما خير من يقدر الأسباب والدوافع لطلب مشيخة الركب الذي كانت تظهر على حاله علامة الثراء الناتج عن التبر المستورد، والتجارة الرائجة بسجلماسة، خصوصا وأن العبيديين الفاطميين كما سبق لم يتمكنوا إلا بما وضعته سجلماسة بين أيديهم من مال وقبيلة كتامة من رجال، وإذا كانت المفاوضة بين مشيخة الركب وقاسم بن محمد وولده الحسن قد أثمرت، فإن القوم عادوا إلى سجلماسة وفي وسطهم شريف حسني لم يعرف أحد غير المسؤولين سر استقدامه، ودخل سجلماسة الموحدية عام 664هـ/1265م وهي لا تزال مهددة بحكم بني عبد الواد، زمن يغمراسن بن زيان 603 ـ 681هـ/1206 ـ1283م المستهدفين لحملات يعقوب بن عبد الحق المريني 607 ـ 685 هـ/ 1210 ـ 1286م الذي فتحها بعد عام 673هـ.

على أن ابن الحاج أورد رواية المقري أحمد بن محمد بن عبد الله الكلبي، في كتابه زهرة الأخبار في كنز الأسرار، "خ. ع 2171" أن الحسن استقدم في عهد عبد الواحد بن ادريس المامون الموحدي، وعبد الواحد هذا كما سبق كانت بيعته 629هـ ووفاته 640هـ، ومعنى هذا يكون المستقدم قبل التاريخ المذكور بنحو ثلاثين سنة، وما قال به عبد الله بن علي بن طاهر هو المعمول به في نظرنا كما أشرنا. وهنا بلا شك ظهرت حكمة وكفاءة الحسن بن قاسم الذي وجد الصراع على أشده بين الطرفين المتنازعين على سجلماسة والسجلماسيين، ورغم التفافهم حوله فإنه وهو المستجد لم يغامر بخوض الحرب التي عزموا عليها ضد بني عبد الواد، لأنهم إن فعلوا فإن قوة بني مرين لهم بالمرصاد، بل ترك الحرب وقد اشتعلت بين الطرفين موحدين ومرينيين دون أن يتدخل السجلماسيون، ذلك أن يعقوب ما كاد يستتب له الأمر في الشمال حتى هاجم سجلماسة التي كان عاملها من قبل بني عبد الواد هو عبد الملك بن محمد المعروف بابن حنينة نسبة إلى أمه أخت يغمراسن بن زيان، وذلك سنة 667 هـ/ 1268م حيث هاجمها يعقوب هذه المرة هجوما عنيفا بالنفط القاذف بالبارود وحصى الحديد حتى حطم جانبا من سورها المواجه لبطحاء أولاد حسين، وهذا أول عهد المغرب باستعمال البارود كما دون التاريخ، وقتل عبد الملك، ويغمراسن بن حمامة، وأشياخ المنبات من بني منصور، لكنه لم يتعرض للحسن الداخل ومن حوله من الأصهار والأنصار كأسرة أبي ابراهيم وأولاد البكري وأولاد

المتراري وأولاد بن عاقلة وأولاد المعتصمي، أما الأصهار الذين تزوج منهم الحسن بن قاسم وقت دخوله سجلماسة فهم أولاد المترارى بالتاء نسبة إلى قبيلة مترارة(14).

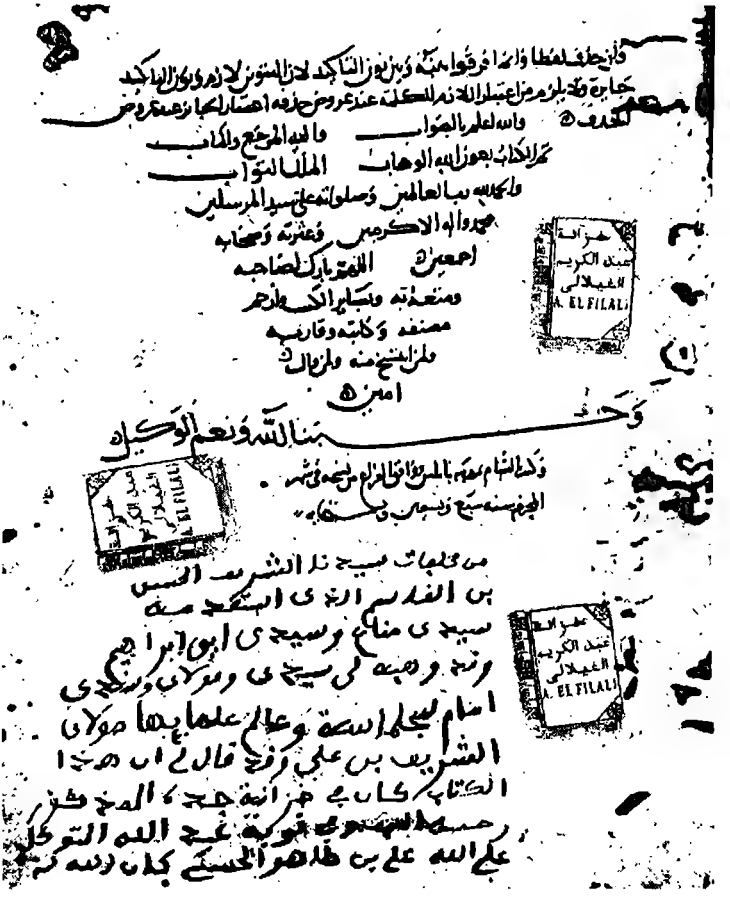

الكافية لابن الحاجب وشرحها من مخلفات الحسن ابن قاسم الداخل مؤسس الأسرة العلوية بالمغرب. وقد كتبت بنابلس الشام سنة 697هـ/1297م.

(14) كتبت خطأ المنزاري النون والزاي، الأنوار الحسنية ص 27 وورد في رسالة من السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى ولده الرشيد بتافيلالت بتاريخ ذي القعدة 1283هـ اسم الهاشمي الامزاري، ولعله يعني النسبة إلى ما قيل "أم إزار" أي صاحبة المئزر؟ راجع المعسول 351/16 ولفظة أم إزار شائعة في تافيلالت على ألسنة العامة خطأ. لم نرد مناقشة وتحليل زواج أو عدم زواج الحسن بن قاسم قبل، وقد بلغ الستين وهو ابن بيت عريق مما لا يتفق عادة وطبعا مع التقاليد أو هو تزوج ولم ينجب من موطنه الأصلي فهذا موضوع لا علاقة له بموضوعنا السياسي ولا يحتاج إلى شرح وتعليق.

الفصل السادس عشر بعد المائة
من الحسن الداخل إلى علي الشريف

وهكذا إذا لم تحقق رغبة أهل سجلماسة في إقامة إمارة، فقد تحققت للحسن الداخل إمارة أخرى هي في نظر التاريخ أعظم من التي استقدم من أجلها، تلكم هي إمارة العلم التي لم ينازعه فيها أحد، بل والتي جلبت له من الاحترام والتقدير ما فرض على الحكام أنفسهم طيلة الإثنى عشر عاما التي قضاها الحسن الداخل بين السجلماسيين قبل أن يتوفى سنة 676 هـ/1277 ويترك بينهم الولد الوحيد الذي أنتجه من بنت المترارى وهو محمد بن الحسن الذي كان في سن الحادية عشر من العمر(15)، والذي أحيط بالحب والرعاية والحدب والتقدير من العموم، ومن أسرتي العمري أبو ابراهيم، والمترارين بالأخص حتى إنه ما كاد يشب حتى زوج وأنجب ولدا سماه الحسن، وأنجب الحسن ولدين هما عبد الرحمن أبو البركات،(16) وهو الأكبر والثاني علي المعروف بالشريف، وهو الذي أفاد من مكانة جده وأبيه وزاد عليهما بالثروة الطائلة والجاه العريض، مما عرضه لمضايقة صنائع بني مرين وولاتهم بسجلماسة التي لم يتجه أهلها قط لهم بولائهم، والذين كان الولاة يعتقدون فيهم الثورة ما دام علي الشريف بينهم يحتل المكان المرموق الذي وضع لبناته الحسن الداخل وشيد بنيانه كل من ولده محمد وحفيده الحسن والد علي الشريف، وذلك وسط صراع استمر طيلة عهد بني مرين والذين أسندوا

(15) هناك رواية تقول إنه ولد بعد موت والده وهي غير صحيحة يقول ابن المامون البلغيثي في شجرته م خ نا.

(16) حفدته يوجدون بالقصر الجديد بالرتب أوفوس تافيلالت وببني زروال وزرهون راجع الأنوار الحسنية ص28، وشجرة محمد بن المامون التي وضعها زمن السلطان المولى الحسن م خ نا، والحسن الحفيد هو دفين لقواس بجانب روضة محمد الجزار الذي قال عنه صاحب النزهة : الخراز ص : 292 راجع الأنوار 28 والبستان للزياني ص:4.

ولاية سجلماسة في هذا العهد لولاة متعددين(17) منهم أبو علي عمر(18) بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق الذي كون فيها دولة بالقوة كانت تجبى إليها ثمرات المنطقة إلى حدود السودان، وذلك سنة 714هـ/1314م إلا أن أسرة الحسنيين في هذا العهد وقد تركزت السلطة في سجلماسة التي عرفت الاستقرار استطاعت وقد أقر لها الجميع بسمو المكانة أن تتفرغ للحصول على الثروة التي حققت منها درجة عالية في عهد علي الشريف، بن الحسن، بن محمد، بن الحسن، الداخل، مما سبب له مضايقات من بعض المنافسين، حتى انتهى به الأمر إلى بيع أملاك والده التي كانت بباب الزعفران وتحويلها إلى المكان المعروف بالمصلح، حيث بنى به قصرا ومسجدا، وعرف المكان بحارة الشريف، لكن خصومه أولاد مولود التغمرتي تألبوا عليه حتى اضطر لمغادرة البلد(19) والتوجه لمدينة فاس، حيث كان محل سكناه باجزا بن عامر، من عدوة الأندلس، لكنه لم يجد بها راحة فتركها مخلفا وراءه عقاره الذي لم يفوته مما يدل على أنه لم يكن محتاجا إليه، ثم رحل إلى صفرو، والتي فعل فيها مثل ما فعل في فاس، لكنه لم يسترح وانتقل إلى جرس الدين، قرب الريش حيث الأشراف أحفاد أبو وكيل رحمه الله، ولعل هذا الاختيار لجرس لم يكن مقررا حسب رأينا، وإنما اختاره حتى يقضي بمن كان معه من العلماء على الجهل الذي أدى ببعضهم إلى زيارة قبر يهودي من الأحبار دفن هناك وأصبح قبره مزارا(20) لكنه سرعان ما رحل ثم ترك المسجد والعقار اللذين لا يزالان حتى اليوم يعرفان باسمه، أما مراحل سفره من سجلماسة إلى مدينة فاس، فقد بقيت

(17) كان قد استقل بها عبد الحليم بن أبي عامر منذ 763هـ/1361م لكنه توفي في المحرم من نفس السنة.

(18) راجع ما بعد ت 1832 قبل.

(19) ذهب صاحب النزهة إلى أن الذي انتقل إلى المصلح هو الحسن الداخل وهذا بعيد الاحتمال لأنه لم يتعرض للمضايقة بل بلغ حب الناس له إلى درجة التنافس حول مدفنه حين توفي، فوقع عبر المدينة بالطول والعرض، ثم دفن في الوسط بالأحدب مكان يعرف حتى اليوم ومعه في نفس الضريح دفن مناع المعقلي الذي استقدمه مع أبي ابراهيم العمري.

(20) لا يزال حتى اليوم ويعرف بـ "مولى تابيا: على بعد مرحلة من الريش كما يعرف غيره بصادوق أزرو، وصاحب كرامة، ويعيش بوادي انكزمير بودراع وغيرهم بسوس من قبور اليهود التي تحولت إلى مزارات مشتركة بين المسلمين واليهود حتى في عهد "الحضارة" والأمر لله. وخصوصا بعد عودة المواسم على الأضرحة التي عادت إلى الظهور بعد موت شيخ الإسلام الإمام السلفي محمد بن العربي العلوي الذي قضى عليها بمساعدة العاهل الراحل محمد الخامس رحم الله الجميع والذي عمل على ذلك بما كان له من سلطة وبنوع من التحدي هو محمد بن أحمد=

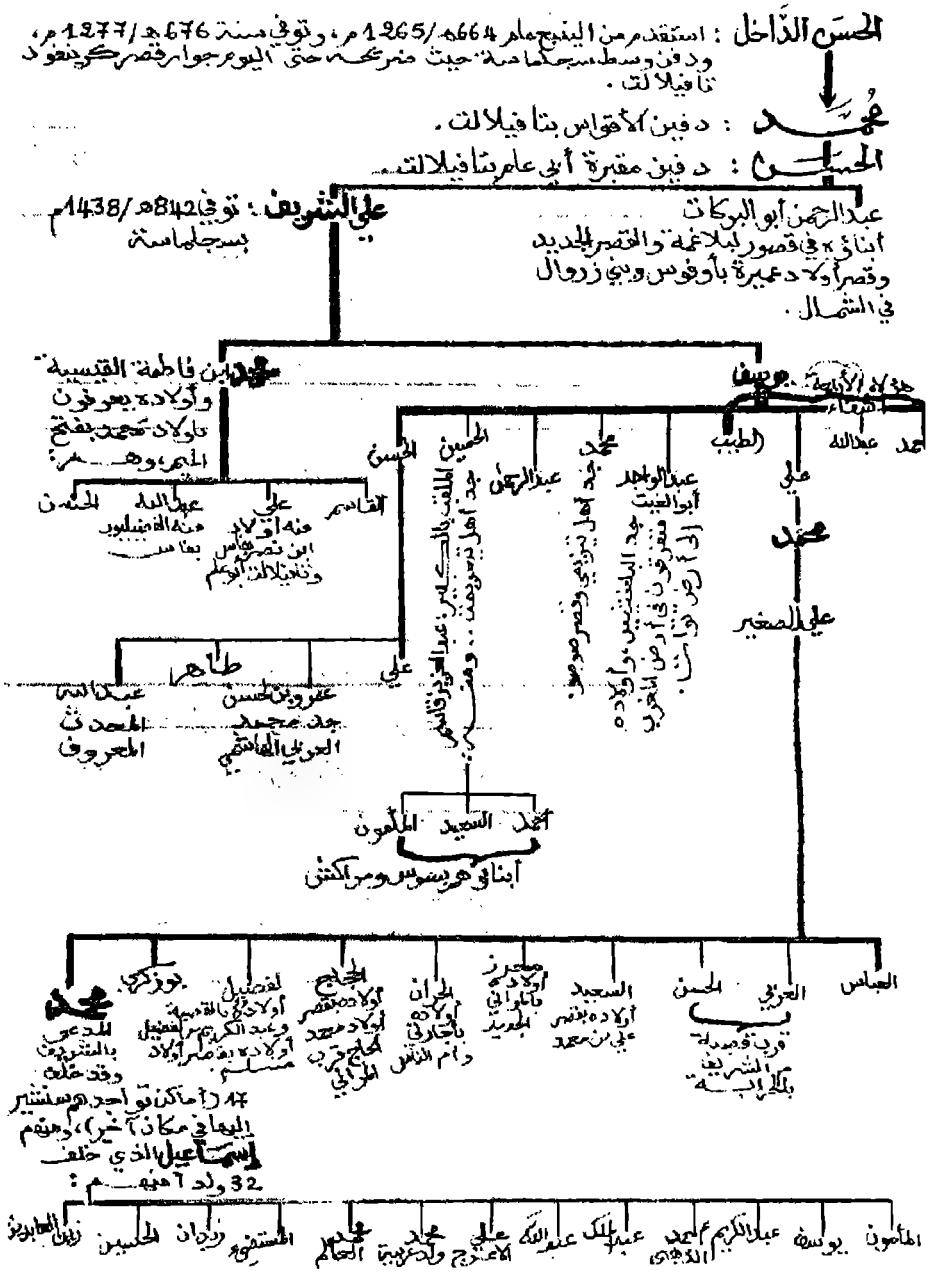
الحسن الداخل : استقدم من الينبع عام 664هـ/1265م، وتوفي سنة 676هـ/1277م، ودفن وسط سجلماسة حيث ضريحه حتى اليوم جوار قصر كرينفود تافيلالت.
محمد : دفين الأقواس بتافيلالت.
الحسن : دفين مقبرة أبي عام بتافيلالت.
علي الشريف : توفي 842هـ/1438م بسجلماسة
عبد الرحمن أبو البركات
أبناؤه في قصور لبلاغمة والقصر الجديد وقصر أولاد عميرة بأوفوس وبني زروال في الشمال.
محمد ابن فاطمة القيسية وأولاده يعرفون بأولاد محمد بفتح الميم، وهم:
يوسف
هؤلاء الأبناء أشقاء
أحمد
عبد الله
الطيب
علي
محمد
علي الصغير
عبد الواحد أبو الغيث
محمد
عبد الرحمن
الحسين
الحسن
القاسم
علي
عبد الله
الحسن
علي
طاهر
عمرو بن الحسن
عبد الله المحدث المعروف
أحمد
السعيد
المأمون
أبناؤهم بسوس ومراكش
العباس
العربي
الحسن
السعيد
محرز
الحران
الحجاج
الفضيل
بوزكري
محمد
المدعو بالشريف وقد خلف 17 (أماكن تواجدهم سنشير إليها في مكان آخر)، ومنهم إسماعيل الذي خلف 32 ولداً منهم:
المأمون
يوسف
عبد الكريم
محمد الذهبي
عبد الملك
عبد الله
علي الأعرج
محمد ولد عربية
محمد العالم
المستضيء
زيدان
الحسين
زين العابدين

معروفة لدى الفيلاليين في كل العصور خصوصا وأن بعض أهل مدغرة اتخذوا تلك المراحل التي هي عند بعض قبائل البربر "شبه مزارات" اتخذها ضعاف النفوس وعديمي الهمم من بعض أهل مدغرة بالخصوص، وسيلة استرزاق يترددون على القبائل المجاورة لها في فصول معينة من السنة وهذه المراحل هي: من سجلماسة إلى أولاد عميرة بالرتب، ثم إلى بني وفوس بالخنك، ثم إلى كرس الدين، ثم إلى النزالة، ثم إلى لقصابي- السمغوني، ثم إلى إنجيل آيت لحسن، ثم إلى صفرو، ثم إلى مدينة فاس. حيث داره مشهورة باجز ابن عامر كما أشرنا بل تعرف حتى اليوم بحومة الصفاح.

وإذا هو عاد إلى سجلماسة وإلى القصر الذي كان قد بناه في المكان المعروف "برج الحمام" ثم اشترى أملاك أولاد ابن ربيعة بتانجيوت وبني مداسن وكذا أملاك علي بن موسى لمداسني وأملاك مولودا التيغمرتي. ثم أضافها إلى أملاكه الواقعة على باب قصره، فإن النزاع قد جد بينه وبين أولاد مولود التيغمرتي حول تمر جناه أصحابه فادعوا أنه لم يكن ضمن العقار المفوت، مما دفع بمحمد بن أبي ابراهيم إلى التدخل وطلب التعويض لكن علي الشريف فض النزاع بتسليمه لأولاد مولود ماطالبوه به من تمر حين أمر خادمه عياد، عياد هذا يعرف حجام مولاي علي الشريف وهو جد أولاد بوعياد بفاس، وقبره بجدار سور قصبة مولاي عبد الكريم معروف حتى اليوم رغم ما فعله به وبغيره محمد لغريسي دمره الله.

لقد بذل المولى علي الشريف لمسالمة أولاد مولود التغمرتي كل الوسائل ومع ذلك لم يتراجعوا عن مضايقته، بل أغروا به المرأة المسماة طيط لمداسية، لتقوم عليه هي الأخرى بادعاء حول الممتلكات المعروفة بـ "شملان" كمامدوا أيديهم في قتل مواليه الذين أسلموا على يده ثم زودهم بالمال والممتلكات، وهم أولاد البلوي، وإذا هو انتصر على المرأة طيط التي قدمت دعواها أمام القاضي أبي القاسم؟. الذي لم تحضر أمامه رغم استدعائها أكثر من 23 مرة أخر فيها الدعوى، بل رجعت إلى الصلح مع وكيله، مما أدى بأهل البلد

= بن عبد القادر لغريسي المعروف بـ «أحمد العلوي» وهو الذي حقق من الهدم للدين والأخلاق والمقدسات مالم يستطع الخونة والاستعمار قبل أن يحققوا منه ولو 10 ٪ ولقد نسي هو ومن معه من المغرضين الفجار المندسين الذين كشفهم الله وعرفهم الناس أن لهذا الدين ربا يحميه، وأنه جلت قدرته يمهل ولا يهمل وقد نال البعض منهم جزاءه، ولسوف يرى الذين ينتظرون أي منقلب ينقلبون.

إلى التحقير من شأن دافعيها، فإن أولاد مولود التيغمرتي الذين هم الآخرين رجعوا إلى طلب العفو مما أدى بعلي الشريف إلى بيع الملك المعروف بني مداسن، وذلك إثر عودته من الحج مباشرة، ثم تعويضه بالملك المعروف بشط الحجر، جوار قصر مركونة، حيث بنى فيه أيضا قصرا أسكن فيه ولده البكر الحسن؟، وإن كان الحسن هذا لم نتعرف عليه ولا على خلفه وقتها رحل مجاهدا إلى الأندلس يرافقه صديقه محمد بن أبي ابراهيم المتوفى سنة 903هـ عن سن تناهز 86 سنة راجع م خ ع 1574، ص 24 "رحلا معا، وبلاشك أن علي الشريف لم يرحل إلا ومعه جموع كثيرة من المجاهدين المتطوعين، كانوا تحت قيادته، حيث رحل بهم إلى الأندلس مجاهدا سنة 841هـ/1437م فأقام بها غازيا مدة ستة أشهر جلبت له، مالم يعرف لغيره وقتها من الحب والتقدير ، مما دفع أهل الأندلس إلى التعلق به وطلب قيادته،(21) لكنه ربما تعلل بمانع كان يتمثل في الفرقة التي تمكنت وقتها بين الأندلسيين فلا حققته المراسلات من أهل الأندلس والمغرب تحثه على استئناف ما قدم في سبيل عزة الإسلام ونصرة المسلمين المستضعفين وقتها،(22) لكن ولربما كان قد اطلع على أحوالهم التي لم ترضه فرفض ولم يعد، وربما قصد الحجاز ثم عرج على "أكدج". هذا، ولم تخبرنا مصادر التاريخ عن ثقافة علي الشريف رغم ما عرف لسفله من مكانة في العلم والمعرفة، لكن علاقاته واتصالاته والرسائل الواردة عليه من جلة القوم وكبار العلماء في المغرب والأندس تدلنا أن المخاطب إلى جانب شجاعته وبطولاته وعظيم كرمه ومتين تدينه كان على جانب من المعرفة والعلم، ولو لم يكن كذلك لما خوطب(23) شعرا ونثرا بالأوصاف التي تدل على علمه واقتداره، وإن كان الزياني يقول على لسانه لما عرض عليه الملك فأبى "يكفيني منصب العلم «البستان ص» وتوفي رحمه الله عام847هـ/1443م.

---

(21) ورد ذكر تيغمرت في رسالة موجهة من السلطان محمد بن عبد الرحمن بتاريخ 16 ربيع الثاني عام1282هـ وأنها ترجع إلى المولى علي الشريف. المعسول 350/16.

(22) من نص على رسالة مرشيش الواردة في الأنوار الحسنية ص 44 ـ 46 والتي نص فيها على التاريخ يفهم منها ومن غيرها من الرسائل الواردة قبل. وبعد إن هذه الرحلة لم تكن الأولى بل كانت قبلها رحلة بدأت من طنجة، وفي هذه المرحلة كانت إمارة الأندلس ما بين سنوات 848.835 هـ/ 1431 ـ 1444م تولاها محمد الثامن للمرة الثانية ثم محمد العاشر الأحنف بن عثمان.

(23) راجع الأنوار الحسنية من ص 32 إلى 56 ط 1966. تحقيق المؤلف. كانت الرسائل التي توجه إلى علي الشريف تحثه على الجهاد تكتب على لسان جموع غفيرة خصوصا أهل غرناطة.

أما ذرية علي الشريف التي لم يعرف منها غير محمد ويوسف والذي قيل إنه لم يخلف غيرهما، بل قال صاحب الأنوار وهو أول من كتب إطلاقا عن العلويين بتفصيل إنه روى عن بعض أحفاد علي الشريف الذين لاشك كانوا على علم بتاريخ حياته الذي لم يتقادم وقتها أنه بقي لم يخلف ولدا نحو الأربعة عشر عاما ولم يذكر له غير الولدين المذكورين محمد بفتح الميم ويوسف(24). وأن منهما تفرع كل العلويين الموجودين بالمغرب، باستثناء احفاد عبد الرحمن أبو البركات المذكورين قبل(25)،أما محمد فأمه فاطمة القسيسة، وأما يوسف فأمه الزهراء بنت المترارى، وأولاد الأول يعرفون اليوم بالمحمديين "بفتح الميم"، وقد كان من ذريته حسب ترتيب أحمد بن عبد العزيز صاحب الأنوار(26) أربعة وهم : الحسن، وعبد الله، وعلي، وقاسم، وقد عرفوا في مراكزهم القديمة : بقصور "أبو عام" وتازوكا "و حمو داود المليح " " وبوصالح بالسيفة و"أولاد عميرة" ولبلاغمة "وأربيت" بالرتب "والقصر الجديد" ووادي إفلي" وأولاد محمد بتانجيوت و"مراكش" وتاگنيت بدرعة وتمبكتو" ولهري بزيان، وبني زروال، وفاس، وهذا التوزيع حسب ما كان قبل، أما في العصر الحاضر فإنهم تفرقوا في مختلف مدن المغرب مثلا سلا، ومكناس، ووجدة، والرباط، حيث يوجد أحفادهم الذين فرعوا، وأصبحوا يكونون مجتمعا معروفا لدى المهتمين بالأنساب منهم وهذه أصولهم وفروعهم جميعا.

أما يوسف بن علي الشريف، فقد خلف هو الآخر تسعة من الذكور خمسة أشقاء أمهم من أبناء الخلفي بسجلماسة وهم: علي وأحمد، وعبد الله والطيب، وعبد الواحد المعروف بأبي الغيث،(27) أما الأربعة الأشقاء فأمهم طاهرية من الطاهريين السجلماسيين

---

(24) راجع الرسالة الأولى ص 38 وكذا كتاب سعيد الرندي من فاس ص 41 ـ42 وفيه يطلب منه إن هو اعتزم العودة أن يخبره ليرافقه بعض المتطوعين خصوصا الذين سبق لهم الغزو معه، وكانت المراسلة باسم فقهاء فاس ص 50 س 3 كما تنص رسالة عبد الرحمن محمد الصغير من زاوية الرقعة.

(25) راجع القصيدة التي مدحه بها مستغيثا، أبو فارس بن أبي الربيع وقد أوردها صاحب الأنوار الذي نقل عن كل المؤرخين المغاربة ص 51 ـ 55 ـ 56.

(26) لقد رأينا قبل أن له ولدا إسمه الحسن وهو الذي أسكنه قصر شط الحجر جوار مركونة كما تنص شجرة ابن المامون م خ نا والتي نص فيها أنه وجد وثيقة بذلك وربما أن الحسن هذا مات في حياة أبيه أو أنه لم يعقب فلم يذكره المؤرخون. ص56.

(27) قيل إنه عرف بذلك بسبب كثرة ما نزل من المطر وقت ولادته على خلاف ما عرفته سجلماسة التي كانت قبل قد عرفت سنوات الجفاف راجع المصدر السابق ص 59.

ويعرفون بهذا الإسم حتى اليوم في كل من تافيلالت ومدغرة والجرف أبناؤها هم: الحسن، ومحمد والحسين بالتصغير، وعبد الرحمن، وفروع هؤلاء التسعة كثيرة ومنتشرة في تافيلالت وجميع جهات المغرب، كان منهم العلماء ورجال الأعمال قبل أن يصبحوا قوة سياسية انتهت بأحدهم إلى تأسيس الدولة التي قامت بعد في الوقت المناسب، ولإنقاذ المغرب زمن الشريف محمد بن علي الشريف، بن محمد، بن علي، بن يوسف، الذي كان بحق في مستوى طموحات العلويين بأولاده الأربعة عشر الذين منهم المؤسسين الأولين، محمد ثم الرشيد،(28) وإسماعيل،ذلك أنه عندما انتهت دولة السعديين إلى تمزيق عم البلاد والعباد كما رأينا، كانت سجلماسة تحكم بتحزبات لا أساس لها غير الحسد الذي دفع بعضهم إلى أن يعادي الشريف بن علي بسبب ما أصبح عليه وأولاده الأربعة عشر من مكانة تحدثنا عنها الوثائق التي نتوفر عليها اليوم، والتي موضوعاتها علميا النوازل والفتاوي وتقويم خزائن الكتب كشركات وزعت، ورسوم معاملات عقارية، وتجارية وغيرها، منها ما هو باسم محمد الشريف الحسني، ومنها ما هو باسم سابقيه علي، ومحمد الكبير بن يوسف، ومنها ما هو باسم أحد أولاده الذين تعددت مجالات نشاطهم وقتها وتعرضوا لنزاعات أدت بهم إلى خلاف حاد مع أهل قصر تبع صامت انتهى إلى تصادم بالسلاح بينهم وبين أولاد مولاي الشريف(29) على رأسهم المولى محمد سنة1043هـ/1633 أيام الوليد بن زيدان السعدي، الذي آلت الدولة في عهده إلى التفكك والاشراف على الزوال، وفي هذه المرحلة عرفت سجلماسة مثل باقي جهات المغرب، انقساما أدى بعد زوال سلطة الدولة إلى تكوين شبه حكومات محلية، فكان محمد المعروف ب "مولاي الشريف بن علي" صاحب المكانة المرموقة بين أهل سجلماسة المرشح من السجلماسين لجمع كلمتهم والفصل في نزاعاتهم، حتى لا يبقوا معرضين للفوضى وكوارث الفتن، لكن أهل قصر تبع صامت وهم من بقايا صفرية زناتة، كانوا على طرفي نقيض سواء مع الدول التي تعاقبت على حكم سجلماسة أو مع الأشراف الحسنيين

(28) لقد سقطت بعض الأسماء عند الزياني في البستان والذي بدوره روى عن القادري وصاحب المرآة في الوقت الذي قال الضعيف ص 21م خ نا أن عددهم ثلاثا وثلاثين اذكر منهم 14 كما اكتشف الضعيفي أن القادري رحمه الله سقط من نظمه الذي استقى منه الزياني أربعة آباء.

(29) الضعيفي م خ نا ص 3.

وأنصارهم من العمريين وغيرهم، وكانوا إلى جانب ذلك وبعدما اشتد الخلاف أكثر بين ابني الحسن بن محمد بن الحسن الداخل، وهما عبد الرحمن أبو البركات وأخوه علي المعروف بالشريف، انتصر أهل تبع صامت للأول مما أدى إلى انتصار الثاني بقوة وعنف أدت إلى ترحيل أبناء أخيه عبد الرحمن الأكبر،(30) وقد بقيت هذه العداوة تتمكن زمن علي الشريف الذي رأينا ما اختلقوا له من المتاعب، ومع ذلك انتصر وذاعت شهرته، وأصبح قوة يستغاث بها من الأندلس، وإذا هم لم يستطيعوا فعل شيء في عهده فإنهم احتفظوا بخلافهم إلى زمن ولديه محمد، ويوسف، اللذين حصل بينهما أيضا من الحرب الطاحنة أعنف مما حصل بين الأبوين، فكان لذلك الصراع الطويل الذي امتد أجيالا أثره في المحمديين الذين كانوا أقل عددا من أبناء عمومتهم اليوسفيين، ورغم أنهم تفرقوا(31) فإن الذين بقوا منهم في سجلماسة كانوا إلى جانب أهل تبع صامت الذين أشعلوا النار ضد الشريف وأولاده بدافع التنابذ لأنه أصبح قوة يحسب حسابها. ولأن من يحكم سجلماسة فأقل شيء يتطلع إلى درعة وما حولها من أرض سوس، وفي سوس كان يوجد أبو حسون السملالي في إليغ حيث أصبح يسد الفراغ الذي حدث بعد انهيار السعديين وزوال سلطان أبناء زيدان.

(30) انتقلوا إلى الرتب ويعرفون بأولاد حميد، وإلى بني زروال جوار أبناء عمومتهم الأدارسة بالشمال.

(31) كما سبق أبناء محمد بن علي الشريف أربعة، وأبناء يوسف بن علي الشريف تسعة، راجع الشجرة التي هي عبارة عن جدول بيان وضعناه لهذه الأسرة اقتداء بما فعلنا مع الأدارسة قبل وما بعد ت 60جـ2.

الفصل السابع عشر بعد المائة

بداية ظهور الدولة العلوية

بقيادة الشريف بن علي ضد الإلغيين والدلائيين

الشريف بن علي هذا هو الذي قال في نسبه عبد السلام بن الطيب القادري نظما ما يلي :

أبو ملوكنا الشـــريف بن علي ... محـمـد علي يوسف يـلـــــي
علي الشـريف ثم الحـــســـن ... مـــحمد حسن المستوطـــــــن
بلقـاسم مـحـمـد بلقـاسم ... محمد الحسن ذو المكـــارم
فـعـابد الله أبو مـحـمـد ... فـعـرفـة فـحـسن ذو السـؤدد
ثم أبو بكر علي فـحـســـن ... أحـمد إسماعيل قاسم ومـــن
مـحـمـد المهـدي فـعـبـد الله ... فالحسنان فـرســول اللـــــه

ومحمد الملقب بالشريف هذا هو ابن علي بن محمد بن علي بن يوسف، وقد كان لعلي والد الشريف أحد عشر ولدا منهم ذو العقب الفضيل(32) والحران(33) ومحرز(34) والحجاج(35) والسعيد(36) وامبارك(37) والعربي والحسين(38) ثم محمد الملقب بالشريف،

---

(32) أولاده بقصبة مولاي عبد الكريم بن لفضيل وأولاد مسلم بسكون الميم وتشديد اللام .
(33) أولاده في قصر لورجارشة وأم الناس باتوات.
(34) أولاد بقصر لمراني الجديد.
(35) أولاده بقصر أولاد محمد قرب لمراني الجديد.
(36) أولاده بقصر علي بن محمد.
(37) أولاده بتاحسنونت.
(38) أولادهما بالحرابية قرب قصبة مولاي الشريف تافيلالت.

وله أربعة عشر ولدا منهم الثلاثة الأول الذين أسسوا الدولة وهم محمد والرشيد وإسماعيل.

وفي عهد الشريف هذا كانت سجلماسة ضمن بقية المغرب قدآلت إلى إهمال في آخر السعديين الذين آلت دولتهم إلى الضعف والانهيار كما سبق، وحتى نتعرف على واقع سجلماسة وقتها نشير إلى أن المغرب على عهد السعديين كان مقسما إداريا وسياسيا إلى ما يلي : الشرق والشمال ومركزه مدينة فاس، الغرب، وحاضرته مكناس، ثم تامسنا، والحوز وحاضرته مراكش، ثم الجبل وهو من وجدة إلى جبل كلاوة وحاحة مرورا من تازة، ثم الجنوب وتدخل فيه المنطقة من توات إلى ذرعة مرورا بسجلماسة وحاكمها كان مركزه في سوس مما عرضها للإهمال والتمزيق زمنا غير قصير، فحاول أهلها مرات ومرات جلب اهتمام المسؤولين لكنهم لم ينجحوا مما دفع بهم إلى مبايعة الشريف عام 1043 هـ.

وإذا ما وصلنا إلى عهد ظهور الشريف محمد بن علي الذي يقول الزياني في البستان أنه ولد سنة 997 هـ/1588م والذي هو الحفيد الثالث ليوسف بن علي الشريف السجلماسي، بل والذي بلغ ما وصفناه من الجاه والمال والأولاد فإن عدوان بني الزبير أهل قصر تبع صامت(39) الذين لم يضعفوا تحركوا وتحرك معهم أبناء عمومة الشريف من المحمديين الذي كانوا وقتها موجودين بسجلماسة وإذا كان أهل تبع صامت يتوفرون على المال والسلاح اللذين وضعوهما تحت تصرف الأشراف المحمديين مما سيجعل الخطر أكبر حجما بيهم وبين الشريف وأولاده، وبالتالي سيؤثر في المحيط فيجلب الشر على الشريف وأولاده، لذلك اختار الشريف أن يستعين سنة 1043 هـ/1633م بأبي حسون

---

(39) وقصر تبع صامت هذا يعرف حتى اليوم بهذا الإسم ولقد كان ولا يزال من أكبر قصور تافيلالت حتى وإن أبعد محمد والرشيد أهله من الصفرية إلى وادي نول إذ بعد ما حصل بينهم وبين الشريف بن علي وأولاده عمل محمد بن الشريف وبعده الرشيد على إبعادهم أصلا من البلاد ثم بعدها أصبح قصر تبع صامت يتكون سكانه من القصور التي كانت حوله والتي آلت إلى زوال وهي :

القصر الجديد ـ وأفرو بسكون الفاء ـ وأولاد الخيار ـ المعرفة ـ وأولاد أخيار ـ ودار علي ـ وتاغزوت، وأولاد طلحة، وأولاد سعيد والمامون، وأولاد عطية، وهم بطن يعرف بأولاد عطية، من دريد من الاثبج من هلال بن عامر، كانت رئاستهم في أولاد بني مبارك ابن حباس، وكانت لهم تلة بن حلوف من أرض قسنطينة ثم دثروا وتلاشوا يقول ابن خلدون 6 : 23 ـ 24. وتابع صامت هو القصر الذي ولد فيه حبر اليهود المعروف بـ "أبي حصيرة" دفين طنطا من أرض مصر.

السملالي الحسني المعروف بـ أبي دميعة، وهو علي حفيد أحمد بن موسى بن جامع، طلب إليه أن يساعده على كسر شوكة أهل تبع صامت الذين أزعجوه وخلقوا له ولأولاده جوا من الفتنة بينهم وبين أبناء عمومتهم، ولعل الشريف لم يطلب ذلك من أبي حسون عن ضعف، وإنما حتى يشهده ويحول بين أهل تبع صامت والانحياز له، لكنهم في الوقت الذي توجه الشريف بإرسال طلبه لأبي حسون توجهوا هم إلى محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي(40) يطلبون منه النجدة على الشريف وأولاده.

وفعلا استجاب أبو حسون(41) وأرسل جنده إلى سجلماسة كما استجاب الدلائي تحت ضغط دعاية المحمديين الذين كانوا موجودين في الزاوية عند الدلائيين، إلى جانب أولاد عبد الرحمن بن علي من لا يخاف المتوفى 1002هـ/1593م منهم عبد الرفيع العدو المجاهر لآل الشريف، والذي جاهر بذلك للدلائيين قبل، إنه مات ميتة مثيرة، هؤلاء الدلائيين لم يكن الشريف وأولاده بعد قد عرفوا عنهم الميل للمحمديين مثل ميل بودميعة لأهل تبع صامت، لذلك ذهب إليهم محمد بن الشريف يطلب عونهم بعد، لكن لما التقى الجيشان جيش الدلائيين وجيش السملالي ظهرت السياسة بأسلوبها الذي غير الموازين وبدل المفاهيم، فاتفقت القيادة من الطرفين على عدم جدوى الحرب التي ستنتج عنها قوة تتطاول على الدلائي وأبي حسون، بل نصح الدلائي في مراسلته لأبي حسون إن هو أراد الخير لأهل سجلماسة أن يريحهم من سلطة الشريف وأولاده، وهو رأي يبدو عليه التأثر بالمحمديين(42)، وتبلورت الفكرة أكثر عندما انتهى محمد بن الشريف إلى عدم رجاء العون من أحد وأن يعتمد على نفسه وإخوته وأنصاره في زجر أهل تابع صامت،

---

(40) من أكرم بيوتات المغرب علما بيت الدلائيين المجاطيين الذين ظهر فيهم أبو بكر المتوفى عام 1021 هـ/1611 م وولده محمد المولود 967هـ والمتوفي عام 1046 هـ/1635م ثم العلامة الشهير محمد بن محمد المسناوي المتوفى 1051 هـ /1641م وعبد الحق بن محمد المتوفى 1059هـ/1649م والحفيد المسناوي بن إسماعيل المتوفى 1064هـ/ 1653م وخطيب المدرسة العنانية الذي درس بها الألفية قبل مائة مرة، ومقامات الحريري ثلاثين مرة، وهو محمد الشاذلي بن محمد بن أبي بكر، وأحمد البكري قاضي رودانه على عهد السلطان محمد بن عبد الله، والمتوفى 1186 هـ/1766م راجع الزياني واليوسي والقادري في نشر المثاني، والفاسي في مرآة المحاسن. وغيرهم، وكذا مخطوطة خ. ع 1264 ك ص93.

(41) راجع إيليغ قديما وحديثا للمرحوم محمد المختار السوسي رحمة الله عليه المطبعة الملكية بالرباط 1966. ص 123 ـ 144.

(42) هؤلاء المحمديون العلويون هم سكان لهري وتاسكارت حتى اليوم بزيان وهم إخوة أهل سوس وأهل سكورة، وتاكنيت بدرعة وأبو عام بتافيلالت وغيرهم راجع ما بعد ف 115 أعلاه.

خصوصا عندما إنسحب الجيشان وظهر أهل تبع صامت يؤازرهم المحمديون أبناء محمد بن علي الشريف بمظهر المتشفي ثم أخذوا يشيعون في الناس أن الإتفاق تم بين الدلائيين والسملالي ضد الشريف وأولاده، وقد مهدوا لهذه الدعاية بقناطر التبر التي قدموها إلى السملالي كي يمكنوا لفكرة الدلائي التي أوحى إليه بها من جانب، وليظهروا للشريف وأبنائه أن السملالي الذي كان يعتز بصداقته أصبح إلى جانبهم، وفعلا ظهر ذلك من أبي حسون الذي اكتشف في سجلماسة وأهل تبع صامت وأولاد "بوبكر" معهم، موردا ظهرت آثاره في ما آل إليه أمر أبي حسون مع اليهود الذين اتخذ منهم صناعا للتبر الذي كان يوجه إليه من سجلماسة، كما ظهر في البنايات والتنظيمات الجديدة في إيليغ التي أخذت تعطي صورة أكثر وضوحا أن السملالي يطمح إلى أن يحل محل المستضعفين من بقايا السعديين بمراكش، وإذا كان الذي حول السملالي حتى أنه كون له بطانة أخذت تمالئ أهل تبع صامت هو التبر الذي اتفق هؤلاء على أن تدفع كل دار نصيبها منه، ثم أعدوا لجمعه دارا سموها دار الجماعة، فإن على محمد بن الشريف ودون أن يخبر والده أن يلقنهم درسا لم يحسبوا له هم والسملالي معهم، وفعلا قصد محمد بن الشريف قصر تابع صامت في جماعة مسلحة من رجاله قدرت بمائتين ولا يكون هذا العدد إلا لذى سلطان حيث فتك بهم فتكا انتهى خبره إلى والده الذي التحق به هو الآخر في رجاله كذلك، ولما استولى محمد على دار جماعة تابع صامت وما فيها من تبردون أن يلحقه ورجاله ضرر إلا ما كان من أخيه الحفيد الذي جرح بطعنة من أحد أبناء عمومته المحمديين، أما أهل تابع صامت فقد قتل منهم الكثير بما فيهم الشيخ عبد الرحمن، والشيخ عبيد، والشيخ أحمد، ومن تبقى منهم فر إلى أبي حسون صاحب إيليغ، بعدما هدم محمد بن الشريف ديارهم وأخلى قصرهم، الأمر الذي دفع أبا حسون إلى أن وجه حملة إلى سجلماسة قوامها ألفي راجل، وخمسمائة فارس، استطاعوا التأثير في الموقف، ورد بعض البعصاميين إلى ديارهم التي كانت قد تهدمت، وإذا ماحاول جيش السملالي أن يرد لهم اعتبارهم فإنه لم يحقق غير تكرار المواجهة الغير المجدية مع رجال محمد بن الشريف الذي أصبح وقتها بعد والده يمثل إجماع الفيلاليين من أجل استقلالهم عن إيليغ، وهنا بدأ التدبير الماكر حيث تظاهر جيش السملالي أنه غادر سجلماسة، في حين أنه لم يبتعد كثيرا وإنما فقط ليترك المجال لقائد المدينة حتى يدبر

إلقاء القبض على الشريف بن علي فيأخذه أبو حسون سجينا إلى إيليغ، وفعلا ذلك ما سوف يتم.

رجع محمد إلى قصر والده المعروف حتى اليوم بالقصبات وباللهجة المحلية اقصابي مولاي الشريف» حيث تقاطر عليه السجلماسيون الذين بايعوه وقتها في شعبان عام 1047هـ/1637م على أن يكون سلطانا عليهم، لكنه تخلى عنها لوالده ولم يقبل التقدم أمامه، فقد كانت تلك هي البيعة الثانية للشريف بن علي بعد التي كانت سنة1043هـ/1633م، كما كانت لولده محمد وقتها لأن الشريف كان قد ردها على أهل سجلماسة سنة 1041هـ/1631م يقول الزياني في البستان ص 21 وابن المامون في شجرته، وهاهي اليوم تتكرر لولده.

وهكذا دخلت الأسرة مرحلة جديدة من الصراع مع أبي حسون الذي انتصر لحلفائه جهارا، لكنه هذه المرة التجأ إلى طريقة أخرى هي طريقة الكيد للشريف الذي دس له بواسطة أحد أصدقائه الذي هو القائد أبو بكر بن هارون، الذي لم يحذر منه الشريف رغم تحذير أولاده حيث إدعى أبو بكر هذا الذي كان يتودد إلى الشريف أنه مريض، ويريد من الشريف زيارته ليكفر عن إساءته إليه بالكشف له عن أموال أبي حسون المدخرة في تافيلالت،وإذا ما اغتر الشريف وذهب فإنه تعرض، لكمين حيث ألقي عليه القبض بإغلاق أبواب القصر، وذلك بعد شهرين على بيعة الفيلاليين أي يوم الثلاثاء، آخر شوال من عام 1047هـ/1637م ثم أرسل مدبر المؤامرة إلى جيش أبي حسون الذي كان ينتظر قريبا يخبره بما حصل، فأرسل قواد هذا الأخير قوة حملت الشريف إلى السملالي الذي احتفظ به في قلعة قرب إيليغ لمدة ثلاث سنوات ونصف، حاول أثناءها إرغام ولده محمد الذي بويع من جديد من طرف الفيلاليين أهل سجلماسة إثر قبض والده، وهنا أصبح محمد بن الشريف أمام خصمين اتفقا على محاربته، هما الدلائيون في الشمال، والسملالي في الغرب الساحلي، وكانت المعارك التي خاضها ضد السملالي قد تراجعت باعتماد هذا الأخير على وجود الأب تحت قبضته، وأن محمد لا يلبث أن يعود إليه خاضعا وذليلا مقابل افتكاك والده الأسير، ووقتها يشترط السملالي ما يريد، خصوصا وأن الأحوال قد تغيرت بالنسبة إلى السعديين الذين يهددون السملالي، فقد أصبح في مأمن أكثر بعد قتل الوليد بيد خدامه 1045هـ/1635م ومبايعة محمد الشيخ

الرابع الأصغر، الذي انشغل هو الآخر بالدلائيين يتبادل وإياهم المراسلات التي أبدع فيها محمد بن عبد الرحمن التنملي وأجاد "رجب 1047هـ" ولو أن محمد بن الشريف اطلع وقتها على نوايا الدلائيين نحوه، والتي عبروا عنها في جوابهم لمحمد الشيخ، لما فكر في التعلق بهم، كما لو علم أن الدلائيين أصبحوا وقتها رغم ما كان لهم من مظهر القوة في نظر البربر معرضين للتخلي عنهم وعن أحلافهم، وفي ذلك يقول عبد الله المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي، حول البيعة التي طالب الشيخ منهم تجديدها «وأيضا منعنا من تجديدها انسلال البربر عن ساحتنا، فيكون أقوى سبب لاماطة جلباب الصون لفضيحتنا، وأجلها هذا الأجدل الذي لا تؤذيه سموم الليالي، ولا حرارة الصيف، مولانا محمد بن مولانا الشريف، عقاب أشهب على قنة كل عقبة، لم يقنعه عدد الرمال عن حسم الرقبة، وربما عرتنا غفلة فيشن الغارة الشعواء على شعاب شعوب ملوية، أو ينشر جيوشه على رباط تازا بالرايات والألوية، سيما وجناحاه ذوو النفوس النفسية، بربر صنهاجة ودخيسة بزات الثروات، بالحلة والحال والغزوات(43)

لقد لجأ محمد بن الشريف وإخوته منهم الرشيد إلى الدلائي كي يتوسط في سراح والدهم لكن ما كان عليه من ضغط المحمديين وغيرهم منعه من بذل المحاولة الجادة، فكان ذلك الموقف بداية الصراع الحاد ضد الدلائيين في معركة بينهم وبين محمد بن الشريف، الذي عرف كيف ينظم المقاتلين معه تنظيما مكنه من القيام بجولات انتهت بالإنتصار رغم الإنهزامات المتكررة، والتي دفع الفيلاليون أثناءها ثمنا غاليا بسبب التدمير والتخريب اللذين التجأ إليها البربر بقيادة الدلائيين، وإذا كانت تلك غايتهم فإنهم انتهوا إلى فشل أمام المدافعين عن الموطن والأهل، خصوصا وأن الفيلاليين عرفوا كيف يجعلون السملالي وقواته يفرون من سجلماسة رغم طغيانهم والمظالم التي ارتكبوها، وفي هذه المعركة التي هي وقعة الگارة(44) والتي عثى فيها أهل گروان قوة الدلائيين وقتها كان المولى

(43) الضعيفي م خ نا ص 29 على أن بقية الرسالة يفهم منه أنها كتبت بعد موت العياشي 1051هـ وهي مؤرخة في المصدر المذكور بـ يوم الأحد 3 رجب عام 1047 هـ؟ كما أن محمد بن الشريف لم يصبح من القوة كما وصف الكاتب إلا في العقد السادس.

(44) يكتبها بعضهم الكاعة وقد كانت بتاريخ يوم السبت 18 ربيع النبوي 1056 هـ/ 1646 م راجع الضعيفي محمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد السوسي الأصل المولود في الرباط عام 1165هـ الذي استمد من كتاب "الدرة المكنونة في الدولة الميمونة "للعربي بن عبد السلام بن أحمد الفيلالي ص 5 م خ نا والكتاب الأول توجد نسخة منه في الخزانة العامة .

إسماعيل قد مضى من عمره أكثر من أحد عشر عاما إذ هو من مواليد 1045هـ 1635م وصاحب هذا السن يعي كثيرا ولسوف يتفجر ذلك في نفس المولى اسماعيل بعد ضد أهل كروان وتولال عام 104اهـ/1692 قيأمر باقتطاف إثني عشر ألفا 12000 من رؤسهم. ثم يرحل ما ترك من النساء والأطفال إلى جوار مكناس كما سنرى.

كانت وقعة الكارة التي اشتد فيها الدلائيون على الفيلاليين من المعارك التي بدلت وجه سجلماسة وقد أبلى فيها محمد بن الشريف بلاء استمد وصفه الضعيف من مصدر فيلالي لم يتعرف عليه الكثير من المؤرخين، الأمر الذي دفع بالدلائي إلى أن يطلب التفاوض.

كان محمد بن الشريف قبل هذا قد استطاع التخلص من السملالي الذي أطلق سراح والده سنة 1051هـ/1641م مقابل فدية قيل عنها قنطار(45) ونصف ذهبا، والقنطار يساوي عشرة آلاف مثقال ذهب وبذلك استراح من جانب السملالي وحروبه، ولم يبق أمامه غير الدلائي الذي دامت الحرب معه سجالا وقد طالت، والتي كانت قواته قد انهكها الترحال فانقلب رجالها بما نهبوه من سجلماسة لا يريدون الاستمرار حتى لا يفقدوا ما نهبوا، مما حول موقف الدلائي المنتصر إلى ضعف يطالب معه التفاوض، فأرسل كاتبه محمد الغازي إلى الشريف وحدد مكان اللقاء بروضة عبد الله بن أبي بكر المقابلة لقصر أولاد حسين بالسيفه، ولما التقيا كان موقف الشريف الغاضب مستمدا مما رأى وسمع من وحشية البربر خصوصا قبيلة كروان وما فعلوه بممتلكات الفيلاليين ومزارعهم دون أن يحققوا انتصارا على المقاتلين الذين حاولوا إبعادهم عن العمران بجرهم لتكون المعارك بعيدة، لكنهم لم يفعلوا وانشغلوا بالنهب والحرق والتدمير وهتك الحرمات، وكان علي

---

(45) القنطار يساوي عشرة آلاف مثقال ذهبا، وتقول بعض الروايات أن السملالي أهدى إلى الشريف بن علي فتاة جرارية وهي التي ولدت له المولى إسماعيل ومهما يكن فإن المولى إسماعيل ولد عام 1045هـ/1635م بقصر أبحار بالحاء المهملة والمشددة، وقد كتبها إبن زيدان بالجيم حيث عم خطؤها كل الذين استقوا منه. ومكان ولادة المولى إسماعيل معلوم لنا حتى اليوم يعرفه الرجال والنساء بالقصر المذكور، وهو ما نعرفه وصححه لابن زيدان المرحوم عبد السلام بن الشريف كما رأيت في مراسلة خاصة بينهما وقد كتب بخطأ مطبعي عند ابن زيدان بالجيم في الإتحاق 2ـ 75 أبجار وقد تبعه غيره في التصحيف.

كما أورد الزياني في البستان م خ نا ص 8 اسم تاريخ ابن الصباغ المكناسي وفيه أن الذي قبض الشريف بن علي إنما هو أبو علي بن حسون السملالي، بغدر رغم أنه استصرخ به سنة 1045هـ.

الشريف أن يرفض التفاوض لو بقي الأمر لما أبداه ولده محمد، وإذا هو رأى من الخير إبعاد البربر عن الساحة فإن الاتفاق لم يتم إلا بعد ما أسمع الشريف الدلائي من التهديد ما يكفي لتهدئة ولده الثائر، الذي كان يود استمرار القتال الذي كان يعرف مآله بسبب ما أشرنا إليه وأحس به الدلائي، لكن محمد قبل على مضض فكان الإتفاق على ما يلي مما يعتبر الحدود الطبيعية لنفوذ الشريف وقتها :

أولا : أن تصبح الحدود الفاصلة بين نفوذ الدلائي وسلطة الشريف وولده محمد جبل العياشي.

ثانيا : يبقى الأشخاص والأماكن التالية تابعين لسلطة الدلائي رغم وجودهم داخل تراب سلطنة الشريف وهم.

أ ـ الشيخ مغفر بأولاد عيسى بالرتب.

ب ـ الشيخ الطيب في قصر السوق بمدغرة.

ج ـ الشيخ أحمد بن علي بقصر بني عثمان بالخنگ.

د ـ قصر كلميمة بغريس.

هـ قصر أسرير بفركلة.

وإذا ما رحل جيش الدلائي ومن معه من البربر فإنه أبان بعد أنه لم يكن جادا في ما التزم به من شروط، وأنه ما احتفظ بالأشخاص والأماكن المشار إليهم إلا لغاية أدركها محمد بن الشريف الذي لم يغفل مراقبة الذين اتخذ منهم الدلائي وسيلة لمعرفة ما يدبره محمد بن الشريف، وبالتالي لإثارة الناقمين والمتربصين ثم المراسلة مع السملالي بكل ما يثيره ضد الشريف وولده، وكان الوسيلة في كل ذلك هو المذكور بالشيخ أحمد بن علي الخنكي، الذي اتخذ شبكة من العملاء سرعان ما وقع أحد أفرادها وهو من عرب الصباح بيد رجال القائد البكري الذين أتوا به إلى محمد بن الشريف الذي أمنه مقابل أن يمده بكل ما يروج بين الأطراف المعنية وفي مدة شهرين يقول الضعيفي، جاءه الرجل بما تجمع لديه من رسائل مغفر المتبادلة مع الشيخ الطيب، وفيها ما يدين، الأول والثاني ويحز رأسيهما، وذلك ما فعله محمد بن الشريف، مما أدى بالدلائي إلى "الحركة" لتافيلالت التي قصدها من ناحية غريس وفركلة ناحية حلفائه، لكنه لما انتهى إلى سد

فزنة(46) ثم رأى أن الحلفاء لم يصبحوا كما كان يعتقد، انقلب راجعا إلى زاويته ثم أخذ يراسل محمد بن الشريف برسائل يستدل منها على أن المستوى غير المستوى، سواء في مجال السياسة أو الحالة النفسية التي انتهى إليها كل من محمد بن الشريف، والدلائي فهذا الأخير وهو الذي بدأ بالمراسلة، كانت رسائله كلها شتائم تدل على ضعف النفس واهتزازها، وعلى مستوى ما كان حوله من رجال يتقدمهم أصحاب الصياغة والرأي، مثل محمد الغازي كاتب السيد محمد الحاج الدلائي الذي كتب الرسالة الموجهة إلى محمد بن الشريف بأسلوب فيه من الأوصاف. قال الضعيفي : أنه أعرض عنه لفحشه، وهو لم يكن أكثر مما ورد في جوانب محمد بن الشريف مما يعتبر تراشق بين الطرفين، استعمل كل منهما ما في جعبته من نعوت(47) إلا أن جواب محمد بن الشريف الذي كتبه الشريف محمد بن مبارك، تعرض فيه لكثير من الوقائع، ممايعتبر من قبيل التأريخ لما حصل بين الطرفين، بالإضافة إلى النعوت المشار إليها مما دفع إلى أن يكون الجواب بأسلوب الطيب ابن المسناوي الدلائي من نفس الأسرة، مادام الذي كتب لابن الشريف، من نفس الأسرة كذلك، ورغم إشارة الطرفين إلى الرغبة في الصلح حقنا لدماء المسلمين، فإن الأمر انتهى بينهما إلى أن «يقبض كل على نصاله، فليس كل قول يجاب، ولا كل لفظ فصل الخطاب» كما قال الضعيفي(48).

---

(46) قصر بالجوف الذي تحول في نطق الأهالي إلى الجرف بالراء بدل الواو وهي مجموعة قصور تابعة لمنطقة تزيمي شمال تافيلالت بين غريس وأرفود على بعد 22 كم راجع البستان للزياني والضعيفي.

(47) م خ نا ص : 8.

(48) نصت رسالة محمد بن الشريف 2 على أن الدلائيين من زمور، إذ ورد فيها : إلى السيد محمد الملقب بالحاج، ابن السيد محمد بن السيد أبي بكر، بن محمد، وهو حقي بن سعيد، ابن أحمد، بن عمر، بن سيبر الوحباري الزموري» الضعيفي 8 م خ نا والنزهة 282 وقد أورد الزياني أنهم من مجاط ، البستان ص 7 والترجمانة الكبرى 463 وهو ما عند كل المؤرخين المغاربة أما عن حدود حكم الشريف سنة 1059 راجع الرحلة العياشية جـ 39/1 ط حجريه 1316هـ كما ذكر أبو علي اليوسي، محمد بن الشريف،بـ "أمير سجلماسة، وذلك حين زارها عام 1070هـ 1659م راجع المحاضرات ص 45 ط 1976 وإيليغ المصدر السابق للمرحوم محمد المختار السوسي العباسي السجلماسي الفيلالي ص 123 ـ 144 ط الرباط 1966م.

الفصل الثامن عشر بعد المائة

سلطنة محمد بن الشريف ونهاية الدلائيين

توقفت الحرب بين الدلائيين ومحمد بن الشريف بعد هذه المراسلات رغم ما ورد فيها من تهديد، وإذا ما اشتغل الدلائيون في منطقة نفوذهم بما عرفوا من مشاكل تغلبوا على بعضها ثم توسعت دائرة معاملاتهم وتقوى سلطانهم فإن محمد بن الشريف هو الآخر وضع لعمله خطة محكمة في توسيع دائرة نفوذه، ذلك أنه أمن ظهره بمحاربة السملالي والقضاء على نفوذه في درعة، بعدما قضى على كل أنصاره والمؤيدين له في سجلماسة كما سبق حيث كان له من الذين بايعوه أولا، هم ادخيسه، والصباح، والمعاضيد وأولاد غنام وذوي منيع وأحميان.، ثم اتجه بهم ناحية الساورة وتوات وفجيج حيث عرب المعقل في حملات خاطفة اتخذها وسيلة اعلام بين الذين أصبحوا فوضى لاسراة لهم، مما دفع بعلماء قصور، فجيج وأشرافهم ومختلف رجالات القبائل،إلى الإقدام عليه وطلب الدخول تحت نفوذه وسلطانه، فانهالت قبائل الناحية الشرقية عليه مما عزز قواته، ومكن لها، فأصبحت حملاته مصدر قلق للأتراك، كما أثارت فكرة التحرر منهم في النفوس، فعمت الثورات باعتراف عثمان باشا الجزائر، في مراسلته لمحمد بن الشريف الذي تردد صداه من تلمسان إلى أرض الجريد، لكن محمد بن الشريف أجل تلك الحملات بسبب ما جد بين أهل فاس والدلائيين الذين كانوا قد أسندوا الحكم فيها إلى قائدهم أبي بكر التاملي، الذي وحد بين اللمطيين والأندلسيين وأهل فاس الجديد، فيما يرجع إلى الحكم مدة عشر سنوات انتهت بما ظهر من خلاف بينه وبين محمد الصغير، قائد اللمطيين وعبد الكريم اللريني قائد الأندلسيين، واللذين اتفقا على عدم الخضوع للتاملي مما أدى بهذا الأخير إلى إعلان الحرب ضد أهل الأندلس واللمطيين بعدما قطع عليهما الماء، فاتفق اللمطيون وأهل الأندلس على الإستنجاد بمحمد بن

الشريف، الذي كان يتمنى ذلك فتوجه إلى مدينة فاس التي دخلها في منسلخ جمادى الثانية سنة 1059هـ/1650م(49) وقد استقبله فيها اللمطيون وأهل الأندلس الذين ساعدوه على التاملي قائد الدلائيين، وإذا هو انتصر عليه فإنه لم يقتله بل سجنه، لكن محمد الحاج الدلائي ما كاد يعلم الخبر حتى جند كل قواته وما أضيف إليها من قبائل بربر صنهاجة، ثم قصد مدينة فاس حيث تعرض له محمد بن الشريف بالمكان المعروف "ظهر الرمكة" حتى إذا ما شب القتال بينهما وكانت جموع الدلائي أكثر وأقرب استمدادا انهزم محمد بن الشريف، ثم قفل راجعا إلى سجلماسة وفي طريقه داخل نفوذ الدلائيين عوض أكثر مما فقده في المعركة التي قتل فيها الكثير من أعيان فاس منهم عبد الكريم اللريني ومحمد بن سليمان يقول الزياني.

لم يكن محمد الحاج الدلائي رجل دولة بالمعنى المفهوم، ذلك أنه كان كثيرا ما يترك الثغرات التي يحدثها ولاته دون أن يعالجها بالقضاء على أسبابها ومخلفاتها، فبالنسبة لأهل فاس الذين كان التاملي السبب فيما انتهوا إليه، لم يفعل معه أكثر من إعادته إلى مركزه ليعيد الكرة ويفعل أكثر مما فعل قبل مما أدى إلى الاستنجاد بمحمد بن الشريف، بل ظن أنه تدارك الأمر حين ولى إبنه أحمد مكان التاملي، بل كانت أقل من الأربع سنوات التي قضاها أحمد الدلائي بفاس عاملا من عوامل إقبال أهل فاس على مؤسس الدولة العلوية بعد، ذلك أن فاسا تعرضت لهجوم عنيف ومركز من قبيلة لحياينة المعروفة بنقمتها على أهل فاس، مما دفع علماءها إلى طلب النجدة من محمد الحاج، فقدم بنفسه في قوات كبيرة أحرقت ودمرت ثم شردت لحياينة ومزقتهم شر ممزق، الأمر الذي دفع بهم وبقبائل أخرى مجاورة لمدينة فاس، إلى أن تركب الصعب وتستمر في ثوراتها ضد

---

(49) الأنوار الحسنية 77 ت المولف ط 1966 ونشر المثاني 1/377 ط 1977 ت م حجي وأحمد التوفيق، والبستان للزياني م خ نا ص 19 والضعيفي 33 م خ نا وعنده وعند أبن زيدان في الإتحاف جـ 3/131 ـ 132 أن محمد بن الشريف بقي سلطانا على فاس لمدة أربعة عشر شهرا، لم يغادرها إلا يوم 12 رمضان 1060 هـ وهو شيء بعيد الإحتمال، لكنه أكد ذلك ثم زاد أنه لما خرج منها تولى حكمها الدلائي في 23 ربيع الأول، ثم ترك فيها ولده أحمد المتوفي يوم 20 ربيع ل 1064 فخلفه أخوه محمد المتوفي 1070هـ، ولعل أحسن مرجع لأحوال فاس في هذه المرحلة وما بعدها هو كتاب نشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري 1124هـ/1712م والمتوفي يوم 25 شعبان 1187هـ/1773م وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة رقم 1308.

الدلائيين وأهل فاس، مما أدى بهؤلاء إلى العودة للكيد والدس للدلائيين بدل المواجهة بالقوة التي لم تكن متوفرة ولا منتظمة بين الفاسيين، واشتد الكيد والمكر أكثر عندما أسند محمد الحاج الدلائي النيابة عنه في فاس لولده أحمد، الذي لم يكن في المستوى سنا ولا إدراكا، مما أدى به وقد ضاق ذرعا بمكرهم، أن يرحل من فاس دون إرادة سنة1070هـ/1659م الأمر الذي أدى بمحمد الحاج إلى إلقاء القبض على مائة من أعيان أهل فاس وقتلهم يقول الضعيف والحوات في البدور الضاوية، فوجدها أهل فاس فرصة أعلنوا إثرها عصيانهم ضد الدلائيين، وتولى حكم فاس الجديد محمد الدريدي الهلالي، الذي غدر بالدلائيين كما فعل مع السعديين الذي كان من قواد جندهم على رأس حامية الهلاليين بفاس، عندما استولى عليها الدلائيون بعد مقتل العياشي سنة 1051هـ/1641م، وزال نفوذه ليحل محله، لكن الدريدي لم ينعم طويلا بعمله كثيرا إذ سرعان ما تعرض هو الآخر لزوال عاجل وإن كان قد انتصر على عبد الله(50) بن محمد الحاج الدلائي، الذي وجهه والده لحصار فاس في رمضان 1072 هـ/ 1662م التي لم يقتصر العصيان فيها على الدريدي، بل انقلب أهلها إلى جانب الخضر غيلان المشار إليه قبل مع المجاهد العياشي المالكي بالشمال، مدة ثم عادوا إلى الدلائيين الذين كانوا وقتها في المنحدر، وهكذا فإن عوامل متعددة ساعدت محمد بن الشريف الذي انطلق شرقا يمهد ما لم يستطعه غيره بعد انهيار السعديين، كما كانت الظروف التي عاشها الدلائيون ومعاناتهم في العقد السابع من القرن الحادي عشر، إلى جانب ما عرفه المغرب من كوارث طبيعية كالجفاف والحروب الأهلية في مختلف المدن، وكذا الزلازل والمجاعة التي عمت، بالإضافة إلى

(50) عبد الله هذا ولاه والده خليفة له على الرباط وسلا، وأسكنه قصبة الرباط، وكان كاتبه عبد الملك التاجموعتي الذي سوف نتعرف عليه وعلى خرافاته التي حاول أن يثير بها أبا علي البوسي، وعبد الملك هذا وصفه بودميعة في مراسلة له مع محمد بن الشريف بالفجيجي على أنه معروف بسكن قومه بسجلماسة قصر أولاد اجميع، وأما المراسلة التي ذكره فيها بالفجيجي لا شك لها أصل، راجع إليغ مصدر سابق ص 129 وقد أرخ الضعيفي ص 22 م خ نا خروج ابن صالح وابن الصغير على محمد الحاج ونبذهم طاعته بيوم الإثنين 17 أو 19 ذي الحجة 1069 كما ثار عليه قبل بنو حسن وأهل الغرب الذين نزلوا بحوز سلا لمحاربة محمد الحاج وأميرهم الشيخ الدقاق، فكان الذي خاض الحرب ضدهم أيضا عبد الله في جموع من البربر، التقوا بوادي الشراط فانتصر عليهم وشردهم، كما حاول القيام والدعوة لنفسه في هذه المرحلة المسمى محمد بن إسماعيل الكوراري، راجع الرحلة العياشية جـ 1/40 ـ 43 ط حجر1316هـ.

التمزيق الذي انتهى إليه السعديون وما عرفت البلاد من انقسامات سياسية وظهور ولاة بلا تنصيب، وإنما اعتمادا على الفروسية، إلى جانب تطاحن الأسر التي كانت قبل معروفة بجهادها، والتي حولها غرور بعض أفرادها إلى تنازع ومحاربة فيما بينها، كل ذلك هيأ الجو لقيام الدولة العلوية وفي الوقت المناسب بشكل لم يسبق لغيرها من الدول، بل في ظروف حرجة وقاسية على المغرب لم تعرفها غيرها من الدول كذلك. هذا بالإضافة إلى أن الدولة ظهرت في ظروف سيئة بالمغرب من كل الوجوه، فبعد سياسة الانقسامات وتهديد الصليبية كانت أحوال المغرب الإقتصادية قد تدهورت بانحطاط التجارة الخارجية والداخلية، والزراعة هي الأخرى تعطلت بسبب الفتن والأوبئة، والإدارة زادت تفككا إلى درجة الإنعدام، وأصبح الناس فوضى في كل الجهات، شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، ولم يعد للدولة سلطان إلا في المدن الواقعة تحت نفوذ وسلطان ولاة السعديين، وقد انكمشت سلطتهم وتقلصت إلى درجة أصبحت قاصرة على العاصمة التي يوجد بها السلطان، أما دونها فقد أصبح في كل جهة ثائر أو ثوار، ولم يعد للقبائل من رابط غير أعرافها وتقاليدها في الغالب، وإن كانت تلك القبائل تعتقد أنها شرعا ترجع إلى سلطان شرعي له بيعة وعقد بينها وبينه، وتعدد المبايعون شكليا حسب الرجال الذين سبق ذكرهم، ومن أتى بعدهم، سواء كان هؤلاء دعاة جهاد أو حكاما أعلنوا عصيانهم ضد السلطة المركزية. في هذا الجو ظهرت الدولة العلوية التي دعى إليها محمد بن الشريف ومكن لها كلا من الأخوين الرشيد وإسماعيل بعدهما.

الفصل التاسع عشر بعد المائة

الأخوين محمد والرشيد والتمكين للدولة العلوية

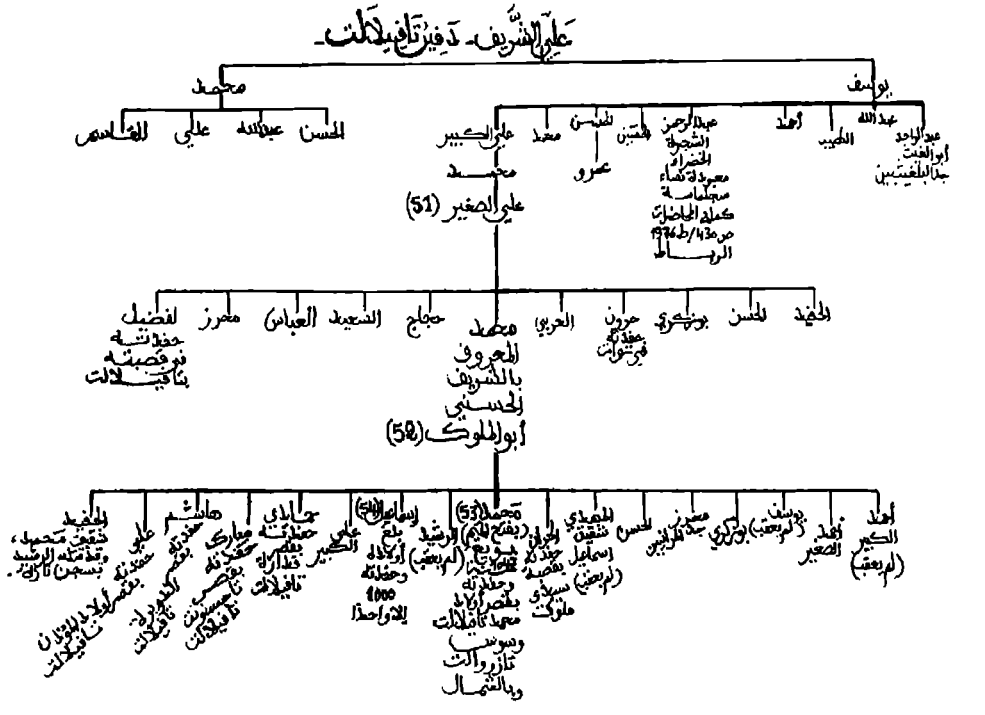

(51) دفين باب إيلان بمراكش ومثله باب إيلان كان معروفا بتلمسان يقول ابن أبي زرع في الدخيرة ص 61 ط 72).

(52) له آثار علمية منها نوازل أهل سجلماسة في عصره م خ نا وعدد أولاده أخذناه من تاريخ الضعيفي ص21 م خ نا ومن البستان الزياني، ومن شجرة ابن المامون البلغيثي م خ نا، وأما الذين حققوا في نسب العلويين الحسنيين يقول أحمد بن حمدون ابن الحاج فهم أحمد الشفشاوني العلمي، وأحمد بن القاضي في المنتقى المقصور ودرة الحجال، وجذوة الاقتباس، وعبد العزيز القشتالي في مناهل الصفا، والعربي الفاسي في مرآت المحاسن، وعبد الرحمن الفاسي في ابتهاج القلوب؟ وعبد السلام القادري الحسني في الدر السني، وحفيده محمد بن الطيب في مواضيع من كتاب نشر المثاني، والتقاط الدرر، ودرة المفاخر، وكذا حمدون بن الحاج ثم شرح عقود الفاتحة، كما نقل هؤلاء عن أمثال أحمد بن عبد العزيز في الأنوار والزياني في الترجمان والبستان والروضة.

(53) شقيقه الحفيد.

(54) شقيقه المهدي لم يعقب ج) كان على جانب من العلم وقد ترك اثرا.

توفي الشريف بن علي في شهر رمضان سنة 1069 هـ/1658م مخلفا الكثير من أولاده(55) الذين أصبحوا رجالا يقاتل بعضهم إلى جانب أكبرهم الذي أصبح سلطانا مبايعا منذ أكثر من عشر سنوات "1047هـ" وهو محمد بن الشريف الذي كان عنيفا مع الإخوة الذين هم غير أشقاء، إذ لم يكن شقيقه من بينهم غير الحفيد الذي جرح وقت الهجوم على تابع صامت، ولذلك خرج الرشيد من سجلماسة فرارا من معاملة أخيه والذي قيل إنه فر من سجنه يوم 13 رمضان يرافقه عبد الواحد لمراني "الإتحاف 43/2" دون قصد ولا هدف، حيث توجه إلى تدغة التي حل بها يوم 22 شوال، ثم إلى دمنات، ومنها عاد إلى الزاوية الدلائية التي لم يجد بين أهلها مكانا بسبب ما كانوا عليه مع أبيه وأخيه من جانب ، وأن الرشيد قبل كان رسول أبيه إليهم في نازلة أبي حسون، وهذا غير صحيح لأنه من مواليد 1040 وبسبب ما سبق وما كان الدلائيون قبل يعرفون عن أبناء الشريف من أبناء عمومتهم المحمديين الذين كانوا يتوددون إلى الدلائيين. كما سبق ، أن وضحنا ذلك قبل ، وأنهم كانوا يضمرون لهم العداء ، خصوصا الرشيد الذي سيقضي عليهم(56).ولما خرج الرشيد من زاوية الدلائيين توجه إلى مدينة أزرو، ومنها إلى فاس(57)، وكان رفيقه في هذه الرحلة التي انتهت به إلى أنكاد قرب وجدة حيث حط الرحال عند الشيخ اللواتي صديق مخلص هو عبد الواحد لمراني وخديمين من قصر الگراوة بتافيلالت، كان الرشيد وقت فراره من وجه أخيه في السنة التاسعة و العشرين من عمره، وإذ هو كما أشرنا من مواليد 1040هـ/1630م وإذا كان الشيخ اللواتي يقول الضعيفي

---

(55) أورد الزياني في البستان ص 4 – 20م خ نا رثاء الشريف بقصيدة من إنشاء العلامة محمد بن مبارك الحسني يستدل بها على تملك الشريف البيعة بسجلماسة كما أورد وأن عدد أولاد الشريف بن علي 12وزاد عليه الضعيفي الذي قال إن عددهم 33 ذكر منهم 17 ص 21 ونحن أوردنا 19 لكن الذين كان لهم شأن منهم هم محمد والرشيد وإسماعيل هؤلاء الذين ملكوا.

(56) تذهب الروايات المختلفة إلى أن الرشيد أبعد من زاوية الدلائيين بدعوى أنهم أخبروا أنه الذي سيخلى زاويتهم يقول القادري؟! وأنهم استفادوا ذلك من بعض الإخباريين عن كشف؟ ولذلك أبعد حتى لا يهاجم وأنهم ما فعلوا ذلك إلا حبا في آل البيت، ونسي هؤلاء أن ما فعلوه بهم يوم حربهم لسجلماسة أفظع وأشد، راجع المصدرين المذكورين قبل.

(57) قيل إن الدريدي حاكم المدينة لما تعرف عليه أعطاه حملا من الشعير لإطعام خيله وخمسة دارهم ثم أمره بالرحيل، راجع نشر المثاني للقادري 103/2. والاتحاف لابن زيدان 28/3 ـ 64 وفيه أورد رواية دوكاستر؟ حول خروج الرشيد من تافيلالت ص 35 وأن أخاه محمد أعاده بعد الفرار ومعه ثلاثة أوقع عليهم الحد، وأدخل الرشيد =

"32م خ نا" من الذين يعتقدون ويعظمون نسبة آل البيت، وأن له الرئاسة في تلك النواحي فإن الرشيد لم يذهب دون أن يكون قد تعرف عليه من بعيد وبواسطة، وأنه لا شك وضع في حسابه الاستفادة منه في خطة رسمها، أو كانت تتدحرج في ذاكرته وخياله، ولم تكن أكثر من العمل قصد العودة لموطنه بأمان، خصوصا وأن الشيخ المذكور، لما علم به وتعرف عليه أقبل عليه وبالغ في تكريمه، الأمر الذي مكن للرشيد في تلك البلاد وبين أهلها، والتي قضى فيها أكثر من خمس سنوات قبل أن ينهض لتحقيق الهدف، الذي خطط له، أي الذي هدف إليه عندما وجد نفسه بين قوم كرموه وقدروه ثم أقبلوا عليه، خصوصا وأن أخاه محمد قد سبق له وفي الماضي القريب أنه حارب الأتراك وغيرهم من القبائل في تلك المنطقة.

في هذه المرحلة، وبعد موت الشريف لم يعد أحد يشارك ولده محمد في الرأي، بل أصبح هو الذي يخطط وينفذ في كل شيء بل أصبح إخوته وأبناؤهم يجدون مضايقة منه ومن أبنائه الذين أصبحوا في صفوف المقاتلين، خصوصا وأنه أصبح يلزم الإخوة وأبناءهم الرحلة مع الجنود إلى حيث كان يفتح الثغرات، سواء ضد الأتراك في الناحية الشرقية، أو ضد الدلائيين الذين كانت مملكتهم تمتد من تطوان إلى جبل العياشي شمالا وجنوبا، ومن تازة شرقا إلى آزمور ووادي أم الربيع غربا، بل كان محمد بن الشريف يركز حملاته ضدهم في الأماكن الحساسة، والتي يعتمدون عليها أكثر، مثل مدينة فاس، وتازة، وما قرب منهما، ولقد كان الدلائيون يستعدون لحرب محمد بن الشريف بشكل أدى بهم إلى إرهاق ما كان تحت نفوذهم من قبائل، خصوصا في الأطلس المتوسط، حيث ضاق الناس ذرعا بالحروب التي لم يكن الدلائيون يحققون فيها غير إشاعة الفتن ونشر الإضطراب ونفور الناس من حكمهم، خصوصا وأن حروبهم إنتشرت أكثر في الأماكن التي لم يكن محمد بن الشريف قد اتصل بها ناحية الشمال، حيث أغار لخضر من

= إلى السجن، وبعد أيام فر، وهذا من خيال كتاب الغرب عن الشرقيين كما يظهر من بقية القصة ص36 ولقد شطح بعض الفرنسيين شطحات رددها بعض المؤرخين حين قال إن الرشيد تعرض إلى السجن بأمر من أخيه محمد وأنه فر ثم أعيد إلى السجن ثم فر منه، وهذا من نوع الكتابات المشوقة إلتي اعتادها الغربيون مع مواطنيهم راجع ابن زيدان الاتحاف 28/3 وما بعدها ثم راجع الروضة السليمانية ودرة التيجان ... إلخ إلخ.

البحر، كما حاصر ولده عبد الله مدينة فاس لمدة عشرة أيام عرض ما حولها من إنتاج فلاحي للإتلاف، مما دفع ابن صالح وابن الصغير والدريدي رغم كل الخلافات إلى الإتفاق ضمنيا على رفض الولاء للدلائيين، خصوصا وأن محمد بن الشريف الذي كان على علم بما وصل إليه التذمر لم يترك الفرصة تمر، فقصد ناحية فاس آخر سنة1070هـ/1659م حيث أتى على البقية الباقية مما حول فاس من إنتاج فلاحي أواخر المحرم 1074هـ/1663م وبالأخص لحياينة حتى يدفعهم للنقمة أكثر على الدلائيين(58) فحلت بفاس مجاعة زودت نار الكراهية ضد الدلائيين الذين فقدوا سلطانهم على البلاد التي أكل الناس فيها الجيف، والدواب، ولحم الأدمى،(59) بل إن أهل فاس إلتفوا حول أحد أبناء علي بن طاهر، وهو محمد ليقودهم ومعهم لحياينة، الذين كان يجمع عندهم الزكاة قدموه في حرب ضد محمد بن الشريف الذي رجع توا إلى موطنه فلم يجد أهل فاس بدا من العودة إلى حكم محمد الحاج الدلائي متوسلين إليه بالعلماء والأشراف، وإذا هو قبل فإن الدريدي بقي خارج الدائرة، بل استمر في عصيانه وأصبح ينظم القوافل لنهب النواحي، حتى انتهى إلى مكناس وزرهون بعد سايس وما حولها، بل أصبح الدريدي يستقبل عودة عصاباته والمغيرين من أصحابه على الآمنين بالطبول والزغاريد، ثم يعرض للبيع في الأسواق ما يجلبونه من متاع وسبايا، مما أصبحت معه مدينة فاس في كرب وضيق، زاده الزلزال والقحط اللذين ذهبا بأرواح العشرات، بل المآت من الناس، حيث تهدم ما بين درب الحرة وباب المحروق، وأخيرا تعرضت بسبب تصرفات الدريدي إلى هجوم كبير من البربر في شهر رمضان من سنة 1074هـ/1663م، كما استولى الأنجليز على مدينة طنجة في هذه المرحلة كذلك.

تلكم هي مجابهة محمد بن الشريف للدلائيين الذين لم تنقطع الحروب بينه وبينهم، كلما تمكن من قوة جديدة تمكنه من مهاجمتهم ليثأر مما ارتكبوه بواسطة البربر، في وقعة الكارة بسجلماسة التي أعاد لها الشريف وولده محمد أمنها واستقرارها بل جدد

---

(58) البستان 21 ـ 22.

(59) المصدر السابق الضعيفي ص 23 م خ نا فقد ورد فيه أنه دفن من مات في المارستان فقط 84000، وأكل الناس الموتى، وسط الصفارين القريبة من القرويين جهارا، وكان يعد بحومة الروم 600 رجل لم يبق منهم سوى ثلاثين رجلا وأما الزلزال فكان بتاريخ 24 ربيع الأول 1074 هـ/15 يوليه 1663م.

ازدهارها بشكل جعلها قادرة على تمويل الحروب التي كان يخوضها محمد بن الشريف شرقا وشمالا، بل كان لمحمد بن الشريف خطة عجيبة في حروبه لو تنبه لها المؤرخون لعلموا أن دائرته التي كانت تتكون بالإضافة إلى والده الذي أبان عن حنكة، كلا من العلامة الكبير محمد بن المبارك(60) صاحب الرسائل البليغة التي أجاب بها محمد بن الشريف كلا من الدلائي و«عثمان» باشا باي الجزائر، ثم القاضي رضوان بن عبد الملك، وأحمد التاجموعتي، هذا بالإضافة إلى القيادة الحربية والنفس الطويل اللذين كان محمد بن الشريف يتمتع بهما.

(60) هو ابن الحفيد بن علي الشريف الحسني راجع رسالته جوابا على رسالة عثمان باشا داي الجزائر، الواردة بتاريخ 15 رجب 1064 هـ والجواب بتاريخ آخر شعبان من نفس السنة في كتاب الضعيفي م خ نا من ص16 إلى 20 لكن تاريخ ولاية عثمان بهذا الإسم كان فيما بين 1057 هـ/1061 والذي كان في عهد تاريخ الرسالة هو أحمد 1063 ـ 1065 الذي خلفه ابراهيم وفي عهده ضرب الانجليز الجزائر بقنابلهم راجع زامباور 128/1 ط 1951 جامعة فؤاد مصر.

الفصل العشرون بعد المائة

صراع محمد بن الشريف والأتراك شرقا
وما أفاده الرشيد من ذلك الصراع

كانت حروب محمد بن الشريف في الناحية الشرقية. والتي نعتبرها أكبر تمهيد لقيام أخيه الرشيد من غير أن يقصد ذلك محمد، هي التي استغلها الرشيد في الوقت المناسب، كما سنرى، – كانت– مخططة بمهارة فائقة، فبعد الاقامة بالمنطقة خمسة أعوام قويت فيها سمعته ومكانته وهو ابن الشريف بن علي سلطان سجلماسة. وصنو محمد بن الشريف السلطان المعروف بحروبه مع الدلائيين، كان محمد بن الشريف يقصد من حروبه المتكررة في تلك المساحة الطويلة العريضة التمول أولا لمواجهة خصومه الأقوياء، وهم الدلائيون، ثم بالتالي كان يبتعد بها عن موطنه سجلماسة التي كانت بحكم موقعها بعيدة المنال، فكان كل ذلك يزيدها استقرارا، ويزيد سلطانها قوة وهيبة وإقداما، وكانت حروبه إلى جانب ذلك تقصد الإحاطة بالدلائيين من جانب، ثم بعث التذمر ضدهم من جانب آخر، كما كان يبعد أطماع الأتراك الذين ربما يغريهم ما آلت إليه دولة السعديين كذلك، وهكذا نرى محمد بن الشريف كلما إنشغل عنه الدلائيون بمشاكلهم الداخلية إتجه شرقا، وبذلك إنضمت إليه قبائل الأحلاف وسقونة من عرب المعقل، وبهم حارب بني يزناتن فعادت عليهم تلك الحرب بالغنائم التي حصلوا عليها، لأنهم كانوا يرمونهم بالميل إلى الأتراك، وفعلا فقد كان بنو يزناتن بحكم الضرورة والموقع يسالمون الأتراك ويطلبون ودهم إبعادا لشرورهم، بل وبتلك الانتصارات إستطاع محمد أن يدخل مدينة وجدة وأن يحتلها بقوة القبائل المجاورة التي آنضمت إليه، بل وأن يقضي فيها على ما كان للأتراك من أثر أدى إلى إنقسام أهل وجدة ما بين مناصر ومعاد لهم، فكان أول عمل قام به هو إخلاؤها من كل العناصر التي كانت تتضرر منها القبائل المجاورة لمدينة وجدة.

وإذا كانت حروب محمد بن الشريف للناحية الشرقية بدأت بمحاولات منذ سنة1050هـ/1640م فإنه اتجه ناحية توات ليؤمن طرق القوافل التجارية من سجلماسة إلى تمبكتو، حيث إستولى على تمنطيط يوم 22 جمادى الثانية 1053هـ/ 1645م وأقام فيها يقول "مارتان" أربعة أشهر، حدد خلالها سعر مثقال الذهب بواحد من تسعة وإن كان العياشي في رحلته يقول بأكثر من ذلك. ولما عاد منها وجه إليها قواده كما تنص على ذلك وثائق تمنطيط المخلوطة، ومن جملة هؤلاء القواد القائد علي الذي حارب مدة في توات فتانا يدعى عبد الله، جاء من وادي سوف مدعيا إمامة المهدوية، فاعتقل وسيق إلى السلطان مولاي محمد بن الشريف، وكذلك القائد بن عبو الذي جبى الزكوات والاعشار ثم عاد إلى المغرب(61).

لقد وجدنا وثيقة كتبها معاصر من أهل فجيج على ظهر كتاب "معونة القارئ" وهو في ملك أحد الجمالين أن محمد بن الشريف وصل فجيج وحارب أهل تمزرغة وقتل منهم نحو المأتين وجرح الكثير، وذلك سنة 1051هـ للمرة الأولى، والثانية 1057هـ، ففي شهر جمادى الثانية يقول صاحب المذكرة "نزل بأجدل مكان معروف عند أهل فجيج حتى اليوم بهذا الإسم، وهي السنة التي مات فيها والد صاحب المذكرة كما يقول، بل وجد من أهل فجيج خصوصا الأشراف الوادغيريين بتوجيه من أسرة الرشيديين الذين سنرى تأييديهم للمولى محمد وللرشيد واهتمامهما بهم كذلك لأنهم تزعموا دعوة جميع السكان لتأييد محمد بن الشريف وصنوه الرشيد بعد فكان جميع سكان تلك القصور عونا لهما ضد الأتراك الذين كانوا موتورين منهم، خصوصا وأن الفجيجيين بقوا في الميدان وحدهم بلا أية مساعدة من الدولة التي إنعدم سلطانها في تلك المنطقة، وذلك في الوقت الذي إنشغل الدلائيون بتصفية الجيوب التي خلفها المجاهد العياشي.

وهكذا فإن حروب محمد بن الشريف أثمرت بعدما إنتشرت سمعته وما حققته ضد الأتراك الذين كانت مطامعهم تتربص بالمنطقة، وما شغلهم عنها إلا ظروف دولتهم التي كان سلطانها إبراهيم خان الأول(62) الذي واجه زيادة على تركة تذمر جيش الانكشارية

(61) معلمة الصحراء ملحق 205/1. عبد العزيز بن عبد الله.

(62) ولد يوم 12 شوال 1024هـ/4-11-1615م وتولى إثر موت أخيه مراد الرابع الذي لم يعقب يوم 16 شوال 1049هـ/9-2-1640م.

وقواده الذين حاول التحرر من سلطتهم عليه، فعزلوه وولوا مكانه ولده الذي لم يبلغ السابعة، واجه بالإضافة إلي ذلك صراعا إنتهى بقتله على يد رجال السباهي حيث خنق بيد قره علي، كما فعلوا بالسلطان عثمان الثاني قبله وبذلك تم تنصيب محمد خان الرابع الذي لم يبلغ السابعة من عمره، بل وفي هذه المرحلة كانت دولة آل عثمان تخوض حروبا متعددة في بلاد مختلفة إنتهت بها إلى إنهيار لم يستطع مقاومته كل السلاطين المتعاقبين(63) بعد، ولولا هذه الظروف لما تأخر آل عثمان، بل ولا ولاتهم في الجزائر عن تحقيق ما كانوا يظهرونه من أطماع في المغرب، خصوصا في عهد تفكك دولة السعديين وما أصبح عليه المغرب من تمزيق، بل إن محمد بن الشريف بعمله الشجاع الذي لم يفكر فيه غيره، والذي لو لم يكن لارتمى رجالات القبائل في الناحية الشرقية في أحضان الأتراك ما دامت بلادهم قد أصبحت فوضى بلا قيادة، ولا أحكام بمقتضى الشرع، وإذا ما أستمرت حروب محمد بن الشريف للناحية الشرقية دون أن تكلفه أي ثمن، بل كانت موردا يستمد منه القوة بالرجال والسلاح، فإنها في شهر رجب سنة 1064هـ/1653م إنتهت بداي الجزائر المعاصر إلى مراسلة محمد بن الشريف برسالة تدل على الضعف الذي أنتهى إليه الأتراك وقتها، خصوصا وقد إرتفع حماس قبائل أولاد زكرى وأولاد علي وبني سنوس الى درجة أنهم دفعوا محمد بن الشريف إلى التوغل في الأرض التي يحكمها الأتراك، فتقدم إلى ندرومة بعدما أغار على مطغرة وكومية وترارة وولهاصة ثم رجع إلى وجدة لينظم هجومه الكبير على تلمسان التي تعرضت هي الأخرى لهجوم مكثف، ولولا فصل الشتاء لتقدم إلى ما حولها، لكنه عاد إلى وجدة حيث إستعد من جديد، ثم توجه الى قبيلة حميان والجعافرة، حيث تلقى البيعة من الشيخ محمود شيخ قبيلة حميان من بني يزيد، الذي آقتدى به شيوخ قبائل دخيسة، وإذا كان يريد العودة إلى سجلماسة فإنهم جروه إلى ناحية لغواط(64) وعين ماضي، والغاسول، فاستولى على

(63) راجع تاريخ الدولة العلية لمحمد بك فريد ص128-138 ط 1912.

ونتوفر على أصل الرسالة التي وجهها كاتب الباشا عنان اصطنبولي إلى المولى محمد بتاريخ رجب 1064هـ وجواب المولى محمد عليها رقم 448 خزانة المؤلف.

(64) تقع لغواط وواحتها على نهر وادي مزى الذي ينبع من جبل لعمور، وهي بين جنوبي وهران وجنوبي قسنطينة في المكان الذي تتفرع فيه الطرق نحو الغرب، إلى أولاد سيدي الشيخ، وإلى جنوب مزاب، وورغلة ونحو الشرق إلي زيان وبسكرة، مما جعلها مركزا تجاريا هاما، وقد كانت تدفع خراجها للمغرب، وفي آخر السعديين بعد المنصور انقطع ما كانت تدفعه قبائلها إلى أن غزاها محمد بن الشريف فهجر سكانها قصرا بدلة وقصبة فتوح.

أنعامها ومدخرات أهلها، ولم تسلم منه غير قبائل سويد وحصين التي فر أهلها، ثم إعتصموا بجبل راشد.

وهكذا لم يغادر محمد بن الشريف ناحية المنطقة الشرقية متوجها في فصل الشتاء الى سجلماسة، حتى نظم قيادات القبائل المذكورة، ثم تواعد معهم فصل الربيع المقبل، وبعد أن كان قد ركز قوات منها في المنطقة، أمرهم ثانية أن يتفرقوا ثم تعود كل قبيلة إلى موطنها، وذلك بسبب ما بلغه من خبر أن الأتراك نظموا حملة جهزوها بالمدافع، ثم وجهوها بقيادة شلبي إلى المنطقة، وهكذا لم تصل قوات الأتراك إلى المنطقة حتى وجدوا محمد بن الشريف قد غادرها محملا بالغنائم والعتاد، ثم ترك بني يزناتن وقد إشتبكت في نزاع بين عناصرها بني خالد، وبني عتيق، وبني منكوش، وبني وريمش.

لقد تحولت المنطقة الشرقية إلى غليان وعصيان ضد الأتراك إمتد إلى الجريد بشهادة حكام الجزائر في مراسلاتهم لمحمد بن الشريف، والذين أصبحوا في موقف حرج إزاء دولتهم من جانب، وإزاء المواطنين الذين صدوا عنهم ورفضوا أوامرهم بدفع الجبايات، بل إن أهل تلمسان أنفسهم إقتدوا بالقبائل التي بالغت في نفورها من الأتراك، الأمر الذي دفع بداي الجزائر عثمان إلى إرسال سفارة لمحمد بن الشريف تحمل رسالة غير مفهومة المقاصد، لأنها حملت اللوم والتهديد من جانب، والاستعطاف والتوسل من جانب آخر(65)، وكانت السفارة من أربعة أشخاص فيهم الفقيه عبد الله بن عبد الغفار النفزي، والحاج محمد بن عبد العلي الحضري المزغناوي، وآثنين من ديوان الداي "عثمان" وقد ورد في الرسالة التي حاول الكاتب بها التأثير على محمد بن الشريف، وتوجيه حروبه ضد البربر الذين مزقوا ملك المغرب، والذين أصبح يدعى لهم على المنابر، وهم الهمج حسب عبارات حاول بها الكاتب رد آعتبار الداي، لكنه إنتهى إلى استعطاف بعد ذلك راجيا منه ترك جانب الأتراك في الجزائر"وطن الرمال والعجاج، ومخاطر النفس في الفدافد والفجاج... فسألناك جدك من الأب والأم، ومالك فيه من أخ وخال وعم، إلا ما

(65) راجع الرسالة في كل من البستان للزياني م خ نا ص12، والضعيفي ص15 مؤرخة بـ15 رجب 1064هـ 1633 وهي من إنشاء المحجوب الحضري، وقد رد عليها العلامة محمد بن المبارك، بن الحفيد الحسني، ردا بليغا بتاريخ آخر شعبان من نفس السنة راجع الضعيفي ص20.

تجنبت سوائح تلمسان ولا تزاحمها بمحن جموع رماة ولا فرسان،... فقد تعطلت تجارتنا وانقطعت سبلنا، وأجفلت عن وطننا رعايانا، فما جوابك عند الله معنا، وهذا الذي تفعله وأنت إبن رسول الله في بلادنا، لم يعجزنا أن نفعله نحن في بلادكم ورعاياكم، على أننا محمولون على الظلم والجور عندكم، لكن تأبى ذلك همة سلطاننا"(66).

ولقد كانت سفارة النفزي والحضري موفقة في وعظها لمحمد بن الشريف الذي قال الزياني أنه تأثر به تأثرا بليغا، دفعه إلى القول "والله ما أوقعنا في هذا إلا شياطين العرب الذين إستنصروا بنا على أعدائهم وأوقعونا في معصية الله... ولا حول ولا قوة الا بالله، وأنا أعاهد الله تعالى أن لا أعود لرعاياكم، ولا لبلادكم، وأعطيكم ذمة الله وذمة رسوله، لا قطعت وادي تافنة، إلا فيما يرضى الله ورسوله، وكتب لهم عهدا بذلك لدولاتني الجزائر عثمان باشى، ولم يعد لغزو الشرق، ولا توجه لناحيتهم إلى أن خرج عليه أخوه الرشيد"(67).

وهكذا ترك محمد بن الشريف الناحية الشرقية من المغرب، دون أن يدرك أن قبائلها لا يستقر لها قرار إلا إذا هي إطمأنت من جانب الأتراك الذين لم يقتصروا على العمل المسلح، وإنما كانوا يبثون دعاتهم وعملاءهم في مختلف المناطق الموالية للحدود، يدفعون القبائل إلى التحرش بعضها ببعض حتى تنشغل عنهم ويجدون السبيل لابتزازها، وقد كانت تلك سياسة الولاة طيلة القرن السابع عشر، مما أدى بتلك القبائل الى البحث عن رائد فلم تجده إلا في الرشيد الذي كان قد آستقر في هذه المنطقة في ضيافة الشيخ اللواتي الذي أكبره وقدره كل التقدير، بل إن الرشيد وقد مضى على وجوده في منطقة أنكاد مدة خمس سنوات، كانت كافية للتعريف به بين قبائلها، كما كانت كافية لتعرفه على المنطقة بما يكفي لتمكينه من الهدف الذي وإن لم يكن قد خطط له وقت فراره من سجلماسة يكون قد استوحاه من ظروف المنطقة التي عرفت جولات أخيه الحربية، والتي لا يبخل أهلها على آبن الشريف بن علي، إن هو تحرك وطلب المساعدة يجدها بسخاء في الاتجاه المرغوب وفي الوقت المناسب كما سنرى، وهكذا فإن أول

(66) الزياني نفس المصدر ص13.

(67) الزياني نفس المصدر ص13.

مؤسس للدولة العلوية بتافيلالت هو محمد بن الشريف الذي يخبرنا التاريخ أنه في الفترة ما بين 1050 و1077هـ/1640–1666م وهي الفترة التي إنطلق فيها أي قبل موت والده بتسعة عشر عاما وبعد موته بأربع سنوات إستطاع أن يوسع دائرة حكمه إلى منطقة ذرعة غربا وشرقا إقليم توات وملوية العليا إلى حدود تلمسان، حيث أصبحت تحت حكمه قبائل بني سنوس واحميا، ولهايا، والأحلاف، وسويد، ورشيدة، بل وعين ماضي، والأغواط، حيث اعترف له بذلك من قبل الأتراك الذين اضطروا تحت ضغط تهديده بالتقدم شرقا إذا لم يضعوا حدا لتصرفات رعاياهم، فأرسلوا سفارتهم إليه، كما سبق والتي إستقبلها في سجلماسة التي عرفت في عهده إزدهارا وقوة أصبحت معتبرة ومهابة من قبل السملالين والدلائيين وغيرهم من بقايا السعديين الذين تمزقت مملكتهم، والذين سيأتي الرشيد بن الشريف على البقية الباقية من سلطانهم، والذي ستكون إنطلاقته من قبيلة بني يزناتن، حيث خدمته مكانة والده وما إنتهى إليه نفوذ أخيه.

الفصل الواحد والعشرون بعد المائة

قيام الرشيد بن الشريف

علمنا أنه في هذه المرحلة من تاريخ المغرب السياسي، كانت البلاد قد إنتهت إلى تمزيق وتفريق لم تعرفه قط في تاريخها الطويل، ذلك أنه أصبحت في المغرب الأقصى دول وحكومات في كل ركن من أركانها لا تدين الواحدة منها للأخرى، ولا علاقة بينها إلا علاقة الحروب والفتن، ففي الغرب سلطنة إيليغ بيد أبي حسون السملالي، وفي مراكش استولى الشبانات(68) بعد غدرهم بآخر السعديين، وأصبح كروم الشيباني صاحب السلطة، وفي الشواطئ عاد الاحتلال الاسباني الانجليزي لكل من لبريجة والعرائش وأصيلة وطنجة والمعمورة(69)، وفي سلا والرباط وقصبتها، وما عرفت من جمهوريات إنضمت إلى حكم الدلائيين الذين كان مركز دولتهم بالأطلس المتوسط، بل والتي كانت أكثر إتساعا وأقوى بعلاقتها الخارجية مع دول أوربا، لكنها لم تفكر في توحيد البلاد ولا في تحرير الشواطئ بطريقة جدية، لأنها كانت في نزاع مستمر مع ما حولها، خصوصا بعد ظهور سلطنة تافيلالت التي ناصبتها العداء، وفي الناحية الشرقية، حيث القبائل المشار إليها قبل، ما بين عربية وبربرية، من تازة إلى الريف ووجدة، إلى قبائل لعمور واحميان بل إلى توات حيث أطلق الحبل على الغارب وأصبحت البلاد فوضى لا تعرف استقرارا ولا تدين بالولاء لسلطان،حتى إستأسد فيها البغاة ثم وجد فيها أمثال اليهودي

---

(68) راجع المعسول للمرحوم محمد المختار السوسي 148/19 وقد جعلهم خليط بين عرب المعقل، وبربر دوارة، وعند ابن خلدون الذي يوجد بشمال إفريقية هم الشعبانات بطن من بن مختار بني محمد من بني هلال بن عامر من العدنانية، كانوا حلفاء للرقيطات، في غالب الأحوال، راجع العبر 70/6 وعمر كحالة 578/2 وتاريخ الجزائر للمدني 135، وهؤلاء الشبانات تعرض لبربريتهم محمد بن الشريف في مراسلته لزيدان السعدي، وهم الآن ضمن أولاد جرار باقليم سوس.

(69) وهي المدن التي سيحررها السلطان إسماعيل ما عدا لبريجة التي سيحررها حفيده السلطان محمد بن عبد الله راجع الأنوار الحسنية تحقيق المؤلف ص90-91-93- ط1966.

إبن مشعل مرتعا في الغاب تحميه بعهد قبائل قريبة من بني يرناتن وتدفع عنه كل من يرده بمكروه، وفي هذه المنطقة كذلك كانت الصراعات الحادة بين القبائل بشكل حولها إلى سعير لا تستمر فيه الحياة إلا بقوة الحديد والنار، بل وتطوان، والقصر، وطنجة ونواحيها حيث لخضر غيلان وأعراص، وأولاد النقسيس، وأولاد أبي الليف الذين كانت غاراتهم تروع العدو، لكنها كانت بينهم كذلك، وفي مدينة فاس ذات الثلاث حكومات في الثلاثة مدن، عدوة الأندلس، وعدوة اللمطيين، ثم فاس الجديد، كان الصراع على أشده بين الدريدي، وحمو بن صالح، وإبن الصغير، بل إن أول الثلاثة وكما رأينا أصبح محترفا للصوصية بواسطة عصابات كان يوجهها إلى مكناس وزرهون وما حولهما، تروع الآمنين ثم تعود بالأسلاب والسبايا للبيع في أسواق مدينة فاس التي ذل أهلها ولم يعد لعزيزهم من نصير أمام هجمات لحياينة كما رأينا. أما أبو حسون السملالي من إليغ بأرض سوس فقد تعرفنا عليه قبل.

هكذا كان المغرب في الوقت الذي كان قد مضى على الرشيد بن الشريف مقيما بين قبائل زناتة وأنكاد نحو الخمس سنوات، في ضيافة الشيخ اللواتي، أي منذ خرج فارا من أخيه محمد بعد موت والدهما يوم 13 رمضان 1069هـ/1658م، وإذا هو رأى وعاش ما آلت إليه ظروف القبائل المحيطة من فوضى وتفكك حتى إن بعضها فضل فقد الوطن واللصوصية على حكم الأتراك غرب الجزائر، فإن عليه أن يصدع بالفكرة التي لا شك ستجد لها أنصارا ومؤيدين إن هي وجدت القبول والعون من الشيخ اللواتي صاحب المكانة المرموقة بين أهل أنكاد "الأنجاد" وبني يزناتن وإذا هو تقدم إليه وشرح له ما يقصد من رتق الصدع، وجمع الشمل، وتأليف القلوب، حتى تعود المياه إلى مجاريها، فإن الشيخ اللواتي بلا شك، وإن كان قد استجاب لم يفعل شيئا إلا بعد جمع الذين هم رؤوس القوم وكبار العشائر وفي إستطاعتهم المساهمة في تحقيق مقاصد الرشيد.

كان الرشيد وقتها في سن الرابعة والثلاثين إذ هو من مواليد 1040هـ/1630م بتافيلالت وفي المكان المعروف «قصابى» مولاي الشريف(70) وكان على جانب مهم من

(70) يقول الزياني في البستان الظريف أنه ولد سنة 1040هـ/1630م. وفي الترجمان المعرب ص369 م خ نا أنه ولد سنة 1049هـ. والصحيح هو ما في البستان لانه لا يعقل ان يفر من أخيه كما رأينا، وسنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين ثم يقوم بما قام به من مهمات في حياة والده وهو دون ذلك السن.

الثقافة والعلم وإذا صح قول الضعيفي أن القوة التي بدأ بها الرشيد حركته كانت مكونة من خمسمائة نفر إستطاع الشيخ اللواتي(71) وأنصاره إقناعهم بالانضمام إليه فإن هذه البداية القليلة العدد -والتي قيل إنه هاجم بها دار ابن مشعل ثم استولى على ما كان له من مال فرقه توا على أولئك الرجال وهو ما لم يحدث، بل القصة كما سنتعرف عليها بعد- سرعان ما تحولت جموع الرشيد وبدافع الظروف إلى كثرة وقوة كبيرة عندما إنتهى الخبر إلى قبائل بني سنوس والشجع، والشراقة، ومديونة، وبني عامر، وهي القبائل التي كانت متذمرة أكثر من الأتراك في الجزائر، والتي سيوطنها الرشيد بعد في ضواحي مدينة فاس، عندما ينتهي من فتوحاته، وإذا هو نظمها وأحكم قيادتها بواسطة الرجالات الخمسمائة الأولين من أهل أنكاد وبني يزناتن، ثم قام بجولات موفقة أذاعت سمعة إنتصاراته، ثم بلغ صداها إلى تافيلالت حيث صنوه محمد بن الشريف الذي أنقطع عنها بعدما مدته بكل طاقاتها، حتى إنتهى إلى ندرومة وتلمسان وناحية لغواط، دون أن يعود عليها ما قدمت من عرق ودم ولو بإستقرارها وهنائها من ظلم الأتراك واعتداءات الأقوياء الذين إتفق معهم المولى محمد، مما دفعها لتلبية نداء الرشيد ولو ضد أخيه بعد، فإن ذلك كان من عوامل إندفاعها خلف الرشيد الذي عرف أنه هادف وقاصد، ثم هو مستقر بينهم.

كانت أول حملات الرشيد الموفقة تلك التي توجه بها إلى تازة ومدينة وجدة التي كانت قد إحتلت قبل من طرف أخيه محمد الذي توجه منها بحملاته إلى كل من ندرومة وتلمسان، والتي أصبحت مركز إنطلاقاته المتعددة في آتجاهات متعددة كذلك، والتي لم يجد الرشيد من أهلها صدودا ولا مقاومة، بل أقبلوا عليه وزودوه بما مهد له السبيل كي يتجه منها إلى ناحية تمسمان التي لا حقه بها أخوه محمد يرافقه مناصره اعراص فلما آلتقيا حصلت بينهما معركة أدت بمحمد إلى هدم قلعة تمسمان فتفاداه الرشيد الذي عاد برجاله ناحة تازة، ووقتها عاد محمد إلى تافيلالت ظنا منه أن الرشيد سيتقهقر

(71) أورد دوكاستر في الرواية السابقة إسم القائد علي بن سليمان قائد كبدانة، وأنه الذي التجأ إليه الرشيد الاتحاف 536/3.

وينكمش، لكنه(72) لم يتأخر إلا ليستعد أكثر فلما رأى ذلك منه محمد عاد إليه قصد القضاء عليه، لكن سمعة محمد في المنطقة كانت قد ضعفت بسبب ما إنتشر بين الناس زعما أنه إتفق مع الأتراك على حسابهم في الوقت الذي لا يزال أهل وجدة وبني يزناتن بالأخص يحتفظون بآثار جراحهم وما أحدثوه من تفرقة في المنطقة، وحتى لا يتعرض الرشيد إلى الإجهاض والفشل في حربه مع أخيه، جره ليكون ميدان المعركة وسط قبائل أنكاد التي خطط الرشيد لتكون في المؤخرة. وأما الميمنة والميسرة والقلب، فقد تركها لبني يزناتن والقبائل التي لها حساب قديم مع أخيه الذي شردها من مواطنها يوم قامت معه ضد الأتراك، وهي اليوم شبه مشردة بلا موقع تقطنه، وهي قبائل الشجع، والشراقة، ومديونة، ولعل محمد بن الشريف في هذه المرة وقد رأى جموع الرشيد تكاثرت إختار أن يتقدم الصفوف حتى يراه صنوه الأصغر منه فيدفعه الخجل إلى التراجع وعدم المواجهة كما فعل في تمسمان، لكن الرشيد لم يفعل بل لم يعد في آستطاعته أن يفعل وقد حصلت المواجهة بين القوم الذين لهم ثأر قديم، فكانت الضربة الأولى رصاصة مقصودة وبلا شك لوقف النزيف وجهها أحدهم بعيدا عن الرشيد بن الشريف لتستقر في رأس محمد بن الشريف، الذي سقط لتوه، مما أدى بقيادة جيشه إلى إعلان ذلك ورفع رأية الاستسلام، ثم تقدم رسول القيادة يتخطى الصفوف وقد حمل راية بيضاء بعدما تجرد من سلاحه ولم يتوقف، إلى أن وجد نفسه أمام خيمة القيادة التي كانت في منحدر، وقد وقف أمامها الرشيد وأركان حربه، فتقدم إليه ثم أبلغه خبر نعي صنوه محمد بن الشريف الذي مهد له ولقيام الدولة التي أخذت قواعدها تتمكن على يده، وما هي إلا مسافة طلقة لجواد، حتى كان الرشيد واقفا عند رأس أخيه الذي تحول جثة هامدة ورجاله الذين أحاطوا به يسكبون العبرات، فتقدموا إلى صنو صاحبهم بالعزاء، كما قدموا له البيعة وأخلصوا له

(72) راجع الضعيفي 33-35 م خ نا وقد اخذ عن القادري في النشر، وكذا ابن زيدان الذي أخذ عن الضعيفي في الاتحاف 136/3 وربما كلاهما أخذا عن القادري في نشر المثاني، وللزياني في البستان وفي شرح ألفية السلوك ما يؤكد ذلك، ولعل القول الفصل في حق محمد بن الشريف هو ما أدلى به السلطان إسماعيل في حقه وإن كان وصفه بـ "الانكير" وهو وصف عند الفيلاليين قبيح لا يقصد منه التحقير، راجع رسائل إلى ولدي المأمون ص40 ط الرباط 1967، ومع ذلك فقد قال إسماعيل في حقه موجها الخطاب إلى ولده المأمون المصدر المذكور ص:65 "فإن عمك محمد بن الشريف رحمه الله هو الذي ظهر في هذا الأمر، وكان لنا والحمد لله فيه خير... الخ.

الولاء، وإذا كان الرشيد هو الآخر قد سكب العبرات الساخنة بمرارة على أخيه فإنه لم يفكر وقتها في إعلان الحداد عليه، بل إندفع تحت تأثير الواقعة، ثم أمر قيادة جنده وجند أخيه الذي كان قد انتهى أمره إليه، أن يتوجهوا إلى دار هارون ابن مشعل لتكون هي الغنيمة بدل ما كان صنوه وجنوده ينتظرون أن يكون جند الرشيد والذين إنضموا إليه، ودار إبن مشعل عرفت أول ما عرفت يوم التجأ إليها الناصر بن الغالب في ثورته ضد أحمد المنصور، كما عند الفشتالي في المناهل(73) واليوم نراها تستهدف من الرشيد.

كان ذلك في يوم جمعة، وتاريخ اليوم هو التاسع من المحرم سنة1075هـ/1664م لقد كان الرشيد قبل ذلك اليوم قد إتفق مع كبار العشائر من بني يزناتن على أن يخلو بينه وبين إبن مشعل الذي كان يعتمد على حمايتهم، لكن الرشيد رغم ذلك وحتى لا يحدث ما يزعج من طرف الذين لم يعلموا جرد ابن مشعل من الحماية وكانت هي العادة في المغرب دامت منذ عهد البكري الذي تحدث عنها والتي استمرت لليهود من كبار القوم الى عهد ما قبل الحماية. ثم بعد ذلك إنتحى جانبا بكبار القوم منهم، خصوصا وأنهم كانوا متفرقي الهوى بين الأتراك، وبين كبار العشائر منهم، إلى أن وحدهم محمد بن الشريف ثم تركهم ولم يعد إليهم، فرجعوا إلى ما كانوا عليه إلى أن ظهر الرشيد الذي أقنعهم فاقتنعوا وأصبحوا قوة فعالة لتحقيق الأهداف، وليس لهم اليوم مفر أمام أمره بالقضاء على اليهودي إبن مشعل الذي أصبح يكون وصمة عار لهم، يخدمه المسلمون ويتحكم فيمن حوله كيف يشاء، ولاقوة له إلا قوة المال وحماية بعض كبار تلك القبائل الذين وجب عليهم أن تكون قوتهم للمغرب وللمغاربة المسلمين لا لابن مشعل من أجل ماله وثرائه.

وهكذا كانت نهاية إآبن مشعل الذي حوصر قصره وقضى عليه ثم إستولى الرشيد على أمواله ومدخراته، وليس بتلك الطريقة التي شوه بها الأغبياء من الأجانب وبعض المغاربة معا، وجه تاريخ هذا الرجل العظيم الذي هو المولى الرشيد الذي قال بعضهم إنه لما طلب منه القرى واقتراه إنقلب عليه ثم غدر به وقتله وبذلك جعلوا منه وممن كان معه شبه لصوص مثل أولئك الذين عرفوا بأوربا في القرون الوسطى، وما قيل من فكرة "سلطان الطلبة" إنما كان منه ذلك تكريما للعلم والمتعلمين لأنه بحق كان يمثل القمة

(73) ص 172.

في ذلك المجال، بل هو الذي قيل أنه أعطى مقابل بيتين من الشعر يردان بعد ويقول ابن زيدان – مدح بهما من جزائري في فاس، ما يكفي أهل فاس "2500 مثقال" وحتى نبرهن على أن ما قيل عن فكرة إبن مشعل كذب صراح، نعود إلى رواية الزياني التي إتفق معه فيها الضعيفي(74) وقد أورد ما يستدل به على أن الرشيد عندما توجه إلى آبن مشعل في قصره الذي يبعد عن مدينة تازة بأكثر من مرحلة ثم قتله واستولى على ماله الذي قدر بما يقرب من خزينة دويلة من دول ذلك العهد، تزن ما بين عشرين وثلاثين حملا من أحمال الإبل، وقتها كان الرشيد له جند وقيادة أركان، وجيوش، خاض بهم معركة مع أخيه، ومعارك في جهات مختلفة مكنته من الدخول منتصرا إلى مدينة وجدة، ولنستمع إلى الزياني وهو يقول: "وفي عام خمس وسبعين وألف، قام مولانا الرشيد على أخيه مولاي محمد، ودعا لنفسه بالشرق وجمع كلمة العرب ونزل وجدة فتوجه له مولاي محمد بن الشريف من تافيلالت، وخرج الرشيد من وجدة بجموعه، فكان اللقاء ببسيط أنكاد، ولما وقع الحرب كان أول قتيل مولاي محمد بن الشريف، وانهزمت جموعه فتوجه مولانا الرشيد بشلو أخيه ليدفنه في بني يزناتن، فطرق دار إبن مشعل الذمي وقتله وأخذ ما له ودفن أخاه هناك، وفرق على العرب نصيبا من المال وباقيه استعان به على أمره" وقد كان المال في خوابي "فيها ذهب وفضة، كسرها وحمل ما فيها من غرائر على الإبل قيل عشرين وقيل ثلاثين، ومنه فرق الراتب على من كان كتب في الجند من العرب والبربر(75)".

ولعل الذي أوقع الذين صوروا الرشيد بتلك الصورة المشوهة هو ما ورد عند الضعيفي الذي كثيرا ما يستعرض الموضوع ويكرره في وجهين مختلفين، فهو الذي بعدما قرر نفس الذي قرره الزياني عاد فقال عن الرشيد وابن مشعل أن الأول طلب

---

(74) البستان 22 والضعيفي 33 م خ نا. ولمعرفة أصول قصة ابن مشعل يراجع تاريخ مدينة دبدو موطن اليهود قديما وما كان عليه مجتمعها الذي جمع بين حيين، حي اليهود البربر. وحي اليهود من الأندلس اللذين أسس بهما ابن رحو إمارة دامت رغم الصراع الذي كان بين المرينين وبني عبد الواد إلى نهاية القرن التاسع الهجري وبعض العاشر. ومن ذلك التاريخ استمد إبن مشعل استمراره ثم راجع مادة دبدو في دائرة المعارف الإسلامية جـ9/132-237.

(75) البستان 23 م.خ.

الضيافة فاستضافه الثاني فقتله، وكان المضيف(76) بلا قوة ولا حراسة، وكأن الرشيد بلغ به الجبن الى هذا الحد، مع أننا نجد أول مؤرخ كتب عن العلويين بتفصيل وهو أحمد بن عبد العزيز الذي كان معاصرا للرشيد وإسماعيل لم يتعرض للموضوع المتعلق باليهودي، والذي لم نسترح إليه رغم وروده في المصدرين المذكورين، يقول أحمد بن عبد العزيز في كتابه "الأنوار" بعد كلامه على محمد بن الشريف "ثم نهض للخلافة بعد "قرب وفاته وبعدها أخوه" السلطان الأعظم والملك الأنجم، ركن الفخار المشيد، أبو المكارم مولانا الرشيد، وأول ظهوره ببلاد أنكاد ثم إستولى على مدينة تازة وما والاها، ثم الريف وما ولاه(77) بل إن الرشيد كما سنرى لم يجد كثير عناء في كل الأماكن التي مر منها أخوه محمد.

(76) راجع الضعيفي والاتحاف 28/3 الى 64 بل نجد عند القادري في نشر المثاني 103/2-4 رواية أخرى مستمدة مما للبربر من عادة وضع الخنجر في الفم والركوع أمام المستنجد به، وهذا ما قيل عن الرشيد والشيخ اللواتي. على أن رواية الضعيفي في هذا الموضوع غير مركزة. إذ مثل ابن مشعل وما كان عليه من ثراء وفي وضعية لا يمكنه أن يترك قصره بدون خدم ولا حراسة. وبالتالي فإن المولي الرشيد وقتها لم يكن في وضع يسمح له بالتجرد من الصفة التي أصبح عليها ثم يطلب الضيافة لابن مشعل الخ.

(77) الأنوار 77 ط 1966 وقد كان هذا المؤلف من المعاصرين إذ يقول أنه قدم كتابه إلى المولى إسماعيل يدا بيد.

الفصل الثاني والعشرون بعد المائة

دخول الرشيد لفاس وقضاؤه على الدلائيين

وهكذا لما قتل محمد بن الشريف بأنكاد في المعركة التي حصلت بينه وبين أخيه، ووصل خبره إلى تافيلالت قام أخويه محرز وهو جد اللمرانيين العلويين، والحفيد وهو شقيق محمد ببيعة ولده محمد بالضم بن محمد بن الشريف، يساندهما شيخ دخيسة محمد آبن الصغير الدخيسي، وأهل تافيلالت الذين كانوا وقتها تحت سلطة محمد وأولاده، ولئن كان الرشيد قد خطط لغزو مدينة فاس التي توجه إليها، فإنه وجدها منهوكة القوى وقد ألمت بها النكبات بسبب تهاطل الأمطار التي فاتت حد النفع في شهرربيع الأول من سنة 1075هـ/1664م، فأضاف إلى متاعبها ما كان قد حصل لأهلها من جراء الزلزال الذي حصل يوم 11 رمضان أي قبل نحو الخمسة أشهر ولذلك تركها وتوجه إلى تافيلالت التي حاصرها مدة تسعة أشهر وفي هذه الفترة إتفق أهل فاس، والبهاليل، وصفرو، على مقاومة الرشيد والاستعداد لذلك بالتسلح المشترك، فاستعدوا بالإكثار من الخيل والبنادق ثم كونوا جبهة موحدة للوقوف في وجه الرشيد وعدم الدخول في طاعته، وإذا هو سمع ذلك ترك إبن أخيه ثم رجع إلى مدينة تازة ينتظر ما يسفر عنه إتفاق القوم الذين كان يعرف مقدما أنهم لم ولن يتفقوا، لكن كل ما استطاعوه هو تكوين جماعة مرتزقة من لحياينة خصوم أهل فاس القدامى، مكنوهم من الخيل والسلاح ثم استعرضوهم بباب الفتوح قبل أن يتوجهوا لاختبار قوتهم في مواجهة الرشيد، لكن القوم لم يشرفوا على مواقع جند الرشيد حتى ولوا الأدبار فارين يلاحقهم جنود الرشيد إلى أن قطعوا وادي سبو، الأمر الذي حط من تدبير أهل فاس فأرسلوا يطلبون الصلح بشروط لكنه لم يتم، وفي يوم 15 محرم من سنة 1076هـ/ 1665م توجه الرشيد لغزو مدينة فاس وقد أعد لها ما لم يكن في حساب أهلها، لكن وقد علم أسرار حكامها وما هم عليه

من تطاحن، لم يرد أن يمكنهم من استجماع القوى والاتحاد لمواجهة هجومه، فلم يقاتلهم وقد بلغه تشاحنهم وتخلف البعض منهم إلا ثلاثة أيام، توقف بعدها ثم رجع، وقد أصابته رصاصة في أذنه ألهبت حماس جنوده وأشعلت نار حقدهم على أهل فاس، الأمر الذي ألزم الرشيد بعد أن بلغه ما اشتد بين القوم من خلاف وقد ضمض جرحه أن يعود يوم 13 ربيع الثاني «وعند صاحب نشر المثاني 154/2 يوم 3 ربيع الأول» لحصار المدينة بجنود بلغ فيهم الحقد نهايته، لكنه وقد تحقق أن مقاومة الدخول تحت سلطانه إنما هو قاصر على الدريدي وإبن صالح وإبن الصغير وبطانتهم، وأن الأشراف الأدارسة وكل العلماء يلاقون الشر من الحكام المذكورين في سبيل الدعوة للرشيد والإقبال عليه، لذلك لم يرد أن يتفجر حقد جنده ورجاله في جموع تلك المدينة بعدما قتل رجاله نحو السبعين من أتباع حكامها، بل عاد فاتجه نحو الريف الغربي، حيث أعراص الذي إنهزم أمامه فألقي عليه القبض وقتله بعد جولات عمت المنطقة في رمضان من نفس السنة، وفي ضحوة يوم الثلاثاء 28 ذي القعدة، عاد ونزل على مدينة فاس التي آشتد حقد أهلها على حكامهم الثلاث، ومع ذلك دامت مقاومتهم طويلا إلى يوم 3 حجة تمكن بعده جند الرشيد من الدخول إلى المدينة من أعلى سورها الموالي للملاح، ومن المكان الذي يعمره المسلمون، وقتها فر الدريدي صاحب فاس الجديد بعدما تيقن أنه هالك، ولما دخل الرشيد من حيث دخل جنوده، نزل بثقله على اللمطيين والأندلس، فلاذا بالفرار منهما كلا من محمد بن الصغير وحمو بن صالح، تاركين أهل العدوتين للاستسلام الذي كان يوده الأشراف الأدارسة والعلماء الذين قدموا على الرشيد ليقصوا عليه ما فعل بهم الدريدي، وابن صالح، وابن الصغير، وقبل إتمام المقابلة قدم عليه أحد قواد جنده بخبر إلقاء القبض على حاكمي اللمطيين والأندلس، إبن حمو وابن الصغير، وفي هذا الظرف أعطى صورة لأهل فاس أنه رجل دولة، إذ لم يقلتهما بأمر مستعجل، بل أمر بسجنهما بمدخل أحسن دار بفاس الجديد، هي دار ابن شگرا، حتى جمع آراء العلماء وأهل المدينة، ثم تحقق أنهما فقدا كل نصير بسبب ما ارتكبا من الجرائم، وبعد أسبوع أمر بقتلهما بحكم شرعي، كما قتل ولدا إبن الصغير، أما الدريدي فقد فر صحبة عبد السلام بن قدار إلى حيث لخضر غيلان، لكنه سيقبض ويعاد إلى مدينة فاس ليقتل فيها.

وإذا كان الرشيد على علم بما كان عليه أهل فاس وفيهم الأشراف وكبار العلماء من ذل وقهر تحت سلطة الحكام الظلمة، وقد بلغه ما كان أهل المدينة يضمرون له من حب ويعلقون عليه من آمال، وأنه وقف على حقيقة ذلك من لهجة الذين إستشارهم في أمر من يسند إليه القضاء أمثال عبد الرحمن إبن القاضي الذي لم يقدم على الرشيد لكبر سنه وإنما هو الذي ذهب إليه معبرا بذلك عن تقديره وإكباره للعلم والعلماء، وبالتالي إذا كان على علم بما ينتظره من موقف الدلائيين الذين لا تزال له معهم جولات، فإن كل ذلك يحتم عليه أن يتخذ موقف اللين مع أهل فاس، ولذلك ولى عليهم قاضيا حمدون المزوار، يوم 6 حجة 1076هـ/1665م ثم كرم الأشراف البعنانيين جزاء ما لا قوه من الدريدي في سبيل التعلق به، كما قيل أنه أعطى لأحد الجزائريين حملا من المال مقابل بيتين من الشعر مدحا قالهما فيه وهما:

فاض الفرات وفي كل قطر من ندا راحتيك عذبا فراتا
غرق الناس فيه والتمس الفقْـ ـرُ خلاصا فلم يجده فماتا

ولعلنا هنا نشم رائحة الافتعال فقد قيل هذا في حق أحمد المنصور السعدي الذي أخبرنا عنه الفشتالي نقلا عن أحمد المنجور الشيخ المعروف أنه قال وعنه نقل صاحب النزهة ص125ط 1888 والذي قال " ما عهدنا بذل المئين في الصلات الا في أيام الشرفاء ، ولا عهدنا بذل الالوف إلا في أيام المنصور، وقال في المنتقى: إن المنصور وهب أزيد من الألف كما وقع له مع الكاتب البارع أبي عبد الله محمد بن عمر الشاوي المعروف بالجزائري، وكان قديم الصحبة للمعتصم واغترب معه في بلاد الجزائر مدة مديدة وسنين عديدة الخ وهذه الأبيات التي كتب بها إليه وهو غير صادق في ما يعني سيرته:

أبحر النداخير الملوك سجية وأفضل سلطان رقى فوق منبر
لقد سرت في الاسلام أحسن سيرة وخصصت بالنصر العزيز المؤزر (الخ الخ)

وقيل إن الرشيد في هذه الفترة من إقامته بفاس التي كان يتردد عليه فيها أبو علي اليوسي المولود عام 1040هـ/1630م وهو من علماء المغرب وكبار علماء وقته، وأنه لما

رأى ما آل إليه أمر الرشيد آختار أن يضع له برنامجا سياسيا يقتدى به، ولما حاوره في الموضوع أجابه الرشيد بكلماته المحفوظة عند الفيلاليين والدالة على مدى ما كان عليه من فهم لأحوال الناس وما تتطلبه سياسة الملك وقتها، حين قال له يا أبا علي إن سياسة الملك عندي تقوم على أعمدة ثلاث:

1- كف ممدود: أي لمن أراد السلم والحب والإخاء!

2- وسيف "مجبود": وهو بلهجة الفيلاليين معناه مسلول أي لمن أراد الشر والعداء!

3- وكلام غير مردود: أي مادامت غايته بعد التروى: البناء. والصدق والوفاء. وكان الذي خلد لنا هذا النهج القويم هو الشيخ أحمد الحبيب اللمطى في مراسلة له مع المولى اسماعيل هي ضمن وثائق خزانة المؤلف.

ولعل الذي كان يقاوم أفكار اليوسي وقتها إلى جانب حاسده عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي هو عبد الملك التاجموعتي "الذي كتب ما سماه" ملاك الطلب وجواب أستاذ حلب" وهو عبارة عن موضوع غير سلفي تناول فيه علم النبي م خ يوجد بخزانتنا، ثم راجع ترجمة التاجموعتي عند المراكشي في الاعلام(78) الخ.

بعد فتحه فاس توجه المولى الرشيد للشمال ليؤمن ظهره إذا ما هاجم الدلائيين بعد في الأطلس المتوسط، وكان القائم في الشمال لخضر غيلان صاحب القوات الكبيرة، والجنود المدربين، فكان انهزامه أمام جحافل الرشيد، ثم فراره ومعه كبير أولاد النقسيس، حيث هربا بحرا الى الجزائر، في الوقت الذي فك الرشيد حصاره على أصيله، فكان ذلك دليلا على تمكن الرشيد الذي أصبح ولا قوة أمامه، وإذا ما عاد الرشيد إلى مدينة فاس لدفع الراتب إلى الجند، فإنه لم يترك الشمال نهائيا، بل عاد إليه في شهر صفر، وقد وثق الناس من انتصاره فلم يعد لخصومه ملجأ بينهم، ولذلك ألقي القبض على الدريدي وعبد السلام بن قدار، اللذين سلما إليه، فوجههما مصفدين إلى مدينة فاس التي فرا منها قبل.

وإذا ما بقي الرشيد في هذه المنطقة إلى آخر السنة لأنها كانت منطقة حساسة ونشاطها السياسي أكثر من غيرها، لأنها جمعت إلى جانب الذين كونوا فيها شبه

(78) ج 8/362-74 ط الرباط 1977م.

ويلات، نشاطات أخرى مع الأجانب، سواء بالنسبة للذين كانوا يقاومون توغلهم أمثال أولاد النقسيس ولخضر غيلان رفيق العياشي، أو الذين كانت لهم معهم معاملات تجارية فيها لبس وتحمل في طياتها للمغرب المتاعب وتخلف بين قبائله الفتن بما كان يوزع بينها من سلاح الشر عن طريق تلك المنطقة، ونستطيع القول أنه في هذه المرحلة بالذات، بدأت علاقات الدولة العلوية الخارجية وإن كانت في عهد الرشيد لم تكن بالقدر الذي يدخل في الدراسات السياسية، فلا أقل تدخل في التاريخ السياسي لحياة الرشيد بن الشريف، ولذلك نفتح هذا القوس في هذا المكان حتى يعلق الموضوع بذهن الذين يهمهم ذلك:

كانت العلاقة وقتها في هذه المنطقة ومع النين أشرنا إليهم علاقة تجارية أكثر، ومن ذلك فتح أعراص خليج الخزامي للاتجار مع الأجانب الذين كانوا يصدرون من المنطقة الصوف، والنحاس، والزرابي، والجلود، والقطن، والحيوانات، والشمع، والبيض، ويوردون لها السلاح والمنسوجات، ومواد بناء السفن، وبعد قتل أعراص وتمكن الرشيد ثم تركيزه في المنطقة، تحركت تلك العلاقة من جديد حين قدم "رولان فريجوس" على الرشيد بعد كتاب يطلب فيه الإذن له بالقدوم عليه، والكتاب بذلك تقول الرواية مؤرخ بـ5/4/1666م، فأجيب بالقبول(79) أوائل شوال 1076هـ، وكان التاجر المذكور من مرسيلة، له إمتياز من وزير ملك فرنسا لويس 14 ولما قدم عليه قدم له رسالة باسم ملك بلاده تنص على الإمتياز الممنوح للتاجر الذي تحول إلى سفير نصاب ومحتال اكتشفه الرشيد الذي إكتشف في نفس الوقت أن الرسالة المزعومة لم تكن وقتها من لويس 14 يقول دوكاستر.

لقد كانت غاية "رولان" هو إستمرار نشاطه في المركز الذي كان يصدر منه الجلود والصوف، والنحاس، والشمع، بل وأن يكون الإمتياز للفرنسيين، إلا أن الرشيد لم يسمح بذلك ورد على الرسالة الواردة عليه بتاريخ 26 شوال 1076هـ 1665 بحرية الاتجار مع الجميع، بل حتى يحفظ رولان اعتباره أمام الرشيد عاد فأتى برسالة جواب من لويس 14 على رسالة الرشيد مؤرخة 8/12/1666م(80) بل تطورت هذه العلاقة مع الرشيد إلى غير

(79) وتقول الرواية أنه قدم عليه وهو في تازة وعند إبن زيدان في فاس؟

(80) يقول ابن زيدان إن الرشيد كان نزع من رولان ما دفعه إليه من جواب على الكتاب الأول، لكن الوثائق المحتفظ بها في وزارة الخارجية الفرنسية ترد رأي ابن زيدان، راجع الاتحاف 3/57-59 الذي انساق مع ليفي بروفنصال، دائر المعارف الاسلامية 10/114 ثم راجع ما سجل ضمن وثائق المغرب بالجزء 1/87 من سجلات وزارة الخارجية الفرنسية ثم مجموعة دوكاستر.

ما عرفت بواسطة "رولان فريجوس"، ذلك أن لويس 14 راسله في شأن "شامويل أزوز" الذي أرسل كسفير للتفاوض في شأن بعض الأسرى، والكتاب مؤرخ بـ 1672/2/21م لكن المراسلة لم يتوصل بها الرشيد لأنه توفي يوم 11 حجة 1082هـ/ 9-4-1672م ولما لم يصل هذا الكتاب، طلب "فرمون" أحد وزراء "لويس" من الوزير الأول وقتها "كولبير" كتابا آخر مثله لخلف الرشيد الذي هو صنوه إسماعيل.

ولم تكن إتصالات الرشيد مع فرنسا فحسب، بل إبريطانيا أيضا أرسل إليه ملكها "كارلوس" الثاني سفيرا هو:"هاري هوراس" محملا بهدايا منها رماح طوال(81) و6 مدافع من النحاس، وعربة مزخرفة، يجرها إثني عشر فرسا، وثياب فاخرة، ولظروف حالت دون استقبال السفير الانجليزي داخل البلاد وجهها من طنجة ثم عاد إلى بلاده، ومع ذلك لم يتأخر الرشيد عن محاولة تحرير طنجة التي كانت بيد الانجليز وقتها. ونعود إلى حملات الرشيد وفتوحاته.

(81) بقيت تحمل حول السلطان في مظاهره الرسمية إلى العصر الحاضر.

الفصل الثالث والعشرون بعد المائة

الرشيد وملاحم التوحيد من فاس الى سوس

لما رجع إلى مدينة فاس أوائل ربيع الأول 1077هـ/1666م أمر بقتل الدريدي وعبد السلام قدار(82)، وفي يوم 18 حجة نفس السنة ألقيت بين يديه بيعة أهل فاس وقد كتبت بما يتفق ومقام الرشيد الذي كان على جانب مهم من العلم، الأمر الذي لا يتفق مع ما أورده الزياني رغم قوله بالجانب العلمي، وأن الصلح لم يتم بينه وبين أهل فاس إلا بعد تملكه للمغرب، مع أنه قضى بقية السنة في مدينة فاس إلى أن توجه لمدنية مكناس التي اتخذ منها منطلقا لمحاربة قبائل آيت والال بربر صنهاجة الموالين لمحمد الحاج الدلائي، ولما إستولى عليهم –وبذلك جرد الدلائيين من قواتهم– توجه إلى مدينة فاس التي بلغه أن الدلائي قد إستعد لحربها بما جلب نحوها من قوات البربر القريبة منه والتي بقيت تناصره، لكن المبادرة كانت من الرشيد الذي توجه إليه، ولما إلتقى الجمعان دامت الحرب ثلاثة أيام تراجع بعدها الدلائي من أزرو إلى مركزه بالزاوية، ثم عاد الرشيد الى مدينة تازة بعيدا عن مدينة فاس، وكأنه يتحداه حتى يقدم لغزوها إن كان لا يزال قادرا على ذلك، وفعلا عاد الرشيد إلى مكناسة فعزل قائدها لگعيدي وإثرها قام بجولة حربية في بني زروال فألقى القبض على شريفهم بسبب ما بلغه من إثارة ضده، ثم صعد على بني يزناتن، ومنها عاد إلى گيگو بالأطلس المتوسط، حتى يحيط بالدلائيين جنوبا بعدما قضى على ما كان لهم في الشمال والغرب، والشرق، بل ويختبر المنافذ التي كانوا يتزودون منها، وبعد جولات إستمد منها القدرة والأمان، توجه إليهم يوم فاتح محرم سنة1079هـ/1668م حيث كانت المعركة الفاصلة بينه وبين الدلائيين في سهل ببطن الرمان من أرض فازاز، فانهزم الدلائي وتبعه الرشيد الذي إحتل عاصمتهم يوم 8 محرم، ثم

(82) راجع ما قبل ت 57. وقد ألقي عليه القبض في رمضان يقول الزياني في البستان ص:24.

صفى وجودهم بها يوم 22 صفر الموافق 7/1 من نفس السنة، ولئن كان الرشيد قد آستولى على ما كان لهم من ثروة، ثم فرقهم في البلاد، فإنه لم يقتل منهم غير الذين قتلوا بالمواجهة، ومع ذلك فإن التاريخ قد وصف الرشيد بالقسوة في حقهم، لأن التاريخ لم يهمل للدلائيين ما قدموه للمغرب في مجال المعرفة، وما أنتجت زاويتهم ومناهجهم من رجالات يعتز بهم المغرب(83) ولذلك يقول الزياني "عفى عنهم ولم يرق دماءهم" لكنه من جانب آخر هدم معالمهم المادية، كما شردهم بين المغرب وتلمسان"(84).

ولما آنتهى من الدلائيين، وكان ذلك مما قرب بينه وبين رجالات جمهوريتي الرباط والقصبة الذين كانوا مع الدلائيين في نزاع مستمر فوحد بينهما أي بين القصبة والرباط، ثم نصب عليهما عبد القادر مورينو الأندلسي كما نصب على مدينة سلا القائد ج محمد فنيش. ثم توجه إلى مراكش التي خاض بها وبناحيتها معارك قاسية، وكان صاحب

---

(83) بل ان الرشيد كان قاسيا مع محمد الحاج الدلائي الذي كان وقتها في أخريات عمره، والذي إستقبله بعد إنهزام قومه أحسن استقبال بقوله للرشيد طالب الملك "هو الآن في محله" راجع أصول الدلائيين في البستان ص25 وكذا المحاضرات لليوسي، والزاوية الدلائية للدكتور محمد حجي، وقد ذكر الزياني أسماء وعدد علمائهم وتاريخ وفاة كل منهم، خصوصا الذين باشروا مهنة التدريس، وعددهم خمسة وعشرون درسوا في المعقول والمنقول.

(84) كان الذين أبعدهم الرشيد إلى تلمسان هم: محمد الحاج وأحفاده فقط وإذا ما توفي هو بها سنة 1084، فإن أحفاده ردهم السطان إسماعيل حتى لا يستغلهم الأتراك، ولقد وجدت ملاحظة على ظهر كتاب (معونة القاري) "كتبها أحد أهل فجيج المعاصرين وأن الرشيد دخل مدينة مراكش سنة 1078، وفيها أخذ زاوية الدلائي وأدخله مدينة فاس، وأن أخاه أبا بكر، باع كتبه ثم شرق للحجاز، وفي التاريخ المذكور أيضا دخل الحفيد بن الشريف أخو الرشيد فجيج، وقتل حمادي بن عبو بن عبدى الحمامي، أما عن محمد بن السلطان محمد بن الشريف، فقد كتب صاحب المذكرة أن الرشيد أخذه ومعه بعض عرب أولا جرير، وأولاد إنهار، من المكان المعروف عين العسل بعد حرب خاضها محمد الذي قل ما له ثم حاصر البيض، وحارب إلى أن جرح ومعه عمه الحفيد. لكنهما إنهزما وقبضا، ثم صودر ما كان معهما من ذهب، وإبل، وغنم، وبغال، وخدم وذلك يوم الجمعة في شعبان 1080هـ/1669م، وفي التاريخ المذكور يقول صاحب المذكرات قبض زيان بن عبد الرحمن الودغيري وعفى عنه الرشيد، ولعل هذا تكميلا لما أورده القادري حول حملة الرشيد على البيض والتي أرخها بيوم الاثنين 22 رجب من نفس السنة، والذي رجع منها يوم 8 رمضان، ثم يقول "ومات أولاد البيض من الغد قبضهم هناك وقتلوا بعد وصولهم لتازا" نشر المثاني 188/2 . لقد كان الرشيد في منتهى الحلم مع الدلائيين خصوصا إذا علمنا أنه كان في السادسة عشر من عمره يوم حصلت وقعة "الكاعة" في سجلماسة أوائل سنة 1056هـ/1646م، والتي أطلق انصاره على الشريف وولده محمد بيد أن جنوده من جروان قتلوا الأبرياء وانتهكوا الحرمات، وفضحوا الأعراض، وصادروا الأموال. كما قال المؤرخون، وإذا هو تغلب عليه الحلم فإن صنوه إسماعيل قسى كل القسوة على قبيلة گروان وتولال حيث أمر بأن يقطف من الأولى عام 1104هـ/1692م اثني عشر الف 12000 رأس . ولذلك كان فعله الظالم أشد قسوة منهم بل كان كمن غسل الدم بالدم راجع البستان للزياني.

مراكش وقتها كروم الحاج الشباني قد توفي وتولى مكانه ولده أبو بكر، فاستولى عليها الرشيد في صفر، وقتله مع جمع من قرابته لغدرهم وخيانتهم العهد. ثم أخرج كروم من قبره وأشعل فيه النار جزاء ما قدم مع آخر السعديين كما سبق، وفي اليوم الثاني عشر ذي الحجة سنة 1080هـ وكان قد عاد إلى مدينة فاس حيث ضرب العملة التي حول شكلها من شبه المربع الى المستدير، كما غير الوحدة من ثماني وأربعين فلسا للموزنة إلى أربع وعشرين، وقدم لأهل فاس قرضا بمبلغ إثنين وخمسين ألف مثقال لمدة عام، ثم إلتفت إلى الإدارة التي أخذ ينظمها بتبديل القضاة والعمال، وإذا هو إنتقل إلى مدينة تازة فإنه أصيب بمرض أشرف منه على الموت، لكنه شفي، وبعد الشفاء أصدر أمره بإطلاق سراح المساجين يوم 17 رمضان من نفس السنة، كما أكثر من الصدقات، وإتماما لذلك جعل خاتمة أفراحه والاحتفال بسلامته زواج أخيه إسماعيل رغم أنه كان مؤهلا وقد ولد له أحمد قبل عبد الله بقصر الفرخ بتافيلالت.

وكانت غمرة الأفراح بشفاء الرشيد تستدعي القيام بشيء يزيد النفوس إبتهاجا، ولذلك زوجه بإحدى بنات السعديين اللائي بقين بقصر الملك من فاس الجديد كما تركهم الدلائيون مكرمين مدة حكمهم لمدينة فاس، والسبب هو ما سمعه الرشيد من إحداهن تقول مذكرات بعضهم في مراسلة لأحمد الحبيب اللمطي وفيها قول الأميرة التي منها يقول الشيخ أحمد الحبيب إستمد كل من الرشيد وإسماعيل أسلوب سياسة الملك. ذلك أن الرشيد لما دخل القصر الملكي من مدينة فاس وقع بصره على إمرأة عجوز عليها سمة الوقار، وقد جلست في مكان بعيد لم تهتز بما أحدثه حضور الرشيد بين سكان القصر، الشيء الذي دفعه للسؤال عنها. فأخبر أنها إحدى الأميرات من بنات إخوة أحمد المنصور، فتقدم إليها. وربما بدافع موقفها أراد أن ينغص عليها بسؤاله بعد حديث طويل ومقدمات: حين قال لها: ما سبب زوال ملككم؟

ومما يستدل به على أن الأميرة كانت قوية الشخصية. اشترطت على الرشيد وهو المتوج المنتشي بانتصاره أنه إذا أراد أن تجيبه على سؤاله بصدق وأمانة أن يقبل منها شرطا بسيطا. فرد عليها وما هو: قالت أن لا تراني بقية حياتي وقبل الرد على شرطها قال: وما جوابك عن سؤالي قالت وباختصار بليغ جدا: أقوى سبب في زوال ملكنا، أننا قربنا البعيد وأبعدنا القريب".

وما كادت المرأة تتم قولها حتى صوب إليها الرشيد نظره بشكل يدل على إعجاب وإكبار. ثم ضمها إليه وقال: شرطك غير مقبول، وإذا هو جلس بجانبها ثم أخذ يربت على ظهرها تارة وأخرى يضمها إليه بذراعه الذي ذكرها بحنان فقدته منذ زمان فإنها أجهشت بالبكاء فبكى لبكائها كل من حضر بما في ذلك الرشيد نفسه، وذلك ما جعله يقرر زواج أخيه إسماعيل من أميرة حسناء جدا تقدمت لتجفف عبرات جدتها بطريقة كلها رقة وحنان، لكن للأسف لم نعرف من هم أولادها من السلطان إسماعيل ان كان لها أولاد. المصدر وثيقة من متروك العالم الكبير وقدوة أبناء الشريف بن علي أحمد لحبيب اللمطي.

كان زواج إسماعيل في شهر شوال(85)من سنة 1080هـ/1669م، ولربما في غمرة هذه الأفراح التي عمت مدينة فاس تقدم إليه أحد الجزائريين ما دحا بالبيتين من الشعر المذكورين قبل فأعطاه الجائزة التي قال عنها آبن زيدان ألفين وخمسمائة مثقال، ولقد تمت هذه الأفراح بإلقاء القبض على آبن أخيه محمد بن المؤسس، محمد، والذي كان قد روع الناحية الشرقية، بعدما فر من وجه عمه الرشيد حين توجه إلى تافيلالت، وقتها توجه محمد الى الناحية يسانده عمه الحفيد، لكنهما إنهزما وجيئ بهما مقيدين في الأغلال فقتلا في تازة بأمر من الرشيد كما سبق(86)، وإذا كان الرشيد قد تركز في هذه المنطقة تركيزا مكنه من الإشراف عليها من وادي تافنة إلى سجلماسة ودرعة، فإنه لم يعد يشغله غير أرض سوس فأصبح لزاما عليه وقد إنتهى من كل الفتوحات أن يتوجه إليها في أوائل العام التالي 1081هـ/1670م فاستولى على تارودانت وهشتوكة التي قتل من رجالها أزيد من ألف وخمسمائة يقول الزياني "كما آستولى على أهل الساحل وقلعة إيليغ، ثم

(85) راجع الضعيفي وعن آبن زيدان الذي يظهر أنه أخذ عن القادري كان يوم 15 ذي القعدة، وهو التاريخ الذي جدد فيه الرشيد قنطرة الرصيف راجع البستان 27-28. مصدر سابق.

(86) راجع ت 84 أعلاه ومن هذا التاريخ إنتقل أولاد محمد بن محمد إلى أرض توات، كما لحق بهم بعض أولاد الحران، وأولاد محرز، وهم جميع أخوى الرشيد وأبناء أخيه ويعرفون حتى اليوم في تيمي، وسالي، وأدرارب لمحارزة، والحرونيين، وأولاد محمد أو المحمديين، كما نرى في جدول فروع العلويين واماكن تواجدهم بالمغرب من هذا الكتاب قبل أعلاه هم غير هؤلاء. بل المحمديون أولاد محمد بن علي الشريف هم الذين تمكنت كراهيتهم لأبناء عمومتهم من اليوسفيين وسببها انتزاع يوسف الصغير السلطة على زاوية أبيهما من أخيه محمد الذي هو الكبير لأنه لم يكن مرضيا مع أبيه كما هو معروف بين الفيلاليين.

قتل منهم أيضا أكثر من أربعة آلاف(87) نفس وألفين بسفح الجبل، ثم رجع إلى مدينة فاس في شهر رجب من نفس السنة، وبذلك تم للرشيد توحيد البلاد والقضاء على كل أثر من آثار عهد الفرقة والتمزق، ووقتها أمر ببناء مدرسة الشراطين بدار الباشا عزوز، التي تمت في عهد خلفه إسماعيل بن الشريف، كما أمر ببناء القصبة الجديدة بفاس، بديار لمتونة، وغرسة إبن صالح، حيث أعطى ألف مثقال لبناء سورها، وذكر الزياني لديار لمتونة وغرسة إبن صالح مكانها وقبل بناء سورها يستدل منه أنه الذي بناها وليس سورها فحسب، وأنها ليست من بناء مرين كما عند العلامة الباحث الأستاذ محمد الهادي المنوني الحسني(88)، ثم أمر أصحابه ببناء الدور فيها وأعطى لشراقة ألف دينار لبناء قصبة الخميس، وهم الذين استقدمهم أو بعضهم معه من الشرق، ثم رتبهم في جنده، وهم من العرب الشجع وبني عامر، واستقدم كذلك من البربر، مديونة وبني سنوس، ولما تضرر منهم أهل فاس نقلهم لبلاد صدينة وفشتالة، بين النهرين سبو وورغة، وأقطعهم تلك الأرض وعزل عزابهم ثم أمرهم ببناء بيوتهم غربا، وأقطعهم للحرث والإنتاج.

وفي أول صفر من سنة 1082هـ/1671م وجه الرشيد جيوشه قصد تحرير مدينة طنجة التي لا نعرف السبب الذي دفع الرشيد إلى الإهتمام بهذه المدينة قبل غيرها من المدن التي كانت محتلة من طرف الاسبان، وهي المهدية، والعرائش، وأصيلة، والجديدة، ولعل السبب في ذلك رغم تودد الانجليز إليه هو أن مدينة طنجة وقتها كانت مصدر قلق بما كان يدخل عن طريقها من أنواع الأسلحة التي نشطت في التبادل بها دويلات الشمال، التي وإن قضى عليها الرشيد فإنه لم يقض على عملائها والذين كان لهم شأن زمن وجودها.

وفي هذه المرحلة قام بالثورة ضده إبن أخيه أحمد بن محرز الذي ظهر بمراكش، لكنه ألقي عليه القبض وجئ به إليه فأرسله إلى تافيلالت حيث سيظهر أقوى وأشد زمن إسماعيل، وبسبب ذلك توجه الرشيد إلى سوس التي عقد العزم على القيام ضد أهلها

(87) وفي هذه المرحلة يقول كاتب المذكرات على مخطوط بفجيج ان الاتراك دخلوا مدينة فجيج في شهر المحرم علم 1081هـ بعد حرب بدأت في جمادى الأولى وفرضوا على أهل فجيج ألفين من الدنانير غرامة، دفعوا نصفها دراهيم والنصف الآخر مواد أخرى.

بحملة قاسية كما فعل قبل، لأنه بلغه أن قبائلها تحركت تريد إتخاذ أحمد بن محرز وسيلة في حربها ضد الرشيد، ولعل الرشيد هنا لم يتنبه إلى أن من أسباب متاعبه في سوس وما عرفه والده وأخوه، ثم هو وأخوه إسماعيل بعده، هم ابناء عمومته المحمديون أحفاد محمد بن علي الشريف السجلماسي الذين كانوا السبب في كل ما حصل بينهم كأولاد للشريف والدلائيين، ثم بين الشريف والسملالي الذي كان عملاؤه بتافيلالت بقية الخوارج الصفرية أولاد آبن الزبير بتابع صامت، بل المحمديون الذين إنتشروا بشكل عجيب في المناطق الحساسة من المغرب، أصبحوا يكونون قوة لها رأي في ناحية سوس ومراكش، وأخيرا إنتهوا إلى تاكنيت وسوس وذرعة واسكورة وغيرها، وإذا علمنا أن الرشيد بعد موت أخيه محمد وزوال السلطة من تافيلالت تعرض لمعارضة كل إخوته الذين كان لهم نشاط سياسي باستثناء إسماعيل الذي إلتحق به فعرف أن قيام إبن أخيه أحمد بن محرز كان يعتمد على سند داخلي في سجلماسة، وخارجي تمثل أكثر في أهل تارودانت وقبائل سوس وهشتوكة، الذين قتل منهم الرشيد ومن غيرهم ما يقرب من السبعة آلاف، لذلك توجه الرشيد إلى مراكش ثم أمر قائده زيدان العامري التونسي، كما عند الضعيفي أن يتوجه إلى فاس ليأتيه بقوات رديف من الرماة، يلاحق بهم أهل سوس، لكن هؤلاء وقد علموا نواياه وما فعل فهيم جاؤوه طائعين، ووقتها عاد إلى مراكش يقضي فيها عيد الأضحى الذي سيكون آخر عيد في حياة الرشيد، ذلك أنه بعده ركب فرسا جموحا يوم 11 حجة من نفس السنة 1082هـ- 19-4/672م فجمح به حيث إصطدم بفرع شجرة نارنج في بستان المسرة، فمات لحينه ولما يتجاوز الثانية والأربعين رحمه الله، وذلك بعدما وحد البلاد وقضى على كل ما كانت تعيشه من فرقة وتمزيق، وإذا بلغ خبر موته إلى أخيه وخليفته بمكناس وفاس إسماعيل(89) يوم الأربعاء 15 ذي الحجة فإنه بويع مكانه في نفس اليوم.

لقد كانت الفترة التي قضاها الرشيد في الملك فترة قصيرة جدا لم تتجاوز السبع

---

(88) راجع مجلة البحث العلمي عدد 11-12/185 شهر 1967/12.

(89) إختلط الأمر على الكثيرين ممن كتبوا حول السلطان إسماعيل، هل كان بمكناس أو بفاس والراجح أنه كان يحكمهما معا، وإن كان مقره بمكناس، والدليل على ذلك أنه شيد قصر النصر بمكناس في عهد خلافته، وليكف الشر الذي ظهر من أولاد جامع ضد أهل فاس أصدر حكمه بقطع رؤس ستين من أولاد جامع جوار فاس، ثم علقها بالبرج الجديد بفاس، راجع البستان للزياني ص: 27. وما كان له أن يفعل لو لم تكن فاس خاضعه لحكمه زمن خلافته لأخيه.

سنوات، لكنه حقق فيها رغم قصرها الكثير ما لم يستطعه غيره، فقد رأيناه وقد إكتسح البلاد من الشرق إلى الغرب في زمن قصير ثم قضى على شبه الدويلات والحكومات التي إقتسمت البلاد، والتي كانت السبب في ضعف المغرب وانهياره حتى عاد إليه الإحتلال الأجنبي الذي إقتطع مدنه، وانطلق في شواطئه، وفي نفس المرحلة شرع في تشييد العمران الذي دشنه بالعمل على آستقرار القبائل التي ناضلت معه وحققت أهدافه ومقاصده، وهي تلك التي رفضت حكم الأتراك ثم إختارت النزوح معه. كما بدأ عمله العمراني كذلك بتشييد جناح قبة الأزهار بقصر بني مرين بفاس الجديد وهي القبة التي كتب إسمه وتاريخ البناء على رخامتين بيضاوين لبس بهما جدار عتبتها. حيث لا تزال باقية حتى اليوم وقد إختارها مقرا له بفاس التي أمر أن تبني فيها مدرسته المعروفة بحي الشراطين، المشار إليها في أول شعبان 1081هـ، بل في تلك المدة القصيرة ضرب العملة الذهبية(90) والفضية والنحاسية ثم غير شكلها وبدل وحدتها كما سبق، وأقرض أهل المدينة "فاس" منها، وبالتالي ما كاد يستجمع قواه ويتمكن حتى وجه الجيوش لحصار مدينة طنجة لكن الموت فاجأ هذا السلطان قبل أن يحقق أهدافه التي يظهر من مقدماتها أنها كانت على جانب عظيم، وإذا هو فارق الحياة في ظروف كان المغرب وقتها في حاجة ماسة لمثل عزيمة الرشيد إبن الشريف، فإن الذي خلفه بحق كان في المستوى رغم الشطط الذي عرف به كما سنرى لأنه لم يتجاوز الواحدة والثلاثين من عمره، ذلكم هو إسماعيل بن الشريف الذي نرافقه في حياته الطويلة وأعماله التي كتب حولها المغاربة والمشارقة وكثير من الأوربيين ما يحسب بعضه خرافة أنجليز وفرنسيون، وأسبان، وهولانديون وهم من الذين عاشوا بالمغرب ما بين سياسيين وتجار وأسرى، وهي رغم ما عرفت به في بعض جوانبها من قسوة قاسية وعنف عنيف، فقد كانت عامرة بالأعمال التي يشهد التاريخ بعظمتها، وغيرها من التي يحكم التاريخ بإدانتها، وتلك حياة كل حاكم منذ كان التاريخ.

---

(90) يقال إنه وقع على تمثال من ذهب في مدينة شالة، حوله إلى عملة. ثم راجع بناءاته في الاتحاف3/63 وفيه أنه جدد قنطرة الرصيف بتاريخ شوال 1080هـ، وقنطرة سبو بأمر يوم 14 قعدة من نفس السنة، ثم قنطرة باب الجديد، وقنطرة وادي فاس، وقنطرة وادي النجا، وقنطرة وادي ويسلن، كما شيد القصبة الجديدة، بعرصة بن صالح الرومي الأندلسي، في الموضع المعروف بالدكاكين، وأدار السور على المكان المعروف بـ"دور كراوة" من جيش السعديين حيث الشراقة، وشيد قبة ضريح المولى علي الشريف بباب هيلانة بمراكش. الخ.

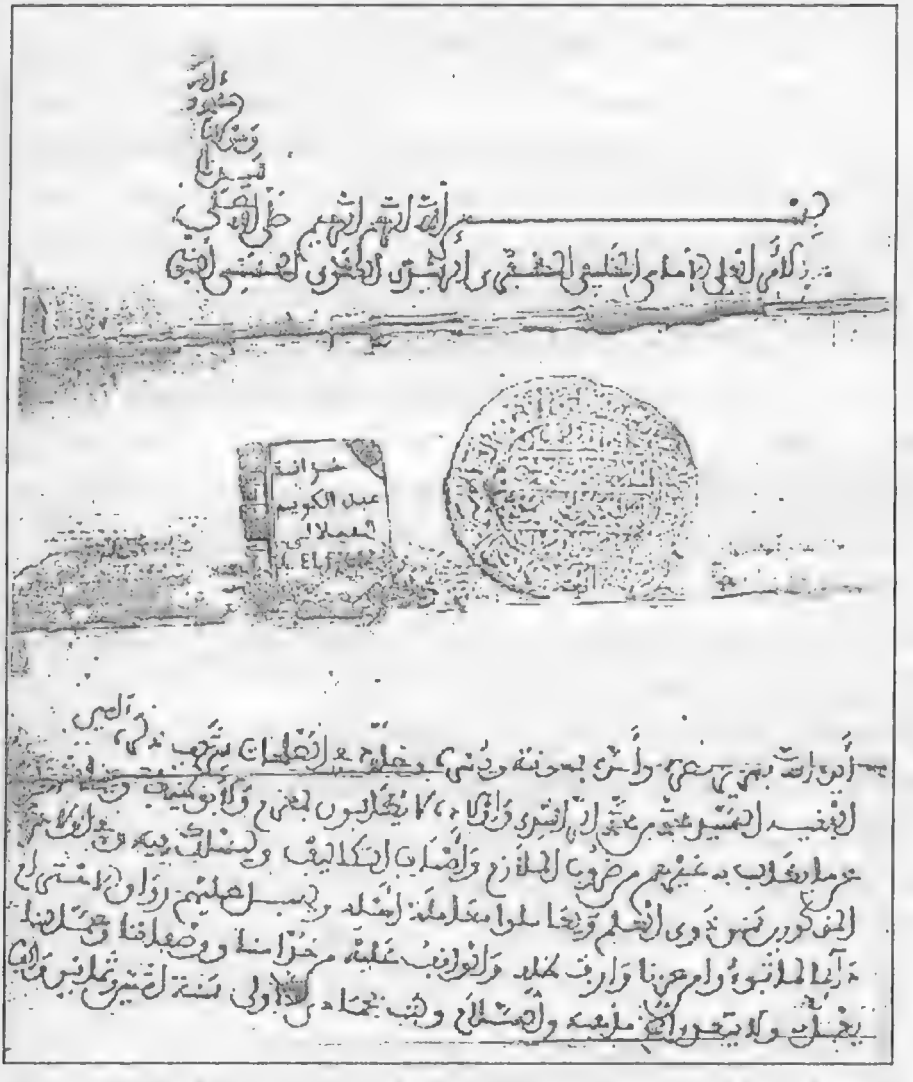

ظهير توقير واحترام من المولى الرشيد بن الشريف الى آل الرشيدي بفجيج ممثلين في شخص العالم الجليل محمد بن محمد تاريخه 1082 . وهو الوحيد الذي استطعنا الحصول عليه فيما يتعلق بالمولى الرشيد مما يعزز مكانة الرشيديين ويضعهم في مقدمة الأسر العلمية التي كان لها الفضل في مؤازرة ثاني ملوك العلويين

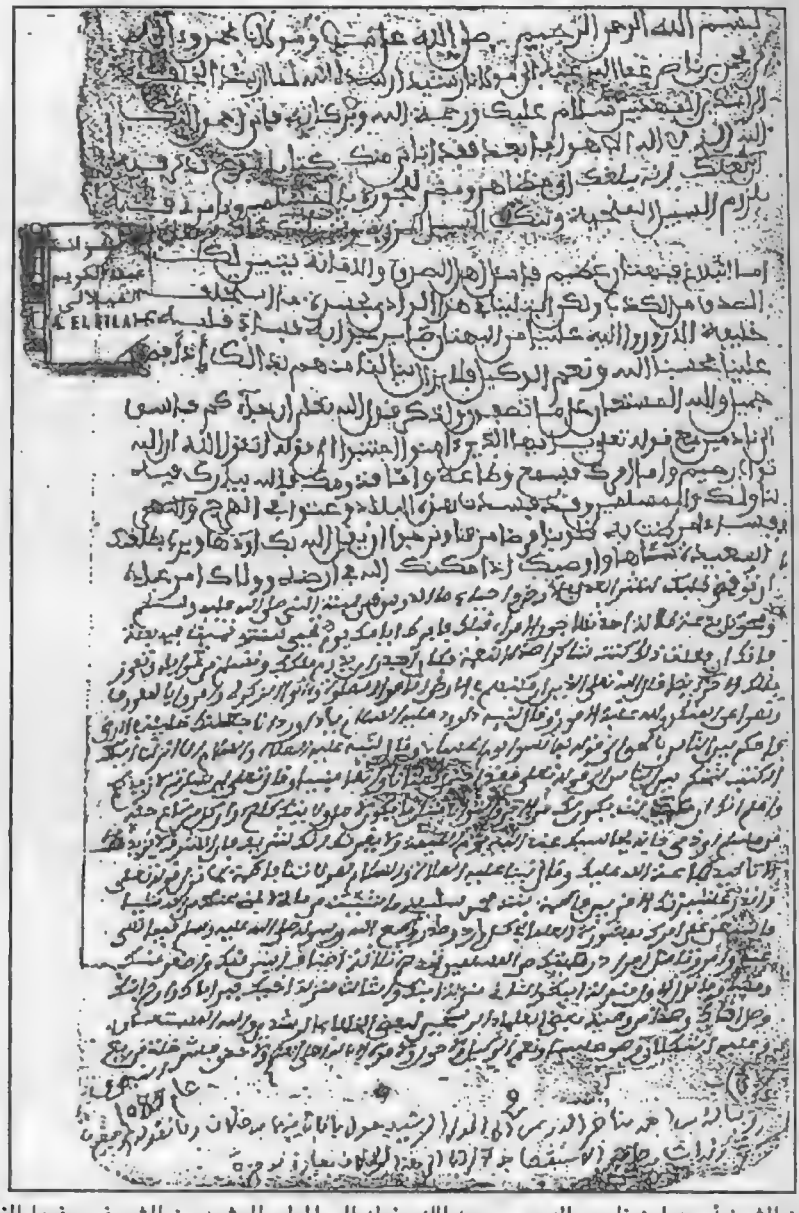

رسالة من الشيخ أحمد ابن ناصر الدرعي رحمه الله بخطه إلى المولى الرشيد بن الشريف، وفيها النص على ما كان يحاوله المرجفون من دس على الشيخ لدى المولى الرشيد لما بويع بالملك تاريخها 11 ربيع النبوي عام 1080هـ/1669م. وقد أشار إلى الموضوع صاحب الاستقصا ج7/43 نقلا عن الزياني ولم يذكره.

صفحة من مذكرات أحمد الناصري صاحب تامگروت

الفصل الرابع والعشرون بعد المائة

من الرشيد بن الشريف إلى إسماعيل بن الشريف

من الذين عرفونا على المولى إسماعيل أيام شبابه وعن الموهلات التي دفعت بصنوه الرشيد إلى أن يتخذه قوة في جانبه ثم يؤهله لخلافته هو تلك المراسلات التي كان الشيخ أحمد الحبيب اللمطي السجلماسي يوجهها لابنه المولى عبد الله حتى يثير في نفسه ماكان لوالده من نخوة وشهامة وقوة إرادة ، حيث يقول ما يلخص من مراسلاته أنه كان قد عرفه منذ حداثة شبابه، كما روى عن أعمامه والذين عرفوه ، وبذلك يخاطب ولده « فقد علمنا ممن خبروا كل أطوار حياته أنه كان شغوفا بركوب الخيل، ورمي الحراب المصوبة لجذوع النخل، حيث كان يتبارى مع أترابه من إخوته وأبناء عمومته الذين كان مقدرا ومهابا بينهم، ولذلك أقدم على القتال إلى جانب أخيه مولانا الرشيد الذي كان له درعا ومعينا في جل الحروب التي خاضعا، لأنه كان جسورا مقداما يخوض المعارك بعقله لابزنده ، فكان يقدم إقتداء بصنوه حيث يعرف تحقيق الانتصار، ولا يخاطر حبا في المخاطرة إلا إذا كان مرغما وليس له إختيار ، وبذلك لم يكن في معركة منها من الخاسرين، مما جعل مولانا الرشيد رحمه الله يقبل عليه ويسند إليه أخطر المهمات الحربية ضد البرابرة البغاة الخ(91).

ولد السلطان إسماعيل ، بن الشريف، بن علي، بقصر « أبحّار» بالحاء المهملة المشددة، الواقع في الجنوب الشرقي من قصر « أبو عام » خلف سوق الريصاني في تافيلالت ، سنة 1045هـ/1635م(92) وهو القصر المعروف حتى اليوم بالإسم والنعت، وبهذا

---

(91) وثيقة خاصة.

(92) أرخ بعضهم لميلاد السلطان إسماعيل سنة 1056هـ والذي قيل عنه وقعة « الكاعة = الكارة » هذا في الوقت الذي نجد بعضهم يقول إنه ولد في العهد الذي كان والده سجينا عند السملالي 1043هـ، ولقد ثبت عندنا تاريخ ميلاده أنه سنة 1045 هـ وذلك من خلال مراسلة للشيخ أحمد الحبيب اللمطي المعاصر، موجهة إلى المستضيء بن إسماعيل يتحدث فيها عن همة والده الذي تولي الملك وسنه ست وثلاثون سنة. وثيقة خاصة ، ولعل أول من أرخ له بسنة 1056هـ هو اليفرني في روضة التعريف. من غير أن يدلنا على المصدر الذي استقى منه. =

يكون إسماعيل أصغر من أخيه الرشيد بحوالي خمس سنوات ، بل ربما هو أصغر إخوته جميعا، وإذا ما عرف إسماعيل بما لم يعرف به أخويه محمد و الرشيد، فإن التاريخ لم يخبرنا عن نشأته(93) إلا ما كان من الرواية المحلية المتداولة بين الفيلاليين عن فروسيته أيام شبابه المبكر، وأما عن تعلمه وثقافته فلا يعرف منها إلا ما أشار إليه بعض الذين كتبوا ترجمته من أنه كان يحب العلم ويقدر العلماء وفي مقدمتهم وزيره اليحمدي، والذي يظهر أنه لم يدرس دراسة علمية بالمعنى المفهوم، وإنما كان على جانب كبير من الثقافة السياسية و الاجتماعية كما يظهر من خلال إملاءاته في مراسلاته الخاصة لأولاده(94) ثم لبعض الملوك،(95) تلك التي تختلف عن الرسائل التي كتبها ابن عمه الحفيد باسم محمد بن الشريف للدلائي ثم للأتراك، بل كذلك لم يخبرنا التاريخ كيف انتقل من تافيلالت ومتى التحق بأخيه الرشيد، رغم أنه لم يكن شقيقه إذ شقيق إسماعيل هو المهدي، الذي لم يكن له ذكر في مجال السياسة، لكن إذا نحن استعملنا نفس الاستنتاج المستعمل في أسباب خروج الرشيد وقت وفاة والده وفراره من أخيه محمد الذي عرف بعنفه مع إخوته غير الأشقاء، ماعدا الحفيد شقيقه الوحيد الذي شاركه المعارك الأولى

= راجع ص 32 ط 1962 ويقال إن والدة المولى إسماعيل إسمها مباركة لمغافرية وهي «أمة» من مماليك أولاد يحيى بن ديمان كما قال الزياني في البستان، وأنها توفيت سنة 1078هـ، مع أننا إذا راجعنا نشر المثاني 1/317-19 نجد أن محمد إفتك والده بقنطار ونصف ذهبا وهو ما يدل على خسة ودناءة بودميعة. و القنطار عندهم وقتها هو عشرة آلاف مثقال ذهب ، أي المجموع خمس عشر ألف، وأنه عاد إلى تافيلالت وأن الحرب بقيت بين المولى محمد وعلي بوحسون ، وإلى السنة المذكورة، ومعنى هذا أن الشريف سنة 1050 هـ كان بتافيلالت ، وقبلها ولد إسماعيل بقصر أبحار : باء وحاء مهملة مشددة، والشريف أعيد من إليغ عام 1045هـ/1635م وهي السنة التي ولد فيها إسماعيل.

(93) كتب حوله ابن زيدان كتابا سماه « المنزع اللطيف » لكنه لم يتعرض لما نقصد راجع خ ع 595ج والاتحاف 2/74 - 75.

(94) الاتحاف ج 2/50-71 ورسائله إلى ولده المامون ط الملكية 1967.

(95) مراسلته للويس 14 إتحاف 2/54. ولجيمس 2 نفس المصدر 56. ولكارلوس ملك الاسبان ص 63، ومن خلال ما لدينا من وثائق عرفنا له مجالس علمية حيث جمع بين أبي علي بن رحال وأحمد الحبيب اللمطي يستدل منها على المستوى الرفيع الذي كان يتمتع به في تلك المجالس التي كان العلماء يناقش بعضهم البعض في مسائل تتصف بالغرابة، على أننا نجد السلطان إسماعيل حين يريد الكتابة في غير موضوع السياسة وإصدار الأوامر يسند ذلك إلى متخصص. وربما كان هو اليحمدي أما هو شخصيا فإنه لم تكن له دراية بالكتابة، وأن مازعمه محمد الفاسي كعادته بلا برهان فهو زعم باطل، فالمولى اسماعيل لم يكن يعرف القراءة والكتابة، وفي أسلوبه (مائة دليل وبرهان) .

التي خاضها ضد أهل تابع صامت وبني الزبير، والتي نص محمد في مراسلته للدلائي على أنه جرح، إذا ما استعملنا كل ذلك في تعرفنا علي علاقة إسماعيل مع محمد وإخوته، وبالتالي مع غيره يكون إسماعيل بلا شك قد عرف نفس المعاملة، مما دفع به لمغادرة تافيلالت، واللحاق بأخيه الرشيد في الوقت الذي تمكن فيه هذا الأخير، ثم نصبه خليفة له في مدينة مكناس، وقد كان ذلك بلا شك سنة 1076هـ 1665م بدليل أن كل الذين أرخوا للسلطان إسماعيل أشاروا إلى أنه بقي في تلك الخلافة مدة سبع سنوات، لكننا لم نتعرف على المولى إسماعيل التعرف الكافي إلا يوم زوّجه صنوه من أحدى بقايا السعديين بمدينة فاس، وذلك بعد شفاء المولى الرشيد من مرضه الذي كاد ينتهي فيه، وذلك في شهر شوال 1080هـ/1996م.

وإذا لم يخبرنا التاريخ كذلك عن أولاد الرشيد والذي بلا شك لم يعقب، فإن ماعرف عنه من حنو على أخيه الصغير إسماعيل، بن الشريف، واهتمامه به أكثر بعد شفائه، وتأهيله له، بالطريقة التي سجلها التاريخ، ليدل بوضوح أنه كان يعده للأمر بعده، كما فعل عبد الملك السعدي مع أخيه أحمد المنصور، ناهيك وأن الرشيد وكل إلى أخيه إسماعيل القيام بحملات ردع ناحية مكناس، وبين قبائل البربر المجاورين لها، بل لم يحدثنا التاريخ عن شخص ما من أولاد الشريف بن علي، إخوة الرشيد تقرب إليه ثم أصبح أحبهم إلى نفسه غير إسماعيل، لهذا نرى جل الذين أقبلوا على الرشيد وبايعوه سرعان مافعلوا نفس الشيء مع أخيه إسماعيل عندما بلغه خبر موت الأول المفاجئ بمراكش وفي مقدمتهم رجال الجيش الذين بابعوه بمدينة مكناس التي عادوا إليها من مراكش بعد موت سلطانهم(96)، وذلك في الساعة الثانية من يوم الأربعاء 16 ذي الحجة1082هـ/17 مارس 1672، كما أرخ بعضهم في رسالة إلى التاجموعتي محمد المخزومي التي نتوفر عليها.

---

(96) يقول اليفراني إن البيعة كانت بفاس حسب رواية محمد الشرقي، وإن أسماعيل تمنع عندما عرضت عليه والواقع أنها كانت بمكناس بدليل ما سيصدر عن أهل فاس من قتلهم لقائد الرشيد زيدان ثم إن إسماعيل كانت إقامته بمكناس التي بنى بها قصر النصر أيام خلافته وأما عن تمنعه ففيه مبالغة مدح كما وصفه بالزهد وتلك عاطفة مصدرها المناسبة التي كتب فيها روضته التي اعتمد في تسعة اعشارها على صاحب الأنوار راجع ص 46 ثم الانوار لاحمد بن عبد العزيز ط 1966.

لقد بويع السلطان إسماعيل من طرف كل الجهات التي سبق أن فتحها صنوه الرشيد، ماعدا أهل فاس، ومراكش، وتارودانت وما حولها، هؤلاء الذين تأخروا عن بيعته بل ناصبوه العداء، لعل الدافع لذلك هو ماجد بتافيلالت موطن الأسرة التي ظهر فيها ابن أخيه أحمد بن محرز، القتيل بأمر الرشيد، مع أخيه الحفيد، وابن أخيهما الثائر محمد بن محمد بن الشريف، والذين ألقي عليهم القبض قبل في البيض شرقا، ثم جيء بهم مصفدين في الأغلال إلى سجن تازة حيث قتلوا جميعا كما سبق، وبسبب ذلك تحول كل الإخوة الذين كانوا بحكم التبعية تحت سلطة محمد إلى خصوم ضد الرشيد، ومنهم أحمد بن محرز الذي أعلن الثورة بمجرد سماعه بموت عمه، ثم توجه بما كون من جيش إلى مدينة مراكش التي صادف هوى في نفوس أهلها الموتورين من الرشيد ومعهم أهل سوس الذين أجمعوا على عدم بيعة إسماعيل خليفة الرشيد صاحب الوقائع التي استأصلت منهم نحو السبعة آلاف قتيل، ما بين أهل تارودانت، وإيليغ، وهشتوكة، وسفح الجبل، ومن أجل ذلك استقبلوا أحمد بن محرز ومكنوه من القوة التي سيواجه بها عمه إسماعيل، ونسي القوم أن إسماعيل قبل أن يبايع كان قد تمرس على القتال وأنه أشد بطشا من الرشيد، وأكثر إحتمالا على خوض المعارك الفاصلة مهما طالت، خصوصا وأنه ورث جيشا يعد بعشرات الآلاف، وقد كان زمن حملة الرشيد على تطوان قد قرب من السبعين ألف.

كان أهل مراكش وفيهم العلماء والوجهاء، قد توجهوا برغبتهم إلى أحمد ابن محرز بن الشريف، ثم بايعوه ضد عمه إسماعيل في الفترة التي كان هذا الأخير يستقبل وفود المبايعين من مختلف الجهات، ورغم ذلك لم ينتظر طويلا، فبعدما رتب الحراسة ضد الجهات المشكوك فيها ومنها مدينة فاس، كما ترك بعض الجند في عاصمته الجديدة مكناس التي توجه منها في أغلبية الجيش إلى مراكش، وذلك يوم الخميس آخر ذي الحجة 1082هـ/1671م، وماكاد يشرف عليها حتى قامت وكل ما حولها من القبائل لمواجهته والوقوف في وجهه، وإذا مادامت الحرب أكثر من شهر فر بعدها ابن أخيه، فإن إسماعيل دخلها للمرة الأولى يوم الجمعة 7 صفر 1083هـ/1872م وبمجرد دخوله أمر بنقل رفات أخيه الرشيد ليعبر بذلك عن شدة غضبه ، ثم أمر أن يدفن بضريح على بن حرازم

أمام باب الفتوح من مدينة فاس، حيث تم ذلك يوم الإثنين 17 صفر من نفس السنة(97).

عاد إسماعيل إلى مدينة مكناس بعدما كان قد تهيأ للذهاب إلى تافيلالت عن طريق درعة حيث أحمد بن محرز، لكن بلغه أنه توجه شرقا حيث حط رحاله بمدينة دبدو،(98) ثم أخذ يراسل ما قرب منها، وإذا ما تمنعت عليه مدينة تازة وبعض خليط أهل فاس من مسلمة اليهود وأعلاج النصارى، الذي تعودوا الخوض في الماء العكر، يتقدمهم أولاد لطوريات الذين أجابوا مراسلة إبن محرز التي يدعوهم فيها لبيعته، وذلك بواسطة كوكبة من عشر فرسان خرجوا من المدينة في مغرب منسلخ جمادى الثاني سنة 1083هـ/1673م وقد إختاروا ذلك الموقف لأنهم وقت ورود خبر موت الرشيد وذهاب إسماعيل إلى مراكش لمواجهة ابن أخيه قاموا بحملة عاتية ضد القائد زيدان العامري التونسي(99) الذي قتلوه غدرا ثم نكلوا بجثته، ذلك لأن الرشيد كما مر كان قد أرسله ليأتيه برديف من جند الرماة من أهل فاس، وتلك جريمة لم ولن يغفرها لهم إسماعيل، ولذلك توجهوا نحو إبن أخيه الثائر ضده، وفي الوقت الذي راسلهم أحمد بن محرز كان لخضر غيلان هو الآخر قد راسلهم بتاريخ 2 رجب 1082هـ /1672م يطلب منهم إمداده والوقوف معه ضد السلطان إسماعيل، وذلك بعد عودته من الجزائر التي كان قد فر إليها بحراً ومعه حليفه الذي هو كبير أولاد النقسيس الذين كانوا قد هربوا إلى سبتة وقت حملة الرشيد على تطوان ونواحيها، وهكذا تفرقت أهواء أهل فاس بين أحمد بن محرز ولخضر غيلان، ونسي هذا الأخير أنه لم يستطع فعل شيء أمام الرشيد، وقد كان قبل يتوفر على نحو العشرين ألف مقاتل مدربين من أهل الهبط والفحص، فكيف وقد تجرد من كل ذلك ثم عاد بعد فرار طال سنوات، وقد أصبح مجردا من كل قوة تسانده وحتى إن وجدت فهي لاتجدى.

---

(97) راجع البستان 28 والضعيفي وعند إبن زيدان في الاتحاف 28/3 ما يفهم منه أنه لم ينقل من مراكش وهو خطأ.

(98) الضعيفي المصدر السابق وعند اليفرني تازة، والأول أصح لأنه متفق مع البستان راجع ص 29. ودبدو كان خاصا باليهود منذ عهد بني مرين كما سبق.

(99) وصفه بعضهم بالتلمساني وعند الضعيفي م خ نا ص 39-40 أنه تونسي ولعل الذي جعله تلمساني نسبة إلى بني عامر الذين كانوا بالقرب من تلمسان، والذين استقدمهم الرشيد مع مديونة، وبني سنوس، من شرق المغرب، كما وصف بودميعة محمد التاجموعتي المخزومي بالفيجدجي. لانه عندهم من العباسيين المعروفين باقيلم توات، ونسوا أنه سجلماسي ولايعرف بغيرها راجع إليغ ص 129 ط الرباط 1966م.

خرج إسماعيل متوجها لردع إبن أخيه بعد ظهريوم الجمعة 5 رجب 1083هـ 1973م لكن إبن محرز ما كاد يسمع ويرى حتى فر عائداً إلى تافيلالت، فتوجه إسماعيل غازياً في طريقه نحو الشمال إلى حيث لخضر غيلان الذي بلغه خبره، والذي لم يكن قد دبر أمره بالهبط فقضى عليه وعلى كل من معه بالقصر، في المعركة التي كانت بتاريخ يوم الأحد 20 جمادى الأولى 1084هـ1674م، وبعدها عاد إلى أهل فاس يريد تصفية الحساب معهم، لكنهم بمكر إستطاعوا إقناعه أن ماحصل إنما هو من قلة لا إعتبار لهم، وأن الأشراف والعلماء ليسوا في حاجة إلى دليل أنهم تعلقوا بأخيه الرشيد وساندوه، كما دلوه على قتلة القائد زيدان العامري، ثم أبدوا تنصلهم مما إتفق عليه بعضهم في الجمع الذي تم بين عشائي يوم الخميس أول جمادى الأولى 1083 هـ 1673م(100) وإذا هو تظاهر بقبول ماقدموا فإنه سرعان ما سيظهر منهم العكس، الأمر الذي أدى به إلى أن يبدأ معهم الحساب من جديد، وبطريقة لم يقدروها، فكان ذلك في الحصار الطويل الذي ضربه عليهم من كل الجوانب حتى لايعودوا معه إلى استعمال، ما ألفوه من نفاق ومراوغة زمن محمد والرشيد(101) ومع الدلائيين وغيرهم، وإذا كان الرشيد لم ينتصر عليهم بالحلم والعلم والكرم، بقدر ما إنتصر عليهم بالسيف، فإن إسماعيل لم يستعمل فيهم غير السيف ماداموا وبكيد من مسلمة اليهود واعلاج النصارى المنافقين بينهم قد إختاروا الكذب والدس والمراوغة، وإذا هو شدد عليهم الحصار فإنهم لم يستطيعوا المقاومة أكثر من شهر، ومع ذلك أهملهم ولم يأذن لكبارهم في القدوم عليه يوم حل بفاس الجديد في20 ج ل، ثم أخذ في تنظيم الادارة بفاس التي ولى عليهاعبد الرحمان المتراري الفيلالي(102) ثم على العدوتين أحمد التلمساني، ولم يقبل استقبال أهل فاس إلا يوم الإثنين 14 رجب، أي بعد مقامه أربعا وعشرين يوما، عزل فيهاالشريف محمد البوعناني عن خطابة القرويين، ثم ولى مكانه محمد بن الحسن المجاصي(103) أما قضاء فاس الجديد وخطبتها فلم يغير فيها، وإذا هو رأى ذلك لم يغير من الوضع كثيرا ولى على

(100) راجع الضعيفي ص 39-40 م خ نا.
(101) المصدر السابق 41.
(102) تولى الوزارة بعد، لكنه قتل، وطوف بجثته في كل من مكناس وفاس بسبب خيانة ظهرت عليه.
(103) توفي سنة 103اهـ 1691م.

مجموع فاس عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز المغراوي، كما ولى القيادة أحمد التلمساني، وهما اللذان نكلا بأهل فاس أشد النكال، وحتى يظهر للذين لم يقدروا عفوه عمل على إرجاع الدلائيين الذين كانوا بتلمسان، ليلتحقوا بإخوانهم الذين كان الرشيد قد تركهم بمدينة فاس، فقد كتب إسماعيل في حقهم إلى الأتراك مرات ومرات، لكنهم لم يتركوهم إلا بعد ما قامت الثورة ضد الداي بتلمسان، ووقتها خرجوا منها ثم عادوا إلى المغرب سنة 1085هـ/674م إلا أحمد بن عبد الله بن محمد الحاج، هو الذي تخلف لإنجاز ما كان يدبر كما سنرى، والذي حاول تغطية عمله بالاعتذار للسلطان إسماعيل.

عاد إسماعيل إلى مدينة مكناس التي بلغه فيها خبر توجه أحمد بن أخيه محرز إلى مراكش من جديد فتوجه إليه حيث حصلت بينهما معارك ضارية قتل فيها قائد جيش أحمد بن محرز حيدا الطريري، كما حصل غدر من بعض قواد جيش إسماعيل، وهم: الشيخ البطيوي وولده وإخوته الذين كانوا أمراء على الجند فقتلهم خنقا، ثم أرسل لمن بقي منهم بفاس فقتلوا وصودرت ممتلكاتهم، ودامت حربه لابن أخيه في هذه المرحلة بناحية مراكش وسوس، مدة أربع سنوات متواصلة منذ بدأت في شهر المحرم 1084هـ/1673م، وإذا ماطالت الحرب فإن المتنفس الذي كان يلجأ إليه ابن محرز هو الجنوب تافيلالت ثم الجنوب الشرقي علّه يثير الأتراك حتى يشغلوا عنه عمه وجنوده، وكم كلفت مطاردته من متاعب بعثت التذمر في بعض قواد الجيش، خصوصا منهم الذين يرجعون أصلا إلى تافيلالت ونواحيها، والذين كانوا على صلة بإخوة إسماعيل المؤيدين لأحمد بن محرز، بل كانت جولاته شرقاً وجنوباً بتخطيط يقصد منه التخفيف على أهل مراكش وسوس، الذين كان السلطان يوقف الحرب ضدهم كلما خرج من بينهم إبن أخيه، إلا أنه في أول شهر ربيع الثاني من سنة 1088هـ/1677م خرج أحمد بن محرز من مراكش ثم توجه إلى تارودانت، التي لها حساب طويل مع إسماعيل مما دفع بالسلطان إسماعيل إلى أن يقتحم مراكش في اليوم السابع منه، وفي هذه المرة استباحها ونكل بأهلها ثم قتل سبعة من أعيانها(104)وفقأ عيون ثلاثين من كبار رجالاتها الذين تزعموا بيعة ابن أخيه الأمر الذي دفع عرب السوس وماحولهم من البربر، ناحية مراكش إلى

(104) استعملت بعض المصادر «كوى» من كواه كيا وكية: أحرق جلده بحديدة محماة، ولما كان القصد من ذلك مافعله بعيونهم إخترنا فقأ:العين شقها فخرج مافيها، راجع معاجم اللغة العربية والوسيط منها ج 2 703 ط 1961م.

التمسك بإبن أخيه والاستماتة في القتال معه ضد عمه، خوفاً من نفس المصير، وإذا ما اشتدت المعارك بعيدا غرب مراكش التي احتلها إسماعيل ثم ركز فيها جيوشه بطريقة أيأست ابن أخيه منها، فإن هذا الأخير تركز هو الأخر في تارودانت، ولست أدري ما الدافع بالسلطان إسماعيل إلى عدم الإجهاز على إبن أخيه، وقد كان في استطاعته بعد احتلال مدينة مراكش أن يفعل، هل لأنه اكتشف فيه ما لم يعرف في غير عمه محمد بن الشريف من صبر وتحمل لمشاق الحروب في مختلف المناطق والفصول، بالإضافة إلى عناده من أجل أخذ الثأر لوالده القتيل بأمر عمه الرشيد الذي ترك الملك لأخيه إسماعيل؟ بل إن هذا الأخير في نظرنا كان يتمنى أن يكون إلى جانبه أمثال أحمد بن محرز الذي لم يكل ولم يمل رغم عدم تكافؤ ما حوله من رجال وعتاد، مع ما عند عمه إسماعيل، لكن أحمد رغم علمه بذلك الشعور الذي كان لايخفيه عمه، والذي ظهر في المفاوضات المتعددة من أجل إيقاف الحرب مؤقتاً، لم يتراجع ولم يفكر في التراجع قط، رغم ما كان عمه يهيء له من فرص لذلك، حتى إنه كان يتركه ثم يتوجه لقتال غيره من الذين كانوا يظهرون هنا وهناك، ومن ذلك ماقام به حين تركه بتارودانت، ثم توجه نحو الدلائي الذي ظهر بتادلا، ولما إنتهى منه انشغل قصدا بغيره عن إبن أخيه، مؤملاً منه التراجع لأنه كان لايريد له أن يضيع وقد ظهر أنه قوي النفس عالي الهمة شجاع، ومثله كان السلطان إسماعيل وقتها في حاجة إليه وإلى أمثاله.

في هذه المرحلة فتحت واجهة أخرى لمحاربة السلطان إسماعيل، وذلك بناحية تادلا، حيث ظهرت قوات كبيرة من البربر يقودها أحمد بن عبد الله بن محمد الحاج الدلائي، الشاعر(105) الشاعر الأديب البطل الذي دخل المغرب بعد غربة ست سنوات أوائل سنة1088هـ/1677م، وذلك في الوقت الذي اشتدت المعارك بين السلطان إسماعيل وابن أخيه، وهكذا وجه السلطان إسماعيل ثلاثة آلاف من جنوده(106) يقودهم القائد

---

(105) هو الشاعر الأديب الذي قارنه الدكتور محمد حجي في كتابه: «الزاوية الدلائية» ص: 238-240 بأبي فراس الحمداني ولنعم المقارنة، فهو الذي ولاه جده على مدينة فاس، لكنهم ضايقوه لصغر سنه، فخرج منها ولم يقبل البقاء بين قوم ناصبوه العداء رغم قدرته على أن يفعل بهم مافعل غيره، وحتى في تلمسان ربما وجد نوعا آخر من المحاربة ظهرت على لسان شاعرهم أبي عثمان سعيد التلمساني الذي تملق السلطان إسماعيل وقتها على حساب الدلائي حيث قال مخاطبا الدلائي على لسان السلطان المذكور وهو شاعر أصيل كما يظهر من قصائده التي منها:

إلى آل ذات الخال تحدى النقانق وتعدو إلى تلك الديار السوابق =

يخلف، لمواجهة الدلائي لكنهم انهزموا وقتل القائد المذكور ، مما إضطر السلطان إلى إرسال رديف آخر من نفس العدد ثم ورابع، دون الحصول على نتيجة ، بل إلى جانب فقد السلطان لكثيرمن جنوده وقواد جيشه، اتسعت رقعة القتال الذي طعمه بربر صنهاجة سدنة الدلائيين قبل، والذين سرعان ما أثار حنينهم إلى الماضي الثائر الجديد أحمد الحفيد، لكن عمله كان متأخراً، بل كان ضرب في حديد بارد، رغم ماعرفه المغرب وقتها من ترويع لم يقتصر على ناحية دون أخرى، حتى إن جموع بربر صنهاجة فازاز إتجهوا بجموعهم نحو العاصمة مكناس التي تداركها السلطان إسماعيل بنفسه على رأس جيوشه وبكل ما لديه من عتاد إلى جانب ما إستنفر من قبائل، فكانت المعركة الفاصلة يوم 5 صفر 1089هـ/1678م، والتي قيل إنه سقط فيها من رجال الدلائي نحو الثلاثة آلاف، قطعت من رؤوسهم سبعمائة أرسلت لتعلق بأسوار فاس مع قائدها عبد الله بن حمدون الروسي، وذلك في الوقت الذي فقدت فيه المدينة المذكورة أربعمائة من أبنائها الرماة في تلك المعركة،(107) مما زاد في معارضة أهل فاس ضد السلطان إسماعيل، أما

= عريب لهم بالرقمتين منازل تلبي هوادي الركب والقطر دافق
غروب بأرض الغور في أي مغرب وإن أنجدوا للمكرمات مشارق
مراتع ذاك الحي صدري وإن نأوا وبيني وبين الانسات دقائق
إذا ما أطلن العتب يوما لوحشة يقصره بالليل منا التعانق
على فرش مرفوعة كان وصلنا وصفت على الاعطاف منا النمارق
بطائنها من أخضر الخز نمقت وظاهرها للناظرين شقائق

الخ والقصيدة مطولة بها 62 بيت وهي من الإشادة: بمالك وموطاه.. وأما التي قالها على لسان السلطان إسماعيل وعدد أبياتها عشرون فهي مايلي:

تأهب ليوم الحرب فالحرب عيد لنا وعليكم محنة ووعيد
ستعلم أشقى الناس يوم لقائنا إذا قعقعت في الحرب منا رعود
دعوت مجيبا فارتقب ما طلبته فإنا بما تبغى عليك نجود
أتجهل قبل اليوم ماقد علمته وأنتم لنا تحت السيوف عبيد
أسأتم فكنا المحسنين وعدتم إلى السيآت بالعقاب نعود

الخ والمرجع مخطوط خاص

(106) البستان 28.

(107) البستان 29 ويقول الحوات في البدور الضاوية إن الدلائي فر إلى قبائل آيت يسرى راجع ص 6/6 ط حجرية، بل أرخ موته بيوم الخميس 21 محرم 1091هـ/1680م أي بعد سنة وخمسة أشهر، وقيل إنه قتل بالسم =

سجلماسة وقتها فقد إنشغل أهلها بالخوض في عقيدة التوحيد إلى أن أدركهم الطاعون عام1090هـ، بل في هذه المرحلة التي أخذت من السلطان إسماعيل جهدا عظيماً، نشط فيها الثائر أحمد بن محرز نشاطا كبيرا كذلك، حيث وسع وقتها رقعة قتاله حتى قرب من مراكش، مما دفع بعمه إلى أن يستعد لمواجهة ابن أخيه بطريقة تختلف عن الماضي، وقبل أن يغادر مدينة مكناس قدم عليه خبر قيام إخوته الثلاثة الذين استغلوا ظهور الدلائي وهم: علي، وهاشم، وحماد، أبناء الشريف بن علي الذين أعلنوا مناصرتهم لأحمد بن محرز، وتلك مصيبة دمرت الاخوة غير الاشقاء بما كان بينهم من تنافر كما سبق لمحمد مع الرشيد. وكان الذي قدم عليه في نفس الوقت يستنكر ويستنجد ضد الإخوة الثلاثة أخوه الحران، لكنها كانت حيلة مدبرة أريد بها إشغال إسماعيل وجنوده بتطويحهم إلى تافيلالت، حتى يشغلوهم عن أحمد بن محرز، وفعلا أرسل السلطان فرقا من جيشه نحو تافيلالت ، لكنهم لم يصلوا حتى وجدوا الحران هو الآخر قد وجه الإخبار لابن محرز بقدومهم، ثم اكتشفوا أنه كذلك يعمل ضد أخيه مما دفع به إلى الفرار نحو ابن أخيه بتارودانت التي كان إسماعيل قد شد الرحال إليها من مكناس، مما دفع به إلى التشديد أكثر في قتاله ضد ابن أخيه والتضييق على أهل تارودانت بشكل دفعهم للمواجهة بكل ما لهم من قوة، فكانت المعارك ساخنة قتل فيها الكثير من الطرفين بما في ذلك قواد جيش السلطان الذين سقط منهم القائد الزيتوني والباشا حمدان والقائد عبد الرحمن الروسي الذي تولى مكانه ولد الغرناطي الذي سيقتل هو الآخر في معركة غير منتظرة، يذهب ضحيتها أحمد بن محرز نفسه. أثناء هذه المعارك كان السلطان قد وجه أهل الفحص وأهل الريف لمحاصرة المهدية بقيادة عمر بن حدو البطيوي ، وأثناءها بلغه أنهم أشرفوا على النصر وكان الحظ دائما يخدم أحمد بن محرز بظهور ما يشغل عمه كلما إشتد الوطيس بينهما، فاختار السلطان إسماعيل أن يشرف بنفسه على النصر

= الذي دسه له السلطان إسماعيل، وهذا لايتفق مع ماعرف به هذا السلطان نحو خصومه، راجع الزاوية الدلائية 240. بل إن السلطان سوف نراه ينتقم من تلك القبائل شر انتقام بعد خمسة عشر عاما أي عام 1104هـ 1692م كما سنرى حين يجمع لحرب آيت أمالو جيش البخارى وجيش البربر بقيادة على بركة وعلى ويشو، فيقطع منهم 12000 رأس ومن قبيلة كروان مثلها راجع الفصل 127 بعد، ثم راجع الزياني والناصري وغيرهما.

الذي بلغه أنه قريب، ولم يبق للإسبان الثلاثمائة الذين كانوا بالمهدية غير الاستسلام، لذلك توجه ليشرف على الفتح الذي تم يوم الخميس 1092هـ /1681/4/14م وبينما هو في شغل بانتصاره بلغه أن ابن أخيه قد رحل نحو الشرق بعد مراسلة بينه وبين الأتراك، وكأنه بذلك يريد إستنزاف قوة عمه الذي بلغه في نفس الوقت أن الأتراك تراسلوا سراً مع بني يزناتن ثم قدموا عليهم، الأمر الذي دفع بالسلطان إسماعيل إلى أن يلتفت لبني يزناتن حيث الاتراك، لكن هؤلاء ما كاد يقترب منهم حتى بلغهم خبر هجوم الفرنسيين على شرشال، في رجب 1094هـ/1682م، فتركوا بني يزناتن وعادوا لمواجهة الموقف، وكان وقتها على الجزائر حاكم غير مستقر، هو بابا حسن صهر الحاج محمد داي، الذي قتله خليفته، والذي لم يستطع مواجهة الموقف، بل واجهه الجزائريون الذي خلفوا في الميدان نحو السبعمائة قتيل في المعركة(108) أما السلطان إسماعيل فإنه لم يترك بني يزناتن بل إقتحم معاقلهم وأطلق الجيش فيهم، ثم جردهم من الخيل والسلاح كما أمر بإحاطة بلادهم بالقلاع، فبعدما شيدت قلعة وجدة، أتبعها بقلاع وقادة، ولعيون، وامسون، وتاوريرت، ثم نصب الزعروري على وجدة ومنصور ابن الرامي كقائد أعلى على القصبات التي وضع لها نظاما هو جباية الخراج، من مختلف القبائل المحيطة، والإنفاق على الجيش المقيم الذي بلغ تعداده في القصبات المذكورة نحو الألفين وخمسمائة، ولقد وقع صاحب الاستقصا 62/7 في خطأ حين أرخ لهذه القلاع بـ 1091هـ بيد أنها وقتها لم تكن قد بنيت. لم يبق للسلطان إسماعيل في هذه المرحلة ما يشغله عن إبن أخيه الذي بلغه أنه يكثر من الهجوم على مدينة مراكش فتوجه إليه رأساً. حيث إستمر القتال بينهما ما يقرب من الشهر بدون انقطاع، جرح فيه كل من السلطان إسماعيل وابن أخيه، فكان ذلك سببا في توقيف القتال مؤقتا، ثم رجع السلطان إلى مدينة مكناس التي بلغه فيها خبر فتح مدينة طنجة التي فر عنها الأنجليز بعد حصار ست سنوات وذلك في شهر ربيع النبوي 1094هـ/1683م(109) وبعد إنتهاء إحتفالاته بالفتح وعودة المدافع النحاسية منها إلى

(108) راجع زامباور الأسر الحاكمة ج 128/1.

(109) راجع تعليق رقم 1 ص 91 من كتاب الأنوار تحقيق المؤلف ط 1966، ونشر المثاني 57/2-71 وتاريخ الشعوب الإسلامية بروكلمان ج 120/4، والموسوعة العربية ص 164 اط 1965 وفي نزهة الحادي ص 306 أن التحرير كان في شهر ربيع الثاني 1095هـ وقد قال عنه صاحب الاستقصا 67/7 ط البيضاء ربيع الاول: والصحيح ما أورده صاحب الانوار لأنه كان معاصر للسلطان إسماعيل الذي أهدى إليه كتابه يدا بيد عام 1101/هـ1689م.

مدينة مكناس، عاد إلى محاربة ابن أخيه، كما أرسل قوات أخرى لمواجهة الثورة التي أعلنها إخوته الثلاثة بجبل صاغرو تؤازرهم قبائل آيت عطا الذين لم يقهروا إلا بعدما توجه إليهم بنفسه، وفي طريق عودته تم نزوله بالمكان المعروف «سيدي رحال» وذلك في شهر المحرم من سنة 1095هـ/1683م، حيث اكتشف مؤامرة دبرها وزيره عبد الرحمان المتراري «المشار اليه ت(102) أعلاه» فأمر بقتله وقتل جميع قرابته وثلاثمائة من الجنود ثم أرسل بالرؤوس لتعلق بمدينة مكناس، وبشلو المتراري ليطوف به في مدينتي مكناس وفاس.

وبينما هو في طريقه إلى عاصمة ملكه كان قد ظهر الوباء في شهر ذي الحجة من سنة 1094هـ /1683م، فأمر بمنع الواردين على مدينة مكناس من كل الجهات ومن أتى من ناحية فاس يقتل، ثم توجه إلى قبيلة آيت يدراسن من بربر صنهاجة بجبل فازاز، قصد غزوها، وقبل الوصول إليها تلقاه رجالها يطلبون الأمان فقبله بشروط تمثلت في رعيهم لما يقدم لهم من الأغنام، ثم دفعهم للصوف والسمن الذي ينتج منها كل سنة، مقابل إعفائهم من جميع الكلف، وبلغ عدد مادفع لهم 60.000 ستون ألف رأس، ولربما كان يقصد ترويع قبائل آمالو بالأطلس المتوسط، إلا أن فصل الشتاء رده إلى عاصمة ملكه، وفي آخر السنة توجه بأعداد هائلة من الجند لقتال إبن أخيه حيث حط الرحال حول مدينة تارودانت التي كان أحمد بن محرز قد حصنها ثم تركز فيها، ونظم الحراسة المشددة حولها، أما السلطان فإنه لم يفعل أكثر من قطع الإمدادات عليها من الناحية الشرقية ثم أخذ ينظر ما يفعل أهل المدينة المحاصرة بعد نفاذ ما بأيديهم من وسائل الدفاع، واستمرت المواجهة بلا قتال إلا لماماً، وفي صباح اليوم الثامن من شهر جمادى الأولى سنة 1096هـ/1684م(110) خرج أحمد بن محرز صحبة جماعة من جنوده في جولة قيل لزيارة بعض الأضرحة، وقيل غير ذلك، ولما رآه جند السلطان حسبوه أحد القواد مع بعض الجنود الموالين لأحمد بن محرز فلاحقوهم واشتبكوا معهم في قتال كان من بين صرعاه أحمد بن محرز الثائر المستميت، كما قتل فيه إبن الغرناطي أحد قواد جند السلطان، وهكذا صنع أحمد الثائر الفرصة التي لم يكن ينتظرها إسماعيل، ولربما كان

(110) عند صاحب الاستقصا 79/7 أنه أواسط ذي القعدة وليس بصحيح لأنه كثيرا ما يعتمد أكنسوس الذي سبقه إلى النقل الخطأ، بل أن اكنسوس كثيرا مايحور كلام غيره، خصوصا الزياني في الروضة السليمانية =

منه ذلك إستهانة بقوات عمه التي لم تنتصر عليه طيلة الأربعة عشر عاماً لم يعرف فيها السلطان إسماعيل راحة ولاظفر فيها مرة واحدة بالانتصار في ميدان القتال، وذلك ما أكبر إعجابه بابن أخيه لأنه ذو نفس أبية كما عبر بذلك.

وهكذا انتهى الرجل الذي حال بين السلطان إسماعيل والشعور أنه سلطان حقا وبلا منازع يهدد استمراره ، فكان قتل أحمد الذي لم يقتل في حساب أهل سوس بداية مرحلة جديدة في حياة إسماعيل الذي يقال أنه تأسف كثيراً على بطولته، أما أهل سوس فقد أخرجوه من القبر الذي دفن فيه، كما أخرجوا الذي كان بجانبه وهو إبن الغرناطي ليتأكدوا أن صاحبهم قتل، ومع ذلك ورغم فقدهم لقيادته، فقد إستمروا في قتالهم بعد ضد قوات السلطان إسماعيل لمدة سنتين، ولم يغلبوا إلا صبيحة يوم الأحد 7 جمادى الأولى 1098هـ/1686م حيث دخل السلطان إسماعيل مدينة تارودانت التي قيل أنه قتل من سكانها عشرة آلاف، كما قيل عن الرشيد، وقيل أنه قتلهم جميعاً، كما ألقى القبض على الحران ثم أطلق سراحه حيث توجه إلى تافيلالت يقول الزياني في البستان.

عاد السلطان إسماعيل إلى مدينة مراكش حيث تحولت أيامه بعد مقتل إبن أخيه إلى أفراح استقبل فيها مختلف الوفود من كل جهات المغرب، حتى الذين كانوا يتحرشون به قدموا التهنئة بالنصر الذي تحقق، ومنهم أولاد النقسيس الذين كانوا قد خرجوا من سبتة بعد موت كبيرهم عيسى بن عبد الله، خرجوا ضمن جماعة أهل تطوان الذين كان

= التي نقلها تقريبا كلها مع زيادات واضحة الافتعال، وقد رأيناه يبدل تاريخ اليوم المتفق عليه في كثير من المصادر مثل القادري، واليفرني، وأحمد بن عبد العزيز، بل إن من يقرأ «الجيش» ثم يتركه ويقرأ ما عند الزياني يتعرف على حقيقة ما أشرنا إليه، وذلك عمل غير محمود في كل زمان ومكان، كما نراه اليوم عند صاحب قبائل المغرب الجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور مع الدكتور رهمه في الجغرافية السياسية. ودائرة البستاني، وعند العميل الفرنسي صاحب المعجزة المغربية أحمد عسة مع عمر أبو النصر وروم لاندو والحركات الاستقلالية ونشرات وزارة الانباء التي استخرج منها 700ص كلها سرقات مكشوفة من غير ان يذكر ولو مصدرا واحدا كل ذلك منه استهتار بالمغاربة الذين كانوا يقدمون إليه نشراتهم الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي أيام كان بإذاعة العميل التشكيلي فيمزقها أمامهم ارضاء لأوامر سادته الفرنسيين الخ وكلاهما بن منصور والعسة اعتمد على النسخ والمسخ دون ذكر للمصدر مما يستدل به على بلادة الحسّ وغباوة الإدراك والازدراء بالقارئ، بل وما آل إليه تاريخ المغرب عموماً وتاريخ العلويين الذي يستحق الرثاء بسبب مفتريات الجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور الذي لابد من فضيحته قريبا بسبب ذلك.

عددهم عشرون، فردهم. السلطان إسماعيل ثم أمر بقتلهم كما أمر بقتل الذين كانوا منهم بسجن فاس،(111) وبعد انتهائه من تصفية الجيوب التي خلفها تأثير إبن أخيه، ثم قضائه على كل أثرَ للثورة في المنطقة، توجه غربا في رحلة إلى البلاد يقال أنه وصل فيها إلى وادي نول ونهر السنغال،؟ بعد مروره بأرض غرب سوس، طاطا، وأقا، وتسنت، وفي تلك الرحلة قدمت عليه قبائل العرب التي منها المغافرة ودليم وبربوش، ومطاع، وجرار، وودى، وفيهم الشيخ بكار الذي أهدى إليه إبنته خناث، فتزوجها السلطان إسماعيل، وهي التي ولدت له ولده عبد الله بعد أحمد الذي كان ولد له بقصر الفرخ من تافيلالت قبل الملك، وهو الذي أصبح سلطانا بعد، وهكذا عاد السلطان جنوبا حتى انتهى إلى ناحية شرق المغرب، حيث أقبلت عليه كذلك قبائل ذوي منيع، والدخيسة، وحميان، ولمهاية، ولعمور، وأولاد جرير، وسقونة، وبني عامر، والحشم، وكان بنو عامر الموتورين من الأتراك قد إقترحوا عليه التوغل في أرض الجزائر التي حط رحاله فيها على ضفة وادي شلف. ولما علم به الأتراك جهزوا جيشاً كبيراً لمواجهته، قدموا به إلى الضفة المقابلة، وفي الليل ودون سابق إنذار أمروا مدفعيتهم بإطلاق النار، وبذلك عم الرعب فتناثرت القبائل التي إنضمت إليه من شرق المغرب، وفي مقدمتها بنو عامر أدلاؤه في الطريق، الأمر الذي أدى بالسلطان إسماعيل إلى قبول التفاوض مع الآتراك والصلح معهم على إحترام حدود وادي تافنة التي أقر بها قبل أخويه محمد، والرشيد، وفي طريق عودته مهد الطريق الواصل بين الجنوب والشرق، كما نصب القضاة والقواد في مختلف الجهات النائية جنوباً، والتي لم يعد فيها أي أثر لغير سلطانه، إلا ما كان من فتنة الإخوة الثلاثة الذين ظهروا من جديد بجبل صاغروا، فوجه إليهم جيشاً إلتحم معهم في معركة حامية ضد آيت عطا.

---

(111) الضعيفي 42 ولقد عرف أولاد النقسيس وأولاد أبو الليف وغيلان بجهادهم الصادق ضد الاسبان في الشمال، وقد صادر السلطان ممتلكات آل النقسيس ثم وهبها للحسنيين الادارسة من التهاميين آل وازان، ولعل دار أولاد النقسيس هي التي بقيت بأيديهم إلى عهد متأخر، وحتى يتخلص من الفتن التي كان يثيرها بعض إخوته فكر المولى إسماعيل في التخلص من ذوي الطموح منهم بحيث أبعدهم إلى إقليم توات عام 1104هـ/ 1692م. وهي السنة التي سوف نتعرف فيها على ما ألحقه بقبائل آيت أمالو التي قطع منها عام 1104هـ إثنى عشر الف رأس، ثم جمعها بأدخسان من أرض زايان ومثلها من قبيلة كروان التي حول ما تبقى من أطفالها والنساء إلى ناحية مكناس بعدما كان موطنها مابين وادي أنكزمير شمالا وقصر السوق جنوباً. كما سنرى بعد وحيث تعرف اليوم بـ كروان الشمالية وكروان الجنوبية ومثلها قبيلة تولال التي حولت من نفس المنطقة.

الفصل الخامس والعشرون بعد المائة

الجيش والعمران

وبناء الدولة في عهد إسماعيل بن الشريف

لقد أدرك المولى إسماعيل أن من الأسباب التي عجلت بسقوط السعديين وزوال ملكهم كما حصل للوطاسيين قبلهم، هو فشلهم في استرجاع المدن الساحلية التي إستولى عليها البرتغاليون، وأنه لا إستقرار بدون تحرير تلك المدن، ولاوسيلة لتحريرها والتمكين للإستقرار، إلا بجيش قوي منظم يحرر به كلا من المهدية، وطنجة، ثم العرائش واصيلا، ويمكن به لحكمه الذي دام أكثر من نصف قرن. لكن كيف نظم السلطان إسماعيل الجيش وماهي العناصر التي تكون منها والظروف الحرجة التي تسبب في صنعها تكوين هذا الجيش الذي أطلق على أفراده لفظ العبيد؟ وماهي النوات التي اعتمد عليها اولا في تكوينه؟

جيش الوداية وعناصره

كانت نهاية أحمد بن محرز بداية لعظمة السلطان إسماعيل إذا نحن إعتبرنا أن عظمته حقاً تتمثل في الجيش الذي نظمه، ثم حقق به قيام الدولة التي عرفت بالعظمة والإكبار من كل الدول في العالم وقتها، ونخص منها دول أوربا التي كانت وقتها قد أخذت تتطلع لصنع الإمبراطوريات، مثل فرنسا وبريطانيا، وإذا كان جند المنصور كما وصفه كل من الفشتالي، واليفرني والزياني فإن جيش المولى إسماعيل كان أحسن منه لكن ماهي النواة الاولى لهذا الجيش الذي تكون من الحلال والحرام، ومع ذلك فقد كان درعا قويا لهذا الشعب ومحررا للشواطئ وحماية للوطن. مدة حياة مؤسسه.

لما إنتهى السلطان من حرب ابن أخيه ثم أقام الاحتفالات التي شهدتها مراكش، وقتها وجد نفسه في حاجة إلى تنظيم جيشه والزيادة في عدد جنوده، لأنه كان قد فقد

الكثير من رجاله في الملاحم التي خاضها شرقا وغربا، وقد كان عليه أن يجمع مايريد من الرجال من غير البربر الذين لم يكونوا أوفياء له، وقد ظهر ذلك في تجمعهم حول أحمد بن عبد الله الدلائي الذي كلفه الكثير، وبالتالي فهو لايزال بعد ينتظر حرباً ضارية ضدهم في الأطلس المتوسط حيث قبائل آيت أمالو بجبال فازاز، ولذا عليه أن يبحث عن الرجال الذين يضيفهم إلى جنده من بين العرب.

تقول رواية مؤرخ الدولة العلوية الأول أبو القاسم الزياني: إن السلطان إسماعيل خرج ذات يوم في رحلة صيد فرأى رجلا يرعى غنما وبيده شفرة(112) يقطع بها السدر، فأرسل رجاله ليحضروه، ولما حضر كشف الأمر أنه من أدي(113) التي منها أم السلطان إسماعيل كما آعترف هو نفسه بذلك حين قال له «أنتم أخوالي وسمعتم بخبري ولم تأتوني والآن أنت صاحبي وإذا روحت غنمك لخيمتك، فأقدم علي لمراكش وكلف به من يوصله إليه ولما قدم عليه كساه وأركبه وأعطاه خيلا وكلفه بجمع إخوانه من قبائل الحوز فجمع من وجد منهم وأنقلهم إلى مكناس...(114) بهذه الطريقة جمع السلطان إسماعيل كل المتواجدين في المنطقة من العرب الذين كانوا متفرقين بين سوس والحوز، بل والخلط وذوي حسان، وعناصرهم هي: أولاد جرار، وأولاد مطاع، وزرارة، والشبانات، الدرابكة، والسوالم، وغمرة، والشياظمة، وأولاد دليم بحيث جند من كل فرقة مائة نفر.

ويخبرنا اليفراني(115) أن الجيش في عهد أحمد المنصور عرف نظاما جديداً

---

(112) آلة من حديد: ويقال شفره شفرا أصاب شفرة، والشيء أصاب حرفه.

(113) وأدي: بطن من الخزرج من القحطانية وهم: بنو أدي بن سعيد بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن سعد، بن عدنان. راجع صبح الأعشى للقلقشندي 353/1 ونهاية الارب 35 والقاموس للفيروزبادي 111/4 وتاج العروس للزبيدي 288/8 ولسان العرب لابن منظور 89/15.

وهذا يبطل ما قيل عن امباركة لمغافرية كما ورد في التعليق 92 قبل والعجب هو أن الراوي واحد وهو أبو القاسم الزياني، ونلاحظ هنا أن الجيش الذي أصبح بعد يعرف ب جيش «الوداية» لم يقتصر على قبيلة أدي. بل اصبح يتكون من خليط من مختلف القبائل العربية.

(114) البستان م خ نا رقم 109 ص 29 وأما عن قبائل سوس والمراحل التي قطعها في طريقه إلى وادي نول، راجع العز والصولة لابن زيدان ج 196/1 - 201 ط 1961 هذا وقد بقي جيش الودايا كأهم قوة جيش ضارية لصالح الدولة «المخزن» رغم ما حل بجيش العبيد على يد السلطان محمد بن عبد الله، إلى أن صدر منهم ماصدر من ثورة ضد السلطان عبد الرحمان بن هشام، وكانوا قوة بمدينة فاس سنة 1248 هـ/ 1833م، فطردهم منها وأسقطهم من ديوان الجيش، ثم وزعهم على المدن مثل الرباط ومراكش ومكناس، وفاس، وناحية الغرب.

(115) النزهة 115-118- ورسائل إلى ولدي المامون ط الرباط، 1967، ص 21.

وملابس وأسماء جديدة، عرفت بها فرقه التي سميت بـ: البياك، والسلاق، وبلبردوش، والشنشرية، والقبجية، والشواش، وبلكباشات، وكل ذلك من أثر ما اقتبسه المنصور من الأتراك وماطعم به جيشه من الأعلاج والأعاجم حتى بلغ درجة رفيعة عرفنا عليها كل من الفشتالي في المناهل واليفرني في النزهة.

ورغم ذلك فإن السلطان إسماعيل رغم أنه وجد قاعدة كان في إستطاعته أن يقيم عليها بنيان جيشه، إلا أنه وإن أفاد منها لم يقتصر عليها، بل وضع نظاماً طبعه بطابعه الخاص ومميزاته الخاصة كذلك، حتى إنه لم يقتصر على العبيد والسود والبربر، بل طعمه ببعض الأجناس الأوربية من المرتزقة كما نستمد ذلك، من أسماء بعض الفرق، فقد كان بمعسكر بريمة بمكناس جماعة من الصربيين اليوغسلاف، كما يعرف حتى اليوم دربهم بـ «درب الصرب» وهؤلاء كانوا في صراع وقتها مع الترك، مما كان يدفع بعضهم إلى الفرار والالتجاء لخصوم الأتراك، ومنهم كان المولى إسماعيل وقتها.

لكن لماذا إختارهم السلطان إسماعيل ليكونوا قوة في جيشه النظامي الذي يواجه به ما تبقى له من الفتوحات ثم يردع بهم الذين لم يرتدعوا بعد في جهات مختلفة، إن رواية الزياني التي تدل على بساطة في التفكير بل الارتجال في موضوع هو كل ما إمتاز به السلطان إسماعيل وهو الجيش لايتفق وما توحي به الخطة التي سلكها في جمع القبائل المذكورة، التي لها ماضي حافل في ميدان الحروب منذ عهد الموحدين، بل والتي حاربت السلطان إسماعيل نفسه إلى جانب ابن أخيه أحمد بن محرز زمنا غير قصير، والتي بلاشك كانت تتوفر على قيادات ورجال ذوي مقام رفيع بين قومهم، كيف يتركهم السلطان ويلجأ إلى رجل يرعى غنما، وقد عرفنا عبر التاريخ أنه حسب التقاليد في المغرب لايرعى الغنم إلا من كان خاملا ولاشأن له، وهكذا صور لنا الزياني من قال عنه «علي بوشفرة» ولو أن الزياني رجع إلى تاريخ القبائل العربية المتواجدة في المنطقة عند إبن خلدون، لقال معنا إن السلطان إسماعيل بعدما إنتهى من معاركه الضارية في المنطقة التي قاومه أهلها. كما قاوموا أخاه من قبل، أدرك أن مثل هذا النوع من الرجال الصامدين خصوصا وأنهم من العنصر العربي الذي يخالف ماعرف عن البربر من عداء فج ووهم ساقهم إلى عدم الخضوع لسلطانه، وأن هؤلاء العرب البدو هم الذين يمكن

الاعتماد عليهم كجنود نظاميين، خصوصاً إذا هو بالغ في إكرامهم وقد فعل، ورب قائل إذا كان السلطان يقصد فقط إستعمال العنصر العربي، فهناك من العرب الذين عرفوا بإنتظامهم في جبهات القتال عبر التاريخ والدول، غير هؤلاء وهم الخلط وبني مالك، الذين يرجعون مثل ذوي حسان إلى زمن الغزوة الهلالية للمغرب الكبير، في منتصف القرن الخامس الهجري، أولئك الذين يقطنون بالشمال في أرض الهبط وغيرها، وهم أخلاط العرب المعروفين بجشم(116) أو بنو المنتفق(117) على حد قول إبن خلدون الذي أرجع الخلط إلى هذا الأصل، بل إن هؤلاءهم الذين إستعملهم السلطان إسماعيل قبل وبعد في فتوحاته التي تمت بالشمال، لكنه كان يستعملهم تحت قيادات غير عسكرية، ولما تنتهي مهمتهم يطلق سراحهم، بل كان دائما ينظر إليهم نظرة حربية لأنهم غدروا بأكبر مجاهد في سبيل تحرير الثغور من الاحتلال الإسباني، وهو ابو عبد الله العياشي الذي إغتالوه سنة 1078هـ/1638م، كما عرفوا بعدم الثبات تجاه كل الذين تعاملوا معهم منذ عهد شيوخ الموحدين إلى عهد الوطاسيين والسعديين الذين رفضوهم كذلك لمصاهرتهم مع الوطاسيين، أما قبائل الجنوب التي اختارها السلطان إسماعيل بعدما عرف شدة بأسهم واستماتة رجالها، فقد إختبرها زمنا غير قصير، إذ كانت إلى جانب إبن أخيه وإن كان خصماً سياسياً لسبب عائلي، فهو منه بمنزلة العضو من الجسد، وقد عبر بهذا لولاة المامون(118) في مراسلاته، ثم إنها لم تغدره ولم تساوم عليه، وقد عرفت بذلك منذ عهد بعيد، لأن عرب الصحراء، وماقرب منها من أرض سوس، هم من معقل لم تختلط دماؤهم بالشكل الذي عرف في الشمال، وحتى الذين تصاهروا مع البربر تركزت فيهم صفة الفروسية والشجاعة والإقدام، فقبائل ذوى حسان بن مختار، بن محمد بن معقل، الذين منهم بنو المختار بسوس، والشبانات(119)، والرقيطات، والجباهنة وأولاد بورية، هؤلاء

(116) هناك بنو جشم «من كلب» «ومن بكر» ومن «ثعلب» «ومن ثقيف» ومن «الخزرج ومن «سعد» ، راجع نهاية الارب للقلقشندي 214– 215 ط 59.

(117) نفس المصدر ص 75 وهم بنو المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

(118) الرسائل ط الرباط 1967 مصدر سابق.

(119) راجع رأي قول الحفيد بن الشريف في الشبانات أخوال زيدان في الرسالة التي كتبها باسم محمد الشريف فذلك رأي في سلوكهم المؤقت.

كانت مواطنهم في الأصل بنواحي ملوية إلى مصبه ثم البحر مع إخوانهم ذوى منصور، وذوي عبيد الله، إلى أن استصرخهم علي بن يدر الزكندرى صاحب السوس بعد الموحدين، بفتنة كانت بينه وبين گزولة الظواعن ببسائط سوس وجباله، فارتحلوا إليه واستوطنوا السوس وغلبوا گزولة، ووضعوا الأتاوة على تلك النواحي، وكانت بينهم وبين عبد الرحمن الزگندي مواقع هزموه في آخرها سنة 705هـ/1305م، وغدر هو بمشيختهم وقتلهم بتارودانت سنة 708هـ/1308م، وكان لبني مرين معهم مواقع انتصر فيها يعقوب بن عبد الحق، واستسلم منهم عدد، وحاصرهم يوسف بن يعقوب بعدها وأغرمهم ثمانية عشر ألفاً وأثخن فيهم ثانية سنة 786هـ وحاربتهم جيوشه أيضا حين لحق بهم بنو كمي من بني عبد الواد، وخالفوا على السلطان فترددت إليهم العساكر وإتصلت الحروب، ولما إستفحل أمر زناتة بالغرب وملك أبو علي بن السلطان أبي سعيد سجلماسة، إنطوى إليه بنو حسان ثم إستولى السلطان أبو الحسن على المغرب كله ورغب العرب في قصورالسوس، فبعث عساكره وملكها وجبى أموالها، ولما مات أبو الحسن رجع السوس إلى حاله ورئاسة بني حسان هناك، كانت إلى أواخر القرن الثامن في أولاد أبي الخليلي، بن عمر، بن عفير، بن حسن، بن موسى، بن حامد، بن سعيد، بن حسان بن مختار بن محمد ، بن معقل، وأما الشبانات والرقيطات فهم أخصام لبني حسان، وهم أقرب إلى بلاد المصامدة وجبال درن، وأما بنو حسان فهم أبعد في القفر،(120).

وهكذا نجد أن جيش السلطان إسماعيل كان في أوله يتكون من الذين تركهم الرشيد كما سبق، وهم الشراقة، هوارة، ومديونة، وبني سنوس، من البربر، وأولاد جامع، والشجع، وبني عامر، وسويد والأحلاف، ثم أضاف إليهم الشبانات، وزرارة، وأولاد جرار، وأولاد امطاع، وأهل سوس، أما الداية، فهم المغافرة الخلص، وهؤلاء جميعا كون منهم جيشه النظامي الذي كان يعتمد عليه في غزواته، أما الثغور فقد كان يعتمد في حراستها وتحريرها على كل القبائل، والاستنفار للجهاد، قبل أن ينظم الجيش نظامه الذي اعتمد فيه على ماوجد من أثر أحمد المنصور السعدي، إذ في هذه المرحلة مرحلة الجمع، قدم عليه عمر بن قاسم عليلش المراكشي، الذي كان والده في خدمة أحمد

(120) راجع العبر لابن خلدون 7 ود. البستاني 30/7.

المنصور السعدي بما ترك هذا الأخير من أثر يتمثل في تنظيم الجيش، هو عبارة عن سجل ديوان الجند، ثم إقترح على السلطان إسماعيل جمع ما تبقى من أبناء وأحفاد الزنوج الذين كان السلطان أحمد المنصور قد إتخذهم كجنود(121) بالقهر عندما إندفع لغزو مملكة برنو في الحملة التي قادها «جوذر» ثم محمود «كما سبق والذين وإن جندوا ضمن جيوش أحمد المنصور بعد أسرهم لايعتبرون شرعا عبيداً ولاسبايا لأنهم مسلمون بل إن ملك برنو حورب بعد بيعة إسلامية تتضمن قسما صريحا على الولاء بإشهاد وثيق إدريس بتاريخ المحرم عام 990هـ/1582م، وبعد معاهدة أبرمها معه أحمد المنصور واعترف فيها الأول للثاني بالسيادة، لكن دافعاً ماديا هو معادن الملح التي كانت في الجنوب المغربي دفعت المنصور إلى أن يأمر الملك المذكور بدفع التعويض عن إستغلالها، وقبل أن يتلقى الجواب الذي كان لابد له من مداولات ومفاوضات، سارع المنصور إلى الحرب 999هـ/1590م تلك الحرب التي نتج عنها كثير من الأسرى الذين كون منهم فرقا في جيشه، وبعد إنهيار الدولة السعدية كانوا ضمن القبائل التي آل أمرها إلى شتات، بل منهم ومن أولادهم من اختطفوا وبيعوا في الأسواق، فهل مثل هؤلاء في شرعة الإسلام يعتبرون عبيداً وقد أورد صاحب البستان نقلا عن المناهل مبدأ تلك العلاقة، وكيف لجأ صاحب برنو إلى المنصور قصد التسلح بالسلاح الجديد الذي ظهر، من بنادق ومدافع نارية، بعدما كان توجه إلى السلطان مراد العثماني ولم يحصل على مطلبه «راجع البستان م خ ع 133–134 ولعل تفتح صاحب برنو هذا، واتصاله بالأتراك يعتبر أيضا من دوافع أحمد المنصور ضده وإلى ماعرف به من قسوة قاسية وعنف عنيف مما لايغفره له التاريخ إزاء صاحب برنو وقومه، لأنه ركب الشطط وإستعمل الاستبداد العنيد لوصم

---

(121) أول من استعمل الزنوج كجنود في المغرب الكبير هم الاغالبة زمن ابراهيم بن الأغلب الذي جند عشرة آلاف ضمهم إلى جنده، راجع قبل عهد الاغالبة ومثلهم الحفصيون. أما الفكرة التي جاء بها عمر بن قاسم اعليليش المراكشي فلعله استقاها مما كان أبو محمد عبد الله الغالب طبقها على مهاجرة الاندلس سنة 970هـ/1562م حيث أمر الغالب المذكور يجمع أهل الأندلس الذين كانوا قد رحلوا إلى المغرب. وذلك بواسطة شيطان من قرية بجبل غرناطة اسمه سعيد بن فرج الدغالي وأخيه أحمد خرجا بتطوان وكانا بحريين بها، ونزلا على كبير دولة الغالب « الحسين بن ابي بكر» فزين للغالب جمع أهل الاندلس على يد هذا الدغالي فرسم له بذلك ودار عليهم في بلاد المغرب حيث جمعهم طوعا وكرها، وكتب منهم في الديوان أربعة عشر الفا 14000 ثم نقلهم إلى مراكش فأقطعهم الجانب الغربي منها واقطعوا الاقطاعات وسمي جيش النار وقيّد عليهم الدغالي. راجع الزياني خ . ع 658د ص350.

الأحرار من المسلمين بالعبيد، وبه اقتدى السلطان اسماعيل في ماقام به من تجنيد «العبيد» بل الأحرار الذين استعبدوا.

وهكذا طرأت فكرة جمع كل من هو إنسان أسود باسم أنه كان عبداً مملوكاً. للدولة التي عين السلطان عنها وكيلاً لبيت المال، حسب الإقتراح، فكان محمد إبن العياشي المراكشي الذي عينه السلطان كذلك قاضيا، بل قاضي القضاة، كما أطلقت يد عمر اعليلش الذي أصبح يمثل دور المدعى العام، ويحمل لقب باشا، فأصبح لهذا الأخير الحق في الادعاء على كل من يريد وأنه ملك للسلطان ثم يجره ليصبح من جنوده، وإن هو رفض تقف سلطات الإقليم إلى جانب عمر اعليلش الذي جمع في بحر السنة في مدينة مراكش ونواحيها نحو الثلاثة آلاف،(122) ومع الأيام تحول الجمع من الموصوفين بالعبيد من الزنوج، إلى كل أسود البشرة أو من يطلق عليه «حرطاني»(123) وكل من إقتنع وطالب التحكم للشريعة يتقدم به عمر اعليلش إلى قاضي القضاة محمد بن العياشي، بل من سلك غير ما يشير به عليلش من قضاة الأقاليم رفع أمره إلى ابن العياشي الذي كان من حقه العزل والتولية بل والاضطهاد، وتقول رواية الزياني المشار إليها أنه جمع في بحر السنة من مراكش والدير وقبائل الحوز، ثلاثة آلاف كانوا النواة الذين أسس لهم السلطان معسكر مشرع الرمل ناحية سلا، أما ابن العياشي فقد جمع ما كان – بل ما أراد– بناحية الغرب، على أن السلطان شرع لذلك الجمع أن من كان مملوكا للغير يدفع ثمناً له عشرة مثاقيل، فاجتمع لابن العياشي هو الآخر ثلاثة آلاف ألحقهم بالسابقين، ثم أمر القائد علي بن عبد الله الريفي، أن يشتري للعزاب منهم الإماء وأن يكسوا الجميع من خراج تطوان، وجمع كذلك ماكان بدكالة والشاوية، فبلغ أربعة آلاف أنزلهم بزاوية محمد الحاج إلى أن بنى لهم قصبة بأدخسان،(124) ولما قام السلطان نفسه برحلة إلى شنقيط استقدم معه ألفان من الحراطين بأولادهم، فكان المجموع أربعة عشر

---

(122) الاتحاف 4/84و100 كما أورد التعارجي في الاعلام6/36 ط1977 نقلا عن الأزهار الندية وذلك في ترجمة محمد ابن العياشي أنهما جمعا نحو الخمسة الاف سموا بعبيد الزنقة.

(123) يقصد بهم الحراثين راجع ما أوردناه حول هذا الموضوع وذلك حين كلامنا عن تاريخ بني مدرار ودولة العبيديين قبل أعلاه.

(124) البستان 32 ويقول الضعيفي إن عليا الريفي قدم على السلطان بتمليك أعيان تطوان، في الوقت الذي سيصدر العفو عن الحراطين بعد تاريخ 14 ربيع الأول 1111هـ وماورد في مخطوط خ.م المسمى «جني الأزهار =

ألف(125) كانوا النواة الأولى للجيش الذي عرف بعد باسم «عبيد البخاري» حيث أصبح هذا الجيش لايتحرك إلا ومعه نسخة من صحيح البخاري التي أقسم أفراد الجيش بعد قسم السلطان على العمل بما ورد فيه يقول المؤرخون وهو زعم باطل كما سنرى، وكأنّي به إقتدى بالمختار بن عبيد الثقفي في العراق والذي إبتدع لقومه ما قال عن كرسي علي بن أبي طالب، الذي غلفه بالحرير وأقام له السدنة الذين كانوا يحملونه أمام الجيوش في المعارك، ومثلهم فعل الموحدون بالمصحف الكريم لكن هل وفّى القوم بما أقسموا عليه؟ ذلك ماسوف نتعرف عليه بعد. في الوقت الذي أمر السلطان فيه بجمع السود كان قد تفرغ للتوسع في العمران بمدينة مكناس التي أحاطها بالسور الجامع ثم أمر بالشروع في بناء قصر الرياض الذي جند له بالإضافة إلى الماهرين في كل أنواع البناء ما كان في سجونه من مجرمين وأسرى الأجانب من الاسبان، والأنجليز، والهولانديين والفرنسيين، والايطاليين وغيرهم من الذين كان «القراصنة» أو المجاهدون المغاربة البحارة يستولون عليهم في عرض البحرين الأبيض والمحيط، ولقد حقق في مجال العمران ما وصف بأنه أعظم ما حققه ملك من الملوك في تاريخ الإسلام على الإطلاق، حسب رأي الزياني الذي عقد مقارنة بينه وبين كثير من الملوك الذين عرفوا بكثرة العمران شرقا وغربا، فوجدهم لم يقربوا منه في شيء،(126) وحتى نتعرف على رأي الزياني نقوم معه

=ونور الأبهار» الذي حدد تاريخ الجمع بعام 117 اهـ/ 1705م وإن ما جمع بلغ 221320 دفع ثمناً لهم 1000 قنطار والقنطار 10.000 مثقال ذهبا أو فضة فهو في نظرنا شيء خيالي ومبالغ فيه، خصوصاً وأنه أورد أن محمد العربي برد لة قاضي فاس المدينة كان في طليعة القائلين بالتعميم راجع ماقبل وبعد التعليق رقم ( ) وبالتالي فإن ماورد فيما سمي «جني الأزهار ونور الأبهار» م . خ. م رقم 11860 والذي ورد التعليق عليه في الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي ص 4-5 بتاريخ 1994/8/12 غير سليم ولاهو مقبول بسبب ماورد فيه من مبالغة سوف نرى بعدما يلغيها من خلال الوثائق.

(125) أورد صاحب الأعلام المذكور قبل أن عليلش وحده جمع سبعين ألف وهو رقم لم يذكره مصدر من المصادر، راجع شكل عقود الشراء في تاريخ تطوان للأستاذ محمد داوود ج 2/36-37 وهو الخاص بما اشترى من حراطين الريسونيين ثلاثون رجلا بـ 140 مثقال بتاريخ ذي القعدة 122 اهـ. ثم راجع الأعلام للعباس التعارجي السوسي ج 362/5، وما أخذه عن صاحب مصباح الساري حول نظام الجند عند آل عثمان، ونشير هنا إلى أن فكرة حمل البخاري ترجع في أصلها إلى ما كان فعله المختار بن عبيد الثقفي بكرسي علي بن أبي طالب الذي لفه بالحرير وأقام له السدنة، وحملوه أمام الجيش في المعارك، والموحدون كانوا يفعلون مثل ذلك بالقرآن العظيم.. الخ.

(126) البستان 37، وعنده أن البناء بدأ منذ بيعته، أما عن الضعيفي 42 فقد كان الشروع في بناء قصر الرياض سنة 1099اهـ 1687م.

بجولة في المدينة الاسماعيلية التي أحاطها بسور له عشرون بابا، تتخللها أبراج نصبت عليها مدافع النحاس في كل إتجاه، بالإضافة إلى الأبراج المتعددة فوق الأبواب، ولست أدري ياترى، هل كان ذلك من أثر العدوى التي أشاعها لويس 14، والتي عمت أوربا وأفسد حياة ملوكها يقول هج ولز(127). أم أنه نتيجة السيطرة والاستبداد والطغيان الفرعوني الذي عاشه الشعب تحت رحمة ذوي السلطان بين قواد الجيش وولاة الأقاليم، وهو ما سنراه ينفجر بعد موت السلطان بعد عام 1140هـ/1727م .

بدأ السلطان إسماعيل عمر انه بالقصر المعروف بقصر النصر، أيام خلافته، ثم بالسور والأبراج المشار إليها، ثم أخذ في بناء القصور واحدا تلو الآخر. وكأنه لم يقصد بذلك إشغال الأسرى والمساجين من المجرمين فحسب بل وتجربة الجيش الذي كونه من جديد بل وتدريبه. وكان أول مسجد بناه هو مسجد القصبة، ثم المسجد الأخضر، وجعل بهذه القلعة بركة عظيمة تسير فيها الزوارق والفلائك للفرجة، وجعل بها هريا لخزن الزرع، مقبو القنانيط، يسع زرع أهل المغرب كله، وجعل بجواره سواني للماء في غاية العمق مقبو عليها، وفي أعلاها صقالة مستديرة لوضع المدافع والمهارز ترمى لكل ناحية. وجعل بها إصطبلا لربط خيله وبغاله، طوله فرسخ مسقف الدائرة بالبرشلة(128) على سواري وأقواس هائلة، كل فرس مربوط في قوس، وبين الفرس والفرس عشرين شبراً، يقال إنه كان به مربط إثنى عشر ألف فرس، مع كل فرس سايس ونصراني من الأسارى لخدمته، وفي هذا الإسطبل ساقية الماء، مقبوة الظاهر، وأمام كل فرس محل مفتوح كالمعدة لشربه، وفي وسط هذا الإسطبل هري مقبو تحت الأرض وعلوه فوقها نحو القامتين مقبو قنوط واحد، وله مضاوي من أعلاه يفرغ منها الشعير المعد لعلف الخيل يسع شعير المغرب كله من شرق الإصطبل إلى غربه، وفي وسط الإسطبل قبب معدة لوضع سروج الخيل على أشكال مختلفة، وفيه هرى عظيم مربع مقبو على أساطين عظيمة وأقواس هائلة، يقال إنه كان يوضع به سلاح الخيل وضوءه من شبابيك في جوانبه الأربع، كل شباك يزيد وزنه على قنطار من الحديد، وفوق هذا الهري من أعلاه قصر يقال

(127) معالم تاريخ الانسانية ج 1093/4 ط 2 سنة 1961 أبهة الملكية العظمى في أوربا.

(128) يقصد الخشب المخرم والمزوق بالالوان.

له المنصور، لايقصر إرتفاعه عن مائة ذراع، خمسون به في الأسفل وخمسون في الأعلى، فيه عشرون قبة، كل قبة فيها ضريح وعليه شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسائط مكناسة من الجبل، وكل قبة بالبرشلة والقرمود، منها أربع قبب متقابلات سعة كل واحدة سبعون شبرا تربيعة، وباقي العشرين سعة كل واحدة أربعون شبراً تربيعة.

ويجاور هذا الإصطبل بستان على قدر طوله، فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب، طوله فرسخ، وعرضه ميلين، ويتخلل هذه القصور التي في القلعة مماشي مستطيلة متسعة، وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية والأخرى، ورحاب عظيمة مربعة لعمارة المشور، في كل جانب لايحيط بها الوصف، وذلك شيء لم يبن في دولة عربية....(129).

ومهما يردد المؤرخون من قول ابن خلدون من أن عمران الدولة على قدر عظمتها فإن قول جمال الدين الأفغاني يوم أوقفه المصريون على الأهرام أبلغ منه، ذلك أنه قال: إن دل هذا على شيء فإنما يدل على شعب إستعبد ولم يجد من يرحمه، لأن بنيان الحاكم وحده ما لم يكن مشتركا بينه وبين الشعب، بل حتى إذا تميزت به طبقة قليلة من الشعب، يعتبر دليل علي ذلة ومهانة الأكثرية بسلطان وقهر الأقلية، فما بالك بالفرد، ففي هذا الوقت كان جيش العبيد سكناه أكواخ الطين والتبن وقواده القصور والبساتين.

هكذا فإن المباني التي ضربت رقما قياسياً في عهد المولى إسماعيل والتي أصبح جلها خرابا ومنها القلاع التي شيدت لإحكام النفوذ ولتحقيق فكرة أحمد المنصور التي صرح بها للقاضي عبد الواحد الحميدي كما سبق تلك القلاع هي كما يلي:

---

(129) البستان 31، بل إن ما أنشأ من العمارة التي أحاط بها سوراً يعد بعشرات الكيلومترات، داخله ما يكفي أهل المدينة من أراضي فلاحية، ليدل على أنه كان يتوجس أن تحاصر المدينة، وإذا ماحصل تكون المدينة بسكانها كافية من كل شيء مهما طال الحصار، والواقع أن الزياني لم يبالغ حين أشاد بعظمة بنيان هذا السلطان، فجل ما ذكر إبن خلدون في مقدمته ثم ضرب به مثلا على عظمة اصحاب تلك المباني، مثل إيوان كسري بالمدائن، وبلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة، وآثارالموحدين بالرباط، وابو سعيد بالمنصورة، وبنو زيان بالعباد، وغيرهم لاتقرب سعة وضخامة من بناء إسماعيل، وهذا في نظر من لم يشاهده فيه مبالغة، كما ظهر لفريد وجدي الذي علق في موسوعته عن العمران في عهد اسماعيل راجعه والاتحاف أيضا 1/124-139 وعن بقية وضخامة عمران السلطان إسماعيل راجع الى ص 208 من الاتحاف ج 1.

1- قلعة رقادة ضد بني يزناسن شيدت عام 1089هـ/1678م وأنزل بها القائد العياشي بن الزرغر ومعه 500 جندي 2) ومثلهم في قلعة العيون التابعة لنفس القيادة، ثم3) قلعة ملوية 4) وقلعة وجدة 5) قلعة تاوريرت وفي كل منها 500 جندي. ثم 6) قلعة وادي أمسون وبها 100 عائلة وقائدها منصور بن الرامي الذي أسندت له مهمة الأمن العام بتلك النواحي،7) قلعة الكوربها 100 عائلة .8) قلعة المهدية وبها 500 جندي بعدما تم بناؤها عام 1092هـ1681م 9) قلعة الجديدة 500 جندي، 10) قلعة تازة 2500 جندي11) قلعة الخميس بفاس وهي من بناء المولى الرشيد والتي أنزل بها الشراقة وهم:

بنو عامر، وأشجع، ومديونة، وبني سنوس، البربر، ثم 12) قلعة عين اللوح التي شيدت وتم بنازها بتاريخ حجة 1094هـ 1682م ثم أنزل بها 500 جندي، 13) قلعة أزرو في نفس التاريخ، وأنزل بها ألف فارس، 14) قلعة دارالطمع تعرف اليوم بو الدراع بجبل العياشي شيدت عام 1096هـ/ 1684م وأنزل بها 1500جندي 15) قلعة تاميوست في الطريق الرابط اليوم بين ميدلت وبولمان والتي رتب بها 400 جندي16) قصر بني مطير400. 17) قلعة أوطاط 400. 18) قلعة لقصابي، 400.،19) وقلعة أدخسان. وكلها في نفس التاريخ اعلاه 1096هـ ماعدا أدخسان التي كانت بتاريخ 1099هـ 1687م. 20) وقصبة يوسف بن تاشفين بالشاوية قصبة زاوية محمد الحاج الدلائي التي أنزل بها 1500 جندي.

وبالتالي فإن عدد القلاع التي بناها بلغ ستا وسبعين كما شيد الكثير من القصور في مدينة مكناس غيرما ذكر كما زاد في قصبة تادلا، ثم شيد مسجدين بالعرائش ومدرسة وحمام وداراً بقلعتها، وهدم ضريح المولى إدريس الأكبر ثم بناه عام 1132هـ/1719م واستمر البناء فيه إلى عام 1134هـ/1721م.

في هذه المرحلة التي كان العمران فيها يتقدم كالطوفان الزاحف على الأرض والناس، في تلك المدينة التي لم يصف لنا الزياني سجنها المظلم بدهاليزه تحت الأرض، والذي لاتزال آثار المشانق ومواقع الأغلال باقية المعالم في أساطينه، وكأنها نزعت بالأمس القريب، وقتها كان الجنود من سكان الأكواخ بمشرع الرمل يتوالدون، ومن قدم على المعسكر وهو صغير قد أخذ يكبر، وحتى لايبقوا عرضة للضياع وعدم التربية أو جد لهم السلطان إسماعيل عملا يتكون بواسطته الفتيان والفتيات، ومن أجل ذلك أصدر أمره

سنة 1100هـ/1688م إلى سكان مشرع الرمل من «العبيد» أن يرسلوا له بأولادهم وبناتهم الذين بلغوا عشر سنوات فما فوق، فلما قدموا بهم فرق البنات على عياله بداره، كل طائفة في قصر للتربية والتعليم، وفرق الأولاد على مختلف الحرف التي كانت تزاول في مختلف القصور، بحيث وضع لهم منهاج عمل لاينتهي منه الشاب حتى تكتمل رجولته ويصبح قادراً على تحمل أعباء الجندية وخوض المعارك، بل والقيام بواجبه في كل نواحي الحياة، فكانت مدة تدريبهم كما وصف لنا الزياني الذي وقف على سجل الدولتين الرشيدية والإسماعيلية،(130) الذي تخلف عند سليمان بن عبد القادر الزرهوني المتوفى بتارودانت، سنة 1138هـ 1725م.

كان الأولاد في سن العاشرة يبدؤون عملهم بـ «سوق الحمير» التي يحمل عليها التراب والجير، فإذا أكملوا السنة نقلهم من سوق الحمير لسوق البغال الحاملة للأجر والزليج والقرمود، فإذا أكملوا السنة نقلهم لضرب المراكز وخدمة ألواح «الطابية»، فإذا أكملوا السنة نقلهم للجندية وكساهم ودفع لهم السلاح فخدموا به الجندية وطرقها، فإذا أكملوا سنة دفع لهم الخيل يركبونها عراة دون سروج ليتدربوا على ركوبها عارية ويغيرون عليها، فإذا أمسكوا رؤوسها وأكملوا السنة السادسة دفعت لهم السروج فيركبون بها ويتعلمون الفر والكر والرماية على ظهور الخيل، فإذا أكملوا السنة السابعة صاروا من حساب الجند فيخرج لهم السلطان البنات اللائي قدمن معهم، ويدفع لكل واحد من الأولاد واحدة من البنات، ويدفع للرجل عشرة مثاقيل مهرها، وللبنت خمسة مثاقيل ويقيد «رئيسا» عليهم واحداً من آبائهم الكبار، ويعطي له مايبنى به داره والنوائل(131) لاصحابه ويوجههم للمحلة(132) بمشرع الرمل فيكتبون في ديوان العسكر،

---

(130) البستان ص 37.

(131) مساكن غالبا تكون مستديرة محدودبة السقف تصنع عادة من القصب والطين والقش والتبن وخوص الشجر، وقد بقيت هي سكنى غالبية سكان البادية في السهول الساحلية إلى آخر عهد الحماية، ولاتزال حتى اليوم في بعض المنطقة التي كانت تحت النفوذ الاسباني إلا أن سقفها أبدل بالقصدير «الزنك».

(132) يقصد بها المعسكر ولعلها مأخوذة من قولهم: حل المكان أجذب على أن الزياني وهو أول معتمد في هذا الموضوع لم يتعرض إلى ما استورده السلطان إسماعيل من السودان عندما استولى على تانبكتو بعدما حررها من عتو قبيلة البرابيش من قبائل الصحراء ثم ولى عليها عماله الذين كان أولهم حسب تاريخ ولايته، علي بن إبراهيم الدرعي 1083هـ كما عند زامباور ج 133/1.

وفي العام القابل كذلك كل عام يأتي من المحلة الدفع ويتوجه من عند السلطان العسكر من عام 1100هـ/1688م، إلى أن مات السلطان إسماعيل 1139هـ/1727م فبلغ هذا العسكر البخاري مائة وخمسين ألف(150000)، ثمانون ألف مفرقة في قلاع المغرب لعمارتها، وسبعون ألف بالمحلة.

وإلى جانب هذا الجيش كانت ثمة قبائل تستنفر كلما دعت الحاجة إليها، كما كانت ثمة قوات بحرية تابعة للدولة، وأخرى حرة يعمل أصحابها كقراصين بالغزو في البحر تارة لحساب الدولة، وأخرى لأنفسهم مقابل العشر من الغنائم يدفع للدولة، وكانت أعمالهم التي روعت جهات مختلفة من أوربا مثل شواطئ فرنسا وجزر إبريطانيا وهولاندا، وكان هؤلاء الأبطال الذين حفظوا للدولة شرفها في ذلك العهد، أغلبهم من سكان الرباط وسلا وتطوان، فلولاهم لتعرض المغرب للكثير من مضايقات قراصنة البحر من الأوربيين، الذين ظهر نشاطهم أكثر عندما إنشغل آل عثمان بمشاكلهم الداخلية وحروبهم المتعددة الوجهات، ولايفوتنا أن نشير إلى جيش البربر الذي كان قائده العام علي ويشو «يوسف» من بني حكم والذي كان يستنفر في المناسبات.

وإلى جانب ذلك شيد السلطان إسماعيل قصبات عسكرية في مختلف جهات المغرب، بلغ عددها ستاً وسبعين قصبة كما أشرنا كل واحدة منها عبارة عن معسكر يكون عادة به جامع ومسكن للقيادة، ثم مساكن للجنود بأولادهم، وهم الذين يزاولون عادة الحرف التي يحتاجون إليها كما يكون من بينهم أرباب التجارة، والخياطين، والحدادين وغيرهم وبجانب المعسكر يوجد فندق لإيواء القوافل، ولايزال الكثير من آثار تلك القصبات قائما في أي جهات المغرب من آقا غربا إلى بني يزناتن شرقا، وكلها عرضة للاهمال من غير أن تكلف أي جماعة من الجماعات القروية نفسها بإصلاح مافي ترابها، كما غرس مائة ألف من شجر الزيتون وأنواع الفواكه ببستان حمرية، وقد تحول بعضها أخيرا إلى أوقاف لفائدة الحرمين(133) وضريح المولى علي الشريف، المفترى عليه، بتافيلالت، كما رأينا في الإتحاف.

---

(133) بقيت إلى عهد الإستقلال حيث تصرف فيها الخواص وبطريقة مكشوفة تدخل ضمن مذكرات الشعب المفتري عليه. ولقد رأينا الذين تزعموا تلك الفاحشة، وقد اخذهم الله أخذا وبيلا، بحيث جزئت تلك الاراضي ثم بيعت بأثمنة باهضة للافراد والشركات في الوقت الذي لم تفد منها أوقاف المساجد والجوامع ولا المشرفين عليها الذين يعيشون في الدرك الاسفل من الحرمان ..

ظهير أمير المؤمنين مولانا إسماعيل ابن الشريف بتعيين الرئيس عبد الله ابن عانشة وزيرا للشؤون الخارجية (سائر أمور البحر) .

صورة الإصطبل الذي وصفه الزياني أجمل وصف والذي كان خدم الخيل فيه من الأوروبيين الذين كان يستولي عليهم "القراصنة" المجاهدون في البحر.

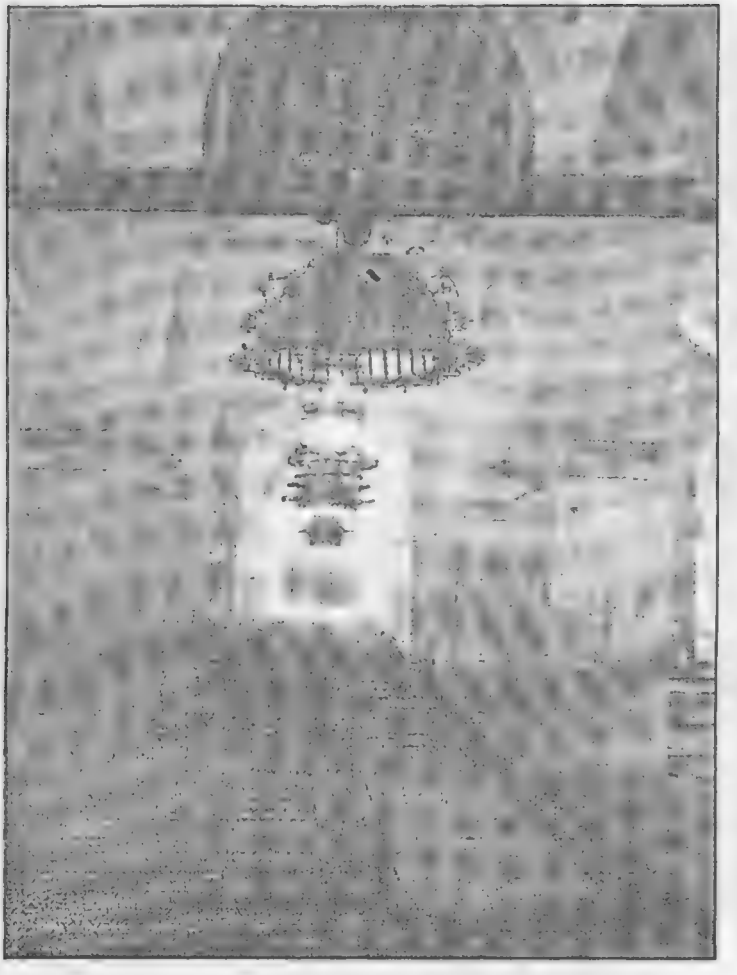

الجامع الأخضر ضمن الحمى الملكي بمكناس وهو من بناء المولى إسماعيل، وقد كان مركزا لأبي علي بن رحال المشهور بين علماء المغرب وبه اعتصم العلماء الذين وقفوا ضد عبودية الأحرار باسم جيش البخاري.

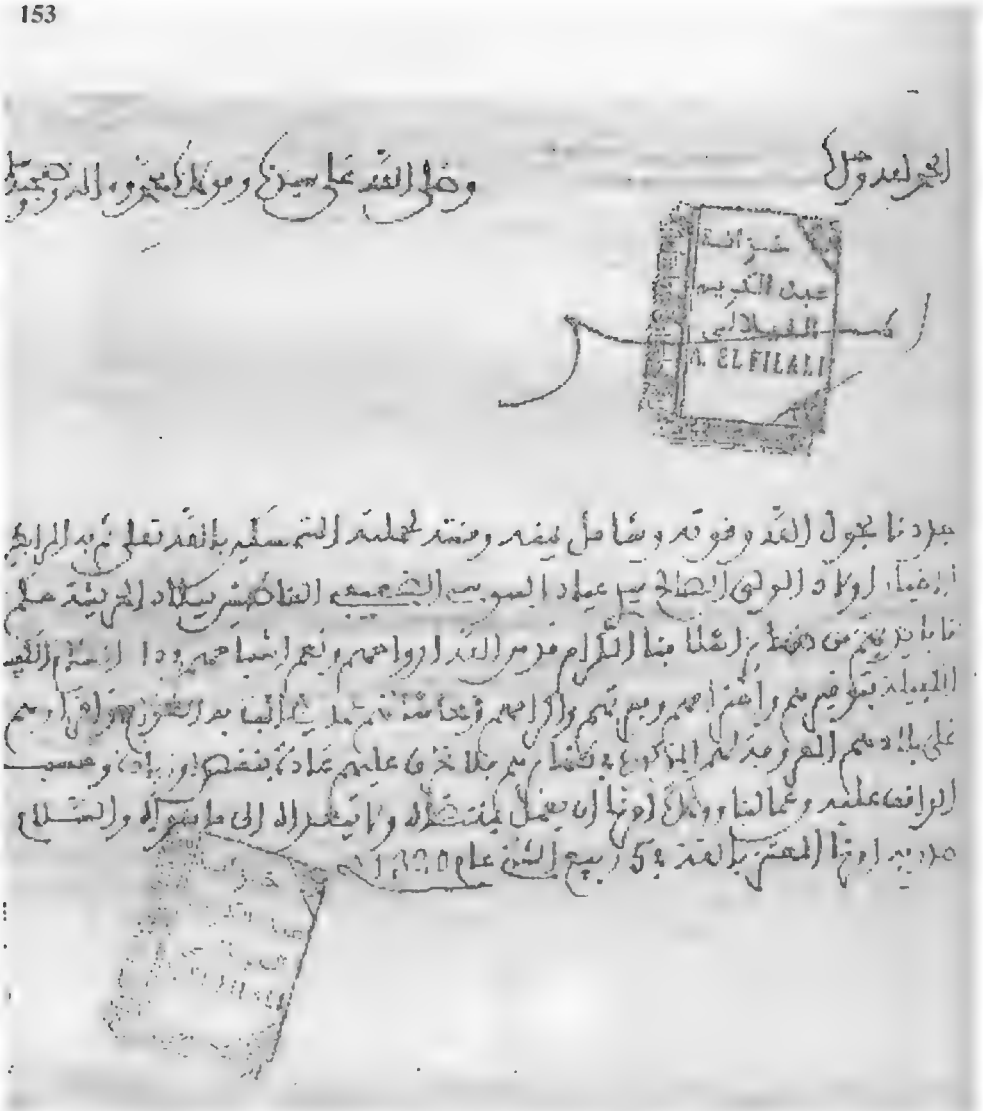

محمد ابن عبد السلام الضعيفي السوسي الأصل أحد مؤرخي الدولة العلوية. هو صاحب التاريخ المشهور بالرباط وهو أصلا سوسي من ذرية عياد دفين أولاد بن رحيل بسوس، كما يوجد سميه بتامازت كما عند المختار السوسي في المعسول ج24/20 وسميهما سيدي عياد المعروف بحجام مولاي علي الشريف وهو أيضا من سوس قبره مقابل قصر سيدي ملوك بتافيلات جوار ضريح المولى علي الشريف وهو جد أولاد بوعياد بفاس المعروفين بوطنيتهم الصادقة ومنهم ج العربي بوعياد. وصاحبنا هذا محمد بن عبد السلام المؤرخ كان والده يتاجر بقاعة الزيت من مدينة الرباط وفي ولد ولد هو وشقيقه الهاشمي وهذا الظهير المراد تجديده في عهد المولى عبد العزيز.

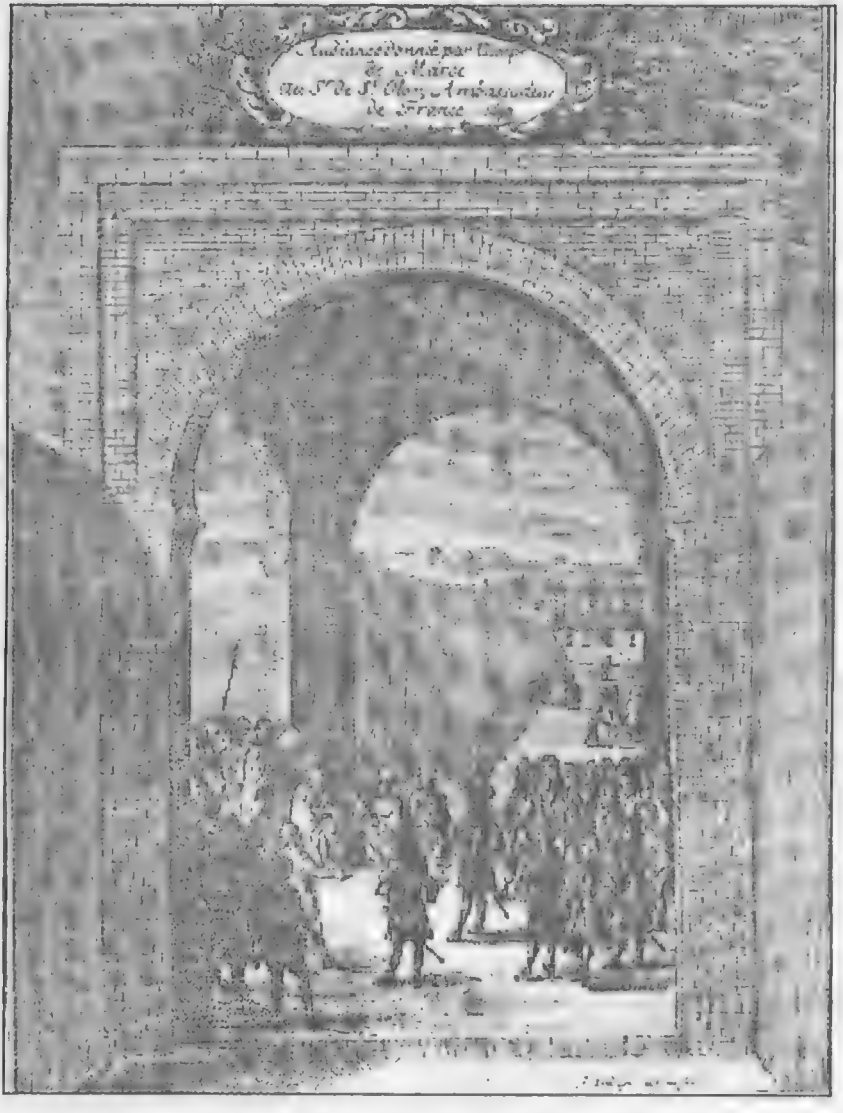

استقبال المولى اسماعيل سلطان المغرب لسفير فرنسا المسيو سان أولون سنة (1693م) بقصر مكناس.

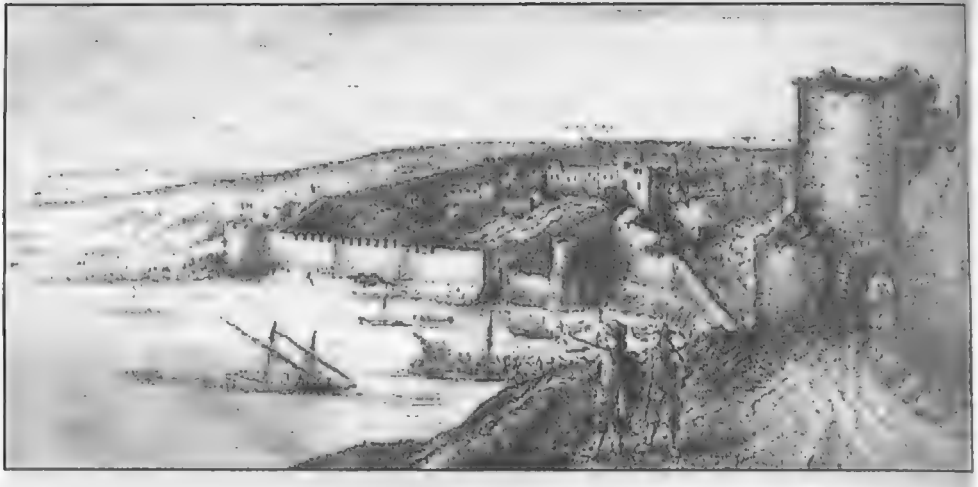

مدينة طنجة التي احتلها الإنجليز زمن نهاية السعديين وقيام الثورات واخرجهم
منها المولى اسماعيل بعد حصار طويل

الفصل السادس والعشرون بعد المائة

مشكل العبودية بين السلطان وعلماء فاس

عندما أطلق السلطان إسماعيل يد عمر بن قاسم عليلش المراكشي ومحمد بن العياشي الذي ولاه القضاء لجمع كل أسود بإسم أنه عبد للدولة، أو كما عبروا ملك لبيت المال، وفي زعمه كذلك كانوا، بيد أن الذي فرقهم وهو أحمد المنصور لسبب سياسي نتج عن طغيان أولاده وسوء تربيتهم واستعمالهم للجيش الاسود ولذلك زين له إبن العياشي جمعه بعد شتاته وتفريقه بين حواضر المغرب وبواديه. فلم يقتصر الأمر على الذين كانوا موسومين بالعبودية، بل تعدى إلى الترامي على الأحرار حتى أصبح الناس فوضى في سوق النخاسة، بل أصبح الوكيل والقاضي يتاجران في رقاب الناس مما أحدث الكثير من الفتن، ودفع بالكثير من علماء المغرب الذين إستفتوا في الموضوع إلى استنكار ذلك، خصوصا في مدينة فاس.

قيل إن السلطان إسماعيل عندما كثر النزاع حول الموضوع كان قد أرسل إلى علماء مصر يستفيتهم فأجابوه بالجواز، إلا أننا لانعرف كيف وجه لهم السؤال أو كيف فهموه في العهد الذي لايوجد فيه مايبرر إستعباد المسلم للمسلم، ومهما يكن فإن المشكل بقي مطروحا في المغرب ونكاد لانجد من بين علمائه من أفتى بجواز ماطبقه السلطان إسماعيل على الذين حاول أن يضفي عليهم صفة تبعد ماقيل في حق الذين صودرت حرياتهم، والذين بقوا طيلة حياتهم ينادون بالرجوع إلى الشريعة الإسلامية، حتى أدى ذلك بالكثيرين منهم الى أن قتلوا بسبب مطالبتهم بذلك، بل بعضهم حاول الإنتقام لنفسه ولغيره، لكنه كشف أمره فقتل. ولانجد من ساير أطروحة السلطان إلا في البوادي التي حكمت بالارهاب القاتل، ويكفي أن نقول إن السلطان إسماعيل وكما حصل له مع قبيلة جروان امر أن يقطع من روس رجالها اثنى عشر ألف 12000 عام 1104هـ.

ففي البوادي والحواضر التي ذاقت مرارة الحروب نجد القضاة والعدول ومن طلب منهم إثبات عبودية الأسود أو أحمر الجلد ببينة يسارع لذلك بلا تردد خوفا من سوء المصير، حتى انتهى ذلك إلى أن بالغ بعضهم في مشروعية ما كان يفعله محمد بن أبي القاسم عليلش مثل القاضي ابن أبي ناجي السجلماسي الذي بالغ في القول بسلامة تصرف عليلش إلى درجة مدحه والثناء عليه..الخ، ومثله في الشكل فعل بعض الفاسيين قصد أن يحصل على الامتياز الذي أبعده عنه وجود أمثال العالم الجليل القاضي وشيخ الإسلام محمد العربي بردلة.

ومهما يكن فإن القسم الذي كان يقسم به:كل من يراد إدخاله لجند السلطان، قبل على صحيح البخاري، أو للإخلاص لما ورد في صحيح البخاري، إلا أن تاريخ حياة هذا الجيش بل حياته مع السلطان إسماعيل في تنظيم هذا الجيش في نظرنا لم يكن يقصد منها في الواقع ورغم الشطط غير بعث الاطمئنان وتعميم الأمن، سواء بالنسبة للسلطان الذي لم تكن له عصبية في المغرب، وسواء بالنسبة لأفراد الجيش الذين لم يكن لهم سند غير الدولة، ولقد أدى المهمة بالنسبة للمصلحة العليا للوطن الذي سرعان ما تتمزق وحدته كلما طغت عصبية على أخرى، كما رأينا وقت ظهور الدولة العلوية، أما بالنسبة للشعب فقد كان الجيش نقمة عليه وعلى علماء المغرب الذين أوذوا بسببه، والذي يظهر أنهم لو لم يسألوا لما طرح المشكل بالصفة التي عرف بها، والتي أدت إلى صراع بين السلطان وبعض العلماء ، خصوصا في مدينة فاس، فقد عرف المغرب قبل ذلك العهد وبعده بأكثر من قرن ونصف، حالة الاسترقاق بل البيع والشراء في حياة الإنسان بأبخس الأثمان، وأحيانا لم يقتصر الأمر على الزنوج الذين كانوا يستوردون من تمبكتو وما حولها، والذين كانوا أحيانا يستبدلون بالبضائع(134) بل كان الاتجار في الرقيق الأبيض بالمغرب بواسطة الإختطاف الذي كان شائعا في ناحية مراكش، وسوس، بشكل خاص، وعن طريق المجاهدين ضد قراصين أوروبا في البحر كذلك ، بل إن لدينا من الوثائق ما يثبت عدم تحرج بعض الأسر في فاس من الاتجار في ما أطلق عليها الأمة المولدة، وكم رفعت

(134) بقي هذا الوضع إلى عهد ما بعد السلطان عبد الرحمن بن هشام كما سنرى من خلال الوثائق المنشورة في هذا الكتاب ، والتي نملك الكثير منها.

من القضايا في هذا الموضوع أمام القضاء إلى عهد السلطان عبد الرحمن بن هشام كما سنرى، بل رأينا من الوثائق ما يشهد أن أسرة بكاملها مكونة من رجل وامرأة زنجيين وأولادهما الثلاثة بيعوا بمائتي مثقال بعد عهد السلطان إسماعيل بأكثر من مائة وخمسين سنة ، وقد كان مجتمع فاس إلى عهد قريب يعرف سوق النخاسة التي كان يمارسها المسمى « أعراب » الذي كان يتاجر في الاعماء بفندق اليهودي المعروف حتى اليوم بفاس وكان مصدر استيراده وزميليه الحاج محمد البناني وإدريس التازي من بعض تجار تافيلالت في قصر «أبو عام» الذين كانوا يترددون على تمبكتو، وسالي، وشي، وأدرار، وتمنطيط بأرض السودان وتوات ، وإذن ما الذي دفع بالسلطان إلى طلب رأي الشرع في الموضوع؟ وما الذي دفع بالذين طلب منهم ذلك إلى أن يقولوا جوابا عن طلب السلطان مالم يصدعوا به في وجه العامة الذين كانوا يخالفون الشريعة على مرأى ومسمع منهم؟ هل الدافع هو التمسك بالشريعة والإسلام وماله من تشريع في هذا المجال بزّ به كل الشرائع والقوانين منذ عهد جاستنيال، أم فقط بأنهم أرادوا بقولهم أن يعرف السلطان ذلك ويعمل على وضع حد لما تعارف الناس على التعامل به رغم المنع الذي وضعه الشرع.

أقول إنه لاذا ولاذاك ، وإنما هو موضوع أراد السلطان أن يبعد بواسطته عن ساحته ماجره عليه كاتبه الذي أصبح بعد قاضي القضاة الذي هو « ابن العياشي» والذي ورطه بدوره «عليلش» الذي جر الكثير من كبار الأسر نكاية باسم أنهم ملك لبيت المال، لمجرد سمرتهم وأحيانا لمجرد أنهم من أصل غير معلوم مثل ما حصل للذين قيل في حقهم «الحراطين» حتى إضطر السلطان بعد أن يصدر في حقهم العفو (1114هـ) لكن الذين تأطروا في الجيش، وكذا الذين حاولوا التملص بواسطة الشرع بقيت حالاتهم معلقة.

ورغم أن السلطان حصل على الترخيص بالجواز من بعض العلماء الذين تراجعوا أمام التهديد والتوبيخ، فإن الذي حفظه لنا التاريخ هو مواقف ثلاثة من العلماء الكبار، وهم أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، والمتوفي 1102هـ 1690م، والشيخ الإمام العربي بن أحمد بردلة المتوفي 1133هـ 1708م، و الفقيد الأديب عبد السلام بن أحمد جسوس المتوفى سنة 1120هـ/ 1708م.

وإذا كان جلال الأول حال بينه وبين وظائف الدولة الرسمية، وأنه كان أقدر العلماء على قول الحق حتى إن رسالته التوجيهية(135) وهي الرسالة التي شخصت لنا معاناة الشعب وقتها والتي لو كتبت في عهد الديمقراطيات المزورة اليوم لقيل إنها متطرفة لما تحتوي عليه من لمزات لا تتفق ومزاج الإستعلاء، حبا في الاستعلاء، وفيها يفهم رأيه ضد نهج السلطان في طريقة جمع الزنوج ، «والحراثين»، ومع ذلك تقبلها السلطان إسماعيل بصدر رحب، لأن مصدرها خال من النفاق والرياء و الكذب والمداهنة ، بل صادرة من قلب مفعم بحب الخير للإسلام والمسلمين. أما الشيخ السلفي محمد العربي بن أحمد بردلة، فقد ولاه القضاء سنة 1088هـ/1977م، ثم تخلى عنه، ثم رده يوم 21 ربيع الأول 1116هـ/1704م، ومع ذلك له فتوى(136) في الموضوع، واضحة كل الوضوح ، بما جاء فيها من أسباب المنع، بل إن العربي بردلة إمتنع حتى من التصديق على صحة رسم ما أفتى به غيره ، بصفته قاضيا، ورد ذلك إلى مسؤوليتهم وعلمهم بحالة الذين أفتوا في حقهم، وهذا تحد لشاهد الزور الذين هو قاضي القضاة ابن العياشي، وبالتالي تحد للملح في استصدار الفتوى الذي هو السلطان «يوجد نص الفتوى بخزانتنا «رقم 137 ومع ذلك لم يؤاخذه رغم أن بردلة تعرض للدس والكيد بشكل مفضوح يوم صلى على الأمير الثائر المقتص منه الذي هو محمد العالم بن السلطان إسماعيل الذي مات بعد قطع يده ورجله بوادي بهت.وهو أفضل وأحسن أولاد السلطان علما وكفاء كما شهد السلطان نفسه ومعه اليحمدي بذلك.

انزعج السلطان إسماعيل من علماء أهل فاس الذين عاندوه كثيراً، والذين لم يستسلموا له إلا بعد حصار ومعاناة. ودليل تضايقه منهم أنه أرسل لهم سنة 1108هـ/1696م رسالة توبيخ لعلمائهم، وشكر وثناء لعامتهم، وهذا عمل واضح أنه بداية وشاية نجح صاحبها، كما نجح الذين أوحوا إليه بتوليه ولديه الأمير زيدان ثم الحفيد

(135) راجع الإستقصا 7/82- 86 وخ.ع 1549 ج آخر 146

(136) تاريخها آخر شهر ربيع الأول عام 1120هـ/ 1708م» م خ نا رقم137 ولقد ولاه السلطان إسماعيل قضاء فاس للمرة الثانية في التاريخ أعلاه بعد طرده للكبير بن سودة الذي قامت عليه الضجة في فاس لقصره وجهله حيث طرد بعد شهر من توليته من يوم 8 محرم إلى 21 ربيع الأول عام 1120هـ .

على مدينة فاس، وأمرهما بالتنكيل بأهل فاس، حتى إنه يوم 3 صفر 1116هـ فرض على كل دار في مدينة فاس عظم سرج بدون استثناء، كما أن زيدان قتل أحمد السلاوي الخليفة ، وربما بلا سبب واضح، إلى غير ذلك من الأسباب التي جعلت جل أهل فاس معقدين باستمرار إزاء السلطان إسماعيل، وفي اليوم الثامن من شهر ربيع الأول سنة 1120هـ/1708م أرسل السلطان إلى عامله على فاس عبد الله الروسي(137) كي يحمل إليه الذين وافقوا، والذين لم يوافقوا على موضوع الجمع باسم الرقية، فلما وصل بهم إلى مدينة مكناس واستشعروا حماية السلطان دخلوا المسجد الأخضر في شبه مظاهرة انضم إليها كل من علي شاكلتهم من الذين لم يوافقوا من أهل مكناس، ثم أخذوا يطالبون بالحكم بالشريعة الإسلامية، فأثار ذلك عاطفة بعض قواد الجيش و« العبيد »(138) الذين انضموا إليهم فتظاهر السلطان بالعفو عنهم ليعودوا من حيث أتوا، وبمجرد رجوعهم أرسل وراءهم نوبخ الفقهاء وغضب عليهم، ورد أحدهم الذي هو جسوس مقيدا في الحديد، كما أمر الروسي أن يذهب في مجموعة من الجيش ليأتيه بالحراثين الذين سبق أن عفى عنهم بفاس، كما صفى أموال أولاد جسوس ظلما وعدوانا، وشرد فقيههم في الأسواق وبذلك يكون قد بلغ نهاية الغضب الذي لامبرر له. لكن ما الدافع إلى هذا التخصيص؟

أما عبد السلام بن أحمد جسوس الذي انفجر فيه غضب السلطان فلا يعرف لماذا مع أنه لم يفعل أكثر مما فعله بردلة وغيره، ولماذا بعد موقف المظاهرة التظاهربالعفو؟ إن عبد السلام جسوس ليس بالرجل العادي الذي لم يعرفه السلطان، بل كان من رجال حاشيته ورسوله ككاتب مع السفير الغساني إلى ملك الأسبان كارلوس سنة1101هـ/1689م، بل وبعد تحرير العرائش عام 1101هـ/1689م للتفاوض من أجل الأسرى كما سنرى، وكان الذي اقترحه هو عامل تطوان علي بن عبد الله الريفي، وجسوس الوطني الغيور هو الذي فاضت شاعريته(139) يوم تحررت المدينة المذكورة حين

(137) الضعيفي ص 50 وهذا تاريخ الشهر الذي كتب في آخره الشيخ العربي بردلة جوابه.

(138) نفس المصدر السابق.

(139) راجع الاستقصا 76/7 أما أحمد بن عبد الوهاب المذكور فهو من مواليد 1 رمضان 1063هـ م وتوفي بفاس2 ربيع ل 1146هـ 1730م وله زيادة على الرحلة كتاب سماه « المقباس في فضاءل أبي العباس » وقد ألفه في شيخه أحمد بن عبد الله بن معن الأندلسي المتوفي بفاس والذي دفن بمخفيتها يوم الاثنين 3ج في 1120هـ/1776م.

أنشد ينبه السلطان إذا هو حرر المعمورة وطنجة والعرائش، فإن سبتة وباديس ولبريجة تؤمل، وواجب تحقيق آمالها ، وتحريرها من قيودها واحتلال الأجنبي لها.

رفعت منازل سبتة أقوالها تشكو إليهم بالذي قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا وتنبهوا كي تسمعوا تسألها
عار عليكم؟أن تكون أسيرة بجواركم وجنودكم تغزى لها

أولا يكون أحد الوشاة المجرمين ممن تعودوا الضرب على الطبل الذي يستهوى الملوك قد قال ما قال حول كلمة عار عليكم ... الخ ولقد كان هذا مجال آل الفاسي وقد فعل مثل ذلك عبد الرحمن مع الرشيد ضد أبي علي اليوسي ، ثم يقول جسوس.

لا تسمعن من جاهل ومثبط ومصعب من جهله أحوالها؟
إن الذين تقدموا قد جاهدوا بنفوسهم وبما لهم أمثالها؟
فتملكوا أملاكها وديارها وتقسموا أموالها ورجالها
وارفع بهذا الضرب رأسا إنه في الضعف ما دام العدا أنزالها

أولا يحق لنا أن نوجه السهم رأسا إلى عامل فاس المستبد عبد الله الروسي الذي ربما كان جسوس ينظر إليه باستعلاء واحتقار ونقد لتصرفاته السيئة التي ورثها عن خلفه فخلقت من الزياني ما أنتج كتابه في ابن الروسي وأمثاله من المعاصرين له على أن هاجسا آخر يوحى ربما تكون الوشاية من المتملق لفكرة التملك فوق العادة وهو محمد بن عبد القادر الفاسي والذي كان في هذا الموضوع يتنافس مع محمد المجاصى. أولا يكون ابن الروسي مدفوعا من الفاسي الذي فضحه جسوس هو الذي أكثر من وشاياته ضد جسوس، ولربما كان هناك بجانب السلطان من هزهم قول جسوس، وما أشار به لكشف الجهال المثبطين الذي يصعبون على السلطان ، ويرتكبون من الأعمال ما يحول دون تحرير سبته ، هؤلاء الذين كانت أعمالهم السبب في عدم قدرة المغاربة على تحرير مدينة منقطعة حتى عن دولة الأسبان التي كانت مشغولة بحرب الوراثة، وليس لها من يدافع عنها غير حامية من الرجال الأسبان الذين إستطاعوا أحيانا أن يهزموا المحاصرين لهم، ويدفعوا بهم إلى الفرار وأي ضعف أشد على المغرب ما دامت مدينة سبتة لم تحرر، ثم من يدري لعل جسوس الأديب صاحب هذه الحساسية كان قد إختار

المعارضة السياسية حين وردت رسالة السلطان بالتوبيخ للعلماء وإطراء عامة أهل فاس1108هـ/1696، ولربما تكلم بما يتفق وكرامة العلم ولا يرضى السلطان وحاشية السلطان بمنطق لا يروق دعاة الاستبداد المتمرغين في الساحة المكشوفة التي تعرف عليها جسوس، ومن أجل ذلك استحق جسوس أن يكون الضحية حتى لا يظهر ما يسئ ويكدر من المعارضة التي ظهرت في مظاهرة الجامع الأخضر بمكناس، رغم محاولات السلطان وعدم إستعماله أسلوب القتل مع العلماء، في الوقت الذي يرى كل المظاهر تدله على أن الحق في جانبهم، بدليل العفو الذي أصدره قبل في حق جسوس، لكن عبد الله الروسي عاد للقبض عليه، ولا يكون إلا بأمر، وإن كان صاحب الدر المنتخب يقول إن السلطان ندم وعزل عامل فاس، وأنه هجر كل من سبب لجسوس فيما حصل..؟؟ إلا أن كل هذا إن حصل فهو غير مقبول. ويبقى حكم التاريخ الذي لا يقبل الإستئناف ولا النقض.

لقد طوف بجسوس الذي لم يقتله عبد الله الروسي يوم 23 ربيع 2 من سنة1121هـ/1709م إلا بعد ما كتب منشورا، وربما وزع سرا وهو المقيد في الأغلال والمطوف به كما أراد له خصومه، ولم يمت إلا بعدما عرف أن الشعب في كل مكان مر به كان يرثيه ويحكم أن التاريخ لم ولن يغفر للذين انتهوا به إلى ذلك المصير الذي لا يشرف تاريخ المغرب بل ولا يشرف سلطان المغرب الذي إنخدع بسلطانه وبترهات المغرضين، حتى إنه إرتكب أفظع جريمة في حق العلم لأتفه سبب، بل ضد الرأي المعتمد على الحجة المستمدة من الكتاب والسنة، وإن مسؤولية السلطان هنا تتجلى في أنه الآمر الناهي بل المبايع المسؤول عن البلاد والعباد، ثم تتجلى في أن الموقف المؤاخذ من أجله جسوس، لم يكن رأيه أكثر صراحة ولا إحراجا من غيره ، وكفى بما كتب قبل قتله حجة كأقوى دليل(140).

حقا إن السلطان إسماعيل كان يعيش سياسة عصره التي تظهر لنا اليوم على غير ما كان ينظر إليها هو ومعاصروه شرقا وغربا، لكن السلطان أسماعيل كان له من

(140) راجع الاستقصا 7/90.

الأعذار ما يدفع إلى التخفيف في الحكم عليه بعيدا عن الصورة المشوهة التي صوره بها جل كتاب الغرب الذين لا تزال سمومهم تسري في جسم هذا الشعب البائس الذي لم يجد من الحصانة ما يحول بينه وبين قراءة ما كتبه الموتورون الغربيون من سياسيين وأسرى ومبشرين، كل حسب هواه حول السلطان إسماعيل الذي أقل ما يقال في حقه، أنه لولا أسلوبه وطريقة حكمه لكان المغرب غير المغرب والناس غير الناس. أي لأصبح(141) المغرب أندلسا آخر، بل الدين غير الدين، ويكفي أن يعرف المرء تحرش البرتغال والأسبان ومن ناصرتهم دول أو ربا والفاتكان.

لقد كتب الغربيون حول السلطان إسماعيل بطريقة قصصية تتفق وأغراض الكتابة المشوقة في ذلك العهد، ومثل تلك الكتابة هي التي ضللت الغربيين وفي طليعتهم لويس 14 الذي أقل ما يقال في حقه رغم عظمة قصر فارساي، أن أفقر رجل متدين في المغرب

---

(141) من الغربيين الذين كتبوا حول السلطان إسماعيل كما أورد بعض العاجزين عن التعرف على شخصية السلطان إسماعيل من خلال ما في المغرب من مصادر ووثائق لم يتعرف الناس على الكثير منها مخطوطة ومطبوعة، حتى حفيده عبد الرحمان بن زيدان لم يورد منها إلا ما يليق حجة عليه وليس له كما في الاتحاف جـ 4 . والذين تعرفوا على السلطان بواسطة ماكتبه الغربيون لم يتعرفوا عليه من خلال أعمال المحايدين، بل تعرفوا عليه من خلال ما كتبه أمثال :

1) رايموند طوماس الذي كتب حول المغرب وقوافله.
2) سانت أولون: الامبراطورية المغربية.
3) سيران دولاتور: تاريخ مخزن إسماعيل.
4) الراهب دبل بويرنو : إرسالية تاريخية للمغرب.
5) بوسنوت : تاريخ حكم المولى إسماعيل.
6) بادجيت مكين : الإمبراطورية المغربية
7) كوستا فينو كاينت : مختصر تاريخ المغرب.
8) بريط وايت الانجليزي كما عند صاحب الاتحاف 69/2. 84/4

9) والمستعمر الهادف تيراس الذي سمم أفكار الذين لم يعرفوا غيره، ومثله أندري جوليان حول شمال إفريقيا التي بربرها كلية وبلا أدنى اعتبار لواقعها، منذ أربعة عشر قرنا، وروم لاندو الذي تعرف على أمثاله من المنحرفين الذين تعرف عليهم وعلى انحلالهم وهم الذين كرموا انحرافه الخ وليس معنى هذا أن كل ما كتبه الغربيون حول المولى إسماعيل بالأخص، والمغرب بصفة عامة، مطعون فيه بل هناك مصادر غربية قصد أهلها كتابة التاريخ للتاريخ وفي مقدمة هؤلاء، الكونت هنري دوكاستر صاحب المجموعة الكبيرة من الوثائق السعدية والعلوية بغض النظر عن الدافع الاستعماري الذي حفزه أولا وهو كتابته لحكومته عن المغرب كامتداد ضروري لبقاء فرنسا في الجزائر، ثم تطورت الدراسة ومن الانجليز الذين وصفوا مشاهداتهم بأمانة رغم بعض النقص « جون وندوس » الذي رافق بعثة السفارة الانجليزية إلى المغرب في عهد جورج الأول، والتي كان علي رأسها شارل ستيوارت سنة 1133هـ/1720م=

كان أنظف جسما منه، بل إنه ليظهر لنا في شكله ومظهره أنه المتوحش حقا، وفي ذلك تأثير على تفكيره كما يؤكد العلم .

مهما يكن فإن للسلطان إسماعيل أخطاؤه لأنه طبعا كان في المكان والزمان الذي لابد لصاحبه من أخطاء، إلا أن محاسنه كما يراها بعض المؤرخين بالنسبة للمغرب في عهده كثيرة وعظيمة دونها التاريخ في جانبه الخاص بإكبار وإعجاب، وكفى منها توحيد البلاد والقضاء على الفتن وتحرير الشواطئ، أما قضية جسوس التي وجدت من يكتب حولها ويجعل منها مأساة وهي كذلك في الواقع دون مآسي الآلاف من الضحايا و المتظلمين في ذلك العصر ، بل هي في حاجة إلى بحث يعرف به من كان السبب فيها ، ولسوف يؤدي البحث في النهاية إلي أن مأساة جسوس التي حصلت في فاس، كان مصدرها و المسبب لها كذلك من فاس ، ورغم ذلك فعلى السلطان إسماعيل الجانب الأكبر من المسؤولية، لأنه المسؤول الأول عن الرعية.

لكن بعد كل هذا هل إستطاع السلطان إسماعيل أن يحقق بالجيش الذي بذل في سبيل تكوينه الكثير من الجهد، ماديا وسياسيا، والذي رباه تربية لم يعرف لغيره في التاريخ أنه كون جيشا بالطريقة التي كونه بها السلطان إسماعيل والذي سهر عليه وعلى تنظيمه وتعليمه بل وتثقيفه، ولو بواسطة قصص سيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس، وغيرها من القصص التي جلب لكتابتها في مآت النسخ بالألوان وماء الذهب الكثير من الخطاطين؟ هل كان هذا الجيش بحق وسيلة استقرار وأمن وسلام للمغرب؟ وهل كان كله مخلص للسلطان نفسه؟

لقد كان لهذا الجيش أثره في جل ما أنجز السلطان إسماعيل، لكن الكثير من قواده كانوا على عكس ما قيل من تعلقهم جميعا بالسلطان، وهو ما كتبه بعض الذين تناولوا الكتابة حول شخص السلطان إسماعيل وجيشه، بل كان الكثير من قواده الذين سلبو حريتهم يحقدون على الجميع، ومنهم السلطان، وقد انكشف الكثير منهم

= راجع تاريخ تطوان ق 1/م/54 وبريط وايت، الذي رافق السفير الانجليزي « روسيل » الذي قدم للمغرب وقت موت السلطان إسماعيل ومعه السفير المغربي إلى انجلترا البقولي فقد كتب بريت المذكور كتابا حول تاريخ الانقلابات التي حصلت بالمغرب، نقل عنه ابن زيدان في الإتحاف 295/1 ومثله فعل جون ويندس رفيق السفير الانجليزي لدى بلاط السلطان إسماعيل رمضان 1133هـ يوليه 1721 تشارلس ستيوارت.الخ

وقتلوا في مشرع الرمل، وفي غير مشرع الرمل، وفي «سيدي» رحال، ومراكش، وسوس، كما سبق، بل إن حقد بعضهم لم يتلطف بما إنتهوا إليها من سطوة مستمدة من السلطان أو بالسلطة المطلقة التي تسلطوا بها على الآخرين إلى درجة القتل العمد بلا سبب وبلاحسيب ولارقيب، حتى أدى بهم ذلك إلى تدبير المؤامرات ضد السلطان نفسه، فلم يكن أمامه إلا تصفية الذين تعرف عليهم من بين المائة والخمسين ألف، وبفعله ذلك كان يزيد نار حقدهم إشتعالا، كما كانت علاقتهم بالشعب – الذي جعله السلطان ينظر إليهم نظرته للعبيد الأرقاء، وقد إستغنوا وطغوا – علاقة كراهية وتحيّن للفرص، وكم وجدوها إلى جانب السلطان والناقمين من أبناء السلطان الذين ثاروا أو الذين سلطوا على الثائرين، فالثلاثة آلاف من الذين كانوا إلى جانب الأمير الثائر محمد العالم كما سنرى من الفصل "133" وهو الذي ولاه والده على مدينة تارودانت وإقليم سوس، ما كاد الأمير يعلن ثورته 1114هـ/ 1702م ضد ظلم والده الذي تجلى أكثر بين السوسيين والمراكشيين وبقايا الثائر القديم محمد بن محرز بن الشريف أولئك الذين أثر علماؤهم في الأمير العالم بل الأديب الثائر، حتى إنفجروا في مدينة مراكش التي عرفت الحرب أكثر من ثلاث سنوات ضد جيوش السلطان الذين طردهم زيدان، ولما انتصر هذا الأخير على أخيه وقيده بالأغلال، فعل بمراكش أكثر مما فعله جند الثائر، بل قتل كل أهل تارودانت نساء ورجالا وأطفالا(142)، في شهر صفر من سنة 1118هـ 1706م ومما يستدل به على حقد هذا الجيش، وما كان يكنه لخصومه الذين يتقدمهم عليلش، وابن العياشي، هو البحث عن قبريهما ليشعل فيهما النار بعد موت السلطان(143). وكذا ما فعله بأولاد السلطان بعد موته كما سنرى، بل إن شطط هذا الجيش والمتواطئين معه أنتج رسالة أبي علي اليوسي في الجباية و الجهاد والعدل، تلك التي خلدت المظالم التي كان الشعب يعيش تحت وطأتها، والتي تمثلت في سلب الأموال وعدم صرفها على مصالح الشعب، ثم ترك المواطنين، خصوصا في الشمال معرضين لغزو الأسبان بعدما جردوا من ناحية تطوان وسبتة. بل إن الذين كانوا يتسلطون على الشعب كانوا هم المقربين الذين يتصلون

(142) البستان 42.

(143) الأعلام المصدر السابق 37/6.

بالسلطان ويلتصقون به، فالجيش هو الذي كان يرابط على القبائل والمدن في كل القصبات الست والسبعين المنتشرة بمجموع المغرب، وهو الذي كان يجبي الخراج ويجمع الأموال، وإلا فكيف يعلل فشل السلطان في حصار سبتة بثلاثين ألف مقاتل سنة1110هـ/1693م بل حصاره الذي شدده للمرة الثانية 1115هـ/ 1701م ودام نحو الثلاثين سنة، ذلك لأنه لم يحاصرها بجيشه النظامي الذي اكتشف عدم نضجه، وإنما بالمقاتلين من أهل الريف، و الفحص، والهبط، الذي كانوا تحت إشراف آل بن حدو، وهذه القبائل كانت تعاني من الظلم إلى جانب أنها كانت مجردة من السلاح لعدم الثقة فيها، وقد وقف على معاناتها أبو علي اليوسي كما وصف، مما دفع إلى إعادة النظر في تعزيز مناطق الجهاد بالسواحل من الحسيمة إلى أجادير وكان الذي حمى المغرب في هذه المرحلة هو ضعف الاسبان والبرتغال و المنحدر الذي بدءا سيرهما فيه.

وإذا كان هذا الجيش الذي إكتمل نظامه في عهد السلطان إسماعيل الذي أشرف على تكوينه، و الذي قيل إنه بلغ تعداده مائة وخمسون ألف نفر، فإن التاريخ لم يعرفنا على تنظيمه العسكري، وعلى تدرج الرتب غير تلك التي أشرنا إليها، والتي قيل عنها قائد المحلة، وقائد الرحى، وقائد المائة والمقدم ، ثم الباشا، والرماة، والخيالة، و الطبجية و الكل أميون، بل لم نتعرف على أنواع أسلحته وتطبيب جرحاه، وكيفية تموينه، الخ، في حين أننا نتوفر على معلومات شبه مكتمله عن الجيش في عهد المرابطين الذي بلغ تعداده مائة ألف، بل وعن قصباته التي منها قصبة الودايا بالرباط، وكذا عن جيش الموحدين الذي بلغ في عهد محمد الناصر 595-611هـ/1198 - 1214م حوالي ستمائة ألف في مجموع المغرب العربي الكبير، بل وعن الأسلحة التي كانت متداولة بين الفرق التي منها حملة الأقواس والنبالون، والرماة، وأصحاب السهام، و المطاردة و الرعادات الخ على أننا في عرضنا الماضي لتحركات جيش السلطان إسماعيل رأيناه في حربه بالعرائش، وطنجة، ومعمورة، إستعمل المدافع، والكور والقنابل، والمينات، و المفرقعات، وذكر معها ملح البارود ، والكبريت، كما استعمل ذلك في حرب آيت أمالو التي ذكر فيها ما غنم من ثلاثين ألف بندقية «مكحلة» الخ، وسنعرف بعد أن الجيش سيطرأ عليه بعض التطور، وتظهر في تنظيماته بعض الإطلاقات مثل الطبجية، والحمار، والرقاص، والأغا، والحراب،

والعلاف، وأما بالنسبة للبحر فقد إعترف السلطان إسماعيل في مراسلته إلى جيمس الثاني ، بقصور العرب في هذا المجال الذي سوف يتداركه حفيده السلطان محمد بن عبد الله كما سنرى بعد، أما اللباس الذي كان في العهود السابقة يعتمد البياض أكثر، فإنه في عهد السعديين والعلويين استمد مما عرف به جيش الأتراك الذي كان لباسه عبارة عن سروال واسع أحمر وصدرية زرقاء بكمين بهما أزرار، وللرأس غطاء عبارة عن طربوش، هذا للجندي النفر، أما الرتب فقد كانت تتميز بلباسها من العريف، والمقدم، الى قائد المحلة، والباشا، وكل ذلك إقتبس مما كان للأتراك وقتها من تنظيم في هذا المجال، وإن لم ينقل بكامله، على أننا في عهد السلطان إسماعيل نلاحظ اهتماما بالدراسات العلمية التي عرفت للميدان العسكري في عهد السعديين(144) الذين إقتبسوا أكثر عن نظام الانكشارية ، خصوصا عهد المنصور الذي عاش ورأى ذلك أثناء هجرته لبلاد الترك مع أخيه عبد الملك وأمهما مسعودة الوزكيتية التي يقول عنها بعضهم سحابة الرحمانية.

(144) راجع كتاب العز و المنافع ، للمجاهدين بالمدافع ، تأليف إبراهيم بن أحمد بن غانم الأندلسي باللغة الإسبانية ترجمة أحمد بن قاسم الحجري ترجمان السلطان زيدان السعدي، توجد نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم جـ 85 وهو أول كتاب ترجم إلى العربية في هذا المجال ، ومنه تعلم بايات تونس أعمال المدافع والبارود ، وآلات الحرب إذ توجد به آلات المدافع وغيرها من جميع آلات الحروب.

الفصل السابع والعشرون بعد المائة

تجربة الجيش في حرب قبائل فازاز ومأساة قبائل گروان

إنتهى السلطان إسماعيل من تحرير آخر ثغر بقتال، وهو العرائش التي حررها يوم 18 محرم 101اهـ/689م، وفي السنة التي بعدها خرج الاسبان من أصيلة بعد حصار شدد من أهل الريف لمدة سنة، وبذلك توفر للسلطان من السلاح ما يعيد به الكرة على الأتراك ثم على بربر صنهاجة بجبال فازاز، الذين أخر قتالهم رغم ما صدر منهم، وبعدما عادت بعض المدافع التي كانت ترابط على المعمورة، والعرائش، وطنجة، وأصيلة إلى مدينة مكناس يجرها أسرى الحرب من الاسبان تساعدهم كل قبائل الشمال مما أوحى إليه بمخطط ضد قبائل الأطلس المتوسط، كان في منتهى القسوة القاسية والعنف العنيف، وكان الدافع له هو عدم ترك الفراغ للجيش من جانب ومن جانب آخر ما حققه في كل القبائل شمالا وجنوبا من نزع الخيل والأسلحة إلا قبائل آيت آمالو هي التي لاتزال معتدة بسلاحها، قوية بإمكاناتها المادية التي تتكاثر بحكم موقعها وطبيعة أرضها، وقبل أن يتوجه إليها وجه قوات أخرى يوم 7 رمضان 103اهـ تحت قيادة ولده زيدان لتحارب الأتراك في الجزائر، إلا أن الحرب لم تحصل رغم إشتباك الطرفين يوم 15شوال من نفس السنة 103اومحاولة السلطان اللحاق بولده، وتم الصلح بين الطرفين بطريقة حقنت فيها الدماء على غير العادة، وهكذا حتى لا يترك لآلاف الأسرى مجالا للتفكير فيما يحدث البلبلة بين الجنود، ولهؤلاء مجال للإفساد بحكم الفراغ، أمر بتوجيه المدافع إلى الأطلس المتوسط عن طريق فاس، حتى يرى أهلها، ثم عن طريق البهاليل وصفروا إلى آيت يوسي التي مروا عليها في طريقهم إلى قبائل آيت صغروشن وآيت أيوب وبني علاهم، وقادم، وحيون، ومكود، وهي القبائل التي ما كادوا يشرفون على مواقعها حتى لاذت بالفرار في آتجاه جبل العياشي الذي كان السلطان قد وضع خطة للحيلولة بينه وبين قبائل آيت أمالو.

ولما إنتقل السلطان إلى المنطقة وكان قبل لم يتعرف عليها بما يكفي، أدرك أن القضاء على كل أثر للزيغ والفتنة بين أهلها يحتاج إلى إستعداد كبير، وهذا يحتاج إلى وقت، الأمر الذي دفع به إلى تأجيل الهجوم الكبير حتى يتم التضييق عليهم من كل الجهات، ولذلك قضى مدة سنة وضع فيها خطة الإحاطة، كما أنجز في نفس الفترة بناء القلاع التي وضع فيها الجيوش والسلاح في المنطقة ثم شدد الحراسة على القبائل التي تمنعت بالجبال الوعرة، تلك التي تركها في فصل الشتاء ثم عاد إلى مدينة مكناس ليقضي فيها بقية السنة، ويشرف على بناء القصور الذي لم يتوقف، كما وجه بعض أولاده كحكام إلى جهات مختلفة، وفي مستهل سنة 1104هـ/1692م -وكانت القصبات وقتها قد شيدت حول البربر من كل الجهات- عقد العزم على القيام بآخر غزوة من ملاحمه الضارية، وقبل خروجه نصب "علي ويش" مكان والده الهالك على زمور وبني حكم، ثم أمر بتوجيه الجيوش حسب المواقع التي خطط لها، وبعدما ركزت المدافع في أماكنها، وتم تحصين المدينة حتى لا تتعرض لغزو القبائل خرجت الجيوش والمدافع المتأخرة عن طريق أعليل متجهة صوب قصر بني مطير، ثم إتزر إلى عين توغا، كما أمرت القبائل الموالية للسلطان أن تحيط بالمنطقة الممتدة مآت الأميال المربعة، ثم التحق السلطان بما معه من جيشه النظامي، حيث نزل يرافقه قائد جيوش البربر "علي ويش" بمن معه بعين توغا، ثم القائد "علي بركة" مع آيت يمور وآيت يدراسن نزلوا بتنغتالين(145). ووقتها وجه الباشا مساهل في خمسة وعشرين ألف من أصحابه الرماة من تادلة، على وادي العباد حيث نزل خلف آيت يسرى، وأمر أهل فركلة وغريس وعرب الصباح أن يقدموا عليه بمحلتهم من الجنوب، ولما تم حصار المنطقة من كل الجهات طبق عليهم ما فعله الأتراك به وبالقبائل التي رافقته إلى وادي شلف قبل، حيث أصدر أمره بإطلاق نيران المدافع ليلا وبتوقيت معين، حتي يتردد صداها بين جنبات الأطلس والسهول التي أصبحت محاصرة من كل جهة، وذلك حتى ترتبك القبائل المقصودة بالغزو، وكان في علم الجيوش مقدما أن يتقدموا كل في الاتجاه المعين له وقت سماع طلقات المدافع، خصوصا من الشرق والغرب، أما ناحية الجنوب فكانت مهمة الجيش فيها

(145) مكان يبعد قليلا عن اخنيفرة نحو الجنوب الغربي وتعرف اليو "تيغسالين".

دراسة جبل العياشي الوعر حتى لا تلتحق به القبائل، أما ناحية الشمال فكان فيها السلطان وجنوده تحيط بهم المدافع.

وإذا كان ميدان المعركة يقدر بآلاف الكيلومترات المربعة من وادي العباد غربا، إلى ايت حمزة وما بعدها بآيت يوسي شرقا، تفرقت فيه القبائل الموالية والجيوش النظامية تدفعها الأوامر الصارمة إلى الإحراق، والتدمير، والقتل بلا تمييز، فإن القبائل المطاردة أخذت تتجمع وتتقلص مساحات التي تجمعها في المنطقة المعروفة ما بين تاوردة وتفايست إلى آيت وافلا وبوعياش شرقا، ثم ما بين آيت يحيى تونفيت وأغبالو غربا، حتى الرجال كانوا يقبضون ويقتلون بعدما دمرت القصور وذبحت المواشي وأحرق ما كان لهم من إنتاج فلاحي، وبعدها أطلقت أيدي الجنود لقطع رؤس الموتى الذين أمر السلطان قواده الثلاثة بالإشراف على جمعها، وهم: مساهل، وعلى ويش، وعلى بركة، ثم حدد لهم مكان جمعها بأدخسان حيث قصبة الجيش، فجمعت إلى جانب الخيل والسلاح، فكان عدد الرؤوس التي فصلت عن أجسادها إثني عشر ألفا "12000"، والخيل عشرة آلاف "10000" والبنادق أكثر من ثلاثين ألف(146)، وهكذا أصبحت منطقة جبل فازاز التي تقطنها قبائل ايت أمالو عبارة عن مقبرة مكشوفة خالية من الرجال زمنا غير قصير، وكان هذا إلى جانب ظهور العكاكزة هو الذي نشر الفساد الخلقي وإباحة الزنا في المنطقة وما عرفت دون غيرها من إباحية لا تزال آثارها باقية.

لكن هل إنتهى الأمر بالقضاء على شوكة القبائل التي كانت تكون عقدة في نفس السلطان إسماعيل، تلك التي لم تزدها غزارة الدماء إلا حقدا يثور بركانه موسميا عبر التاريخ، وكما سنرى في عهد السلطان محمد بن عبد الله وخلفه السلطان سليمان إلى عهد المولى الحسن، هل شفي الغليل وانتهى كل شيء؟ بل العكس، لقد تعطش الكل أكثر مما إنتهوا إليه، لأن العنصرية القبلية التي تنضوى تحت أجنحة القواد الثلاثة قد إلتهبت نيرانها، والجيش النظامي قد وجد ضالته في السلب والنهب، والسلطان قد استراح بقضائه على كل أثر للفتن الداخلية التي كانت تقض مضجعه وتشغل فكره وزمانه، لقد

(146) راجع الضعيفي وروضة التعريف والبستان 35-36.

وجدها "علي ويش" فرصة وهو المعين قبل أقل من سنة كي يظهر للسلطان نصحه ووفاءه وقد فعل بتجريده كل قومه والذين أسند إليه حكمهم من الخيل والسلاح قبل أن يقول له السلطان ذلك، بل لا حظ عليه حيث رد أنه لا يريد خيرهم بل خير السلطان، فقبل هذا الأخير وأنعم بما فعل القائد الذي تهيج لسفك الدماء، فكانه الحجاج بن يوسف. والذي بخسة ودناءة نفس إمتعض أن تتم مأساة قبائل گروان بعد على يد قائد آخر تجربة لوفائه؟؟؟!

لكن علي ويشو صنع المستحيل حتى لا يزاحمه غيره كأول سفاك يرعب إسمه جميع قبائل البربر بعد في الأطلس المتوسط، وقد نجح فعلا حيث قيل للسلطان إن قبائل گروان الواقعة مواطنها غرب وادي انگزمير وخلف جبل العياشي جنوبا تعيث فسادا وتقطع طريق المواصلات مع سجلماسة، وهي الأخرى تحتل مساحات شاسعة تمتد آلاف الأميال المربعة على طول وادي زيز وبين جنباته، وبما أن الطبيعة وضعتها في موقع محاصر بين قبائل تميزت بالنفاق والمزاوغة، لم يفعل السلطان إسماعيل أكثر من إصدار الأمر للقائد :"علي وبركة" أن يتركز من أجل الحراسة في قلعة تينغتالين، والتي يوجد بها ألف فارس من آيت يمور، كما أمر القائد لجيوش البربر علي ويشو أن يتوجه على رأس عشرة آلاف إلى حيث قبائل گروان وأن يقطع اثنى عشر ألف "12000" من رؤوس الگروانيين، مثل العدد الذي قطع من قبائل آيت أمالو دون مبرر إلا ما قيل من العبث وقطع الطريق الذي يمكن أن تقوم به جماعة مهما كثر عددها يكون دون المائة فلم يكن من أمر على ويشو الذي وجدها فرصة إلا أن آختار طريقة لا تكلفه ما تكلف الحرب، ذلك أنه نادى في القبائل المجاورة أن من جاءه برأس گرواني يتقاضى عليه عشرة مثاقيل، وبذلك فتح الباب للظلم والانتقامات التي لم تقتصر على مأساة قبائل گروان، بل كل من له ثأر وجدها فرصة في غريمه ومن لم يكن له غريم آتجه نحو ضعيف ليحقق أكثر ما يمكن من عشرات المثاقيل، وهكذا آستطاع على ويشو الحصول على آثنى عشر ألف رأس فصلت عن أجسادها في أقرب أجل، حملت إلى حيث رؤس ايت أمالو بأدخسان، ولم يخبرنا التاريخ هل علقت كلها على أسوار مدينة مكناس التي كانت "تزين" منها الشرفات دائما برؤوس البشر، أم أنها وضعت في شكل هرم مثل الذي بناه خوفو بمصر إلى

جانب أبي الهول وذلك ما وصف به الموقف ابو القاسم الزياني، أما ما تبقى من أهل گروان نساء ورجالا وأطفالا يقول الزياني وعنه نقل صاحب الاستقصا فقد نقلوا جميعا، ليكونوا على مقربة من رؤس آبائهم المقطوعة وليحرسهم جند السلطان الذي أمر بذلك، فكان ذلك هو سبب وتاريخ توطين أهل گروان وتولال جوار مكناس.

لكن كل المصادر التي أوردت بتفصيل قتل هذه الآلاف من المسلمين ولا واحد منها إستطاع أن يقول لنا لماذا أقدم السلطان إسماعيل على هذا العمل الذي لم يسجل التاريخ بعضه إلا في حق بعض الفراعنة وقياصرة الروس وملوك آل عثمان الذين لم يكن بعضهم يتقيد بشريعة من الشرائع السماوية ولا بقوانين وضعية، هل لأن المنطقة كان أهلها كما سبق وعرفناهم كقوة للدلائيين أصحاب وقعة "الگارة" بتافيلالت1056هـ/1646م؟ تلك التي ذاق مرارتها الشريف بن علي والد السلطان إسماعيل والذي بلا شك كان يتذكرها أمام طفله الصغير إسماعيل، فتربى فيه الحقد الذي أدكاه خصوم ايت أمالو، لو كان ذلك لما عفى عن الدلائيين أنفسهم، والذين لم يفعل بهم مكروها حتى بعدما ظهر أحمد بن عبد الله بن محمد الحاج الذي قاد الثورة الجارفة في تادلا إلى أحواز مكناس، والتي طالت سنوات كلفت السلطان إسماعيل الكثير جدا من المال والرجال، أم هل لأن بربر صنهاجة آيت آمالو هم الذين إنتشرت بينهم إباحية "العكاكزة"(147) الذين قطع السلطان من رؤوسهم نحو الستين، علقت بأسوار مكناس قبل ما يقرب من سنتين. وإذا كان آيت آمالوا لاقوا ما لاقوا من أجل ذلك أو غيره، فهل من حق السلطان أن يقتل منهم ذلك العدد في الوقت الذي كان في إمكانه أن يفعل بهم مثل ما فعل بغيرهم من القبائل التي جردها من كل ما يدفعها إلى الفتن وهو السلاح والخيل؟ وأهل گروان الذين قيل في حقهم ما سبق، هل كان للسلطان في ذلك مبرر شرعي إعتمد عليه في الوقت الذي بقي سنوات يعمل من أجل أنتزاع إقرار العلماء بشرعية ما أقدم عليه من جمع الذين سامهم بالعبيد وهم في نظر الدين والشرع أحرار؟ ومع ذلك فالاجتهاد المزعوم سوغ له ذلك من أجل ما قيل عنه بيضة الإسلام، مع أن الإسلام حرم قتل النفس بغير حق وذلك بالنص الصريح.. "ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق" والنهي في صيغة القران أمر،

(147) راجع ما كتبه أبو علي اليوسي حولهم في م خ ع 2224 من ص167 الى 187.

والامر يقتضي الوجوب وإذا كان الجيش الذي قام بتلك الفظائع هو نفسه بين جنود وقواد قد أقسموا نفس القسم الذي ردده السلطان نفسه أن يكونوا جميعا عبيدا لما ورد من أحاديث في صحيح البخاري. فهل ورد في تلك الأحاديث، أو المصدر الذي استمدت منه تلك الأحاديث وهو كتاب الله ما يسمح بقتل أربع وعشرين ألف مسلم؟ قيل إنهم قتلوا من أجل بعث الاستقرار والتمكين له في بلد قيل عنه بلد السيبة؟؟؟

لم أقف على مؤرخ مغربي ناقش هذا الموضوع، في الوقت الذي نجد الغربيين يكتبون حول السلطان إسماعيل الكثير من المفتريات التي لا يرددها المؤرخ الواعي، ولو على سبيل البرهنة على سخافة عقول الكتاب الذين تناولوها مثل ما فعل المنحرف روم لاندو الذي جاف تحت وطأة انحرافه بمدينة مراكش، ومهما يكن فإن السلطان إسماعيل الذي كان في هذه المرحلة وبعد مرور أكثر من إثنين وعشرين سنة على قيامه كسلطان، قد حقق الكثير في مجال بناء الدولة وتوحيد البلاد كما سبق، ثم هو آختار مدينة مكناس عاصمة لملكه، وقد حقق فيها الكثير من العمران وبالتالي حقق الأمن في كل جهات المغرب التي أصبحت كلها تحت سلطانه، والتي إنتزع منها جميعا الخيل والسلاح، ولم يبق له إلا قبائل ايت أمالو، وهؤلاء هم الخصوم التقليديون لزمور كآيت يمور وبني حكم، كما أن للجيش عندهم ثأر كبير منذ ثورة تادلا، وقد بقوا يحنون لمثل تلك الثورة التي قادها أحمد بن عبد الله الدلائي، فكانت النتيجة أكثر مما خطط السلطان الذي بلا شك تعرض لضغط قوي وغير مباشر من قواد البربر وقواد الجيش على السواء ضد آيت أمالو، ومثلهم گروان الذين لم يتراجعوا عن تعلقهم بغير العلويين منذ عهد محمد بن الشريف، وتعلقهم بالدلائيين إلى جانب مشايخ مدغرة وأولاد عيسى وقصر آيت عثمان وگلميمة وأسرير أيام مغفر والطيب وأحمد إبن علي.

بل إن الكثير ممن عرفوا تلك المواقف التي ألحقت كل الاضرار بعموم تافيلالت كانوا على قيد الحياة، وكانوا بالقرب من السلطان إسماعيل الذي تدل سيرته أنه كان سريع الغضب، كما كان في نفس الوقت سريع الرضى، وفي لحظة من لحظات حالته الأولى التي أدركته بآيت أمالو سجل التاريخ عليه أنه قتل أربعا وعشرين ألفا من المغاربة المسلمين، في الوقت الذي كانت مدينة سبتة تصرخ بصوت حزين أنها وما حولها من جند

السلطان يقاسيان الذل والهوان من حفنة صامدة من الاسبان، لو جمع آيت امالو ثم زف بهم لتحرير سبتة لتحررت ومع ذلك نعود إلى التاريخ السياسي أيضا بالأخص فنجد بعضهم يقول: إن السلطان إسماعيل لو لم يكن كذلك لما أمكن له أن يوحد المغرب ويجعل منه دولة موحدة تستعيد قوتها وسيادتها على ما كان وأكثر من ترابها على عهد السعديين قبلها، بل لو لم يكن كل من الرشيد وإسماعيل كما عرفهما التاريخ، لأصبح المغرب دون ما أصبح عليه زيادة على تمزيقه إلى دويلات محتلة من طرف العدو التقليدي الذين هم الاسبان، أو لربما تعرض أكثر لغزو إحدى الدول الأوربية التي أخذت وقتها تفكر في صنع الإمبراطوريات بما أخذت تبحث عنه من مراكز تجارية ولو بالقوة والهجوم على الثغور في شمال إفريقية، فقد رأينا الجزائر التي أخذت تتعرض لإهمال آل عثمان بسبب ما حل في أرضهم من تطاحن عائلي وخلافات بين الجيش والوزراء، نتج عنه إهمال الثغور ومنها الجزائر، التي لم يكن لها رمز والتي تعرضت لقصف مركز من الأنجليز بالقنابل سنة 1031هـ/1621م-1061هـ/1650م، ثم ضربها الفرنسيون 1071هـ/1660م، ثم الانجليز ثانية 1082هـ/1671م والفرنسيون بعدهم 1099هـ/1687م، أما المغرب الذي كانت بعض ثغوره محتلة قبل ظهور العلويين، فقد حررها السلطان إسماعيل كما جعل من المغرب وفي عهد إنهيار غيره، دولة قوية ذات بأس لها إحترامها وتقديرها بين الأمم والدول شرقية كانت أم غربية، وذلك في العهد الذي رأينا فيه دولة آل عثمان وهي أكبر دولة كانت في العالم تتراجع عن كثير من مواقعها شرقا وغربا.

هذا رأى له وجاهته، وهو مقبول ويعتز به الفكر الوطني. لكن ألم يكن كل ذلك قد تحقق قبل أن يحصل ذلك الغزو المدبر الأليم الذي لعبت فيه الأهواء الناقمة، أهواء روح القبلية من جانب ونقمة المركب الذي أثقل كاهل الأحرار من الحراثين الموسومين بالعبيد من جانب آخر. بل والذين سوف نراهم يبحثون عن مثل هذه المواقف كلما وجدوا لتحقيقها وسيلة أقدموا عليها، حتى ولو كانت في قتل أبناء السلطان نفسه كرد فعل كما سنرى بعد موته.

إن ما زرعته تلك السياسة في نفوس أولئك القوم من نشوة وارتياح لسفك الدماء بقيت ملازمة لهم إلى أن وضع لها الحد حفيد السلطان إسماعيل الذي هو محمد بن عبد الله بتفريقهم ثم بيعهم في الأسواق ليصبحوا بحق عبيدا وهم الأحرار من أصول الحراثين المتظلمين، الذين عرف بهم صاحب الاستبصار.

الفصل الثامن والعشرون بعد المائة

المغرب وأوروبا قبل وفي عهد السلطان إسماعيل

لقد تناول بعض المؤرخين الأوروبيين جانبا من تاريخنا بطريقتهم الخاصة، وبنظرتهم الخاصة إليه كذلك. ومن حقنا مثلهم ان نتناول من تاريخهم ما يتصل منه بتاريخنا بطريقتنا الخاصة وبنظرتنا الخاصة إليه كذلك ولسوف نركز على علاقة المغرب في عهد السلطان اسماعيل مع الدول الثلاث التي كان لها أكبر احتكاك بالمغرب وقتها وهي بريطانيا وفرنسا واسبانيا.

لم يكن لنا قبل أن نتحدث عن علاقة المغرب بأوربا ولا حتى في هذا الفصل عن كل العلاقات، لأنها لم تكن بالقدر الذي يدعونا إلى أن نخصص لها موضوعا خاصا، كما أصبحت في عهد الدولتين السعدية والعلوية، ذلك لأنها كانت علاقة تقتصر على ما كان ينتج عن أسباب الحرب مع بعض الاستعمالات التي كان الملوك يلجؤن إليها إختيارا لا اضطرارا، ذلك أن هذه العلاقة لم تعرف نوعا من الدبلوماسية كما يقولون إلا عندما انفصلت الأندلس عن المغرب نهائيا، ثم أصبح الصراع يمتد إلى الهجوم على الشواطئ المغربية من جانب، كما أصبح الأوربيون، وليس البرتغال أو الاسبان فقط، يتطلعون الى التعامل مع المغرب، بدافع المصالح المشتركة التي تجمعت عن الغزو المتبادل بين القراصين الأوربيين والمجاهدين المغاربة إلى جانب ما كان ينجم عن ذلك من تبادل الأسرى والتجارة، وبحكم موقع المغرب الذي إضطر للإجابة على ما كان يقوم به الأوربيون من غارات القراصنة في البحر الأبيض المتوسط بمثلها، وقد غزوا بذلك كثيرا من رعايا دول كل من الأنجليز، والفرنسيين، والاسبان، وأهل صقلية والبندقية وأهل هولاندة والإيطاليون واليونان وغيرهم.

حقا إن الذي يقصد الشمول لا بد له من جولة عبر التاريخ، منذ كان للمغرب دولة،

وهذا يرجع إلى عهد الأدارسة الذين لم يكن لهم أي إتصال مع الأوربيين قط مثل الأغالبة، أما في عهد المرابطين وقد إتسعت رقعة المغرب حيث كانت الحروب تدور رحاها في الأندلس، وقتها إستطاع المغرب أن يأسر من الأوربيين أعدادا بلغوا 40.000 زمن يوسف بن تاشفين الذي إستعملهم في البناء وحفر قنوات المياه الجوفية، بواسطة الذين آستوردهم إلي مدينة مراكش بعد موقعة الزلاقة، وقد كانوا من دول مختلفة مثل الإيطاليين والفرنسيين والقطلونيين إلى جانب الغربيين الذي ضمهم لجيشه، وبعد آستعملهم ولده علي كحرس حاص، وربما بإيعاز من أمه العلجاء فاض الحسن الإسبانية الأصل، وفي ذلك يقول الكونت هنري دوكاستري في كتابه "الإسلام خواطر وسوانح" ص146، وذلك حول "دون بدور" أخو الفونس، ملك قشتالة الذي إختلف مع أخيه واحتمى بعلي بن يوسف بن تاشفين الذي كان من عادته الإحتفاء بالمسيحيين وتقليدهم أعلى المناصب، حتى إختار له منهم حرسا عددهم ألف نفر، وكان دون بدور هو القائد لا على المسيحيين فحسب، بل حتى على المسلمين"؟!

هذا إلى جانب الذين كانوا يملكون كعبيد بيعا وشراء وكخدم في البيوتات، بل في عهد عبد المومن وولده يوسف عرف الجيش المغربي حامية من الأجانب المرتزقة(148) كما عرف بلاط الملكين المذكورين سفارات بين المغرب وأوربا مثل سفير ليبزا الذي إستقبله عبد المومن، وفي عهد خلفه الناصر 592–608هـ/1199–1214م استقبل سفير ملك الأنجليز جون، وفي عصر بني مرين نجد يعقوب المنصور هو الآخر آستعمل الأسرى الاسبان في مجال الخدمات الخاصة كالبناء والغراسة وغير ذلك، وفي زمن أبي سعيد يخبرنا التاريخ ما بين سنوات 713–854هـ/1313–1450م عن كثير من السفراء الذين كانوا يردون على المغرب قصد التفاوض من أجل الأسرى، فقد ذكر في هذه الفترة أمثال: "كلود دوسان

(148) لا نقحم هنا ما نتج عن سياسة إدريس المامون الذي فصلنا في موضوعه قبل، ولا عن علاقة آخر السعديين بأوربا ولا عن علاقة آخر الدويلات التي عرفت في تطوان وسلا والرباط والقصبة، وكذا إليغ والدلائيين، فقد وردت وثائق ذلك العهد في مجموعة دوكاستر وقد قام الأستاذ محمد داود مشكورا بالتطرق لما يتعلق منها بتطوان في تاريخه القيم ق2 جـ1/186–212–213–221–226–229–230. وفي عهد أولاد النقسيس راجع الصفحات التالية من نفس المرجع 246–247 .... 252.

كما تعرض لمثل ذلك المرحوم محمد المختار السوسي فيما كتب عن إليغ قديما وحديثا ط1966م.

رومان" "وجير الدبرشلونة" "ودوبيس دوموندا كو" و"سفيران دوباري"، وغيرهم من الذين كان مجالهم المفاوضات من أجل الأسرى في أزمنة مختلفة ويخبرنا آبن مرزوق في "المسند 116 ط 1981" أن من بنايات أبي بكر بن عبد الحق لما تغلب على مدينة فاس خص النصارى الخدام بسكن يميزون به عمن عداهم. وتطورت أكثر هذه العلاقات بعد معركة وادي المخازن، حيث أصبح الأسرى من مختلف الجنسيات الأوربية بالآلاف حتى إنهم زمن المنصور أصبحوا من كثرتهم بمراكش، يكونون شبه مجتمع خاص بهم كمجتمع اليهود، سمح لهم فيه بمزاولة طقوسهم الدينية في حدود معينة، بل وإذا علمنا أن معركة وادي المخازن، شارك فيها الكثير من الأجناس الأوربيين، وأن هؤلاء في هذه المرحلة بدأو يتعشقون المغامرات في بلاد ما وراء البحار، أدركنا كم عرف المغرب وقتها من تلك المغامرات التي لم يكن مستوى المغاربة سياسيا واجتماعيا يتعرف عليها، كما حصل في بلاد أخرى من أقطار المشرق وقتها.

وإذا نحن تعرضنا لما كان للمنصور من علاقات سياسية وتجارية وأنه كان فيها كأقوى ما يكون رجل دولة، أفاد من هجرته وإطلاعه وعلاقاته بآل عثمان، كما سبق فإن خلفه زيدان قد أكثر من هذه العلاقة، ولا نتعرض لسفالة المامون والمسلوخ قبله، فزيدان هو الذي آرتبط بأوربا أكثر وبشكل فيه ريبة لأن وسيلته كانت غير صالحة، ولا هي في صالحه ولا صالح البلاد، لأنها كانت تعتمد على جماعة من اليهود المرابين، خصوصا أسرة "بالاش" التي تركت أثرها السيئ في هولاندا باسم المغرب وسلطان المغرب زيدان(149) وإنك في كل السفارات التي كثرت من زيدان بالنسبة لهولاندا التي آختيرت لعداوتها مع الاسبان، لا تجد أية منها خالية من ذكر يهودي، خصوصا أسرة "بالاش"

---

(149) راجع مجموعة الكونت هنري دوكاستر، جـ1 356 -357- 358 -369-/3/-395-460-516-520- 542-545-547- 577 -585- 591-592-595- 719 -720 وفي الجـزء 3/5-6 -63-99- 109-127- 128- 134-136-3/408-411-498 ثـم جـ4/2- 26- 37- 50- 54 - 86-93- 109- 116- 123-172، وفـي هـذا الصدر ما يكفي للدلالة على الدور الخطير الذي لعبته هذه الأسرة، ولقد عرفت موانئ المغرب أول سفينة أنجليزية تجارية سنة 959هـ 1551م وفي عهد أحمد المنصور السعدي عرفت علاقة المغرب مع الانجليز تطورا كبيرا كما سلف في عهد أليزابيت الأولى حيث عرفت بريطانيا سفارة "عبد الله" جوذر 1637م وقبله سنة 1600م عبد الواحد بن مسعود المانوزي.

وعميدها "ساموبل" الذي تظهر الريبة في جل أعماله، حتى إنه انتهى أخيرا إلى سرقة زيدان نفسه، بالإضافة إلى التحايل على الرئيس الهولاندي أمير أرانج "موريس دوناس وإذا هو انكشف في بلاد أخرى مثل الأنجليز، حيث دفع الثمن فإنه قدم لزيدان أخاه يوسف وابن أخيه "دافيد بالاش" وأخيرا "يامين بن راموخ" الذي أصبح سفيرا لزيدان، بل إن "ساموبل بالاش" رأيناه يستعمل السفن للقرصنة هو الآخر، لكن السفينة باسم زيدان، وهذا الأخير نفسه يرسل يطالب بالعشر الذي كان يخصص للسلطان من القرصنة. أولا يكفي هذا لخزي زيدان الذي كانت سياسته الترجمان الذي عرف الأوروبيين على المغرب.

أما علاقة رجالات الجمهوريات الثلاث، القصبة، والرباط، وسلا، وإليغ إلى جانب الدلائيين، فهي الأخرى لها مجال لا يخرج عن التجارة في الأسلحة وتبادل الأسرى، فقد كان غرب الأبيض المتوسط، خصوصا بعدما ضعفت قوة الأتراك. وشرق المحيط الأطلسي هما مجال "القراصين" المغاربة الذين أصبح رد الفعل بسبب ما حل بالأندلس يدفعهم إلى المغامرات في شواطئ أوربا نفسها، فقد رأينا غيلان والنقسيس وأولاد أبي الليف وأهل سلا والرباط وتطوان، تصل سفن بعضهم إلى شواطئ الأنجليز، وقد نشطوا بشكل أزعج أوربا وجعلها تتودد للمغرب الذي لم تستطع لرجاله مقاومة، حتى أصبح أبناؤها يباعون في الأسواق المغربية الجزائرية أكثر مما كان غيرهم، من الذين قيل عنهم وقتها عبيد، خصوصا في الفترة التي آشتدت فيها الحروب بين أقطار إسبانيا، وفرنسا، وهولاندا، والانجليز، والنمسا مما أحدث اختلاطا ومزيجا مكدرا في تركيب المجتمع المغربي بل إننا في هذه الفترة نجد أوربا قد عرفت نوعا من الصراع الديني كذلك، مما جعلها تتوزع شذر مذر، وقد تعرف على ذلك السلطان إسماعيل الذي عرف كيف يبدل مفهوم العلاقات مع دول أوربا حتي إنه رفض كما سنرى مبعوثا من لويس الرابع عشر لأنه لا يمثل وظيفة سامية في بلاط الملك المذكور، وما كان هذا ليحدث في عهد زيدان السعدي مثلا.

ولما كانت علاقة السلطان إسماعيل بأوربا مثلت نوعا من الكبرياء الذي وجب أن يتصف به رجل الدولة الذي يريد لها أن تكون محترمة ومقدرة من الآخرين، فإنه وجب

علينا أن نتعرف على تلك العلاقة خصوصا التي لدينا عنها وثائق تمثل ما أشرنا إليه بالأخص ما يتعلق بالتي نحن بصددها، ونخص من تلك الدول كلا من الأنجليز-فرنسا-إسبانيا مع عدم إغفالنا لغيرها في سياق الكلام، هذا مع العلم أننا لا نقصد الشمول الذي يفضي بنا إلى كشف ما أصبح للذين هم من أصل أوربي من مكانة في المغرب وفي مختلف العصور، فقد عرف عهد المنصور من ذلك النوع الذي لو أطلنا فيه الكلام لا ستغرق الكثير من الوقت، أمثال القواد الذين عرفوا، مثل رضوان صاحب عبد الملك السعدي، وقواد المنصور أحمد الذهبي، محمود، وعمر، وبيربيس، وجوذر، بل وفي عهد السلطان إسماعيل نفسه مثل المورسكوس الذين عرفوا ببطولاتهم البحرية أمثال "بلا ميثو، وكربيبو"، و"گراسكو"، و"بيلو" وجانسن" الذي أصبح بعد يعرف "بالرايسن مراطو" والذي عهد إليه السلطان إسماعيل بقيادة أسطول سلا، وغيرهم من الذين سنتعرض لذكرهم بعد زمن السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل وما بعده، بل الذي نقصد بعد هذه التوطئة هو ما كانت عليه علاقة السلطان إسماعيل مع الدول الثلاث التي كانت لها مع المغرب علاقة، سياسية وقتها، وهي إنجلترا، وفرنسا، وإسبانيا، والتي تعتبر بداية للتفتح الأوربي المحتال نحو أقطار شمال إفريقيا.

ونبدأ بالأنجليز الذين آختار السلطان إسماعيل التعامل معهم أكثر، ولربما آقتداء بأحمد المنصور السعدي أو لأن الانجليز آختاروا ولظروفهم الخاصة عدم المواجهة المسلحة ضد المغرب، إلى درجة إراقة الدماء في طنجة، أو لأنه كما سنرى عبر في رسالته التي سنرى أنه كان يرى أن مذهب الانجليز "لبرتستانت يدل على سلامة تفكيرهم ما داموا لم يكونوا مثل الذين يجعلون لله الولد في الوقت الذي ينزهون عنه رهبانهم وهم الكاثوليك كما يقول السلطان اسماعيل في رسالته لجيمس الثاني كما سنرى عن هؤلاء الانجليز وحتى نتعرف على طرقهم السياسية في الفترة التي تعامل معهم فيها السلطان إسماعيل، وجب أن نرجع قليلا إلى الوراء، أي ما قبل عهد اليزابيت، ومارى ستيوارت مع التركيز دون أن نتعلق بكل الجوانب السياسية للفترة المشار إليها حتى نتصل بجيمس الثاني المعنى بالمراسلة الموجهة من السلطان اسماعيل والذي سيربطنا كذلك مع لويس الرابع عشر الخ.

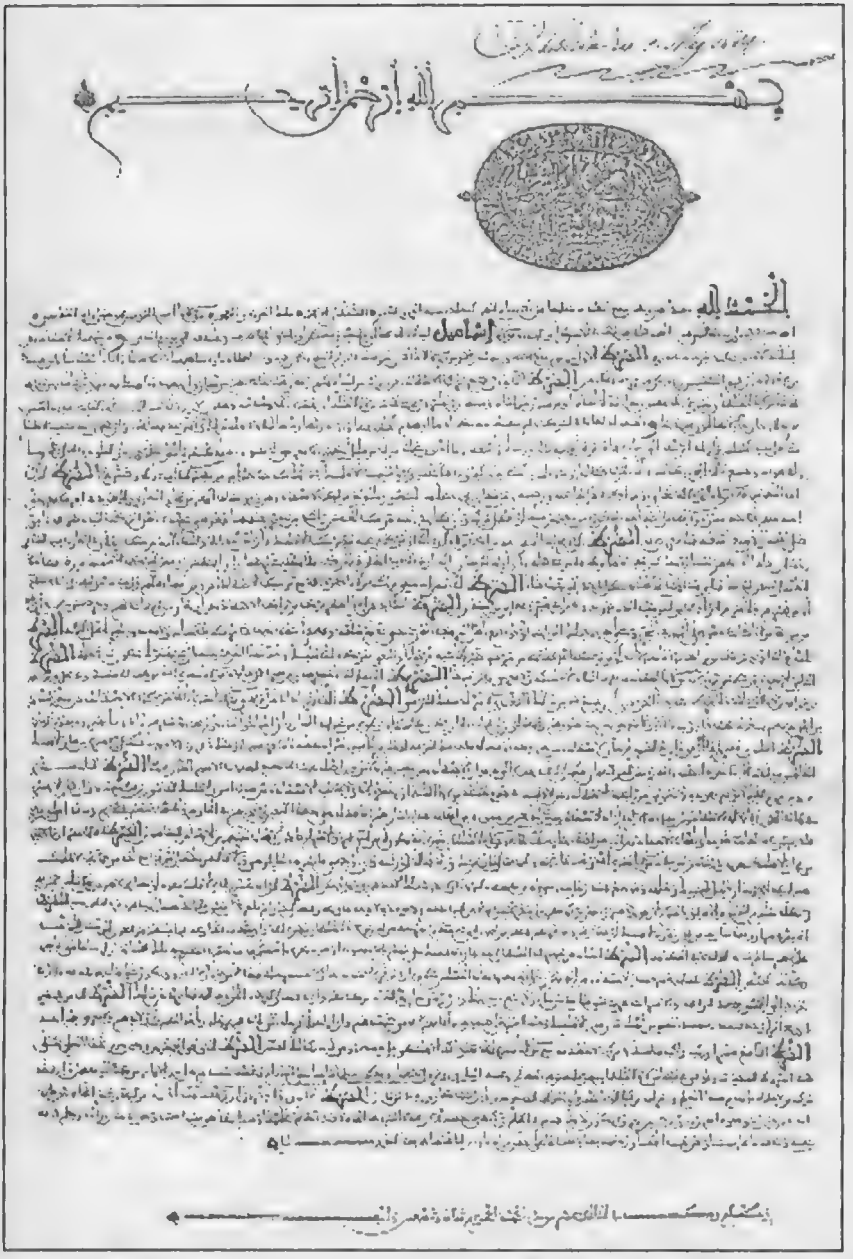

صورة طبق الاصل للاتفاقية المغربية الهولاندية 13 من ذي الحجة 1093-13 دجنبر 1682 بين المولى اسماعيل ورؤساء ولايات البلاد الفلامنكية (هولاندا)

الفصل التاسع والعشرون بعد المائة
العلاقة مع الانجليز

تقع أرض الأنجليز في شمال غرب أوربا، وهي عبارة عن أرخبيل حده في الشمال والغرب المحيط الأطلسي، ومن الشرق نحو الشمال الذي يفصلها عن شبه جزيرة الاسكندناف، وألمانيا، والدانمارك، وهولاندا، وبلجيكا، ومن الجنوب بحر المانش الذي يفصلها عن فرنسا.

كان يسكن الجزائر البريطانية لما اقتحمها الرومان قبائل من السلتيين "شعب هندي جرماني" وهم السكان الأصليون، وكان ذلك في القرن الأول للميلاد، فقاومهم سكان الشمال وهم القبائل المعروفون باسم "بينكس" أو "الإسكوتش" في شمال أكوسيا، مقاومة عنيفة جدا فأقام الإمبراطور الروماني أدريان (76–138 ق م) دونهم حصونا منيعة أصبحت في ملك الاسكوتش الذين استولوا عليها بعد في القرن الخامس للميلاد، واستعان البروتون من سكان الجزيرة بقبائل الأنجلو ساكسون الجرمانيين، وكانوا من قراصين البحر، فنزلوا إلى معونتهم "400م" لكنهم لما استطعفوهم أبدلوا المعونة بالأسر وملكوا بلادهم وكونوا بها سبع ممالك، أنجلوساكسونية، ثم ترقت فتكونت مملكة واحدة، ووضع قواعدها الفريد الكبير من 749 إلى 901م فطرد هذا الملك الدانماركيين، وكانوا أغاروا على جزء منها، ثم أعادو عليها الكرة من سنة (1017 إلى 1042م) فثار عليهم "إدوارد" الثالث الذي أيد ملك السكسونيين وأجلى الدانماركيين، ولما كانت سنة 1066م هاجم البلاد الأنجليزية غليوم دوق دونورماندي، ونورماندة هذه من مقاطعات فرنسا المقابلة لانجلترا على بحر المانش، كان يسكنها قوم من الدانماركيين والنورفيجيين، أصبحت أخلاقهم وعاداتهم كالفرنسيين، ثم خلف غليوم إبنه "هنري الأول" من سنة 1154 إلى 1189م، ثم خلفته إبنته "ما تليد" فثار عليها أمير اسمه أستيفان فأسرته وحبسته ولم

تحسن السياسة فهربت من ثورة الشعب ضدها، فأُرجع إستيفان ثم خلفه الملك هنري الثاني الذي قدم البلاد وفتح إرلندا، ثم خلفه ريسارد قلب الأسد، وكان قويا جسورا حضر الحرب الصليبية الثالثة 1189–1192 إلى جانب فردريك الأول إمبراطور ألمانيا، ثم خلف قلب الأسد أخوه حنا، فضاعت من انجلترا نورماندي، وممتلكات أخرى مما أدى إلى الثورة ضده وتحديد سلطته بالقوة، وبذلك أصبحت بريطانيا من وقتها تتوفر على دستورها غير المكتوب الذي حدد الحريات العامة منذ 1215م، فكانت بذلك أقدم أمة حققت الحياة الدستورية قبل الثورة الفرنسية بما يقرب من الستة قرون.

ولما تولى هنري الخامس 1413–1422 حارب الفرنسيين وغلبهم وملك أكثر بلادهم ولما مات خلفه هنري 6 عام 1422–1471 . وكان حديث السن، فظهرت في فرنسا جاندارك(150) سنة 1412–1431 التي حثتها أصوات القديسين على مساعدة الدرفين شارل7، والتي أنقذت أورلبان سنة 1429م لكنها أسرت وهي تحاول تخليص كومبين من فشلها في حصار باريز، ثم باعها البرجنديون الذين أسروها، بيع الرق إلى الأنجليز فحوكمت محاكمة مطولة أمام بيبركوثون، في روان، سنة 1431م حيث انتهى أمرها بالإحتراق دون أن يقوم الذي أقعدته على العرش، بأية محاولة أو مساعدة لها، لكنها فوق ذلك هزمت الجيوش وأعطت لشعبها نفسا ما كان له لولاها، وبذلك أصبحت من الخالدين في تاريخ فرنسا خصوصا وأوروبا عموما.

من سنة 1558 إلى 1603م تولت حكم الأنجليز ملكة عظيمة هي اليزابيت التي ولدت سنة 1533م وهي إبنة هنري 8 من زوجته آن بولين التي أعدمت بتهمة الخيانة، وكانت اليزابيت بروتستانتية المذهب الذي هو الرسمي للبلاد الأنجليزية، فكان ذلك عامل انسجام بينها وبين شعبها الذي بلغ في عهدها أعلى درجات من الرقي في مجال التجارة، والصناعة، والزراعة، والمعارف، ففي عهدها ظهر شيكسبير الذي نتعرف من انتاجه الأدبي خصوصا عطيل مدى تأثره بالمغرب الذي كانت علاقته كبيرة بالانجليز

---

(150) راجع كتاب جاندارك لغانم محمد ط 1933 القاهرة. وعن تتابع الأسر وملوكها في انجلترا راجع الموسوعة العربية 236–237 فقد فصلت في الموضوع. مادة: انجلترا. ثم كتاب قطف الزهور في تاريخ الدهور ليوحنا أفندي أبكاريوس ط بيروت 1873 ص 475–527.

زمن المنصور السعدي، كما ظهر في عهدها سبينسر وبيكن، وولتروالي، وهي التي أصلحت قانون النقد وأصدرت قوانين بمساعدة الفقراء، وإذا قيل من عيوبها أنها كانت محتالة متقلبة في صداقتها، متعصبة ومقترة في نفقاتها، فإن أهم من ذلك أنها كانت صادقة سياسيا، تشعر بمسؤوليات الحكم، وعلى جانب كبير من الشجاعة واستقلال الرأي، ولما كانت هذه الملكة ساعية في حماية لبروتستانت في العالم، وكان فيليب الثاني ملك إسبانيا حاميا للكاثوليك، ثم هو تقدم بطلب الزواج منها سنة 1559م، فرفضته فأراد أن يولي ملك الانجليز للملكة ماري استوارت ملكة أكوسيا، ولكن هذه لما كانت كاثوليكية ثار عليها أهل بلادها فهربت منهم، فامسكتها اليزابيت وسجنتها 18 سنة، ولما رأت كثرة الفتن من أجلها قتلتها، فكبر ذلك على فيليب 2 الذي أرسل أساطيله الهائلة الى انجلترا تصد غزوها، لكنها تهشمت، وبذلك فقدت إسبانيا سيادتها البحرية ثم أخذت طريق المنحدر نحو الضعف الذي تناثرت معه مستعمراتها بعد.

ولما تولى ملك الأنجليز تشارلس الأول 1053–1059هـ/ 1625–1649م وكان محبا للحكم المطلق فعارضه البرلمان واستمرت المعارضة حتى إنتهت إلى حرب بالسلاح قاده ضد الملك رئيس جيش البرلمان "أو لفيه كرمويل"(151) الذي إنتصر على الملك وأسره، فأراد كرمويل أن يرغم البرلمان على أفكاره فطرد البرلمانيين وعين بدلهم، وحكم المجلس على الملك بالقتل، فقتل، ولقب كرمويل حامي الجمهورية، ولما توفي كرمويل يوم 3–9–1658م نادى الجنرال مونك على آبن الملك تشارلس الأول سنة 1071هـ/1660م وملكه البلاد باسم شارل الثاني 1040–1097هـ/1630–1685م، فكان طوال حكمه في جدال مع البرلمان من 1071–1097هـ/1660–1685م.

وأما بالنسبة للمغرب فهو الذي واجه مشكل مدينة طنجة التي أصبحت تحسب جوهرة في تاج إنجلترا، والتي صمم المغاربة على أن تعود الى التاج المغربي فقبل تنصيب الرشيد سلطانا بسنة كانت منطقة تطوان في الشمال خاضعة لحكم المقدم

(151) راجع معالم تاريخ الإنسانية ل ه ج ولز المجلد 4/1075م ط 1967وقبل هذا في سنة1614م أرسل جيمس الأول سفارة الى زيدان السعدي قام بها جون هاربون، الذي حمل تحية الملك المذكور الى العاهل المغربي فرد هذا الأخير برسالة مؤرخة بشهر شوال 1023هـ – نوفمبر 1614م وفيها النص على ما كان يشغل زيدان من فتنة إبن أبي محلى بل إن السعديين استعملوا الانجليزيين ضمن جنودهم في القتال في هذه المرحلة.

أحمد الثاني النقسيس، وقبائل الهبط والفحص وغيرها، بيد المقدم لخضر غيلان، وهما اللذان جمعا قوات المجاهدين ثم دخلا في حرب مع الأنجليز في طنجة سنة1074هـ/1663م وكان على رأس حامية الانجليز وقتها الضابط "إيرال أوف تيفيوت" الذي لقي حتفه ومعه كثير من أعيان الأنجليز الذين آندفعوا بتأثير ما كتب بكثرة حول طنجة، حتى بلغ مجموع ما كتب حولها وحول المغرب وملوكه أكثر من خمسين كتابا، في تلك المرحلة وبعدها بقليل، فكان من أثر ذلك أن قصد مدينة طنجة كثير من أشراف الأنجليز وتجارهم الذين قتلوا في نفس المعركة إلى جانب ثلاثمائة وتسعين من الجنود وضباطهم الذين بلغ عددهم نحو العشرين، فتحولت مدينة طنجة في نظر الذين كانوا يعدونها جوهرة التاج الأنجليزي إلى طالع نحس وشؤم، أدى إلى إزهاق أرواح المآت من أبنائهم في سبيل أن تبقى المدينة تحت سلطان تشارلس الذي لم يستطع الاحتفاظ بها، رغم إرساله أكثر من عشرين قطعة من الأسطول الأنجليزي لمحاصرتها، لكنه فشل أمام إقدام وتصميم المجاهدين المغاربة، الأمر الذي هيأ الجو عندما قدم السلطان إسماعيل وصمم على تحريرها بعدما حرر المهدية، فوجد الانجليزيين قد ملوا من مشكل طنجة التي كلفتهم الكثير من الجهد الى جانب ما كان مخصصا لها من ميزانية الدولة، وهو مبلغ سبعين ألف جنيه سنويا، بل إن مدينة لندن عرفت الطاعون 1076هـ/1665م والحريق 1077هـ/1666م إلى جانب الحرب الهولاندية التي آستمرت ما بين 1075–1078هـ/1664م–1167م وأقيلت وزارة كلارندون لتحل محلها وزارة قيل إن مجموع الحروف الأولى لوزرائها تكون كلمة "كابال" ونتج عن معاهدة دوفر السرية 1081هـ/1670م مع لويس 14 دخول تشارلس الحرب الهولاندية الثالثة عام 1083هـ/1672م وكانت حربا مكروهة، واضطر للموافقة على قانون آختيار العقيدة1083هـ/1672م وعقد الصلح 1085هـ/1674م. وانهارت المحالفة مع لويس 14 بزواج ماري ابنة أخي الملك من وليم أمير أرانج، وتدخل في قضية تيتوس أوتس ليحمي الملكة، وحل البرلمان 1092هـ/1681م ولم ينجب ابنا شرعيا رغم كثرة أولاده غير الشرعيين، الذين أنجبهم من خليلاته الكثيرات، لكن مع ذلك ازدادت قوة البرلمان تدريجيا، ونشأت الأحزاب السياسية وتطورت البحرية الانجليزية الى جانب الاستعمار والتجارة، وفي عهده حرر المغاربة مدينة طنجة، التي قرر البرلمان الانسحاب منها بعدما دامت تحت الانجليز ثلاثا

عشرين سنة، ولم يخرجو منها إلا بعدما هدموا صورها الشمالي ونسفوا ميناءها، لكنها رغم ذلك لم تبقى الجوهرة الثمينة في تاج إنجلترا، فتركها تشارلس الثاني مكرها، كما كان الجلاء عنها بتلك الطريقة من عوامل الحط من قيمة انجلترا وملكها، ومع ذلك فهو الذي كانت له علاقة ود "بالإكراه" مع السلطان إسماعيل والتي تحدث عنها في مراسلة لجاك أوجيمس الثاني 1097–1100هـ/1685–1688م لكن هذا كان سيء الحظ فإن تشارلس لم يغادر حتي ترك انجلترا وقد تبدلت أحوالها بسبب الصراع فتراجعت البلاد عن كفاءتها العسكرية والبحرية كأنها النائم إذا استيقظ ثم هو يتمطي ويتثاءب بعد حلم عنيف يقول ولز، مما يستدل به على ما تفعله امرأة غير صالحة بدولة وشعب، إذا أطلق العنان للحاكم كي يتصرف كما يريد في حياة أمة ومقدرات شعب، وذلك ما حاول الانجليزيون القضاء عليه في شخص جاك الثاني، وقضى على البيوريتان "المتطهرين" وانتهى أمرهم، وعادت انجلترة المرحة سيرتها الأولى، وفي سنة 1078هـ/1667م دخلت سفن الهولنديين –وقد عادت إليهم سيادة البحر ثانية– في نهر التايمز، حتى وصلت جرافزند وأحرقت أسطولا أنجليزيا في الميداوي(152)، يقول بيبيس في مذكراته اليومية "وفي الليلة التي أحرق فيها الهولانديون سفننا تعشى الملك فعلا مع مولاتي الليدي كاستيل مين، وهناك جن جنونهم وهم يطاردون فراشة مسكينة"(153).

فعلام تدل هذه العبارة الساخرة من صاحب المذكرات شاهد عيان؟ إنها تدل على عدم الاكتراث بمقدرات الأمة ومقومات الشعب، إنها تدل على الفرق البين بين امرأة تقدر مسؤولية الحكم وتحترم القوانين وتعمل على تطور شعبها وتقدمه وتقتر في النفقات من أجل ذلك على نفسها، وتلك هي اليزابيت، وبين شارل الثاني الذي سطى على كل شيء حتى على السياسة الخارجية التي أصبحت تابعة لفرنسا بمقتضى عقد سري بينه وبين لويس 14 الذي اشتراه بجعل سنوي مقداره مائة ألف جنيه، بل كانت دنكرك التي سبق أن إستولى عليها كرمويل، قد بيعت قبل ذلك العقد إلى فرنسا، ومع ذلك إستطاع شارل بفضل فكاهته السهلة، الاحتفاظ مدى سنين حياته بالعرش لبريطانيا.

---

(152) نهر صغير في انجلترا يصب في نهر التايمز.

(153) ولز 1086/4، ومع ذلك ففي عهده أنشئت الجمعية الملكية الانجليزية التي مكنت البلاد من تطور علمي مستمر.

أما جيمس الثاني صاحب السلطان إسماعيل، والذي توسط له عند أخيه شارل لإطلاق سراح القائد عبد الله ابن عائشة الذي بقي كقرصان ثلاث سنوات، محتجزا عن شارل 2، فهو الذي تعنيه المراسلة إذ هو ابن شارل الأول وأخو شارل الثاني الآنف الذكر، ولد سنة 1043هـ/1633م وتوفي سنة 1113هـ/1701م تولى الملك بعد أخيه سنة 1097هـ/1685م لكنه طرد بعد ثلاث سنوات، وذلك سنة 1100هـ/1688م حيث هرب إلى فرنسا التي تعود الهروب إليها كلما إنتهى به الأمر إلى آرتكاب ما يدفع إلى الهرب، وقد حصل منه قبل إثر ثورة البيورتان 1058هـ/1648م حيث هرب إلى فرنسا ثم عاد منها إثر عودة الملكية 1071هـ/1660م بوصفه الأمير ال الأكبر للأسطول الانجليزي الذي إستقال منه 1084هـ/1673م عقب صدور قانون "الاختيار الديني"، وتزوج في نفس السنة من ماري أميرة مودينا الإيطالية الكاثوليكية فأدى ذلك إلى توثيق علاقاته بالسياسات الكاثوليكية التي أنتجها لويس 14، فزادت من حقد الأحرار الانجليز عليه، لكن آبنته ماري تزوجت أمير أورانج البروتستانتي وليم الثالث فيما بعد.

وهكذا بدأ الصراع بين جيمس المستبد والشعب الانجليزي الذي يدين بالمذهب لبروتستانتي، فجيمس انطوى في زوجته الكاثوليكية التي سوف لا تفي معه وقت محنته - إلى درجة أنه شرع إرضاء لها وضد إجماع الشعب الأنجليزي الذي أراد إرجاعه لسلطة البابا، بالإضافة إلى إعتداءه على حقوق الشعب الدستورية، مما أدى إلى بغضه وكراهيته، فاضطر إلى الفرار لفرنسا خوفا من مصير سلفه شارل الذي قتل بحكم 1059هـ/1649م من اليعقوبيين والإرلنديين الذين خاضوا معركة واقعة نهر البوين التي إنتصر فيها وليم عليهم، إنتصارا أدى إلى إعتراف إيرلندا بسيادته، لأنه وقف في وجه لويس الرابع عشر بشكل أثار حماس الأنجليز الذين يكرهون هذا الملك صاحب الحكم المطلق، والذي عرف بحربه القاسية ضد لبروتستانت في البلاد المنخفضة لمدة ست سنوات، من سنة 1083هـ/1672م إلى 1089هـ/1678م فهو الذي هرب إليه جاك الثاني بعد الثورة المجيدة في بلاده، سنة 1100هـ/1688م، والتي بواسطتها قيدت الملكية المطلقة، وليم وماري هما اللذان قاما بتوقيع الاتفاقية التي أصدرها البرلمان في نفس السنة والتي تعرف "إعلان الحقوق" كما شرعت الثورة أن من شروط تنصيب الملك في إنجلتر أن يكون بروتستانتيا.

ففي هذه المرحلة التي كان جيمس فيها منبوذا من شعبه الذي يحتفظ له بذكرى إقامة محكمة تفتيشية قاسية الأحكام والتي قدم لها سبعة من الأساقفة في السنة التي طرد فيها 1100هـ/1688م والذي كان الدافع الملح لطرده هو إنجابه من ماري ولده البكر، وحتى لا ينصب عليهم بعده بصفته كاثوليكيا، وهو جيمس إدوارد ستيوارت، وبعد طرده ومحاولة أنصاره الفاشلة سنة 1101هـ/689م رده كملك على إرلندا(154) في هذا الوقت كاتبه السلطان إسماعيل برسالة مطولة بتاريخ 15 شعبان(155) 1109هـ/1698م وهي تحتوي على نصيحتين تفضل بهما عليه السلطان إسماعيل، الأولى تبشيرية يدعوه فيها إلى الإسلام ويشرح له فيها مزاياه –وأن الدين عند الله الاسلام– ثم يدعوه إلى اعتناقه، وإذا لم يفعل فمذهب قومه لبروتستانت أفضل من الكاثوليك الذين يجعلون لله الولد وينزهون عنه رهبانهم!!

والثانية سياسية تتعلق "بالخلاف" الذي كان بينه وبين شعبه، وأنه أولى به أن يتمسك بالشعب بدل الزوجة "الإيطالية التي أظهرت عدم وفائها له في محنته "وحتى امرأتك الفرنسيسة تقول الرسالة(156) التي كانت تحوزك على التعبد بدينها، ها أنت الآن افترقت معها، فعلى ماذا أنت باق في جوار الفرنسيس، تاركا ملتك وادع ملك أبيك وأخيك لغيرك، راض بالإفلامنك يتملك على جنسك وأنت بالحياة، فوالله ما أحببنا لداركم ولا لملكتكم يتولى رآستها الفلامنك أو غيره، فالغ عنك ما تقدم بينك وبين قومك، فإن الصواب معهم في الإنكار عليك بسبب الدين الذي اختلفت معهم فيه، واعتذر لهم وعاودهم وارجعهم، والله لولا أننا أناس عرب لا معرفة لنا بالبحر، أو كان عندنا من يحسن معرفته أو نستوثق به في الجيش ونطلقه في يده حتى نكاتب الانجليز ونبعث لك من الجيش ما تدخل به عليهم".

وهكذا استمر السلطان إسماعيل في توجيه النصيحة إلى جيمس "جاك الثاني دافعا إياه للفرار من فرنسا سرا ودون أن يعلم به لويس الرابع عشر، الذي لا يريد منه

---

(154) راجع ولز المصدر السابق وتاريخ قطف الزهور في تاريخ الدهور مصدر سابق ط1873 والموسوعة العربية 682 ط 1965 وموسوعة وجدى/657.

(155) راجع الاتحاف لابن زيدان 2/56–61.

(156) والواقع أنها إيطالية وهي ماري أميرة موديا الموسوعة المصدر المذكور قبل.

ذلك لسببين يقول السلطان: "أولهما خوفا من تراجعه عن الكاثوليكية، والثاني إذا رجع إلى شعبه واتفق معه، ربما يصبح عدوا لفرنسا لأنه تعرف على حقيقة أمر ملكها، وأما روما التي إن كان يزمع الهجرة إليها جاك، فإنه يحذره منها لأنه إن فعل فسوف لا يستطيع الخروج منها مطلقا؟! وأخيرا يعده إن هو تصالح مع قومه فسوف يجدد معه من العلاقة ما كان بينه وبين أخيه شارل 2 ثم يختم الرسالة وأنه ما إندفع للكتابة إليه إلا بدافع ما يكن لأخيه من ود بسبب ما أبلغه سفيره لديه، وبسبب ما كانت بينهما من روابط الود والصفاء"(157).

تلك كانت علاقة السلطان إسماعيل مع الأنجليز أيام شارل الثاني الذي إنسحب من طنجة دون إراقة دماء، الأمر الذي دفع بالسلطان المذكور كما أشار في مقدمة رسالته إلى أن يمتن معه العلاقة وأن لا يهتم بالماضي لأن هذه العلاقة واجب أن تكون حسنة بين الملوك رغم إختلاف الألسنة والأديان يقول السلطان إسماعيل ومثلها كانت علاقته مع هولاندة، لكن جيمس أو جاك الثاني مات في المنفى بعد ثلاث سنوات من مراسلة السلطان إسماعيل سنة 1701م، دون أن يتحقق شيء مما تقدم به العاهل المغربي من نصائح.

(157) راجع مقدمة الرسالة في الاتحاف 57/2، بل إن خروجه من طنجة بالطريقة المذكورة، وبعد احتلالها لمدة 22 سنة مما يعتبر تخليا بدون قتال قد ساعد على توثيق العلاقة بين السلطان إسماعيل والانجليز أحسن ما كانت، حتى إن المغرب ساعد الانجليز في حملتهم ضد الاسبان 1116هـ/1704م عندما أرادوا احتلال صخرة جبل طارق حيث مدوهم بالمواد مقابل الأسلحة والذخيرة. ثم راجع الرسالة بكاملها فيما طبع هوداس من البستان لأبي القاسم الرياني مصدر سابق.

وليام كاطيفيير

هو الذي حل محل جيمس الثاني الذي كاتبه السلطان اسماعيل، وهو الذي حل محله على عرش الانجليز بالمشاركة مع زوجته "باسم ماري 2" وكانت الثورة البيضاء التي أجبرت وليام على قبول لائحة الحقوق 1689 وقانون التسوية 1701 . صادر الأراضي وأعطاها لرجال البلاط والجيش تورط في حروب القارة حتى اعترف بالويس 14 فعقد حلفا مع السويد والنمسا وإسبانيا ثم الحلف العظيم ضد لويس 14 .

الفصل الثلاثون بعد المائة

المغرب وفرنسا في القرن السابع عشر

لقد كانت علاقة السلطان إسماعيل بالملك الفرنسي لويس الرابع عشر(158) مسبقا بنحو الأربعة عشر عاما حسب مراسلته لهذا الملك قبل الانجليزي جيمس 2 وإن كنا لم نتطرق لما كان قبلها زمن شارل2، وقد قدمناها لما اتصفت به من دلالة على قوة شخصية العاهل المغربي أولا، ولما تحتوي عليه من طرافة تتمثل في التبشير الذي تزعمه في ذلك العهد عهد الحروب الطاحنة بين المذاهب المسيحية، فبالأحرى يقبل جيمس ما قدم له من إرشاد وتوجيه.

أما لويس الرابع عشر الذي قيل في حقه "الملك الشمس" فقد عرف به فولتير1106-1192هـ/1694-1778م في كتابه المسمى "عصر لويس الرابع عشر" والذي قيل في حقه إنه "أحسن ما كتب عنه وأصحه من وجوه كثيرة" فقبل أن نتعرف عليه وجب أن نعرف من هي فرنسا ومن هم الفرنسيون، كما تعرفنا على الانجليز ولو بإيجاز كذلك.

تقع فرنسا في الجنوب الغربي لأوربا، وتحد من الشمال بالقنال الانجليزي، وغربا المحيط الأطلسي، وفي الجنوب الغربي إسبانيا والبحر المتوسط، وشرقا إيطاليا وألمانيا وسويسرا، وفي الشمال الشرقي لكسمبورج وبلجيكا، وعاصمتها باريز.

عرفت فرنسا ضمن ممتلكات الرومان عندما فتح يوليوس قيصر أرض غالة أو كولوا، وهم السكان الأقدمون، وفي عهد الإمبراطور الروماني تيودور الذي قسم الإمبراطورية الرومانية الى قسمين شرقي وعاصمته القسطنطينية، وغربي عاصمته روما، ولما دب فيها الضعف تعرضت لغزو المتوحشين الذين هم قبائل التوتون، أو الوريغو، كما يطلق بعضهم، فاحتال عليهم الإمبراطور هونوريوس 384-323م وأخذهم في خدمته

(158) لويس 14 هو الذي قيل عنه الملك الشمس، وهو الذي أنجبته حنا النمساوية بعد عقم دام 22 سنة.

بعدما نهبوا المملكة الشرقية، ثم أخذ يرسلهم لمحاربة الأمم المتوحشة، وفي ذلك العهد اتخذ الجرمانيون المؤلفون من السويفيين، والفنداليين، والفرنكة، على أن يقتسموا الممالك الأوربية، فملك الفرنكة شمال فرنسا، وذهب الفنداليون والسويفيون إلى إسبانيا(159) حيث كونوا بها مملكة، وانحصرت روما في ذلك العهد بإيطاليا، حيث أصبحت روما ألعوبة بيد السويفيين والفندال يولون ويعزلون من أباطرتها ماشاؤوا إلى عهد هبرول سنة476م حيث أصبحت أوربا بيد المتوحشين، فكان منهم الفرنكة، والألمان في وادي نهر الراين، والألب، والفنداليون، واللومبارديون بجوار بحر البلطيق، والفريزونيون والأنجل بجوار البحر الشمالي، والبورغونيون، والسويفيون في وسط أوربا، وكان في جنوب روسيا الغوطيون.

أما الفرنكيون الذين كانوا ببلاد الغال، وهي فرنسا هم أصل الفرنسيين الحاليين فتوصلوا إلى إخضاع أكثر الجرمانيين لسلطانهم، وطردوا قبائل الويزيغو، التي كانت تزاحمهم هناك، وكان ذلك أوائل القرن السادس للميلاد، ثم تولى البلاد ملوك إنصرفوا للهو والترف أهلكوا الحرث والنسل، حيث تركوا الحكم للوزراء الذين نبغ من بينهم بيبيان لوبريف، الذي يسمى ابنه "شارل مارتل" وهو المشهور في تاريخ أوربا بوقفه الفتح العربي قبل لفرنسا كما سبق، وبعد موت بيبيان لوريف أصبح ولده المذكور ملكا ثم خلفه شارلمان المشهور، فتوجه البابا بتاج أباطرة الرومان سنة 184هـ/800م "وكان ملكه يشمل فرنسا وإيطاليا وجرمانيا، ثم ورثه ابنه "لويس دوبونير" الذي حاول أولاده خلعه طمعا، ولما مات اقتسموا ملكه فكانت فرنسا من نصيب "شارل لوبراف" وإيطاليا من نصيب "لوتير" وجرمانيا من نصيب "لويس" وفي هذه المرحلة عرفت أوربا حكم الأعيان، حيث كان كل من له نفوذ كبير أو صغير، بل حتى أصحاب الأراضي والمتوسطين منهم، أصبحوا مسيطرين، ولا سلطان للملوك الذين تحولوا إلى أشباح، إلى عهد فيليب أجوست الذي استطاع قمع الأعيان والمستبدين من ذوي الإقطاع، إذ كان عصر أسرة كابيه من عهد هيوكابيه وروبرت 2 إلى عهد شارل 4، عصر كفاح مستمر للتغلب على الأشراف ورجال

(159) وتقول الرواية إنحدر بعضهم إلى شمال إفريقيا، راجع المغرب والوندال قبل في صدر الكتاب، وقطف الزهور مصدر سابق 427–474.

الإقطاع، والبارونات اللصوص، وفي عهد ظهور طائفة كلوز عرفت فرنسا تطورا وازدهارا لكنها فقدته في حروب المائة عام مع إنجلترا، فعرفت فرنسا الدمار والتدهور ما بين 738–857هـ/1337–1453م، لكنها عادت إلى الإنتعاش في عهد ملوك ال فالو الذين ساعدهم أبطال مثل "دي جسكلان" و "جان دارك" السابق ذكرها مع الأنجليز، فظهرت فرنسا الجديدة الموحدة في عهد لويس الحادي عشر 866–888هـ/1461–1483م، لكن آل فالوا أضاعوا جهودا كبيرة في الحرب مع الاسبان في عهد شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرنسيس الأول، وذلك في سبيل التوسع، بحيث قامت أربعة حروب طاحنة بين الطرفين، وقد عرفت إلى جانبها حروب دينية ما بين 970–1007هـ/1562–1598م، وهي السنة التي ارتقى فيها هنري الرابع عرش فرنسا، وهو الذي هزم إسبانيا بعد حرب الهنريين الثلاثة، فدخل باريز وأدت معاهدة فرفان مع إسبانيا، وصدور مرسوم نانت إلى إعادة السلام، وفي هذا العهد ازدهرت الثقافة في فرنسا، فكان عهد لويس الثالث عشر 1010–1053هـ/1601–1643م، وهو ابن هنري الرابع والذي مهد العهد للويس 14 إذ كان تحت وصاية أمه مارى دي ميديتشي، صاحبة كونتشيني الذي قتله لويس الثالث عشر، الذي بدأ حكمه 1019هـ/1610م وبعدها تزوج بالأميرة آن النمساوية 1024هـ1615م، وربما تلك العلاقة هي التي كشفت له ما كانت عليه أمه مع صفيها المقتول، لكنه تصالح معها بعد خمس سنوات، وكان لويس الثالث عشر تحت سيطرة الكاردينال الكاثوليكي ريشيليون الذي ساعد لبروتستانت في حربهم ضد النمسا الكاثوليكية، وذلك في الحرب التي شاركت فيها معظم دول أوربا، والتي كان مسرحها ألمانيا فقط، وريشيليو هو الذي ركز حكم الملكية المطلقة في فرنسا مثل ما كانت في روسيا، وألمانيا، وإيطاليا، بل ستتحول إلى نهاية الاستبداد في عهد خلفه لويس 14 الذي تضاربت مصالحه مع مصالح الشعب، حتى قامت الحرب المعروفة بحروب الفروند، وهي الحروب الأهلية الفرنسية 1058–1064هـ/ 1648–1653م فكانت الأولى لمدة سنة قصد تحديد سلطة الملكية المطلقة، والثانية، قام بها كبار النبلاء بزعامة كونديه الذي ثار ضد حكم مازاران، وقد إستمرت أربع سنوات، لكنهم هزموا دون أن يحققوا ما حققه مجلس العموم الذي أصبح يحكم في انجلترا، فعلى العكس من ذلك تمكنت سلطة القهر التي استمدها ما زاران من سلفه

ريشليو، إلا أن الأول صفى كل العناصر التي يمكنها أن تبعث روحا في الشعب الذي أثقل كاهله لا بكثرة الضرائب التي لم تشبع رغبات "الملك الشمس فحسب"، بل بالظلم والقهر والإذلال شأن كل طاغية مستبد، ولقد انتهى الشعب في عهد مازاران إلى درجة أنك لا ترى بين الشعب من يستحق الذكر، إلا إذا كان من أهل البلاد، وضمن حاشية الملك، أي من الذين باعوا أنفسهم وروضوا على ما يكرهون، مقابل ثمن بخس، فرجال الدين والنبلاء وكل إنسان يحمل لقبا، فهو محرر من الضرائب التي إنتقل عبؤها لكاهل الشعب المضغوط الذي لا يتحرك ولا يتنفس، فكانت الملكية الفرنسية وقتها تسير نحو هاوية لم يفصلها عن عهد لويس الرابع عشر إلا واحد إسمه لويس الخامس عشر، واما السادس عشر فهو الذي دفع ثمن أخطاء السابق الذي قيل في حقه ومبالغة في الغرور "الملك الشمس..؟ والذي لولا ظهور مازاران لظهرت الثورة قبل العهد الذي ظهرت فيه، تلك الثورة التي أحرقت الأخضر باليابس، وبالتالي أكلت نفسها، لكنها فتحت باب التحرر لأغلب شعوب أوربا بعدما دفعت بالشعب الفرنسي نحو الحرية والإخاء والمساواة.

ومهما يكن فإن تاريخ فرنسا في المرحلة ما بين 1053–1072هـ/1643–1661م هو تاريخ الكاردينال الإيطالي مازاران، الذي تمم رسالة ولي نعمته ريشيليو وزاد عليها، لا في تركيز الملكية المطلقة بل لمحاربة كل تقدم كان يطمح إليه الشعب الفرنسي في مجال التحرر، بل وزيادة على ذلك ركز في نفسية لويس الرابع عشر الذي تربى في مدرسة مازاران، فكرة الحكم المطلق أو ما يعرف عندهم بـ "الحق الإلهي" حتى إنه عندما توفي مازاران أعلن لويس أنه سيحكم البلاد غير مستعين بوزير، رغم إدراكه الضعيف وعدم نباهته إلا فيما يتعلق بنفوذ أوامره كما تعلم من مازاران، وإذا كانت الطبقة التي تكونت بجانبه في نفس المدرسة قد اعتادت ما أصبح لا مناص منه لمن يريد القرب من الملك ان يعرف ما يريد ويزيد عليه، فإنه لم يجد كبير عناء في الحصول على الذين لم يغضبوه، بل لم يقتربوا مما يغضبه، ورغم ذلك وجد من بعضهم ذوي العقول الكبيرة الذين عرفوا كيف يجمعون بين مصلحة الشعب. ورغبات لويس، فكان في مقدمتهم أعظم رجال لويس الذي هو كولبير جان بابتست 1029–1095هـ/1619–1683م الذي سبق له العمل تابعا لمازاران في رعاية شؤونه المالية، وهو الذي أوصى به لويس 14 وإذا كان كولبير أصلا من طبقة

شعبية أبوه بائع أصواف، فإنه لم يفقد إحساسه وشعوره إزاء ما كان يعانيه الشعب، وإذا هو لم يستطع فعل شيء جهارا في صالح الشعب، فإنه على الأقل يجب أن ينتقم له من بعض الذين سفكوا دمه ومزقوا أشلاءه، ومنهم وزير المالية "نقولا فوكيه" الذي كان كولبير يعلم الكثير من أسراره المريبة، وأعماله المرهقة للشعب، فسعى حتى أدانته المحكمة بتهمة الإختلاس، كما خفض كولبير الدين العام برفضه الإعتراف ببعض ديون الحكومة ثم أنقص البعض الآخر، وأقام نظاما دقيقا للحسابات حتى لا تجاوز الحكومة دخلها، وعمل على إصلاح نظام الضرائب بالقضاء على المظالم، وشجع التجارة والصناعة وفرض الضرائب الجمركية لحاميتها، وفي مجال الزراعة نظم أصنافها الى جانب الصناعة، وحدد أسعارها بدقة متناهية، وأزال الحواجز الجمركية داخل فرنسا(160) ثم بدأ برنامجا قويا لإنشاء الطرق وقيد استغلال الموارد الطبيعية وأشرف على صناعة السفن 1080هـ/1669م فأنشأ الأحواض والترسانات والموانئ ومنها برست، وروسفور، وبدأ إنشاء أسطول كبير باعتباره خطوة أولى في تنمية التجارة والاستعمار، وشجع الفنون وعاون الأكاديمية الفرنسية، وأكاديمية العلوم، لكن تبذير الملك هدد جهوده في سبيل الاقتصاد، وكانت بداية حروب لويس الرابع عشر بداية اضمحلال نفوذ كولبير، وصعود نجم لوفوار(161) أضطر كولبير لمواجهة النفقات الحربية أن يلجأ لزيادة الضرائب وبيع المناصب والاقتراض والإنفاق من الدخل المقدر للمستقبل وأدت ضرائبه الجديدة إلى إضطرابات خطيرة أصبح معها مكروها قبيل موته، لكنه رغم ذلك وضع في عداد الساسة الفرنسيين من الناحية المالية، ولقد استطاع كولبير فعلا أن يجمع بين كثير من الإصلاحات المالية للبلاد، في الوقت الذي ركز فيه هو الآخر سلطة الملك المطلقة أسوة بسلفه إلا أنه أنقص من سلطة الولاة المحليين وأنشأ نظام الوزارة في شكلها الحديث بخلق وزارات ذات إختصاص محدد يعين بها موظفون مسؤولون أمامه وازدادت رقعة المستعمرات.

---

(160) راجع الموسوعة العربية 1885 ومعالم تاريخ الانسانية لولزص: 1095.

(161) لوفوا فرانسو ميشيل لي تيليبه ماركيز دى 1631-1691م كان وزيرا للحربية في عهد لويس الرابع عشر أدخل نظاما عسكريا جديدا لمقابلة التطورات الحربية المعاصرة، جعل الجيش الفرنسي أقوى جيوش أوربا فصار أمدا طويلا نموذجا يحتذى إزداد نفوذه كثيرا إثر موت كولبير 1683م، وكان مسؤولا عن إلغاء مرسوم نانت 1685م تنفيذا لافادة فيه، تخربت من جرائه مقاطعات البلاتينات 1689.م ع ص 1578 ط.1965.

وهكذا فإن ما حققه مازاران، وكولبير، من الناحية السياسية، ولوقوا من الناحية العسكرية، دفع بغرور لويس إلى جانب زواجه بماريا تيريزا إلى البحث عن الحروب قصد التوسع، وإلى العمل على انتزاع جزء من الفلاندر من إسبانيا، والسعي لسحق هولاندا التي عقدت حلفا مع انجلترا والسويد، فشن عليها الحرب الثالثة(162) عام 1083-1089هـ/1672-1678م التي أدت إلى انتزاعه "فرانش كمتيه" من هولاندا، كما عمل في العشر سنوات التالية للإستيلاء على بعض المدن الواقعة على حدود فرنسا، وأهمها ستراسبورج 1092هـ/1681م، ولم يقف عند حد الحروب بل إضطهاد الهجنوت، ونصب نفسه حربا على روح الإستقلال والانفصال الممثلة في الأمراء لبروتستانت، وأشعل نار الحرب على البروتستانية في فرنسا، ففرت إلى خارج البلد فرارا من إضطهاداته الدينية جماعات وفيرة العدد، من خيرة الفرنسيين اعتدالا، وأعظمهم قيمة حاملين معهم فنونا وصناعات، فإن صناعة الحرير الانجليزية مثلا قام بها البروتستانت الفرنسيون، ونفذت إبان حكم "لويس" "الدراجوناد" وهي طريقة للاضطهاد شريرة فعاله بوجه خاص، فكان بعض الجنود الأجلاف ينزلون في منازل البروتستانت ويباح لهم أن يفسدوا نظام حياة مضيفيهم وأن يهينوا نساءهم على الشاكلة التي ترضيهم وخضع لهذا النوع من الضغط كثير من الرجال ممن لم يكونوا ليخضعوا للنار(163).

وهكذا بعد موت كولبير وزيادة نفوذ لوقوا انطلق لويس بطريقة جنونية في طريق الحروب المشار إليها، والتي لم تعرف فرنسا من جرائها غير الخراب، حيث إستنفدت خزينتها وبددت مواردها وتدهور إقتصادها في الوقت الذي أصبح لويس تحت رحمة بعض محظياته مثل "مدموازيل دلافاليير" "ومدام مونتبان" كما تزوج سرا من "مدام دمانتنون" مربية أطفاله.

ورغم ذلك ففي وسط هذا الخضم المضطرب بالأهوال شق الشعب الفرنسي طريقه

---

(162) في هذه المرحلة أعلن حروبا متعددة منها: 1-حرب الأراضي المنخفضة (1671-78)2-حرب لبروتستان كذلك في الأرض المنخفضة(1672-78) 3-حرب معاهدة أوغبرغ (1688-97) 4- حرب الوراثة الإسبانية (1701-1714م) وكانت كل هذه الحروب هو الذي أعلنها قصد التوسع، وكان ألد أعدائه في هذه المرحلة رجال الجمهورية الهولاندية رائدة الحرية الشعبية وقتها، راجع م.ع وتاريخ الدهور المذكور قبل، وموسوعة وجدى.

(163) ولز المصدر السابق 4/1098.

بإمكاناته الفائقة ومقوماته التي نتجت عن الكبت والظلم والحرمان، فظهرت الآداب والعلوم بدافع التنافس مع الأنجليز إذ كان شارل الثاني قد أنشأ أكاديمية هي الجمعية الملكية الأنجليزية، وعلى نهجه سار لويس الرابع عشر الذي أنشأ هو أيضا أكاديمية كذلك "جمعية فلورنسا" إلا أن ما أنتجه الكتاب الفرنسيون في هذه الفترة، كان يعتمد في ظهوره على رضى الملكية في فرنسا بخلاف الأنجليز الذين كانوا يتوفرون على تقاليد عظيمة وحرية أعظم أمثال وليم شكسبير 972–1025هـ/1564–1616م وغيره من الذين يرجعون في أصولهم إلى عامة الشعب، أمثال "بونيان" بخلاف فرنسا التي لم يزد فيها مجال الآداب إلا تعقيدا بسبب القيود المفرطة التي فرضتها الأكاديمية، والتي ستنفجر بعد، وتكون للآداب والعلوم والفنون مجال أوسع وأعلى عندما تزول قيود الملكية وما فرضته على مجتمع فرنسا الذي كان رد الفعل منه جد خطير.

كانت النهاية بالنسبة للحروب التي كان لويس دوما هو البادئ بها، أن دفعت إلى تحالف الهولانديين مع الأنجليز، وأسوج، فأرغم لويس على إرجاع الأراضي التي إغتصبها من الاسبان، والتي سطى عليها باسم زوجته، ولم تنته الحروب التي شاركت فيها ضده نصف أوربا إلا بمعاهدة 1079هـ/1668م وتنازله عما فتحه، بل إن لويس انتهى أخيرا إلى إشباع رغبات نفسه في الشهوات وضخامة البناء "قصر ڤارساي؟ إلى غير ذلك "وعلى مثل هذه الأوضاع الآثمة أقامت ما عسانا أن نسميها "الملكية العظمى" الفرنسية أسسها، فحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم زمانا لا نظير له في الطول، هو إثنان وسبعون سنة 1053–1127هـ/1643–1715م(164) وأقام من نفسه نموذجا يحتذيه كل ملوك أوربا، وكان كما رأينا كل الفضل في تدريبه والتمكين لشراسته، وزيره الميكيافلي مازاران الذي أصبح لويس بعده لا يختلف عنه في سلوك القهر والاستبداد، بعيدا عن الدهاء الذي كان يتصف به الوزير الإيطالي الأصل، فأصبح لويس طموحا بلا حدود مثل ما كان مغاليا في شهواته الدنيا، فجر على بلاده الإفلاس بما أنتج من معتقدات سياسية خارجية شديدة النشاط أظهر فيها وقارا محكما ما يزال يستدعى إعجابنا يقول ولز– وكان أول ما يخالجه من رغبة أن يربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض،

(164) نفس المصدر السابق 1095.

وأن يمد حدودها إلى نهر الراين وجبال البرانس وأن يتملك الأراضي المنخفضة الإسبانية، وكانت أحلامه البعيدة ترى ملوك فرنسا خلفاء ممثلين لشرلمان في دولة رومانية مقدسة يعاد سبكها لا بواسطة الحروب التي كانت نهايتها الفشل الذي طبع حياته في هذا المجال، بل وبالرشوة التي إتخذ منها وسيلة أكثر من الحرب لتحقيق أهدافه في التوسع، فقد رأينا كيف كان يمد شارل الثاني مقابل ذلك ومثله كان يفعل مع غيرهم مثل نبلاء هولندة، لكنه لم يحقق شيئا مما كان يقصد، لأن المرتشي عادة أصعب وأبعد أن يحقق لصاحبه ما يقصد تحقيقه بالإرتشاء، هذا في الوقت الذي كان يبني لنفسه قصر ڤرساي الخاص، متجاوزا موارده المالية بالقدر الذي يسمح به رعاياه ودائنوه، وتبعا لذلك تطورت صناعة الأقمشة والأثاث الجميلة المحكمة الصنع وعظم شأنها، وازدهرت فنون الترف في كل مكان، فثمة تماثيل من الرخام المجزع والقاشاني، وأشغال الخشب المذهب، وأشغال المعادن، والجلد المضغوط بالنقوش البارزة، وموسيقى كثيرة وتصوير فاخر، وطباعة جميلة، وتجليد مؤنق، وطباخة ممتازة، وخمور بديعة، وكان يسير بين المرايا والأثاث البديع جيش عجيب من السادة في شعور مستعارة ضخمة مذرورة بالمساحيق وحرائر ومحرمات وهم يتمايلون على أعقاب عالية حمراء، ويتوكأون على عصي باهرة؟ هذا إلى سيدات أكثر إدهاشا وإعجابا تحت أبراج من الشعور المغطاة بالمساحيق وفي ثياب لها متسعات عظيمة من الحرير، والساتان تحملها الأسلاك، وكان يتجلى وسط ذلك كله لويس "العظيم" شمس عالمه"؟ غير شاعر بالوجوه الهزيلة المتهجمة المريرة التي كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التي لم تخترق حجبها شمس ضيائه(165)، بل كانت كل أعماله لا يقصد منها غير التظاهر وجلب الأنظار، فكان يتبختر دائما في أرجاء قصره، وكأنه أحد الأبطال في رواية تمثيلية، ورغم ذلك فقد جعل من فرنسا أول قوة وقتها في أوربا.

---

(165) نفس المصدر 1097 وتاريخ العالم لهلير 398 ط 1956م، وحتى يشع لويس الرابع عشر أكثر سلك أسوأ السبل، لإفقار الشعب الفرنسي الذي كان عليه أن يدفع له الأموال الطائلة التي كان ينفقها على حفلاته التي لا تتوقف، وعلى حاشيته، بالإضافة الى فرض السخرة، والخدمات، على الفرنسيين مجانا، ومن تذمر يساق الى الباستيل الذي مات فيه الكثير من أبناء فرنسا الأحرار. دفع الشعب ثمنها من عرقه ودمائه بما أثقل كاهله من ضرائب تحولت إلى نعيم لويس وحاشيته التي كانت تستمتع بكل شيء، في الوقت الذي حرم الشعب من كل شيء، لكن ثمن

ذلكم هو لويس الرابع عشر الذي اتصل به السلطان إسماعيل أو إن شيئت قل امتد غروره التوسعي إلى شمال إفريقية، فكانت النتيجة تلك الحروب التي أجابه عنها قراصنة" المغرب، والتي خلقت أسارى بلغ عددهم أربعمائة من الفرنسيين كانوا السبب إلى جانب التجارة في العلاقة بين العاهلين، بل إن تلك العلاقة في أولها نتجت عن القرصنة التي إنطلقت نحوها أوربا، والتي ورثتها من عهود الإغريق والفنيقيين والرومان، حيث وجدت فيها أوربا زمن تفتحها على الاستعمار، موردا تجاريا رابحا، فتحول ما كان أسلفهم وقت الهمجية في البر إلى عمل في البحر، ولئن اختفت في شواطئ إفريقية زمن سلطان ال عثمان شرقا، والموحدين غربا، فإنها كانت قد ظهرت بالنسبة للمغرب في عهد الوطاسيين والسعديين الذين دعروها موقتا، ثم عادت في عهد الإنحلال والضعف بعد موت أحمد المنصور السعدي، حيث تعرضت شواطئ المغرب للغزو الإسباني، كما إنطلقت قرصنة الأنجليز والهولانديين ثم الفرنسيين، حتى إن الاسبان عادوا بطرق ملتوية الى إحتلال بعض الموانئ التي صارع السعديون ورجال الجمهوريات المغاربة من أجل تحريرها، ولم يتم ذلك إلا بعد ظهور الدولة العلوية وتركيز سلطانها زمن السلطان إسماعيل الذي حرر كلا من المعمورة، والعرائش، وأصيلا، وطنجة ثم أطلق يد "القراصنة" المغاربة لرد فعل الأوربيين، خصوصا أهل الأندلس الذين سكنوا بين قبائل الشمال، وفي المدن الموالية للبحرين الأبيض والأطلسي، فعرفت قبائل الريف والحفص، وأهل تطوان، وطنجة، والرباط، وسلا، رجالا كان لهم الفضل الكبير في قهر القراصنة الأوربيين، حتى إن سفن المغاربة وصلت الى شواطئ انجلترا كما سبق بالإضافة إلى فرنسا، وجينوه، وإيطاليا، وأحيانا الى شواطئ أمريكا، فكانت غنائمهم من الأوربيين تقدر بالآلاف الذين أصبحوا في عداد الرقيق بالنسبة الى أسرى الحرب، وكان هذا مجال التفاوض بين السلطان إسماعيل وبعض ملوك أوربا إلى جانب المعاملات التجارية التي انطلقت بين

= تلك المخازي التي ضاق بها الشعب، دفعه لويس السادس عشر وزوجته ماري انطوانيت بعد، كما أصبحت الثورة الفرنسية ضد القهر، والظلم، والاستبداد، مثالا يحتذى من كثير من الشعوب في أوربا، وماري انطوانت هي التي قالت لما سمعت مظاهرة شعبية بسبب انعدام وجود الخبز الأسود "لماذا لم يأكلوا الكعك" فأصبحت العبارة مألوفة تقال في حق كل حاكم مستهتر، وقد استعملها المصريون أيام ثورة عرابي وما قيل في حق الخديوي الذي قيل أنه ردد نفس العبارة من غير أن يكون له علم بها مسبقا.

المغرب وأوربا، منذ أخذت الأندلس تتدحرج نحو السقوط النهائي، وخصوصا بعد سقوطها وطرد ستمائة ألف مسلم من أبنائها انطلقوا في مدن شمال إفريقية، بل من الأسكندرية إلى الرباط وسلا ومراكش(166)، ولقد نشط الجزائريون في هذا المجال أكثر من غيرهم بالنسبة لفرنسا فقط، خصوصا في القرن السابع عشر، فكانت الحرب سجالا بين الطرفين، عرف الجزائريون أثناءها بإستماتتهم في الدفاع بشكل رد الفرنسيين على أعقابهم، كما فعلوا بعد مع الاسبان وغيرهم.

ومهما يكن فهذه المرحلة مرحلة آنهيار دولة السعديين وظهور دولة العلويين لم تكن أساطيل المغرب فيها كما كانت في عهود المرابطين والموحدين، ولا حتى بني مرين، فقد إعتراها الفتور، لكنها على أيدي الأندلسيين الذين أخرجوا من ديارهم كرها عادت ولو بواسطة أفراد إلى قوة فرضت وجودها -وستتبناها الدولة في عهد السلطان محمد بن عبد الله بعد- حيث آستطاعت ولو بالمغامرة أن تدخل الرعب في قلوب الأوربيين الذين آضطروا إلى أداء الاتاوة حتى لا تتعرض سفنهم ويتعرضون هم كذلك للسبي وقد نشط المغاربة في عهد السلطان إسماعيل وما بعده بشكل سنستعرض نتائجه بعد.

وفي عهد لويس الرابع عشر مس المغرب نصيب من جنونه حين تعرضت شواطئ المغرب الكبير إلى الغزو الذي آندفع نحوه أمثال الأميرال دوكين(167) الذي عرف بجولاته في البحر الأبيض المتوسط وهجومه على الجزائر1058هـ/1648م التي ركز عليها ولم يغادرها إلا بعد ما دفع له أهلها مليونين ومائتي ألف قرش غرامة حربية، ثم أطلقوا سراح من عندهم من الأسرى الفرنسيين، وفي السنة التي بعدها توجه لنفس العمل في

---

(166) نزلوا في كل من درنة، وطرابلس بليبيا، وفي تونس أسسوا لهم مدنا هي: سليمان، وقرنبالية، والجديدة، وزغوان، وطبرية، ومجاز الباب وتستور، وقلعة الأندلس، بالإضافة الى الذين استوطنوا تونس العاصمة كما نزلوا في بجاية، وقسطنطينة، وبونة، والجزائر، وتلمسان، راجع خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب ص135 ط 1372/3هـ.

(167) ولد هذا الأميرال بمدينة "دييب" بفرنسا 1610م من عائلة عريقة واتخذ الملاحة مهنة نبغ فيها بسرعة حتى أنه صار ربانا لسفينة وسنه 17سنة، ولما حصلت الاضطرابات في عهد لويس14 هاجر دوكين إلى بلاد السويد، وعين بها فيس أميرال، وانتصر على بحرية الدانمارك وفي سنة 1647م رجع إلى فرنسا واشتهر في عدة وقائع شهيرة وبسبب إتباعه لمذهب لبروتستانت لم يعين أميرا، ولم يمنح ما كان يستحقه من ألقاب الشرف، وتوفي 1688م راجع تاريخ الدولة العلية 137. مصدر سابق.

طرابس، لأن دولة آل عثمان كانت وقتها في حرب مع الدول التي تحالفت ضدها، وهي النمسا وبولونيا والبندقية، ورهبنة مالطة، والبابا، وروسيا، ولم تكن تلك هي علاقة الفرنسيين مع المغرب الكبير، فقد رأينا قبل في السنة التي سيتوفى فيها السلطان الرشيد كيف ظهرت شركة الإخوة فريجوس، وممثلها رولان، الذي تعرفنا عليه مع الرشيد في تازة، ولما أفلست قدم ثانية عليه بمدينة فاس، وإذا هو شك في تصرفاته لأنه تقدم له باسم حكومته وملكه أولا، وباسم الشركة ثانية، فكان نصيبه السجن لمدة سنة، خرج بعدها 1084هـ/1673م وكانت تلك بداية علاقة الفرنسيين بالمغرب في عهد الملوك العلويين.

وعندما أقدمت إسبانيا على احتلال جزيرة خليج الحسيمة، ثم تركزت فيه بقواتها، كان السلطان إسماعيل في طريق تمهيده لما تبقى من فتوحاته في المغرب، مما دفع به الى توسيع التعامل مع الفرنسيين والأنجليز ضد العدو التقليدي الذين هم الاسبان، وذلك في عهد لويس الذي تعرفنا عليه، وعلى مختلف أمراضه النفسية بما يفكي، والذي عندما أراد معالجة مشكل الأسرى الفرنسيين بالمغرب مع السلطان إسماعيل ترفع أن يرسل له ولو موظفا صغيرا في بلاطه، بل كلف بذلك تاجرا اسمه "كاستيلا" ولو كان مع غير إسماعيل لما كان جوابه ما يستحق، فقد رأينا مثلا زيدان السعدي في معاملاته مع الهولانديين بواسطة تجار اليهود، مما أفقده المكانة بين المواطنين، أما السلطان إسماعيل الذي لم يتعرف عليه بعد لويس الرابع عشر "المتعاظم" فقد عرفه إسماعيل بنفسه أخيرا وبعدما كل من عدم تفهمه لمقاصده، وذلك بواسطة الرسالة التي بين له فيها وبأسلوب لا شك شرح معناه للويس، وأنه مغرور وغير مؤدب ولا يقدر العلاقة بين الملوك، وكل ذلك دون أن يجرح السلطان الرسول الذي قال عنه إنه مؤدب ومحنك، ولا يشك في مصدر الرسالة التي يحملها، وأنها من لويس 14، لكن رغم ذلك فهو تاجر ليست مهنته الدبلوماسية، بل شأنه التجارة كما يعترف، وأن الذي دفعه لذلك هو تعلق أسر الأساري المحتجزين في المغرب يقول كاستيلا(168) بل إن فكرة السلطان إسماعيل وعدم قبوله مباشرة الموضوع مع تاجر هو رأي أكده قائد تطوان علي بن عبد الله في الرسالة التي

(168) راجع الاتحاف 67/66/2. مصدر سابق.

بعث بها هو الآخر إلى لويس14(169) ولما لم تجد المجاملة كتب إليه السلطان إسماعيل رسالة نعتبرها مما يستدل به على أن سياسة الدولتين في عهد العاهلين لم تكن قارة ولا مركزة بقدر ما كانت تسير حسب الهوى والاتصالات التي كانت تلعب دورها في توجيه العاهلين لويس وإسماعيل كما نرى ذلك في أحط سفارة وهي تلك التي قام بها الجاهل المسمى محمد تميم والتي تمت في شهر ذي الحجة 1092هـ يناير 1682م والتي عاد السفير منها محملا بأتفه الهدايا لنفسه والمتمثلة في ساعات وأثواب وغيرها، كما حمل للمغرب الذل والهوان بتلك المعاهدة التي أبرمت يوم 29 ـ1ـ 1682م 20 ـ1ـ1093هـ وكان المفاوض فيها من الجانب الفرنسي ثلاثة من رجالات الدولة الفرنسية، يتقدمهم الوزير البارع كولبير الذي وضع برنامج تسلية للسفير المغربي قبل أن يقدمه للملك ومعه الإمتيازات التي حققتها فرنسا في علاقتها مع المغرب الذي قيد منذ ذلك الوقت بقيد طمأن الفرنسيين عليه كغنيمة لا مفر منها.

بل تلك المعاهدة المكونة من عشرين بندا ضمنت لفرنسا خداما ينجدون سفنها كلما تعرضت للخطر، وكانت سفن المغرب بالقرب منها، ثم أعطتها حرية التجارة في ظل السلاح المتفق عليه من أجل سلامة سفن فرنسا التي أصبحت حرة العمل في ساحل المغرب وموانئه، بل كونت من المغرب عدوا لأشقائه ولحسابها حين اشترطت في المعاهدة إن هي هوجمت من طرف الجزائريين أو التونسيين تهب مدافع المغرب لحمايتها والذود عنها، بل حتى التي تتعرض للغرق بسبب العواصف أو هجوم العدو قرب سواحل المغرب، على المغاربة أن ينجدوها ويساعدوها بانتشال الغرقى واسترجاع البضائع التي تتعرض للضياع بدون أي مقابل، بل ولا حتى تأدية الرسوم المستحقة في الميناء الذي يحصل فيه ما ذكر، بل ولا مكوس على السلع والمواد التي تدخل موانئ المغرب ويراد إعادتها إلى المراكب.

وتنص المعاهدة علي حق فرنسا في إقامة القناصل في مختلف المدن المغربية بل

(169) راجع تاريخ تطوان للأستاذ محمد داود م2/جـ1/26 ودوكاستر 1/685-686 بتاريخ 27 ربيع 1093/2 وقبله بتاريخ 20 محرم وقع المغرب إتفاق صلح وتبادل تجاري مع فرنسا وقعه ج محمد تميم. دوكاستر 1/608-617 وهي مكونة من 20 بندا.

وفي أي مكان من المغرب، وللقنصل الفرنسي كامل الحرية المطلقة في كل ما يتعلق بالفرنسيين ومنازعاتهم التي لا حق للسلطة المغربية في التدخل في شؤونهم، بل أنزلت سلطان المغرب إلى درجة أن مجلسه هو الذي له حق الفصل في كل ما يحدث بين الفرنسيين والمغاربة وان الحكام المغاربة العاديين لا حق لهم في ذلك، واستثنت الباشا، وكان وقتها لا يوجد في كل كامل المغرب أكثر من ثلاثة.

وإمعانا في إهانة المغرب والمغاربة، أعطت كل الصلاحية للمسؤول الحربي الفرنسي وحده في التصريح للسفن الفرنسية دخول المياه والموانئ المغربية، وأما السفن المغربية فلا تدخل المياه الفرنسية إلا بتصريح من قنصل فرنسا الخ.

هذه المعاهدة التي عدت في التاريخ السياسي للمغرب الأقصى، بل وغيره أول معاهدة أقرت الامتيازات التي ستتزاحم دول أوربا للحصول عليها كلما سنحت الفرصة وتقدمت في طريق الغزو إلى الأمام، ثم تأخرت الدولة المقصودة بالغزو إلى الوراء.

بهذه المعاهدة رجع الحاج محمد تميم فرحا مسرورا بها، حتى انتقل فرحه وسروره إلى السلطان إسماعيل الذي لم يبخل بالشكر الكبير جدا على لويس الرابع عشر في رسالته المؤرخة في 15 ربيع 2 عام 1093هـ/1682م، فما كان من المشكور الذي اكتشف بواسطة الرسالة ما سبق أن اكتشفه وزيره كولبير في السفير الحاج محمد تميم الذي روض في الفترة التي قضاها بفرنسا من أكتوبر 1092هـ/1681م إلى أوائل ماي 1682م، ولذلك وبما عرف به لويس الرابع عشر بعد نهاية كلوبير وتسلط لوقوا، عاد إلى معاملة أنصاف المتوحشين فقط، بواسطة أمثال كاستيلا، فيما يتعلق بالأسرى والتفاوض في شأنهم، وكثير على بلد ذلك مستوى سفارته حتى أمثال كاستيلا في نظر لويس، الأمر الذي دفع بالسلطان إسماعيل إلى أن "يغضب" لكرامته، لأنه لم يبعث إليه برجل من رجال بلاطه، وتلك هي صفات رجل الحرب والغزو الذي لم يكن في مستواه لويس الذي عرف أمثال كولبير فتفرغ بما سبق أن وصفناه من حياته المخنثة في قصر فرساي.

وإذا ما ارتفعت حرارة غضب السلطان إسماعيل الذي لو وجد وقتها من يشير عليه بمساوئ المعاهدة المذكورة لغضب أكثر من الغضب الذي عبر عنه في كتابه الذي أرسله إلى لويس الذي يقول فيه وقد أخل لويس بما جاء حتى في تلك المعاهدة وما أبرمه

حول الأسرى مع الحاج محمد تميم، والرسالة واضحة العبارة أنها من إملاء السلطان إسماعيل حسب المقارنة مع غيرها كالرسائل الخمس إلى ولده المامون يقول السلطان إسماعيل في رسالته:

إلى عظيم الروم بفرانصيص لويس الرابع عشر من هذا الاسم.

السلام على من اتبع الهدى. وباعد عن طريق الغي والردى. أما بعد:

فاعلم أن الذي ظهر لنا أنك ليس عندك قول صحيح، ولا كلام رجيح، ولا أظنك إلا غلب عليك أهل ديوانك، وصاروا يلعبون بك كيف شاؤا، ولا بقى لك معهم ضرب ولا لقب ودليل ذلك أننا ما زلنا ما قبضنا معك صحة قول. ولا أبرمت معنا شيئا(170) ففضلا منك "هؤلاء الذين ليس لهم رئيس، وما عندهم الا الديوان. تكلموا معنا كلمة وقبضناها(171) عليهم، فحين ذهب خديمنا لبلادهم لما أن طلبوا منا ذلك. فرحوا به وأكرموه وبروا به، وأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة "بندقية" وست عشرة مائة قنطار من البارود، ومائة وسبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسر لوجوهنا؟ وأنت لا زال لم يصح منك قول ولا وفاء، ولا صدر منكم ما تراعون لأجله، ثم بعد ذلك قدم لعلي مقامنا انبشدور، وأتانا بشئ من الخرق(172) مع فالصو الحرير؟ وهل نحن ممن يعجبه ذلك ويسره، فنحن معشر العرب لا نعرف إلا الصحيح، ولا يسرنا إلا ما فيه مصلحة المسلمين كلهم. ومع ذلك أعطينا لصاحبك عشرين نصرانيا صيفطناه بها(173)؟ وظننا أنك ولابد تراعي الخير. وتبعث لنا ولو بعشرين مسلما تجبر بها خاطرنا. وتكون هي الطريق للكلام الذي تريد منا.

فهذا ما يدل على عدم صحة كلامك، ومما يثبت الإخلال بقولك وقلة وفائك، فحتى الآن فالذي ظهر لنا ما يليق بنا معك إلا الشر! وإذا أردت تثبيت المهادنة وإبرام الكلام فيها وإمضاء حجتها فابعث لنا من عندك قونصو بالتفويض على الأمر ويجلس هنا في

(170) يظهر من السياق أنه سبق الاتصال ولم يحصل معه شيء من التفاهم في شأن الاسرى راجع الاتفاق المشار إليه أعلاه والفلاينك يقصد بهم هولاندا التي كانت وقتها ترجع سلطاتها إلى مجلس الأعيان، وقد عرفت في هذه المرحلة وبعدصراع مع فرنسا ازدهارا تجاريا بفضل نظام الملاحة التي عرفتها كل من موانئ امستردام. وروتردام ولاهاي، وليدن، ودلفت، وقد كانت مبادلاتها أكثر في مجال الأسلحة مع المغرب.

(171) أي أنهم وفوا بما تعهدوا به.

(172) الخرقة بكسر الخاء القطعة من الثوب المخرق ج خرق.

(173) ودعناه وأجبرنا خاطره.

إحدى مراسينا ويكون الأمناء معه في هذا كله، ونبرم معه هذا الأمر، ويكون من أهل الحل والربط عندكم، وإلا بأن ظهر لكم خلاف ذلك فاعلمنا وعرفنا بما على علمك وما ضمرته طويتك والسلام على من اتبع الهدى وفي التاسع من شعبان المبارك سنة1095هـ/1683م(174).

كان الخلاف بين السلطان إسماعيل ولويس الرابع عشر الذي لم يكن يهتم بشعبه اهتمام العاهل المغربي بكل أسرى المسلمين ومن أي البلاد كانوا، وليس من المغرب فقط، وذلك بسبب الأربعمائة من الفرنسيين الذين كان لويس يحسب أنه بمجرد أن يرسل إلى العاهل المغربي مجرد تاجر مع بعض الثياب التي لاترقى إلى ما كان يعرف من خالص الحرير من بلاد الانجليز، ظن أنه سيبهر بها ويستجيب لرغبة لويس الذي ما تعود أن ترد رغباته وبمثل الاسلوب الذي رد به السلطان إسماعيل الأمر الذي انتهى بلويس إلى الغضب حتى أنه ألغى الاتفاق التجاري الذي كان مبرما مع المغرب، وبالأخص بعد فشل القناصل في التفاوض مع قائد تطوان علي بن عبد الله الذي كلفه السلطان بذلك، ولم يستطع البت فيما يتعلق بالأسرى الفرنسيين بسبب غياب السلطان في حملة سوس، فأدى الغضب بلويس إلى إرسال أسطول فرنسي مكون من سبع قطع بحرية لشواطئ المغرب، برئاسة "مونت مار" وللمرة الأولى والثانية تعرض الأسطول إلى عاصفة حطمته، ولم ينجح في الوقت الذي كان فيه لويس في حرب داخلية مع جماعة "أوكسبور" وكذا الحرب التي أشرنا إليها قبل والتي تحالفت فيها ضده جل دول أوربا(175) والذي عرف بالتحالف العظيم، 1101هـ/1689م، وهو الذي ظلت أوربا بسببه ميدان حروب طاحنة لمدة عشر سنوات(176) انتهت بصلح روزويك 1109هـ/1697م اتفق فيه على أن يرد لويس كل ما اغتصب من البلاد، الأمر الذي دفعه كما أشرنا إلى توقيف العلاقة التجارية مع

(174) الاتحاف 56/2 وعند دوكاستر نص رسالة في نفس الموضوع ج3/414-415. وهي بتاريخ ربيع النبوي 1103هـ/1695م وقد أوردها صاحب تاريخ تطوان ف ا جـ2/26-27-28. وهل مثل صاحب هذا النفس يكون لاسفير مثل ذاك الذي تلاعب به كولبير بتلك الطريقة المزرية رغم أن الذين كانوا معه وهم الحاج على معنينو السلاوي... لم يكونوا دون المستوى.

(175) راجع ما بعد تعليق 162-163 أعلى.

(176) التاريخ العام لفيليب فانس مير الأمريكي 348-353 ط 1912 بيروت.

المغرب 1099هـ/1687م، وفي سنة 1100هـ/1688م ألزم السلطان إسماعيل التجار الفرنسيين بأداء غرامات باهضة دفعت لويس إلى التراجع في منع التجارة التي أوقفها، ولما عاد السلطان من حملة سوس وأبلغه القائد علي بن عبد الله توسل قناصل الدول في شأن الأربعمائة من الأسارى الفرنسيين، استجاب لطلبهم وجمعهم حيثما كانوا في مدينة مكناس العاصمة ثم أمر بمعاملتهم بالحسنى، وبذلك عادت العلاقة أحسن بين الدولتين يقول دوكاستر(177) فكانت المعاهدة الجديدة بين الدولتين معاهدة صداقة بتاريخ 12-4-1693م/ 1106هـ وكان سبب تأخيرها فتح العرائش وحرب السلطان لباي الجزائر، ولعها كانت الدافع لهجوم الفرنسيين الفاشل بالقنابل على مدينة طنجة 1699م/1111هـ/ وتعتبر هذه المعاهدة أول معاهدة بين المغرب والدول الأوربية إشتمل بعض نصوصها على تنظيم الأجانب(178) ومع ذلك فقد عرفت العلاقة بين السلطان إسماعيل ولويس الرابع عشر بعد ذلك أزمات لم تفد في الحد منها سفارة الحاج محمد تميم ولا سفارة عبد الله ابن عائشة الذي قيل إنه تطوع بخطبة أميرة كونتي(179) إبنة لويس 14 الأرملة والتي تقدم بواسطة يطلب منها الزواج لمرسله(180) فكان ما قيل حول الموضوع من شعر وقصص

---

(177) الاتحاف 2/66-68 وكان سفير لويس الى المغرب وقتها هو "سان ألون" راجع مجلة الاتحاد التطوانية السنة 6 عدد 64 شهر 1932/9.

(178) راجع مركز الاجانب في مراكش للمرحوم محمد ابن عبود ص21 ط1950/1.

(179) نسبة إلى أسرة من الامراء الفرنسيين وفرع أصغر من أسرة بوربون أسسها ارمان دريوربون أميرة كونتي 1629-1666.

(180) كذب ابن زيدان هذه القصة التي تندر بها حتى الشعراء الفرنسيون، وذلك فيما كتبه حولها قبل في جريدة السعادة، وتقول رواية بعض الباحثين إن رسالة ابن عائشة توجد ضمن سجلات وزارة الخارجية الفرنسية، والمخبر يقول بعد التأكيد إنها غير الرسالة الموجهة من السلطان إسماعيل إلى لويس الرابع عشر، في شأن إعتماد ابن عائشة كسفير والمؤرخة في ربيع الأول 1103هـ/21-12-1691. ومهما يكن فان في مصادر الفرنسيين أثر لهذه القضية التي قيل إن لويس اشترط على السلطان إسماعيل أن يتنصر؟؟!

ولقد كتب كثير من الفرنسيين حول المغرب وتعرضوا لهذه العلاقة حسب وجهة نظرهم، وكما أرادوا. راجع كتاب كايي "السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا ط الرباط 1955. والمغرب العربي بين التضامن الاسلامي والاستعمار الفرنسي للدكتورصلاح العقاد ص 51-52-53 ط مصر 1957 م وذهب المصدر الأخير نقلا عن الفرنسيين طبعا إلى أن "المولى إسماعيل تعهد أن لا يجبر الأميرة على تغيير دينها. فكان هذا العرض موضع سخرية في البلاط الفرنسي؟؟؟" بل إن لويس أجاب علي خطاب السلطان القديم داعيا إياه إلى اعتناق المسيحية سنة 1110هـ/1698م؟ على أن قصة أميرة كونتي كذبها الكثير ممن كتبوا حول الموضوع ومنهم ليفي بروفنصال راجع دائرة=

فرنسي من أسباب تأزم لويس إلى درجة أنه لم يستجب للسلطان في موضوع تبادل الأسرى، بغير الطريقة التي فرضها السلطان إسماعيل على الاسبان، واحد بعشرة تساهل مع لويس واحد بواحد وإذا لم يستجب فإن المغرب تحول إلى علاقة أمتن مع الانجليز الذين كان احتلالهم لجبل طارق المواجه للمغرب سنة 1116هـ/1704م بالإضافة إلى سيطرتهم على البحار وتوسيع تجارتهم وقتها، من عوامل تقربهم من المغرب الذي عقد معهم معاهدة تجارية سنة1129هـ/1726م أصبحت إنجلترا بواسطتها أول دولة في التبادل مع المغرب في تجارته الخارجية، التي استمرت بعدما عززت بمعاهدة 1856م أكثر من كل الدول إلى عهد الحماية الفرنسية التي فرضت على المغرب 1912م، ولعل السلطان إسماعيل في هذا الاختيار وكرد فعل رجع إلى السياسة التي كانت قبل بين الانجليز ودولة الوطاسيين والسعديين زمن أحمد المنصور السعدي، وذلك عندما بدأ السلطان إسماعيل علاقاته الخارجية مع دول أوربا، لم يكن بعد قد انتهى من فتوحاته في المغرب، وفي المرحلة التي باشر فيها الصراع مع الاسبان ثم مع الانجليز الذين لم يفعلوا في طنجة ما فعله الاسبان باستثناء هدم السور الذي ربما يكون السبب هو التعجيل بنقلهم ما كان بقلعتها من مدافع، الأمر الذي مكن للصداقة بين السلطان إسماعيل وشارل الثاني كما أقر السلطان نفسه بذلك في مراسلته لجاك الثاني، ثم إن إنجلترا كانت لها علاقة تجارية مهمة مع آل عثمان وقتها، وبالتالي فهي لم توقف معاملاتها مع المغرب حتى عندما تفرق الى دويلات إتخذت من تلك الدويلات وسيلة للتجارة في الأسلحة التي كانت تنتجها مقابل افتكاك الأسرى أحيانا والتبادل بموارد المغرب أحيانا أخرى، وحتى لا يترك لها السلطان إسماعيل مجالا لإثارة الفتنة اختار التعامل معها بدلا من الفرنسيين والاسبان الذين أصبحوا في أقل من الدرجة الثانية بالنسبة للأنجليز الذين تضافرت

= المعارف الإسلامية جـ2/184، كما نشر حولها ابن زيدان تكذيبا كتب في جريدة السعادة عدد 4381 بتاريخ السبت 1936/9/26م بل أذاع بحثه بواسطة الأثير، راجع كتابنا التاريخ المفترى عليه في المغرب ص7/ط1969 ونفسية السلطان إسماعيل من خلال تاريخ حياته ومعطيات عصره تحول دون هذه الكوميديا التي قيل عنها الكثير. وحتى إن كان ما قاله بعض الفرنسيين عن وجود وثائق بوزارة الخارجية الفرنسية فهي في نظرنا إن وجدت تكون مما يحسب على تملق أمثال ابن عائشة الذي يمكن أن يكون على غرار غيره من المتملقين لذى سلطان. ولا يمكن بحال أن تحسب على المولى إسماعيل. مثل هذه المواقف...

جهودهم مع الهولانديين لحماية البروتستانتيين "الهجنوت، المضطهدين من فرنسا، والذين وجدوا في التجارة مع المغرب موردا ركز حياتهم في الدولتين اللتين هاجروا إليهما، وليس ذلك فقط ما قلل من شأن الفرنسيين ومعاملاتهم مع المغرب، بل حرب الوراثة بينهم وبين الاسبان 1113-1125هـ/1701-1713م هي الأخرى كان لها الأثر في ذلك الإنقطاع الذي استمر حياة السلطان إسماعيل وخلفه الى عهد حفيده محمد بن عبد الله كما سنرى، أما الانجليز فقد عرفوا كيف يمكنون لصداقتهم مع السلطان إسماعيل، حيث كانت آخر سفارة هي تلك التي أرسلها جورج الأول(1714-1727م) سنة 1133هـ/1720م وكان على رأسها السفير شارل ستيوارت قصد التفاوض من أجل الثلاثمائة من الأسرى، وقد وقعت بين الدولتين معاهدة صلح مكونة من أربعة عشر مادة، أمضاها السلطان إسماعيل بنفسه زيادة على توقيع باشا تطوان أحمد بن علي بن عبد الله، وذلك يوم 18 ربيع الأول سنة 1133هـ/ 17-1-1721م، وهي المشار لمصدرها قبل، ولعل هذه المعاهدة تعتبر أهم معاهدة تفصيلية وضعت أسس المعاملة بين البلدين، كما تممت هذه المعاهدة بمواد ستة إضافية بعد موت السلطان إسماعيل، وذلك بتاريخ 1140هـ/1728م وقد ورد نصهما في المصدر المشار إليه قبل.

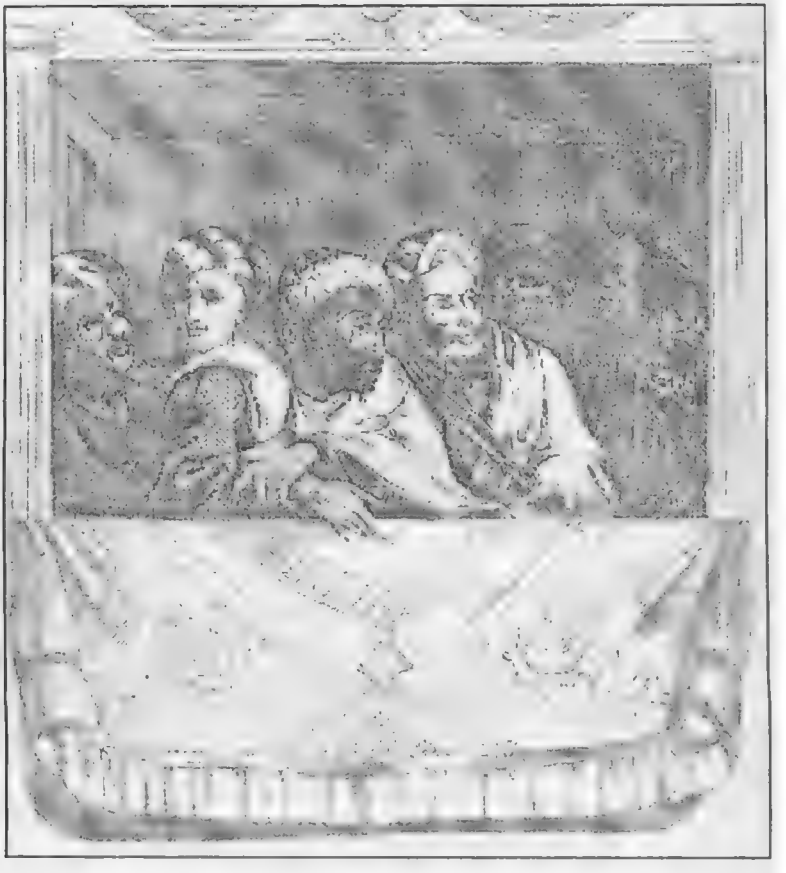

محمد تميم سفير السلطان اسماعيل الى لويس 14 سنة 1682 وقد رسم له هذه الصورة انطوان تروفان عضو أكاديمية الرسم لفرنسا وهو يشاهد تمثيلية وأمامه الترجمان الذي رافقه منذ وصوله الى ميناء بريست.

رسالة من السفير الحاج محمد تميم الى لويس 14 بتاريخ 1093هـ/1682م

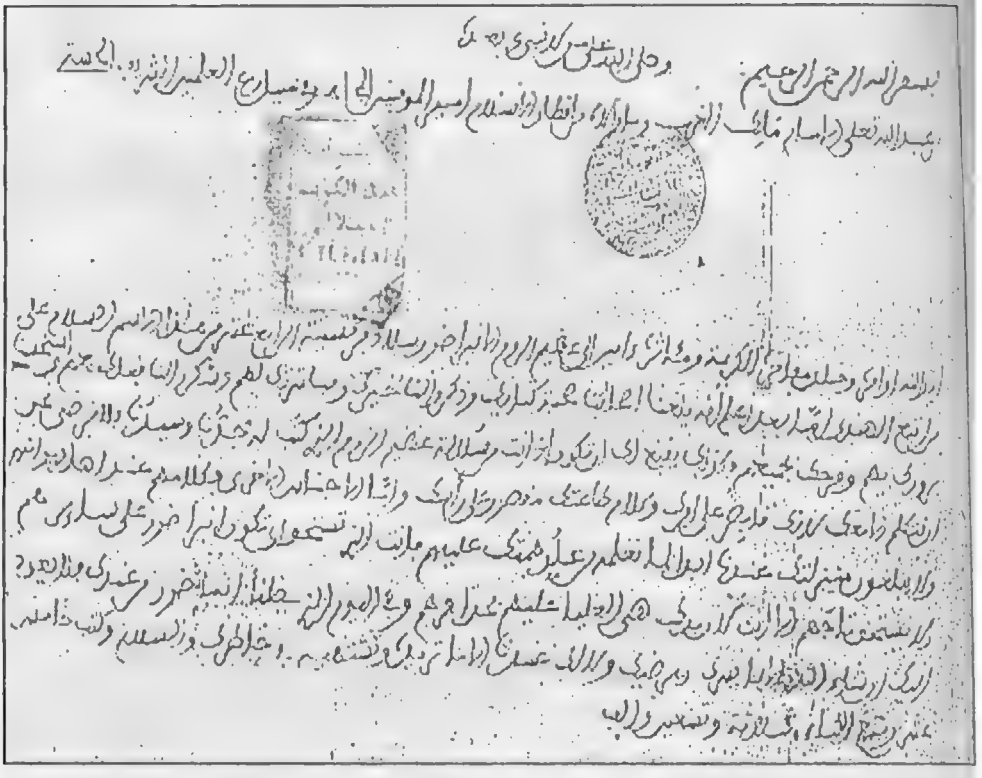

رسالة من المولى اسماعيل إلى لويس 14

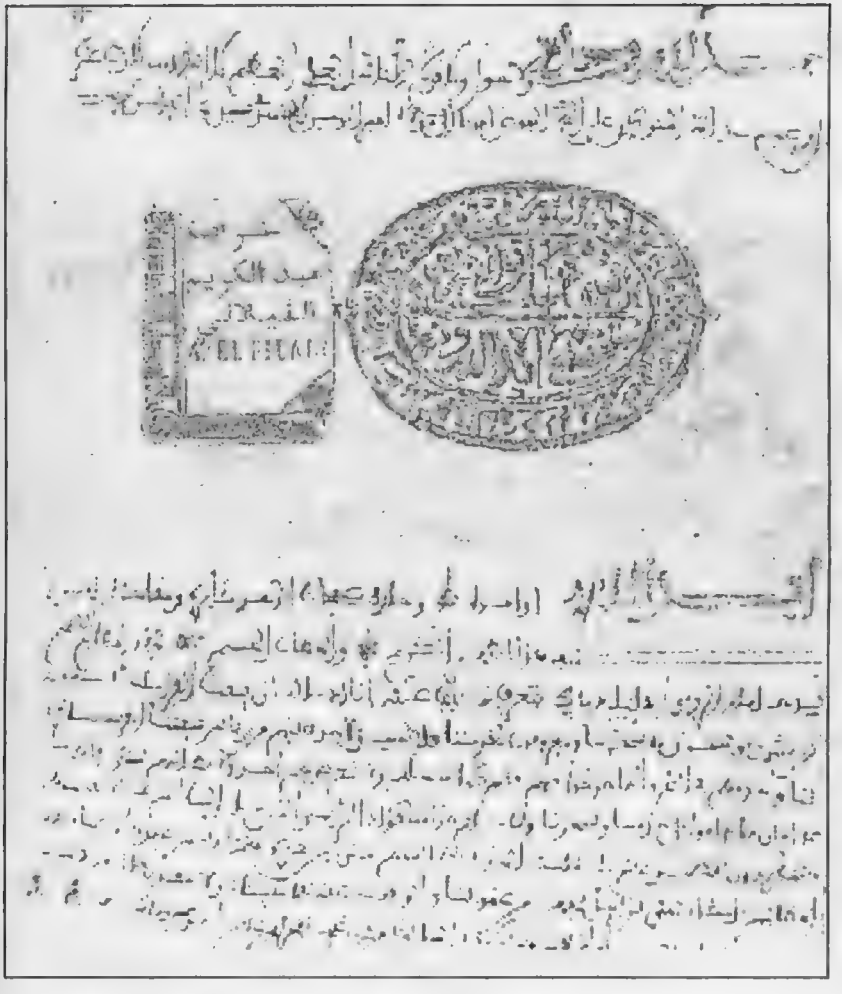

كتاب إسماعيلي يسمح للقرابلية بالدخول الى المغرب تاريخه 1101هـ1689/م

كتاب إسماعيلي للملك فيليب الخامس في موضوع فداء الأسير محمد بن صوفة بالأسير منويل أبانيس
بتاريخ 1128هـ/1715م

الفصل الواحد والثلاثون بعد المائة

المغرب وعلاقته بالاسبان

إسبانيا التي تتكون من شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي لأوربا ويفصلها عن المغرب بوغاز جبل طارق، وشعبهايتكون من خليط منهم السلتيو والتوتون والايبيريون، وفي جبال البرتات الباسك، وقد اختلطوا جميعا منذعهد بعيد كما أصبح الكثير من العرب الذين أجبروا على التنصر من جملة العناصر التي تتواجد في المجتمع الأسباني.

وإسبانيا عرفت احتلال اليونانيين، والفنيقيين، الذين امتلكوا بعض شواطئها أيام ازدهار دولتهم بقرطاجنة إلى أن أجلاهم عنها الرومان كما سبق سنة 133م، وقد أجلى الرومان متوحشو أوربا الشرقية من الألينيين والسويفيين الجرمان سنة 407م بعدهم أسس "الويز يغو" فيها مملكة غزاها العرب سنة 92 هـ 710م بعدما افتتحوا الأندلس الإقليم الجنوبي من إسبانيا، وهم الذين حضروها، وانتقلت حضارتهم الإسلامية إلى أوربا التي لم تكن قبل هذا العهد تعرف ما عرفت من حضارة ومدنية، وبعد ما تكونت ممالك شمال إسبانيا نازعت العرب الذين عرفوا حروبا طويلة مع كل من قسطيلة وأراغون، وناثار، ورغم حروب الإنقاذ التي تزعمها كل من يوسف بن تاشفين وعبد المومن بن علي، والتي زادت في حياة العرب بالأندس مدة أربعمائة سنة كما سبق، فإنهم انتهوا إلى ضعف مكن العدو منهم سنة 898 هـ/1492م مما أدى إلى توحيد المماليك المذكورة تحت حكم فرديناندو، ولما توفي سنة 922هـ/1516م حل مكانه ولده شارلكان الذي انتخبه النمساويون أيضا ليكون ملكا عليهم، ثم حل مكانه فيليب الثالث ثم فيليب الرابع الذي استقلت عنه البرتغال، ثم حكم بعده ابنه شارل الثاني الذي اتصل به السلطان إسماعيل والذي في عهده حرر المغرب شواطئه المحتلة كما سبق.

وحتى نعرف ظروف إسبانيا التي انهارت في هذه المرحلة، نرجع قليلا إلى الوراء

إلى عهد فيليب الثالث المشار إليه، والذي تولى بعده شارل، أوكارلوس كما ورد في المراسلة، فيليب هذا كان يعرف بالساذج وبالمعتصب، وهو الذي ملك من سنة 1007هـ/ 1598م إلى1031هـ/ 1621م ولسذاجته أطلق الأمر في يد صديق له هو الكونت «ليرما» الذي لم يقتصر على جر الخراب على البلاد بما قام به من طرد ستمائة ألف من المسلمين الذين عرفوا بالموريسكيين سنة 1019هـ/1610م، فحصل لأسبانيا مثل ما حصل لفرنسا التي خرج منها الهجنوت حيث انهارت اقتصاديا بل إن الكونت «ليرما» زاد على ذلك بتخريبه خزينة الدولة، فكانت النتيجة أن استقلت البرتقال بعد زمن فيليب الرابع وقامت الحروب الأهلية في كل من قطلونية استمرت عشر سنوات واستولى الهولانديون على ما كان لإسبانيا في أمريكا البيرو، وتحطم أسطول إسبانيا الذي كان سيد البحار، ثم قامت الحرب الأهلية كذلك في نابلي وصقلية ونتج عن صراع الوزيرين الإسباني والفرنسي أوليفار وريشيليو حرب أدت إلى استيلاء الفرنسيين على ولاية روشيليون.

في هذه المرحلة تولى ملك الأسبان كارلوس الثاني 1076 ـ 1112هـ/1665 ـ 1700م ولم يكن حظ هذا الملك أحسن من سابقيه، فقد واجه هو الآخر حربا طاحنة مع فرنسا، كلفت الأسبان الكثير جدا من الخسارة، ثم آلت بهم إلى الضعف، وفي هذه المرحلة كذلك تم تحرير المغرب لجميع الموانئ المغربية التي كانت محتلة من الأسبان، وهي المعمورة والعرائش، وأصيلة، واستولى المغاربة على الكثير من الأسرى الذين أصبحوا موضوع مفاوضات بين السلطان إسماعيل وملك الأسبان كارلوس الثاني الذي كان هو الآخر يتوفر على أسرى مسلمين مغاربة وغير مغاربة، وفي سبيل ذلك أرسل إليه السلطان إسماعيل سفارة مكونة من السفير محمد المدعو حدو بن عبد الوهاب الغساني، صاحب الرحلة المعروفة باسمه في نفس الموضوع، وعضوية عبد السلام بن احمد جسوس، الذي قتل بعد ظلما في قضية جيش البخاري كما سبق التفصيل في موضوعه، وكانت الغاية من ضم جسوس إلى السفير أنه كان على علم بكل وقائع فتح العرائش المتنازع في أسراها هل هم أسرى حرب أم أنهم استسلموا ولم يقاتلوا، وأن المدينة أخذت قسرا لا صلحا، ولذلك حق الاسترقاق في الذين أسروا، حسب رأي السلطان إسماعيل الذي ضمنه مراسلته التي حملها السفير والمؤرخة بـ 16 ذي الحجة 1101 هـ/1690م على أن

الذين كانوا محل مفاوضات كما نص على ذلك كان عددهم مائة، في حين أن مجموع الأسرى فقط في العرائش فاق الألف وثلاثمائة، وأن علماء المغرب أفتوا في الجميع بالإسترقاق والسلطان إسماعيل يقول إنه لا يقدر على مخالفة العلماء الذين يمثلون الشريعة(181).

أما شرط الفدية التي اشترطها السلطان إسماعيل في المراسلة التي حملها السفير النساني ورفيقه عبد السلام جسوس، والمؤرخة بالتاريخ أعلاه فهي :

نصراني واحد مقابل عشرة من المسلمين مغاربة، أو غير مغاربة، كبارا كانوا أم أطفالا، أم نساء، فهو يطلب خمسمائة مقابل خمسين من المائة المتفاوض في شأنها. وخمسة آلاف كتاب من الكتب التي تركها المسلمون الذين أخرجوا كرها من ديارهم، من مختلف المدن، ولم يتعرض لكتب زيدان السعدي؟ ورغم ذلك فإن السفارة لم تحقق ما أرسلت من أجله، الأمر الذي أفسد العلاقة مع الأسبان وزادها تأزما عندما حصلت الحادثة التي تعرض لها الضعيفي والمتعلقة بسرقة قصر السلطان، والتي حيث سرقت خباء السلطان التي فيهاأحد أزواجه "في ليلة عيد الفطر من عام 1101 هـ/ 1690(182) وكان يحرس الخباء إثنى عشر مائة من العبيد «؟!» وأربعمائة خادم، فسرق جميع ما في الخباء من الأمتعة والجواهر وغيرها، وسلبت الزوجة من حوائجها ولم يعلم سارقها، إذ تحت ضغط هذه الظروف أرسل السلطان سفارته إلى ملك الأسبان بعد في شهر ذي الحجة، أي بعد شهرين ونصف، وفي مدينة مكناس الآلاف من الأسرى الأسبان والأجانب المشتغلين في البناء وخدمة الخيل..

تلك كانت علاقة السلطان إسماعيل بأوربا وقد اقتصرنا فيها على الدول الثلاث الأنجليز والفرنسيين والاسبان، على أن علاقته لم تقتصر على تلك الدول وإنما كانت مع

---

(181) راجع الإتحاف لابن زيدان 2/54-66 والضعيفي م خ نا 43-44 ورحلة الغساني ص 104 ـ 105 ط تطوان 1939 طنجة و م خ نا . رقم 34.

(182) م خ نا ص 44 وهي رواية انفرد بها الضعيفي، ولعل كارلوس الثاني لم يستجب لرغبة السلطان لأنه أدرك أنه ربما سينتهي إلى ضعف خصوصا وأنه بدأ حصار سبتة من أول ربيع الثاني 1106هـ إلى ما بعد 1130 هـ أي 1694 إلى 1717م دون أن يزحزح حاميتها المنقطعة، ومثل ذلك حصل لحجرة باديس التي حاصرها إبتداء من يوم 4 شعبان 1113هـ/1701م على أن مشكل الأسرى الأسبان سيستمر إلى سنة 1165 هـ 1751م عندما يقدم سفير الأسبان على السلطان عبد الله بفاس ومعه فدية ألف ريال دورو، ثم هدايا أخرى من الثياب، ومعه أهل تطوان بهديتهم لنقل للسفير : حتى يأتي أسرى المسلمين. راجع البستان ص 81 م خ مصدر سابق.

جل دول الأبيض المتوسط التي سنتعرف عليها أكثر في عهد حفيده محمد بن عبد الله بن إسماعيل، وكذا ما كان للأتراك والجزائريين سادة البحر وقتها في هذا المجال.

أما علاقة السلطان إسماعيل مع آل عثمان فقد تحسنت بعد الإتفاق على الحدود، بل كانت الروابط الدينية أقوى من أن تتأثر بما حصل بين الجانبين . فقد كانت تلك الروابط العامل الأقوى في التمكين للعلاقة بين الدولتين، وإن كان السلطان إسماعيل وهو يعلم ما انتهى إليه أخويه محمد والرشيد في شأن الحدود الشرقية مع الأتراك والاتفاق الذي تم مع الأول وأكده الثاني، ومع ذلك عاد لمهاجمة الأتراك بمجرد ما أنس من نفسه القدرة على ذلك سنة 1089 هـ/1678م على أنه ما كان ليفعل لولا أن الأتراك اختاروا وقت إنشغاله بحرب ابن أخيه أحمد بن محرز في سوس ثم أخذوا يناوشون سكان مناطق الحدود الشرقية من الغرب، ومع ذلك عاد إلى الاتفاق الذي إلتزم به مع السلطان مصطفى خان الثاني 1106 ـ 1115هـ(183) سلطان آل عثمان الذي اتصف هو الآخر بالشجاعة وثبات الجأش "ـ كما عبر محمد بك فريد ـ والذي كان في حرب مع الروس حين حاصر بطرس الأكبر مدينة أزاق ببلاد القرم وقتها اختار أن يتفق مع المغرب حتى يتفرغ للعدو، الأجنبي، وفعلا رفع الحصار عن المدينة المذكورة في نفس السنة التي عقد فيها الاتفاق مع المغرب، وتفرغ السلطان مصطفى لحربه التي أعلنها ضد المجر حيث فتح حصن "البا" وهجم الجنرال "قزاني" في موقعة لوجوس وقتل من عساكره ستة آلاف جندي، وأخذه أسيرا وقتله في 22 سبتمبر 1695 م = 12 صفر 1107هـ.

ولعل السلطان مصطفى وهو القوي الذي برهن على قدرته الفائقة، ما فعل ذلك مع السلطان إسماعيل إلا بعد ما تأكد أن للعاهل المغربي رسالة شبيهة برسالته التي حفظت بها بيضة الإسلام والدفاع عنه في المغرب كدفاعه هو في المشرق، وكل ما حصل بعد ذلك من خلافات بين المغرب وحكام الجزائر كان مصدره الولاة الذين كان استقلالهم وبعدهم عن العاصمة يدفعهم إلى الشطط، ولسوف نرى تمكين المودة بين الأتراك ومحمد بن عبد الله حفيد السلطان إسماعيل وكان الذي مكن لها أكثر هو سفارة أبي القاسم الزياني كما سنرى بعد.

---

(183) تاريخ الدولة العلية ص 140 ط القاهرة 1912 والتحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية لابراهيم بك حليم ط 1205 ص 147 ـ ومحاسن السلوك لمحمد بك غنيم 256 ط القاهرة 1938.

ترخيص اسماعيلي لمجموعة من الاطباء الاسبان في معالجة الأسرى بالمغرب
تاريخه 1110هـ/1698م

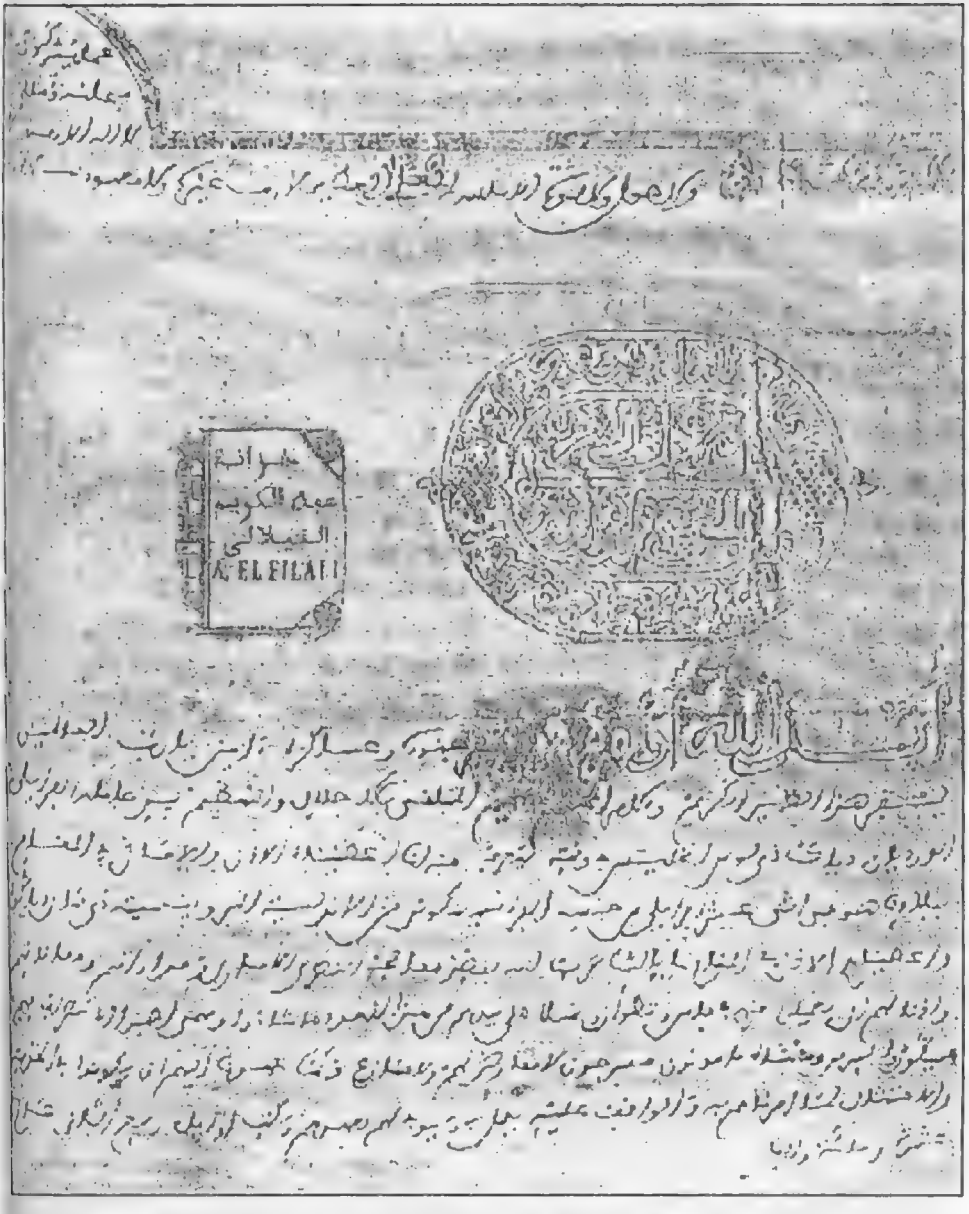

كتاب من المولى اسماعيل الى الملك الاسباني كارلوس الثاني في موضوع افتكاك الاسرى
تاريخه 1110هـ/1698م

من المولى إسماعيل إلى العاهل الاسباني دون كارلوص بتاريخ 16 ذي الحجة عام1101 . 20 شتنبر 1690 بواسطة السفير محمد ابن عبد الوهاب ومساعده عبد السلام جسوس... بعد الحديث عما حصل لأهل غرناطة ونكث الاتفاق الذي تم معهم يثير ملك المغرب قضية المخطوطات العربية الأسيرة في الجزائر الاسبانية؛ ويطالب بافتداء خمسة آلاف مخطوط...!

الفصل الثاني والثلاثون بعد المائة

ماذا عن السلطان إسماعيل وحقيقة أولاده الألف المفترى عليهم...

اتخذ الكثير من المؤرخين مغاربة وغيرهم، شرقيين وغربيين موضوع الكتابة حول عدد أولاد السلطان إسماعيل الذين قيل إنهم بلغوا الألف، نصفهم من الذكور والنصف الآخر من الإناث، موضع كتابات اتسمت بنوع من الحكايات التي اعتاد الغربيون أكثر من غيرهم تناولها بنوع من الغرابة والتشويق، اقتداء بفولتير أبرع كتاب فرنسا في القصص الشرقية والذي كتب "صادق" و"ساذج" و"ملكة بابل" و"ميكروميغاس"(184) وغيرها، ومثل شيكسبير عند الأنجليز(185) فعلى نسقهما كتب بعض الأسرى من القراصين والتجار الغربيين وحتى بعض السياسيين حول حياة السلطان إسماعيل الزوجية التي ربما كان من المقربين إليه من لا يعرف عنها قليل ولا كثير، بل وحتى الذين قيل عنهم "عبيد الدار"، في الوقت الذي نجد من يستدل للكتابة في هذا الموضوع بمثل "مغامرات طوماس بيلو" الراهب الفرنسي والذي قال في حق السلطان إسماعيل "ولو أن هذا الإمبراطور كان لديه 800 زوجة و900 ولد ذكر و300 بنت إلا أنه مع ذلك كان دوما منتبها لشؤون الدولة، ولم يعهد بها إلى أحد غيره ..." وأما الراهب الأسباني "ديل بيرتو" فإنه لما سأل أحد أبناء السلطان كم عدد إخوتك؟ أجابه بعد ثلاثة أيام بواسطة "لائحة" تضم أرقاما هي " 525 ولد و342 بنت وعلى مثل هذه السخافات نسج غيرهما مثل بوسنو، وميرو، وبادجيث ميكين، وغيرهم(186) من الذين رجعوا لأوطانهم بعد

---

(184) روابط الفكر والروح إلياس أبو شبكة ص 33 ط 1943 بيروت والموسوعة العربية 1337 ط القاهرة1965.

(185) المصدر السابق ص 1107 ـ 1108.

(186) راجع مانشر حول "مولاي إسماعيل بن الشريف" ط تطوان 1978 د. عبد الله العمراني وحتى قصة "خناثة بنت بكار" وهي الصحراوية التي تزوجها، تحولت إلى ما يشبه قصص ألف ليلة وليلة، بل جاء فيما نشر بتطوان خرافة جديدة في تاريخ المغرب، وهو عمل فج أقول لصاحبه ما الدافع إليه...؟؟.

مغامراتهم في بلاد ما وراء البحار، بما لم يكونوا يتصورون عن جزر "الواق واق"؟؟ وبلا أدنى تأمل نجد بعضهم يتخذ مما نسجوا من خيال مادة يكتب من خلالها تاريخ المغرب وحول رجل يعتبر ضمن أبطال المغرب العالميين من الملوك الذي هم دون العشرة منذ عهد إدريس الأول.

مهما يكن فإن السلطان إسماعيل فعلا قد خلف الكثير من الأولاد والبنات، وليكن عددهم الألف أو أقل أو أكثر، فهذا موضوع لا يوقع المؤرخ في حيرة وإشكال، ويكفي تناوله بالطريقة التي لا تدفع إلى الوقوع في دوامة القصص المختلق ممن سبق، والذي يكفيهم فخرا أنهم توصلوا إلى جر بعض المغاربة لمناقشة ما كتبوا، وذلك هو الهدف والقصد حتى يصبح الكل ضمن قافلة الفلكلور التي عرف المغاربة موجتها على أيدي المندسين والسفهاء الذين حسبوا المغرب والمغاربة بتراثهم وحضارتهم... الكل نوع من الفلكلور، فتاريخ المؤسس الثاني للدولة الرشيد، وحياة مركز الدولة إسماعيل، كتب حولهما بأساليب لا تختلف عن قصص الغارقين في خيال الترفيه عن الآخرين، وما فعل هذا في تاريخ دولة من الدول التي عرفت في تاريخ المغرب الإسلامي، إلا بتاريخ السلطان إسماعيل الذي قلم أظافير الطامعين في المغرب في عهده، والذي لا نبالغ إذا قلنا إنه بحق رفع المغرب إلى مصاف الدول الكبرى، ومع ذلك كان موضوع كثرة أولاده ومناقشة وسيلة من وسائل تشويه تاريخ هذا العاهل العظيم في نظر المغرضين الذين عدوا زوجاته، حتى انتهى بهم العد إلى ثمانمائة؟ ومع ذلك أراد أن يضيف إليهن ابنة لويس الرابع عشر؟ الأرملة، هذا في الوقت الذي رأينا في تاريخ العباسيين من كانت حياته الداخلية تمثل نوعا من الحضارة التي تغنى بها الكتاب والشعراء كما فعلوا مع الأمويين في الأندلس لأن هؤلاء وأولئك لم يكن الغرب الأوربي بعد قد تفتح نحو الاستعمار، ثم أخذ يقتطع من بلادهم، بل كان كما سبق أن عرفنا بدو في أوربا، يحيا حياة متوحشة ومتخلفة، أشرافهم وملوكهم بله عامة شعوبهم لا يعرفون القراءة والكتابة، وحتى ما خلف لهم تاريخ الإغريق والرومان كان عرضة للضياع، أما السلطان إسماعيل الذي وجد في عهد تطلع دول الغرب إلى صنع الامبراطوريات، والذي لولاه لأصبح المغرب مستعمرة موزعة بين الدول التي ضربت الرقم القياسي وقتها في التطاحن من أجل التوسع، حتى

إن تاريخ تلك المرحلة من حياة أوربا ليعتبر من هذا الجانب مخجلا ومحرجا في آن واحد، وكان لا يتم لكل دولة ما تريد في المغرب الذي تجمع فيه أبناؤها كأسارى وعبيد يباعون في أسواق النخاسة، إلا إذا هي نالت العهد والأمان من الذي جمع قوة المغرب بالمغاربة ثم وجهها لتسود برا وبحرا.

إسماعيل هذا حقا ترك من الذرية ألفا، وقد بالغ بعضهم في القول حتى يتسم بالدقة فقال ألفا إلا واحدا؟ ونحن نسمح لقلمنا أن يساير الذين كتبوا حول الموضوع الذي لم يفكر السابقون في تناوله بنوع الاستغراب الذي استولى على المنجرين إلى الساحة المفضوحة التي اختارها الرهبان والقراصين وأسرى الحروب والتجار من الأوربيين الموتورين والجواسيس.

لقد أخبرنا التاريخ أن أول زواج السلطان إسماعيل كان وسنه في وسط العقد الثالث من عمره حسب الذين أرخوا ولادته بتاريخ 1056 هـ/1646م في حين انه عام1075هـ، وهو عام البيعة العامة لأخيه الرشيد كان زواجه الأول في قصر الفرخ بنافيلالت وفيه ولد له أحمد المعروف بالذهبي، ثم عرفنا انه بعد ذلك بخمس سنوات كان زواجه الثاني بفاس إثر شفاء أخيه الرشيد الذي اتخذ منه وسيلة احتفاله حين عقد قرانه على إحدى الأميرات السعديات اللائي تخلفن بفاس الجديد سنة 1080 هـ/ 1669م وبذلك تكون هي بعد أم أكبر أولاده أحمد الذي عرف بعد بالذهبي ، وعرفنا التاريخ كذلك أنه توفي سنة 139 اهـ 726م وأنه حكم كخليفة لأخيه بمكناس سبعة أعوام ، وسلطانا سبعة وخمسين، المجموع أربعة وستون سنة، وأنه لم يعرف لغيره في تاريخ الإسلام من حكم مثله غير المستنصر العبيدي، كما روى الزياني عن ابن الخطيب(187) «427–487هـ 1035– 1094م»

(187) البستان 45 أورد صاحب روضة النسرين وعنه نقل إبن زيدان في الاتحاف3/ 119 حول ولد لأبي الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني واسطة عقد بني مرين والذي بويع يوم الجمعة 25 ذي القعدة 737هـ وتوفي بجبل هنتاتة في حرب مع ولده العاق أبو عنان ليلة الثلاثاء 27 ربيع الأول سنة 752هـ، ودفن بمقبرة السعديين الشهيرة بمراكش يوم الأربعاء التالي ليوم وفاته ثم نقل إلى مقبرة أسلافه بشالة الرباط يوم 16جمادى الأولى من نفس السنة بحيث دام ملكه عشرون سنة وثلاثة أشهر ويومان إثنان وعمره ستون سنة لأن مولده كان في صفر سنة 697هـ وحول ماولد له « قال في روضة النسرين وجميع ماولد له ما بين ذكور وإناث و« سقط» وغيره ألف وثمانمائة وإثنان وستون. أخبرني بذلك ثقته الشيخ المعمر علال بن امصمود الهسكورى » على أنه لم يخبرنا عن الهسكورى هذا حور عن مهمته حتى نتعرف إن كان مارواه صدق أم أنه داخل في المبالغات التي عرفت لبعضهم وقد أنكرها إبن خلدون»

ومعنى هذا أن إسماعيل، عاش حياة زوجية مدة تسع وخمسين سنة، ونقول أنه كان له أربع زيجات وأنه اتخذ أضعافهم بالتسرى المشروع كأمهات أولاد وبالنسبة لعصره عصر الجهاد ضد عدو البلاد الكافر، صح له ذلك، وتلك كانت عادة الملوك والأمراء قبله وفي زمانه وبعده شرقا وغربا، فمنهن كانت : مراجل أم الخليفة المامون وماردة، أم الخليفة المعتصم، وشجاع أم الخليفة المتوكل، وحبشية أم الخليفة المنتصر، ومخارق أم الخليفة المستعين من العباسيين، بل غير الملوك و الأمراء شرع لهم ذلك حسب الشروط التي سنها الخليفة عمر الذي نظم حقوق أمهات الأولاد، بأن كل أمة وإن كانت على غير الإسلام وأنجبت من سيدها ولو بعد وفاته تعتبر أم ولد، وتصبح حرة متى توفي عنها، فلا يجوز بيعها أو شراؤها ، وقد فعل هذا كل ملوك المغرب إطلاقا من عهد يوسف بن تاشفين(188) إلى عهد ما بعد السلطان إسماعيل بقرنين تقريبا، كما سنرى من خلال الوثائق، وبالنسبة للسلطان إسماعيل الذي شيد الكثير من القصور في عاصمة ملكه، وحرر الثغور، وأطلق رجالات من المغرب يجوبون البحار ويردون غارات الذين كانوا يرومون سواحل المغرب ويختطفون المغاربة رجالا ونساء ثم يتاجرون فيهم بأسواق النخاسة في أوربا ، فكان رد الفعل ينتج نفس العمل حتى أصبح مشاعا في أقطار المغرب الكبير وبلاد الترك والشرق العربي إقتناء الإماء من الأوربيات بل إن بعض ملوك أوربا قدم إلى السلطان إسماعيل ضمن هداياه فتاة تركية مثل مافعل كارلوس الثاني ملك الأسبان.

أمام هذا الواقع وفي هذا العصر، أوليس من حق السلطان إسماعيل أن يتخذ لنفسه ما استطاع من أمهات الأولاد وحسبما ملكت يمينه، وقد تطوع اليفرني بإخبارنا أنه كان لا يقربهن إلا بعد الكشف وعمل ما يقتضيه الشرع(189) وهكذا إذا ما اتفقنا على أنه كان في إمكانه أن يباشر أربعا من الزيجات وضعفهن فقط بالتسري سنويا، وأن اللائي يلدن منهن نصف العدد وأنه لم يخلف في العشرين سنة الأواخر من عمره وإنما خلف في الأربعين بعد ملكه، يمكننا أن نخرج بأكثر مما نسب للسلطان إسماعيل من الأولاد والبنات، ولهذا لاغرابة إذا قيل أنه خلف من الأولاد خمسمائة، وكذلك من

(188) لقد رأينا أن أم ولده على بن يوسف فاض الحسن الإسبانية الأصل ، أم ولد ومثلها أم اليزيد بن محمد بن عبد الله حفيد السلطان إسماعيل.

(189) روضة التعريف ص 72 ط 1962.

البنات مثل ذلك ، وقد قالها لنا الزياني أول من ذكر هذا العدد(190) ثم مر عليها دون تعليق غير الذي جاء به ليوكد اهتمامه بأولاده وبناته، وما كان يضع لحياتهم من تخطيط، وأن الزياني نفسه، في عهد محمد بن عبد الله كان يوجه إلى سجلماسة قصد توزيع الصلة التي كانت مخصصة للأبناء و الحفدة الذين بلغ عددهم وقتها ألفا وخمسمائة وستين، يسكنون في مائة وخمسة من الدور(191) وأن الأحياء من أبناء صلب السلطان إسماعيل وقتها ، عددهم ثمانية وعشرون، يعرفهم الزياني بالاسم والصفة، وأما البنات فقد كان السلطان إسماعيل خصص لنزلهن قصر حمو بركة بمدينة مكناس(192)، ويأتي بعد الزياني أكنسوس الذي ينقل كلام الزياني بعدما يقدم له بشيء من التردد ... وكان لمولي إسماعيل من الأولاد – على ما قيل – وتواتر به الخبر -(193) خمسمائة ولد ذكر وبنات مثل ذلك من البنات أو ما يقرب منه(194).

وإذا نحن رجعنا إلى واقع تاريخ تافيلالت وما نتوفر عليه من وثائق ورسوم ومعاملات وعقود التزامات، وفيما يتعلق بأولاد السلطان إسماعيل الذين كان يرسلهم إلي سجلماسة ثم يملك كل واحد منهم قطعة من الأرض للحراثة والغراسة ومماليك يقومون له بالخدمات وحراثة الأرض وغراستها، نجدهم كذلك قد باشروا التجارة ، وأسس بعضهم شركات تبادل مع تمبكتو وفاس، وأنهم منذ ذلك العهد لم يعتمدوا على السلطان ولا على قرابتهم منه في أي عهد من العهود، بل اعتمدوا على الله ثم على أنفسهم، وأصبح خلفهم يحيون الحياة المعتادة في المنطقة ببداوتها ولون حضارتها، بل إن ما حققه بعضهم للمنطقة من ازدهار فلاحي وتجاري تنافسوا فيه مع أبناء عمومتهم المحمديين أهل «أبو

---

(190) البستان 44 – 45.

(191) هي عدد دور أولاد الصلب بتافيلات.

(192) البستان نفس المصدر .

(193) على أن أكنسوس لم يلزم الضبط في روايته وإلا لما أورد قبل « على ما قيل » مادام سيتبعهاب « تواتر بالخبر » لأن الخبر أو الحدث المتواتر هو : ما أخبر به جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب.

(194) الجيش م خ نا ص 71 ونلاحظ عند أكنسوس قوله « وما يقرب منه». ونلاحظ ونؤكد أن أكنسوس الأديب لم يكن بالمؤرخ. وإنما كان في جل ما كتبه عالة على الزياني وهما منه أن ما خلفه الزياني من كتب وقد أصبحت في عصره نادرة يمكن انتحالها ولا من يدري ولا من يهتم وبمراجعة ومقابلة ما أطلق عنه « الجيش العرمرم)» وكتاب الروضة السليمانية للزياني يقف المرء على الحقيقة.

عام» الذين ضربوا الرقم القياسي في الاعتماد على النفس منذ ما قبل الشريف بن علي ليعتبر بحق مما يشرف السلطان إسماعيل وآل اسماعيل الذين لم يتخذوا مما كان لوالدهم وسيلة إرهاق للشعب وابتزاز لإمكاناته، وإذا ما استثنينا بعض الذين أسندت لهم السلطة بالإقليم في عهده كالمأمون بن إسماعيل الذي ولاه والده حكم المنطقة والذي خلف ضمن متروكته وحسب رسم نتوفر عليه خمسة وعشرين ألف نخلة بتيزيمي ووادي يفلي - إلى عهد المهدي بن الرشيد بن محمد بن عبد الرحمن الذي جمع ما كان لأبناء عمومته، لا نجد من بين الإسماعيليين وغيرهم من العلويين من يمتاز كثيرا على غيره بكثرة الممتلكات في تافيلالت، بل جلهم اليوم من المشردين في مختلف مدن المغرب وقراه من أرض توات إلى أرض شنقيط. بل وفي موطنهم يعيشون العذاب والحرمان.

ذلكم هو عدد أولاد السلطان إسماعيل الذين تفرقوا بعد في جهات مختلفة من المغرب بل أكثرهم غادر موطن الآباء بدافع الفقر والحاجة، حيث نجدهم اليوم موزعين بين مدن المغرب وقراه، وبين القبائل لا تخلو منهم جهة من المغرب، لكن بقي لنا أن نتساءل عن الذين كان لهم شأن في حياة السلطان إسماعيل والذين ساهموا في السياسة العامة إلي جانبه، وما هو موقف بعضهم من السلطان اسماعيل نفسه وعن الذي ثار منهم ما الدافع به لذلك وكيف انتهت علاقة السلطان مع أولاده، وهل أسند لأحدهم ولاية العهد أم لا وإذا لم يفعل ما السبب في ذلك.

بعد نهاية العقد الأول من القرن الثاني عشر انتهت أو كادت كل فتوحات السلطان إسماعيل، ودان له المغرب شرقا وغربا، بل انتهى حكمه إلى أطراف السودان، ومنذ أول العقد المذكور وحين كان يستعد لغزو قبائل بربر آيت أمالو، أخذ يسند لأولاده وظائف النيابة عنه في الأقاليم، إذ كان يسند لولده زيدان النيابة عنه في العاصمة مدة غيابه كما كان يسند له القيام بمهمة المواجهة للأتراك وغيرهم من الذين كانوا يحدثون الفتن في جهات مختلفة، مثل مدينة فاس، ومراكش، وسوس، كما نصب من أولاده على المدن والنواحي، محرز وهو ثالث أكبر أولاده، ولاه مدينة فاس، ثم نقله إلى سجلماسة وأخيرا أعفى وسكن قصر أخنوس بتافيلالت، ثم المأمون بمراكش ومنها نقله إلى تافيلالت(195)

(195) وقد ضم إليها الأقاليم المجاورة. كما ورد في مراسلة السلطان إسماعيل إلى ولده المأمون "وقد جعلنا لكم تافيلالت وفوائجها وأعرابها، ودرعة وعربها وبربرها، وتوات وتكرارين.." مجموعة الرسائل «إلى ولدي المأمون ص41ط 1967 مصدر سابق.

حين كان مركزه بتيزيمي، وفيها توفي ثم خلفه أخوه يوسف بتافيلالت، ثم الحفيد بمراكش، وأسند ولاية تادلا إلى ولده أحمد، ودرعة إلي عبد الملك، ثم نقل بعد إلى فجيج حيث لا يزال أبناؤه في تيوت بالجزائر، وعلي ولاه أنكاد، وأبو النصر ناحية سلا، والشريف فاس الجديد. كما ولى سيد أولاده محمد العالم ولاه درعة ثم مراكش، ثم مدينة تارودانت سنة ١١١١هـ، وكل واحد من السابقين كان يرسل معه من قوات الجيش ما يناسب حفظ الأمن في الناحية الموجه إليها، وحسب المعروف عن قوة وضعف ولاء أهلها. فمن خمسمائة مع المأمون لتافيلالت إلى ثلاثة آلاف مع محمد العالم لتارودانت، ومثلها مع أحمد إلى تادلا، هذا إلى جانب ما كان في القلاع من جند ترجع أوامرهم إلى السلطان نفسه، وإذا كان حسب تخطيطه العجيب في نزع الخيل والسلاح من كل قبائل المغرب، ما عدا الجيش، والودايا، وآيت يمور، فإن المتاعب التي عرفها بسبب الثورة ضده لم تكن من غير أولاده الذين اندفع بعضهم ضد بعض، مثل ما حصل من أبي النصر مع أخيه عبد الملك، والذي استولى على درعة من يد عبد الملك الذي فر لاجئا إلى ضريح الرئيس الأول بزرهون، فرارا من أخيه، وخوفا من والده الذي ربما يعاقبه لجبنه أمام المعتدي عليه،أما الذين لم تسند لهم وظائف في حياته مثل عبد الله، والمستنصر، والمستضئ، والمستعين، ومحمد، ولد عربية، فإنهم لم يخوضوا في مجال السياسة إلا بعد موته وعندما تحرك حقد "عبيد" جيش البخاري، الذين اتخذوا من أبناء السلطان بعد موته وسيلة لتنفيذ خطة قادته الذين هم بلا شك كانوا يتحركون بتوجيهات سياسية من الطف، كانت مكبوتة زمن السلطان إسماعيل الذي تمكن حكمه بالحديد والنار، والذي كان لا يعرف مع الآخرين إلا القتل بمجرد الأمر الذي يصدره ولو من بعيد، وبدون تعرف على الأسباب بالقدر الكافي حتى يباح معها قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق(196) امتثالا للشرع الذي حرم قتل من قال لا إله إلا الله إلا بموجب شرعي.

---

(196) أصدر أمره إلى موسى المانوگي نسبة إلى قصر بتافيلالت إسمه منوكة بالكاف المعطشة ليقتل ستين رجلا من بني محمد سكان مجموعة قصور بتافيلالت لأنهم كانوا على طرفي نقيض مع السلطان إسماعيل الذي حفظ له انتصارهم لابن أخيه أحمد بن محرز، وذلك سبب انتقال بعضهم إلى درعة راجع الرسائل المذكورة ص 24 بل إن بني محمد وهم من معقل انضموا منذ ذلك العهد إلى حلف آيت عطا، في الوقت الذي كانوا يوجدون بتافيلالت داخل صف حلف آيت يافلمان وهما حلفان عرفا بصراعهما العنيف لمئات السنين. وبالتالي فإن هذا الخليط من الخير والشر في حياة السلطان إسماعيل يجب أن ينظر إليه من خلال معطيات العصر الذي كان يحياه الإنسان في تلك المرحلة من الزمن وفي كل مكان.

الفصل الثالث والثلاثون بعد المائة

ثورة الأمير محمد العالم بن المولى إسماعيل

أسبابها ودوافعها

إذا نحن نظرنا إلى عهد السلطان إسماعيل بعدما طوع المغرب ودانت له البلاد بل إذا نحن نظرنا إلى الجانب السياسي من خلال ثورة ولده محمد العالم وأسبابها ودوافعها، تنقلب تلك الصورة الجميلة التي رسمها المتحدثون عن الأمن والاستقرار والرخاء، مما وصف به عهد السلطان إسماعيل الذي مهما حاولت ثورة ولده محمد العالم أن تلونها بغير ما عرف الناس من خلال أوصاف المؤرخين الصادقين وغير الصادقين، فإن حقيقة وواقع السلطان إسماعيل حسب معطيات أفكاره الذاتية مما هو حق ما يتوصل إليه المرء من خلال أفكاره وآرائه الدالة على حسن نواياه، وجميل مقاصده، تجعل منه ذلك الرجل العظيم الذي قامت عظمته على مجهوده الخاص وأعماله العظيمة رغم أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب خلافا لما زعمه بعض المفترين، ومع ذلك كان له من الصفات التي لم يشاركه فيها ولا في التفكير فيها غيره، بل والتي قامت على حد السيف أكثر مما بنيت بالرأي لأن عصره والمجتمع الذي يتزعم بناءه لم يكن المجتمع الذي يحترم الرأي الصادق ولا التفكير السليم الذي كان يخاف ويخضع للرأي المعزز بالسيف والمؤيد بالحديد والنار كما سبق في عهد أحمد المنصور السعدي الذي خلف لقومه الدمار، وذلك هو النهج الذي سلكه السلطان إسماعيل حسب اجتهاده، مما أبعد عنه كل من له اعتزاز بالنفس وإيمان بالعلم، وتعلق بالرأي السليم، فلم يجد قط من يقول له هذا حرام، ولا هذا بعيد عن الصواب، ومن تجرأ يقول الحق يكن قوله سببا في هلاكه، ولو كان غير ذلك لما انتهى الأمر بولده العالم الفاضل الجليل إلى ما انتهى إليه من ثورة كما سنرى.

لم يعرفنا التاريخ على مكان وزمان ولادة محمد العالم الذي هو بحق أكرم وأعظم

أولاد السلطان إسماعيل، والذي بلا شك نشأ وشب في مدينة مكناس عاصمة ملك والده، لكنه عرفنا أن محمد بن إسماعيل كان خليفة لوالده بمدينة فاس الجديد، سنة ألف وست وتسعين، وزواج والده المشهور كان قبل سبعة عشر عاما وصاحب الخلافة بفاس الجديد لا يحتمل أن يكون ذاك سنه حسب رواية صاحب مطلع الأشراف(197) وان كان يحبه والده كثيرا(198) لأن من شأن صاحب الخلافة على مدينة كفاس الجديد، أن يكون أهلا للرأي وقيادة الجيش المسند إليه قيادته عادة في المنصب المذكور، بل لا يكون صاحبه دون الخامسة والعشرين إن لم يكن أكثر، وبذلك في رأينا يكون من مواليد عهد الخلافة .

ومهما يكن فإن محمد العالم قبل أن يسند له الوظيف المشار إليه كان قد اجتاز مراحل التكوين العلمي بنجاح وتفوق، عرفنا عليه كل الذين ترجموا له، فقد درس على أكرم علماء العصر محمد بن أحمد المسناوي وهو بقية آثار الدلائيين(199) وخاتمة عقدهم الثمين، كما درس على القاضي عبد الملك التجموعتي(200) حفيد ابن أبي محلي، ومحمد بن أحمد لقسنطيني المعروف بالكماد،(201) وأحمد بن العربي بن الحاج السلمي المرادسي قاضي فاس الجديد (202) وأحمدبن يعقوب الولالي العطاوي القرشي(203) وأبي سعيد عثمان العميري(204).

هؤلاء هم الذين درس عليهم الأمير محمد بن إسماعيل الدراسات الإسلامية حتى

---

(197) نقل عنه العباس التعارجي في الأعلام 9/6.

(198) الاتحاف 62/4.

(199) ولد1072هـ وتوفي يوم 16 شوال 1136 هـ / 1662 ـ 1727م راجع نشر المثاني م خ ع 2308 والبدر الضاوية ص 182.

(200) توفي 1120 هـ/ 1708م، الاعلام للتعارجي 362/8، وهو أستاذ للمسناوي، وقد تعرضنا إلى قد لكة مع أبي علي اليوسي الذي نتوفر على ما كتبه حوله التاجموعتي المخزومي والذي سماه بودمعية في مراسلاته مع آل الشريف بن علي قبل بالفجيجي؟؟

(201) توفي عام 1116هـ/1704م.

(202) ولد عام 1042هـ، وتولى القضاء بتاريخ شهر المحرم 1105 هـ، وعزل كل الشهور، وتوفي1109هـ/1697م راجع الضعيفي م خ نا ص 47.

(203) توفي بمكناس يوم 2 رجب 1128 هـ/ 1715 م، راجع الإتحاف 340/1 ودفن بضريح عبد الرحمن المجذوب وهو ضريح السلطان إسماعيل بعد.

(204) نفس المرجع السابق.

برع في أصولها ومنطقها وكذلك في النحو وعلوم البلاغة(205) وقيل حتى مبادئ التصوف، وأنه بشهادة كبار العلماء أصبح مبرزا في كل العلوم إلى درجة تخوف الذين يحضرون مجالسه من إحراجه، فكانوا يستعدون لذلك، ومع ذلك لم يرقه ويجلب وده غير البارعين في مقدمتهم المسناوي الذي أخلصه الود، بل قال بعضهم إنه بلغ درجة الاجتهاد(206) فأداه اجتهاده إلى الخروج عن طاعة والده الذي هو في نفس الوقت الأمير المتوج، فعل ذلك وهو الفقيه الأديب الشاعر الكاتب، إلا أن أحدا ممن كتبوا عنه لم يحاول تعليل الأسباب التي دفعت به إلى الثورة، بل إلى تلك النهاية التي حبذا لو لم يسقه إليها قدره إلا أننا نحاول من خلال حياة الأمير العالم، ثم من خلال حياة المجتمع المغربي برمته بل ومن خلال شطط والده. أن نتعرف على الدوافع والأسباب التي أدت إلى ثورة محمد العالم. ولم تكن غير محاربة الظلم المنكر الذي أمر الشارع بتغييره مهما كان ومن أي كان، وبما يتوفر للمرء من وسائل التغيير.

يمكن لقائل أن يقول إن الأمير محمد الذي بلغ ما رأينا من مستوى رفيع في المعرفة، كان يرى إلى جانب والده من الذين لهم تأثير عليه باستثناء اليحمدي من كانوا أهلا للتحقير بدل التقدير، فكان كريم النفس الذي لم يألف النفاق يظهر في حقهم ذلك، مما أدى بالمبلغين منهم وكما حاول ابن زيدان أن يقول ذلك، إلى الدس ومحاولة الوقيعة بينه وبين والده، وهل كان ذلك كافيا ليدفع به إلى القيام ضد والده، وإن كان خصومه أفقدوا راحته وكدروا صفوه فلم يتركوه يشعر بالإستقرار، بحيث كلما وجه لبلد لا يكاد يلتف حوله أهلها ويبادلوه حبا بحب حتى يصدر أمر بإرجاعه ودون سابق إنذار إلى بلد آخر، فمن فاس الجديد منتدى الصفوة من العلماء الذين كانوا يعمرون مجلسه، إلى درعة التي فتح أهلها للأمير صدورهم، وفيهم آل الناصري الذين يقدرون علمه وفضله ومكانته، لكنهم لم يفعلوا ويقابلهم بالمثل حتى أمر بالانتقال إلى مدينة مراكش، وحبذا الموطن وأهله الذين لو عاملهم السلطان إسماعيل بمثل ما وجدوا في ولده محمد العالم لما احتاج إلى نقل سبعة من أعيانهم وسمل عيون ثلاثين بالإضافة إلى الآلاف قبل، ومع ذلك تحولت

(205) الاعلام المذكور قبل ص 11.

(206) قال ذلك صاحب الشجرة الزكية، وعنه نقل صاحب الاتحاف 4/61، كما نقل عنه صاحب درة السلوك من مؤلفاته حاشية على التسهيل. الاتحاف 4/77 وفيه ورد شعر محمد العالم 78 ـ 79.

مجالس محمد العالم التي عرفت بفاس ودرعة إلى أجمل وأكمل في مراكش وكيف وقصر البديع بعد لم ينكب وهو مسكن الإمارة، الذي تحول بدل الشدة والقسوة وصارم الأمر الذي كان يصدر منه، إلى جمال، وخلق، وعدل، وكمال، ومن توفر فيه ذلك من الحكام عودته مراكش أن تقبل عليه وبما زين الله به أهلها قديما وحديثا بكل ما لها من حب ووفاء، وصادق ود وصفاء، الأمر الذي نغص على المتربصين فنسبوا إليه ما أدى إلى العزل والإهمال بدل الإزعاج بالإنتقال، وليت الأمر وقف حيث انتهوا، بل تعرض محمد الأمير العالم إلى المراقبة والمضايقة، لكن الخصوم كانت نهاية أعمالهم الفشل، فقد كشف الأمر للوالد وكما أراد محمد العالم الذي لم يمكن خصومه من الفرصة، أنه لم يكن كما قيل في حقه، ناهيك وأن مثل اليحمدي الوزير الثقة والمعجب بالأمير لم يبخل بما يرضي من جواب حين سئل عن حقيقة محمد العالم الذي كان يعلم ذلك ثم كتب إلى اليحمدي شاكرا ومنوها، وأخيرا وبعد عطلة قضاها محمد العالم بالقرب من والده، وعنده من الوسائل العلمية ما يقيس بها كل أعمال القوم الضالين والمضللين، بحيث تعرف أكثر ومن قريب كيف تدار دواليب الدولة، بل كيف يتصرف السلطان وكيف يتصرف القوم باسم السلطان الذي لم يكن في مقدوره أن يحيط بكل كبيرة وصغيرة، وتكفيه فقط مشاكل جيشه وعمرانه، وبينما هو يعيش بعقله وتفكيره غريبا وسط القوم ارتأى والده وربما كذلك أوحي إليه وقد تأكد من براءة محمد العالم أن يعينه على إقليم تارودانت وهنا يطرح السؤال : لماذا اختار له تارودانت التي له مع أهلها والقبائل المحيطة بها حساب طويل ومعقد، فهم الذين قتل سبعين في المائة من سكان مدينتهم يوم انتصر بالحظ على ابن أخيه أحمد بن محرز، بل هم الذين قتل منهم صنوه الرشيد قبل نحو السبعة آلاف.. لماذا تارودانت؟ هل ليسلك نفس النهج في القتل بلاحق، إنه لم ولن يفعل.

ونعود إلى السؤال بدافع حسن الظن الذي لا يقره التاريخ السياسي، وهو هل السلطان إسماعيل كان صادق الطوية، نظيف الإحساس اتجاه ولده لكنه كان مستهدفا للدس والمكر والخداع، شأن كل ذي سلطان يستبد بكل الأوامر والنواهي؟ ألم يكن تعيين محمد العالم وقد ثبتت قدرته على التكيف وجلب القلوب، وقد حصل في فاس، ودرعة ومراكش أن يكون ذلك هو الدافع لتعيينه على إقليم تارودانت الجريح حتى يبدل جراحه إلى صحة وسلامة وصفاء، وهو القادر بعلمه على جبر الكسر وتطمين النفوس؟؟

مهما يكن فإن الأمير توجه سنة 1111هـ/ 1699م إلى تارودانت، وما كاد يستقر وقد سبقه إعلام المحبين المراكشيين حتى التف حوله علماء سوس وكل عناصر الحزم والعزم والخير والحب والصدق التي يتكون منها مجتمع سوس، ولعله في المراحل الأولى من حياته السياسية بالإقليم اكتشف أن القوم متظلمون، بل ازداد يقينا أن الظلم لم يكن قاصرا على ناحية دون أخرى، وقد مضى على رسالة أبي علي اليوسي إلى والده أكثر من خمسة عشر عاما دون أن يتبدل الوضع، بل زاد من سيء إلى أسوأ والقوم هم القوم، والناس هم الناس، ويل وبؤس وشقاء.

عرفت البلاد كما وصف قبل أبو علي اليوسي ظلم وعتو الفئة التي ضج الناس من ظلمها، وفي طليعتها رؤساء النواحي، وقواد الجيش، والقضاة، والعدول، وقاضي القضاة، الذي أصبح وزيرا وهو ابن العياشي «الحرطاني»، ونائب بيت المال "عليلش،" هؤلاء الذين دمروا عهد السلطان إسماعيل ثم أشعلوا النار التي بقيت تحت الرماد، وستشتعل أكثر عندما تنتهي حياة السلطان إسماعيل، فهم الذين أفسدوا الوضع وأثاروا الفتن كما تشهد بذلك كتابات العلماء، وتظلم الناس في كل جهات المغرب، في ذلك العهد، وإذا استثنينا اليحمدي من بين كل الذين عملوا إلى جانب السلطان إسماعيل لا نجد من بينهم قط من حاول ولو باعتماد على صريح الكتاب والسنة، أن يقول للسلطان هذا لا يتفق مع الشرع والعادة، ولو كان واضح الخروج عن الشرع والعادة، فضلا عن الكتاب والسنة.

كانت مجالس محمد العالم بتارودانت، مجالس علم يقصدها جل علماء سوس، الذين فتح لهم أبوابه حتى أصبح ناديه معروفا لدى القبائل المحيطة بما كان يقصده من الأفاضل وأهل الخير إلى جانب العلماء والمفكرين، ولاحقت الأمير سمعة ما عرف الناس عنه في كل من فاس ودرعة ومراكش، فكان لها بين قبائل سوس ورجالاتها مجال أوسع وأعم، وبعدما كانت النفوس متوترة وعلاقة السلطان بالإقليم سيئة، تحولت إلى محاولة بعث جديد يتفق والسلوك الذي عرف به محمد العالم، وطبقه بين أهل سوس، لكن السياسة العامة وأحوال الناس في ظل الوضع الفاسد حالت دون تحقيق الهدف والقصد بين الأمير وأهل سوس، وكان ذلك هو موضوع حديث الكبير والصغير من العلماء وغير

العلماء، بل وبلا شك كان ذلك الوضع الفاسد في محيط السلطان وأوامره هو مجال المناقشات في مجلس الأمير وما حول الأمير، فالناس في كل مكان يتذمرون من الوضع.

ففي البادية ومنها قبائل سوس من أنتج فرسا يربيه حتى إذا بلغ أول الركوب يدفعه للعامل ثم يدفع معه قيمة السرج عشرة مثاقيل، وإذا كان النتاج أنثى يخبر بها كي تسجل عليه ثم يدفع مثقالا مقابل أتعاب التسجيل، بل والسلطان نفسه ما هي ترجمته بين أهل سوس، ودرعة، ومراكش، حتى كان ابن ناصر الدرعي الذي تخطت سمعته ومكانته بين العلماء والصالحين أرض المغرب، أصبح في نظر السلطان إسماعيل كما كان عند أخيه الرشيد من المتهمين، خصوصا بعد ثورة أبي النصر بن إسماعيل ضد أخيه عبد الملك، والتي تعرض فيها الأول لردع أخيه الشريف الذي حل محل عبد الملك.

وفي مدينة فاس التي أسند الحكم فيها إلى الحفيد، والتي فرض على كل دار فيها عظم سرج بدون استثناء وبلا اعتبار لأحوال الناس، مما أدى إلى النفور التام ضد الحاكم، فكان رد فعل عبد الخالق بن عبد الله الروسي المبالغة والغلو في التنكيل بالناس، حتى بلغ به الأمر إلى انتهاك حرمة السلطان نفسه حين قتل خادمه المرسل إليه بمجرد دخوله عليه من غير استئذان، لكن نهايته كانت من جنس عمله، حيث قتل يوم 6محرم1113هـ/1701م، كما قتل أخو القائد علي بن عبد الله الريفي ببستيون "قلعة" فاس في أوائل رمضان من نفس السنة، وفي أول سنة 1114هـ/1702م خرج عليلش من مدينة فاس غاضبا بسبب عدم استجابة الفقهاء والعلماء لما أراد من إشهادهم على تمليك الحراثين «الحراطين»،(207) وفي مشرع الرمل معسكر السلطان، كان الذين أخذوا قهرا يتظلمون ويتوسلون ولا مجيب، بل لا تزال جولات "اعليلش" وإشهاد قضاة الزور المعتمدين علي ابن العياش وزير السلطان، يزودون المعسكر بالمتظلمين، حتى إن مدينة تطوان التي لم تعرف بطبيعة موقعها نوع العبيد السود، ولا «الحراطين» جر الأحرار من أبنائها باسم أنهم من «العبيد والحراطين»، أما الأطلس المتوسط فهو لا يزال يتخبط في بحر الدماء الذي تهيجت أمواجه بدماء أربع وعشرين ألف قتيل ما بين قبائل فازاز وقبائل كروان الذين نقل ما تبقى منهم بقيد الحياة من أطفال ونساء إلى جوار مدينة مكناس، ليكونوا تحت حراسة الجيش وتسلط الظالمين من قواده.

---

(207) راجع الضعيفي م خ نا ص 47.

في مدن وقرى سوس حيث كانت المعارضة قوية ومتمكنة من قبل، وبعد حرب الرشيد بإسماعيل الذي قتل الكثير من أبناء سوس بعدما أباد تسعة أعشار مدينتهم، ومع ذلك ستجلب ما كان بينهم من عرب المعقل المغافرة، وذوي حسان، ليجردهم ثم ليسلطهم على خصومهم من أبناء سوس، ولا شك أن كل ما سبق عن أحوال المغرب كان هو حديث علماء سوس فيما بينهم، ثم بينهم وبين مواطنيهم الذين فيهم مجال نشاطهم، وبالتالي في مجلس الأمير الذي انتهى بقناعة واقتناع إلى مشاركتهم الرأي، والحكم بفساد الوضع ووجوب تغيير المنكر.

لكن متى ظهر على الأمير التفكير في الثورة؟ الظاهر أنه فكر في الثورة منذ كان بمراكش وإلا ما السبب في عزله نهائيا عن الخلافة ثم إهماله وهو أحسن وأفضل وأكرم أولاد السلطان، إن لم يكن الدافع وشاية قريب من السلطان متصل بالأمير، أو بما حول الأمير، ثم نقل عنه مادفع بالسلطان إلى عزله، ثم إن المسناوي وهو الأستاذ والصديق المفضل عند محمد العالم والذي لا شك في بعض حالات التجلى كان أقرب إليه من نفسه، بعلمه ورقة أدبه ودماثة خلقه. واجماع الكبير والصغير على إكبار المسناوي وجلال قدره، ألم يكن يعلم بالثورة، ومتى بدأ التفكير فيها يخامر محمد العالم؟ بلا شك تعرف قبل غيره حتى قيل إنه حاول أن يلطف من اندفاعه بالشعر المنسوب إلى المسناوي(208) إن لم يكن مختلقا ممن أراد أن يبعد عن العالم الجليل تهمة الإطلاع التي إن ثبتت تطوح برأسه، بل صنوه الشريف بن إسماعيل ألم يكن قد بلغه خبر أن أخاه يعتزم الثورة وهو آخر متذمر من الوضع بل من والده وفي درعة التي حل فيها محل عبد الملك وجد سمعة محمد العالم تفوح بالعطر في كل ركن، وعلى جنبات الوادي الخصيب وبين أهله، وذلك ما دفع الشريف إلى أن يكاتب أخاه العالم ويصدر كتابه بقول سيف الدولة بن حمدان(209)

---

(208) الأسباب أوردها صاحب الاتحاف ج 63/4.

(209) هو علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الربعي أبو الحسن سيف الدولة : الأمير صاحب المتنبي وممدوحه، يقال لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم، ونجوم الدهر، ولد في ميافارقين "بديار بكر" 303 هـ/915م وتوفي في حلب ودفن في مسقط رأسه سنة 356هـ/ 967م راجع الاعلام للزركلي 118/5 ويتيمة الدهر 22.8/1 والوفيات 364/1 وزبدة الحليب 111/1 ـ 152.

أمير حلب وصاحب المتنبي.

رضيت لك العليا وإن كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرق
أما كنت ترضى أن أكون مصليا إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

ما القصد بهذه الفاتحة من الشريف إلى أخيه محمد العالم، يمكن أن يقال إن الشريف بعدما ثبت لديه بالممارسة وتعرف من خلال حياته بين الدرعيين كبيرهم وصغيرهم على ما انتشر وذاع بينهم عن فضل، وعلم، ونبل، وخلق، أخيه ومكانته التي سبق إليها قبل كل إخوته الذين فاقهم علما ومكانة بين الناس، يتمنى الشريف بن إسماعيل أن يلحق به على نفس النهج مقتديا بسلوكه، لكن الذي يستنتج من أحوال الناس في الأقاليم الثلاثة. تارودانت، ومراكش، ودرعة، بصفة خاصة، وأحوال البلاد بصفة عامة، بل وما كانت عليه من قهر وإذلال كان الشريف وغيره يتوجس بسبب ذلك ثورات وليست ثورة واحدة فقط، وحتى لا يكون معرضا للنقمة اختار اللحاق حتى يكون الموالي خلف الذي فاز بالسبق، بل إن الشريف الذي عين بدرعة في نفس السنة التي ثار فيها محمد العالم لا تكون مراسلته حسب رأينا إلا كما قررنا، بل إن بعضهم جاء بالبيتين بعد القصيدة التي كتب بها محمد العالم إلى أخيه زيدان وموضوعها الفخر، وهما في حالة حب. وهكذا إذا كان أهل سوس خصوصا العلماء والصالحين منهم، كلهم مع محمد العالم في ثورته كما يقول الكنسوسي السوسي في جيشه وأن "جل من ينتسب إلى العلم والصلاح منهم كانوا معه موافقين ومؤيدين فعله(210). وهم الذين مهدوا لثورة محمد العالم بالدعاية ضد الوضع، حتى إنهم وصفوا تصرفات السلطان إسماعيل وأنه لا يفعل إلا ما يشير به «الحراطين» من جانب، وعيش امباركة الرحمانية من جانب آخر، وأن الأمر الذي تريده هي يريده السلطان، والذي لم ترده لا يريده هو لشدة محبته لها

(210) الجيش العرمرم م خ نا ص 66 والاستقصا 72/7 ط 1956 على أن أكنسوس، دون غيره قال في حق محمد العالم "الأحمق الجاهل" وهو قول تفوح منه رائحة التملق المفضوح الذي تميز به أكنسوس السارق المفضوح الذي سطى على الروضة السليمانية لأبي القاسم الزياني، ثم نقلها حرفيا ظنا منه أنه لا يكتب لها الانتشار بعد موت مؤرخ الدولة العلوية العظيم، ونسي أكنسوس أنه كان من أنصار محمد العالم السلفي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، وذلك سبب غضب السلطان إسماعيل منه راجع الاستقصا 112/7.. وان كانت بداية التنافر ظهرت في عهد الرشيد كما تؤكد الوثيقة التي نتوفر عليها بخط الناصري نفسه والتي كتبها إلى الرشيد ينفي ما نسبه إليه الوشاة.

رغبته فيها، وأن هديتها تسبق هديته، ومن أراد أن تقضى حاجته عنده عزما فليهاديها قبل أن يلتقي به، وكان كل هذا وغيره يردد باللهجة السوسية منسوبا إلى أحد أولياء سوس الذي هو « عبد الرحمن بن مسعود النتيفي" نسبة إلى قبيلة أنتفة بأقصى سوس، وأنه تنبأ بذلك منذ عام الخمسين بعد الألف؟. وقد إتخذ السوسيون كلامه للإستدلال والتدبر بأحوال الوقت كما كان أهل الشمال وغيرهم يفعلون بالكلام الموضوع والمنسوب إلى المريض الفرجي عبد الرحمن المجذوب 909 هـ 976هـ 1503هـ-1569م، بل أصبحت المعارضة في سوس ومراكش ودرعة هي كذلك تنتحل وتنسب للمجذوب السوسي عبد الرحمان بن مسعود النتيفي، حتى إنها انتهت إلى القول أنه أخبر بقيام محمد بن إسماعيل على أبيه بتارودانت ؟؟(211).

(211) الضعيفي السوسي أصلا م خ نا ص 51 ويخبرنا جون وبنداس رفيق السفير الأنجليزي تشارلس ستيوارت إلى السلطان إسماعيل (رمضان 1133 هـ يوليه 1721م) أن ترجمان السلطان وأمينه اليهودي بن عطار أوعى إلى السفير وقد تأزم الموقف مع السلطان أن يتوسل إليه بزوجته أم العز التباع التي كتب إليها فأجابته أن يستبشر، وقد حصل ما وعدت عندما التقى النتيقي بالسلطان، راجع دعوة الحق السنة 12 عدد مارس 1969 ص 39 - 41. وهذا يؤكد كلام أهل سوس على لسان مجذوبهم النتيقي، وإن كان من درس شخصية السلطان إسماعيل دراسة واسعة يستعبد ذلك ولا يقبله، بل يرده إلى سياسة النقد الملفوف الذي تعوده الناس نحو الحاكم المستبد في كل زمان.

الفصل الرابع والثلاثون بعد المائة
إعلان الثورة وما بعدها

كان تحت إمرة محمد العالم بتارودانت ثلاثة آلاف من الفرسان وإذا علمنا أن الذين يعينون في مثل المهمة المنوطة بهم إلى جانب الخليفة السلطاني لا يبدلون ولا يتقلون، بل منهم من يبقى في الجهات المختلفة حتى بعد زوال الخليفة، نعلم كذلك أنهم اندمجوا في الجو العام هم وأسرهم، وربما كان بعضهم من مغامرة المعقل أو ذوي حسان الذين جندوا قبل من المنطقة وقد مضى عليهم فيها وفي الجو الذي سبق وصفه أكثر من ثلاث سنوات، وهي كافية لتمكين السوسيين من غزوهم بأفكارهم في السوق، بالمسجد، بل وفي بيوتهم التي كان المعسكر يتكون منها، وبذلك حين صدرت الأوامر للجند بالتحرك نحو مراكش قصد احتلالها ثم ضمها للإقليم الذي نشأت فيه الثورة لم يجد أدنى معارضة، بل وجد العون والدفع من قبائل سوس وأهل تارودانت الذين حموا ظهره، والاستجابة من أهل مراكش الموتورين بل المتظلمين الذين حك جلودهم الظلم بأظفار من حديد.

اختار محمد العالم لثورته شهر رمضان، حيث قام من تارودانت متوجها بجنوده نحو مراكش، وفي أوائله من سنة 1114 هـ/1702م وقبل أن يقتحمها دام حصاره لها مدة شهر تمت أثناءه الاتصالات مع أنصار الثورة الذين مهدوا له الدخول يوم 20 شوال من نفس السنة، بعدما طهرها من كل الذين اختاروا الوقوف في وجه محمد العالم، وأعلنوا الحرب ضده، وإذا ما انتظم المراكشيون ثم وجدوها فرصة مكنتهم من الإنتقام من جند السلطان وحاميته التي كانت بمراكش، فإن النجدة التي وجهها السلطان إسماعيل تحت إشراف ولده زيدان والتي كان قوامها آلاف الجنود، قد بلغ خبرها إلى محمد العالم الذي اختار مغادرة مراكش والعودة إلى مركز قوته تارودانت التي سيحل بها يوم فاتح محرم،

في حين وصل صنوه زيدان بجنود السلطان إلى مراكش يوم 16 حجة 1115هـ/1703م وما كاد يحل بها حتى بدأ يفتك بكبارها وصغارها بلا رحمة ولا تمييز، مدفوعا بأوامر والده الذي قيل له إن أهل مراكش كانوا على طوية أهل تارودانت، ولم يخرج منها زيدان متوجها نحو تارودانت إلا بعد أن مزقها شر ممزق، و"عاثت عساكره فيها"(212) لما توجه محمد العالم من مراكش إلى منطلق ثورته، وجد المعارضة قد نظمت صفوفها ثم جمعت حوله من العرب والبربر ما اشتد به أزره وعظمت شوكته،مما مكنه من تعديد المعارك ضد جند السلطان بقيادة زيدان حيث دامت الحرب ثلاث سنوات قيل كتب أثناء محمد العالم لأخيه زيدان شعرا في الفخر ضمنه إحساسه وصور به بعض دوافعه وآماله. وفيه يقول :

أبلغ الزيدان عني آية ... بسيوف العدل تشفى ذا الغلل(213)
كم لنا يا ابن العلا من وقعة ... كان منا الفضل فيها لوعدل
حصحص الحق ولاحت شمسه ... وزمان الغي ولى وانخذل
ولواء النصر خفاق ولم ... يبق إلا الجد قولا وعمل

تلك كانت آمال الأمير الثائر محمد العالم، لكن السلطان الذي لم يتعود التطويل في مثل هذه المعارك أصدر أمره بتوجيه أكثر ما يمكن من القوة لفك الحصار واقتحام المدينة الصامدة تارودانت، وبلغ هذا إلى بعضهم ممن كانوا حراسا على أبوابها، ودخل معهم الباشا عبد الكريم بن منصور التكني في المفاوضة من أجل تأمينهم، إن هم فتحوا أبوابها، وحصل الاتفاق على صبيحة يوم الجمعة منتصف صفر 1118هـ/1706 يفتح فيه أحد أبواب المدينة ليدخل منه جند السلطان بقيادة زيدان، ولم يكتم ذلك على الأمير الثائر حتى يتخذ استعداده لما عسى أن يختار، وفي الوقت الذي فتح الباب لدخول جنود

(212) الاتحاف 64/4 بل عم الظلم أرجاء البلاد ولم يسلم منه أحد راجع الاستقصا 97/7 ط 956.

(213) غل فلانا: وضع في يده أو عنقه الغل، وفي القرآن العظيم "خذوه فغلوه" وغل فلان غلولا : خان في المغنم أو في مال الدولة، وفي القرآن العظيم "ومن يغلل يات بماغل يوم القيامة" ومصدره غلا وغليلا، كان ذا غش أو ضغن وحقد. والغل : العداوة والحقد الكامن وفي القرآن العظيم ونزعنا ما في صدورهم من غل"والغلل أيضا شدة العطش، وحرارته، وفي زيدان بن إسماعيل كتب الوزير محمد العياشي كتابا سماه زهر البستان في أخوال المولى زيدان وهم بنو سفيان من عرب الخلط.

السلطان كان محمد العالم قد أخذ طريقه نحو جبل زكيتة بعد خروجه من باب الخميس، إلا أن قوات جند السلطان لاحقته ثم ألقت عليه القبض وعادت به إلى صنوه المشرف على قيادة الجند، لكن الأسير المقيد في الأغلال ما كادت كوكبة الجند تصل به إلى زيدان حتى ارتعدت فرائص هذا الأخير وتصبب عرقاخصوصا وقد كان يعرف مقاصد أخيه النبيل العظيم، ثم هو أكثر يعرف شطط القوم حول والده وفساد قواد جيشه وولاته، وأن غاية صنوه لم تكن غير الإصلاح الذي إذا لم يتم سوف تكون العواقب شرا، ان عاجلا أو آجلا..، لكن زيدان تحامل على نفسه وتجلد ثم تقدم ليعانق أخاه وقد اغرورقت عيناه بالدمع الذي كان ينزل بغزارة من عيون كل أهل تارودانت رثاء للأمير الشهم البطل بل العالم التقي وليس على ما ينتظرهم من الإبادة الشاملة التي حلت بهم وبمدينتهم التي لم يترك زيدان وجنوده على ظهرها حيا يرزق(214) وإنما على أميرهم الثائر وعلى الحق الضائع الذي لم يجد من يناصره ويدافع عنه أمام السلطان الواقع تحت ضغط الخيانة والغدر ودس الكائدين له. وبعد أربعة أيام وجه الأمير الثائر محمد العالم في أغلاله إلى مدينة مكناس، ولما وصل وادي بهت يوم 4 ربيع الأول 1118هـ/1706م(215) كان الجلاد في انتظاره ليقطع يده ورجله بأمر الوالد الذي يستدل من حكمه هذا على جهله بالواقع الدافع لابنه، وعلى حسن طويته وسلامة قصده، وأنه لا يريد من الحكم غير جمع الكلمة ولم الشمل وتوحيد الصف ومنعة البلاد وسلامتها، دخل الأمير الثائر محمد العالم الذي وقع عليه الحد قبل دخوله مدينة مكناس التي توفي فيها بعدما أملى وصيته : أن يدفن في مقبرة عامة المسلمين؟ وأن لا يبنى عليه ؟ وقبل دفنه وهو جثة فارقتها أكرم روح دبت في جسد ولد من أولاد السلطان إسماعيل، تعرض لدس الذين نقموا عليه أن يكون مكرما في نظر التاريخ والناس، وحتى لا يسجل التاريخ في حقه أنه سبق محمد بن عبد الوهاب

---

(214) يقول الزياني في البستان م خ نا 42 "مات فيها أمم وأعيان وقواد، ولما دخلت عنوة قتلوا جميع من بها رجالا وصبيانا ونساء." ؟ ؟ ؟ ".

(215) تقول رواية مصدرها الشرقي كاتب زيدان وردت في أعلام التعراجي العباس 12/6ط 1977 والذي ورد فيه ذكر م خ م 1428 أن القطع كان قبل يوم 16 ربيع الأول بيوم وليلة، وعند ابن زيدان في الإتحاف 81/4 خلاف ذلك، ونحن اخترنا رواية الزياني، وقد أورد صاحب الإتحاف قصة الثورة ونتائجها وما عرفته تارودانت من مآسي راجع ج 61/4 ـ 64 ـ 66.

إلى إشاعة ما استمده من ابن تيمية ونشأت عنه دولة النجديين، ودفن الأمير بالمقبرة العامة وهو اليوم في قارعة الطريق غيرمعروف من هو أمام الداخل لحارة عمر ولحصيني بمكناس، وتحققت رغبة الأمير العالم ولو بعدم تثبت بعضهم من مدفنه، بحيث قال بعضهم إنه دفن بضريح أبي زكري وهو خطأ، بل دفن في المقبرة المذكورة التي كانت ولا تزال لعامة المسلمين، إذ لم يشيد بها ضريح عمرو لحصيني إلا سنة 1252هـ/1836م كما هو مدون على الجدار الشمالي من قبة الضريح المذكور، وقد أورد ذلك ابن زيدان بنصه في الإتحاف "209/1" وهو من منشآت السلطان عبد الرحمان بن هشام.

وقبل أن يدفن محمد العالم قيل السلطان فضل أن يصلي عليه شيخ الإسلام أحمد العربي بردلة، الذي قيل أنه تلقى الخبر من حاشية السلطان، ومنها أن الذي قاده إلى حيث قام بالواجب نحو الأمير أنه قال عن الأمير إنه الذي لم يكن للسلطان إسماعيل ولد مثله"، لكن خصوم الإثنين اعتبروا ما صدر من بردلة تواطؤ ودسوا للسلطان أنه ما فعل إلا أنه يحبذ أعمال "عدوك" الذي كان يريد انتزاع الملك منك "وفعلا عاد السلطان إلى ما تعود المرجفون أن يخططوا له فيتبع، وهذه المرة مع جسد ولده الساكن الذي لم ولن يتحرك، وصدر منه نحو الشيخ الوقور الذي لم يجد أحسن منه قاضيا لمدينة فاس، علما، وخلقا، ونزاهة، حيث صدر منه ما كدر صفو الشيخ الذي صلى على الأمير ثم نسب له من القول ما سبق فكتب كتابا ليت الذين دونوه للتاريخ ما فعلوا إذ هو بقدر ما يعلي من شأن بردلة ينال من السلطان المسكين إسماعيل والذي يقول فيه «وحكاية ما صدر أن ذلك لم يكن من غير إذن وإنما كان بإذن جاء من قبل الدار العلية بلغ مبلغ الشهرة، وخرج عن طريق الشك، وكان أمرا مقررا وحديثا شائعا مكررا مع هذا لم أذهب لمحل إلا بقائد يقودني، ومترجم ينسب الأمر إلى الجناب العلي ... إلخ إلخ.."(216)

انتهى الأمير محمد وكانت نهايته على يد صنوه زيدان المتهور الذي حل محله ثم حكم تارودانت وإقليم سوس، لكن زيدان لم ينعم بالحكم ولا بالحياة بعد أخيه وقتل بيد المعارضة بعد سنة ثم نقل ليدفن(217) بجانب أخيه محمد العالم في رجب

(216) راجع الموضوع بكامله في الاتحاف 82/4.

(217) البستان 43 وفيه قال بالحرف وفي رجب عام تسعة عشر ومائة وألف ورد الخبر بموت زيدان بتارودانت، وأتوا به في تابوت ووصلوا به لمكناسة فدفنوه ليلا بجانب أخيه محمد بضريح عمرو لحصيني وقد أشار ابن الحاج في كتاب الأشراف ص 58 م خ نا إلى أن أبناءه بفاس؟؟

سنة1119هـ/1797م وان كان ابن زيدان قد زاد في عمره إلى رمضان سنة 1137هـ(218) مستدا على وثيقة "تحالف" بينه وبين أخيه أحمد الذهبي حيث قال إن الذي أمر بها هو والدهما؟ لكن ابن زيدان أتى في إتحافه حتى بما لا يستحق ذكره من الوثائق المصورة ولم يورد تلك التي كانت أحق لأنها تحقق مرحلة هامة من تاريخ حياة أحد أولاد السلطان الذين كانت لهم جولات وغزوات مما لا يعطي لقولة ابن زيدان من القوة ما يستحقه قول أبي القاسم الزياني رحم الله الجميع.

لقد كلف قتل محمد العالم والده كثيرا جدا من الألم والحزن إلى درجة أن الذي تقل مع السلطان إسماعيل عبر مواقفه القاسية لا يصدق ما حصل منه بعد قتله لأفضل وأحسن أولاده إطلاقا، ولعل الذين قالوا عن السلطان إسماعيل أن أخريات حياته كلها كانت ظلام في ظلام، تراكمت عليه فيها الأمراض، وأنه إلى جانب ذلك انقطع أكثر للعبادة والتهجد، وإذا صح ما قيل من أن أحد المؤرخين وجد بطاقة مخطوطة وكان كاتبها قد كتبها في حينها ولم تدون للتاريخ، وفيها أن أبا علي بن رحال العالم الجليل الذي أفتى بما نفذ في حق محمد العالم من حد، كان له ولدان، وذات يوم أمر السلطان اسماعيل باحضارهما ثم قتلا بأمر منه حتى يتعرف العالم المفتي على ما يعانيه الأب من جراح بسبب فقد الإبن خصوصا إذا كان مثل محمد العالم(219) وهذا يتنافى مع السلوك الذي قيل عنه إنه بعدما حصل رق قلبه وتألم، بل لجأ إلى التعبد والتهجد أكثر؟ ومن يفعل يتدبر قول الله تعالى «ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق» لكن هذا لم يتدبر حين الإقدام على قتل أربعة وعشرين ألف من آيت أمالو وجروان ومثلهم في مراكش وتارودانت وفاس وغيرها شرقا وغربا شمالا وجنوبا كما رأينا وسنرى بعد، ومثل محمد العالم حاول

---

(218) راجع الإتحاف 79/3.

(219) القصة رواها صديقنا الفقيه السيد محمد بن بوبكر التطواني الذي قال إنه وقف على ما ذكر ضمن محتويات خزانة المرحوم عبد الرحمان بن زيدان مؤرخ الدولة العلوية، على أنه لا أحد من المؤرخين تعرض لهذا ولو كان قد حصل ما ذكر لأشار إليه بعضهم، ولو بعد عهد السلطان إسماعيل، وعدم التعرض لذلك مما يشك في حصول الحادث؟ خصوصا وأننا سنتعرف على العباس بن رحال ابن أبي علي من جملة الذين سيعزرهم السلطان عبد الله بن إسماعيل بعد سنة 1147هـحين غادر العرش وتولى بعد صنوه المستضئ، ثم تزوج ببعض نساء أخيه عبد الله وكان الذي عقد مع العمري هو الفقيه المذكور.

أبو النصر الإبن الثاني للمولى اسماعيل الذي ثار أيضا على أبيه بناحية سوس عام1123 هـ/1711م إلا أنه فشل ثم لجأ إلى أخواله أولاد دليم بالصحراء فقتلوه عام 1125هـ، وقبل تلك عادة هؤلاء القوم وشيمتهم الغدر منذ كانوا وكما سجل عليهم التاريخ الكثير من المخازي.

لم يكن محمد العالم هو الذي ثار ضد أبيه فحسب، بل ثار بعده بأربع سنوات أبو النصر بن إسماعيل الذي قام في نفس المنطقة بسوس لكنه تعرض للقتل غدرا من طرف أخواله قبيلة أولاد دليم الذين من طبعهم الغدر. والذين ظنوا أنهم يتقربون بقتله للسلطان الذي جازاهم بعد بما يتفق وتطوعهم الظاهر النفاق، بل إن السلطان إسماعيل لم يعرف الإطمئنان النفسي بقية حياته، خصوصا من ناحية الجيش الناقم الذي لم تمر عليه سنة دون أن يقتل المتمردين من قواده(220) بل وحتى أفراد حاشيته الذين لم يستطع كسب ولائهم بما أغدق عليهم وبما ولاهم من أعلى المناصب مثل القواد الأربعة الذين قتلوا بمشرع الرملة مع سبعة عشر من الجنود، ومثل الخياط بن منصور كاتبه الذي أخرجه من السجن ثم ولاه درعة، وأخيرا قتله ومعه أخوه عبد الرحمن، بل وجدنا السلطان في هذه المرحلة لا يستقر له رأي فهو يكتب إلى أهل فاس يحررهم من الكلف المخزنية وإثره يكتب إليهم ثانية يخيرهم بين أن يكونوا جيشا أو نائبة، وبعدها يكتب لهم بالتوبيخ، بل إن مدينة فاس عرفت في هذه المرحلة الكثير من المعانات التي كان سببها عدم صلاحية العمال الذين تعرض بعضهم للعزل والبعض الآخر للقتل(221)، بل حتى الجيوش المرابطة في الثغور أخذت مواقفها تؤل إلى الضعف حتى إن الذين كانوا يرابطون حول مدينة سبتة تعرضوا في المحرم من سنة1133 هـ/1720م لفضيحة من جيوش الأسبان الذين باغتوا جيش المغاربة بقيادة أحمد بن علي بن عبد الله الريفي، ثم نهبوهم وقتلوا منهم نحو الألف بعدما استولوا على ما كان لهم من إمكانات ثم رجعوا إلى سبتة، ومنها إلى حجرة باديس، ورغم أنهم تركوا سبتة وليس فيها من جنودهم أحد بل لم يبق فيها غير

---

(220) نفس المصدر 98.99.

(221) المصدر السابق بل إن من أسباب معاناة مدينة فاس هو ما حل بها من عناصر واعية كانت تحرك بوعيها كلما رأت في ذلك مكسبا يؤدي إلى رواج بضاعتها.

السكان، فإن المغاربة وبحكم غياب سياسة الدولة وقد آل واقع السلطان إلى الشيخوخة والهرم والعجز لم يحرروها وإن كانوا قد استولوا على ثلاثة آلاف منهم(222) وما حصل ذلك إلا بسبب ما آلت إليه البلاد بحكم القوة والقهر من ملل عم الجميع حتى انتهى إلى المرابطين على الثغور، أولئك الذين كانت الأوامر توجه للقائد علي بن عبد الله الريفي الذي كان سلطانه يمتد حتى الناحية الشرقية ليفرض على القبائل الخاضعة لسلطانه ما شاء من الرجال، ثم ما شاء من المواد لتمويل الجيوش المرابطة، بالإضافة إلى تجريدهم من وسائل الدفاع، كما استنكر ذلك أبو علي اليوسي في مراسلته إلى السلطان إسماعيل المشار إليها قبل والتي حصل ما ورد فيها من تحذير إن لم يرفع الظلم ويتمكن العدل.

ورغم ذلك فإن شخصية السلطان إسماعيل لها ميزة خاصة وطابع خاص لا يشاركه فيه غيره من الملوك المغاربة الذين أسسوا الدول، أو الذين كانوا واسطة عقد دولة من تلك الدول، حقا إننا نجد بعضهم يصفه بنعوت قاسية منها "خروجه عن الدين.. والانغماس في الملذات... وأنه ذبح بيده عددا كبيرا من الناس لا يوما بعد يوم، ولكن ساعة بعد ساعة وهو ما عند الكاتب المابون روم لاندو أن السلطان إسماعيل كان يفعل ذلك ليرضي نزوة أو ليهدئ دفقة أعصاب أو ليدخل السرور إلى قلوب زائريه..؟ أو ليعلم درسا في الأخلاق، أو ليزيل الملل المستحوذ عليه، وقد قضى على كثير من بناته حين ولادتهن، أما أبناؤه الذين بلغوا المآت فقد أقصوا لمجرد إظهارهم شيئا من الطموح.. إلخ(223) وصاحب هذه النعوت نال من التكريم الكثير جدا ما لم ينل بعضه الذين شيدوا

---

(222) أرخ الزياني لذلك بسنة 1133هـ/1720م وعند القادري الذي نقل عنه كلامه الضعيفي والناصري، أنها كانت في فاتح المحرم من نفس السنة، وأن الألف المشار لضياعها تعرضت لكمين نصبه الاسبان بعد تكرار انهزامهم بقول ابن الحاج في الدر المنتخب، في كلامه عن حوادث سنتي 1133-1134هـ/ - 1720- 1721م ونلاحظ أن صاحب الدر المنتخب كثيرا ما يؤرخ للحوادث المتصلة بأوربا من غير أن نتعرف على المصدر الذي يستقى منه معلوماته الناضجة في هذا المجال.

(223) راجع المغرب في القرن العشرين لروم لاندو ترجمة خديم الاستعمار نقولا زيادة ص 21 - 22 ط بيروت نشر مؤسسة فرنكلين 1963م ونعتز أننا واجهنا روم لاندو بحقيقته ومعرفة سلوكه الذي لوكان للأخلاق رجال مسؤلون في المغرب لا ستحق الضرب على القفا بل وسحبه وهو متلبس بجرائمه التي يتأذى منها كل ذي خلق، لكن كفاه أنه مات بمدينة مراكش تحت وطأة ابنته التي عرفه بها الكبير و الصغير حتى قيل أنه مات بمرض فقد المناعة بعدما =

صرح مجد المغرب وقاوموا خصوم رمزيته وحرية شعبه. وبالتالي هذا هو السلطان إسماعيل العظيم في رأي رجل مأبون مريض انتهى به مرضه إلى هلاك في المغرب الذي وجد فيه أمثاله من المتلبسين الذين لا يعنيهم من المغرب وخلق المغرب والمغاربة الذي نعته هذا الأفاق في كتابه الآخر(224) بما لم يسبق ولم يعرف أن قاله في الدين حتى أولائك الأسرى الموتورين الذين نقل عنهم بعض ما نشروا من سموم ضد العاهل العظيم وزاد عليها، وليت هذا المأبون بعدما عدد هذه المساوئ غطاها بذكر المحاسن التي يشهد التاريخ بها للسلطان إسماعيل الذي أرسى قواعد الدولة الموحدةفي المغرب بعد مرحلة أواخر السعديين التي تمزق فيها المغرب تمزيقا لم يعرفه في تاريخه، ولولا إسماعيل الذي حماه وحقق له الأمن والقوة والوحدة لما استطاع الاستمرار بعيدا عن العاطفة التي أثبت التاريخ أنها نحو غير الصالح من الحكام الذين لا يستحقون التكريم تنتهي دائما إلى عملة مزيفة يرفضها الناس، بل نقول وللتاريخ إن مرحلة السلطان إسماعيل لم تكن مرحلة تركيز للدولة العلوية بقدر ما كانت مرحلة تأكيد وتمكين للذاتية المغربية الإسلامية في هذا البلد، وأن تاريخ الإسلام في هذا الجناح الغربي من عالمه ليحفظ للسلطان إسماعيل رغم اجتهاداته الخاطئة أحيانا أنه الذي دافع عن وجوده واستمراره، ثم أحاطه بفكرة تمكنت من شعبه فكانت الحصن الذي تظافر الكل على حمايته والذود عنه مهما تعددت المواقف واختلفت النزاعات، حتى أصبح العرش المغربي في المغرب القبلي أقوى وسيلة لجمع الشمل ووحدة الصف والذود عن الحما، ومن أجل ذلك اهتم المغاربة دوما بالشروط التي يجب أن تتوفر في الجالس عليه، ثم ربطها بالكتاب والسنة، وكلما اختل

=ضيع الأخلاق ونشر الوباء ولقد كان الذي سبقه لذلك في مدينة مراكش من الأنجليز، ونستن تشير شبل الذي كان التهامي الجلاوي يهيء له الجو المناسب فكان يرد عليها من حين لآخر... كما كان أمثالهما من بعض الأنجليز يقصدون مدينة طنجة التي لهم فيها تاريخ وسخ وقذر. ثم راجع "كتاب روم لاندو جرنال أوف مروكو" ص 181 ط 1952 وأذكر أن البليد قدمه لي مع الاهداء حين قدم علي في مكتبي بوزارة الداخلية عام 1959م جاهلا أنني تعرفت عليه وعلى ما فيه من إساءة إلى الدين والوطن منذ ظهوره وهذا التعليق أقدمه لزملائه في الصنعة الذين كرموه بقدر ما حقروا من شأن المغرب والمغاربة ومنهم الشيطان الأعور.

(224) راجع كتابه "جورنال أوف موروكو "ص 181 ط 1952 فقد قال في حق المغاربة أكثر وأخس وأن نساء أهل فاس كلهن عاهرات، بل حتى معلمي القرآن الكريم لم يسلموا من قذفه الرخيص وبذلك استحق التكريم من زميله في الصنعة شين العابدين.

الشرط تحلل الشعب من علاقته مع الذي انتهك واعتدى، وتلك قاعدة كانت منذ عهد إدريس وخلف ادريس، لكنها تعرضت في بعض الفترات للإهمال والزوال، فجاء السلطان إسماعيل في أظلم تلك الفترات وأكثرها ظلما ثم عمل على محوها ليحل مكانها عهد كلف البناء فيه ما عرف التاريخ في عهد إسماعيل الذي بقدر ما طال، طال صبر الشعب إسماعيل وتعددت متاعبه في سبيل التمكين للإسلام والمسلمين الذين ما ثبت أن السلطان إسماعيل فرق بينهم كأسارى في بلد من بلاد أوربا، بل وجولاته في القر والحر من وادي نول إلى وادي كيس، ما يقرب من الستين سنة، ومن أجل من كانت؟ هل من أجل نفسه وما ذكره في حقه مؤرخو أوربا الذين قطع عليهم الطريق، أم من أجل أولاده الذين لم يعهد لأحد منهم وإنما ترك الأمر لله وللشعب ثم فيما بينهم حتى يتولى القادر الذي هو أهل، وهذا ما سنقف عليه بعد، لكن قبل أن ننتقل كان يجب أن نتعرف كيف نظم السلطان إسماعيل المغرب وإدارته العسكرية في الوقت الذي انتهى من حروبه، إلا أننا تركناه إلى نهاية الفصل التالي كي نتعرف على مافعل جيش العبيد بذلك التنظيم، بل وبأولاد السلطان نفسه، ثم المشرفين عليه من رجالات الدولة الذين مكنوا لها، ومن ذلك تظهر جوانب الضعف في الجانب السياسي والإداري من حياة السلطان إسماعيل وما كان عليه من استبداد بعيد عن طبيعة الإسلام وخلق الإسلام الذي جعل الأمر شورى حيث يقول الله تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين» بل إن السلطان إسماعيل لم يركن إلى العلماء إلا في أواخر عمره، ومع ذلك لم يعمل برأي أحد منهم في مجال الحكم وإدارة شؤون الدولة، لأن الطبع يغلب التطبع كما قيل ولعل بعضهم يقول إن ذلك كان هو طابع العصر الذي كان يمثله لويس الرابع عشر من الأوربيين والسلطان إسماعيل من العرب والمسلمين.

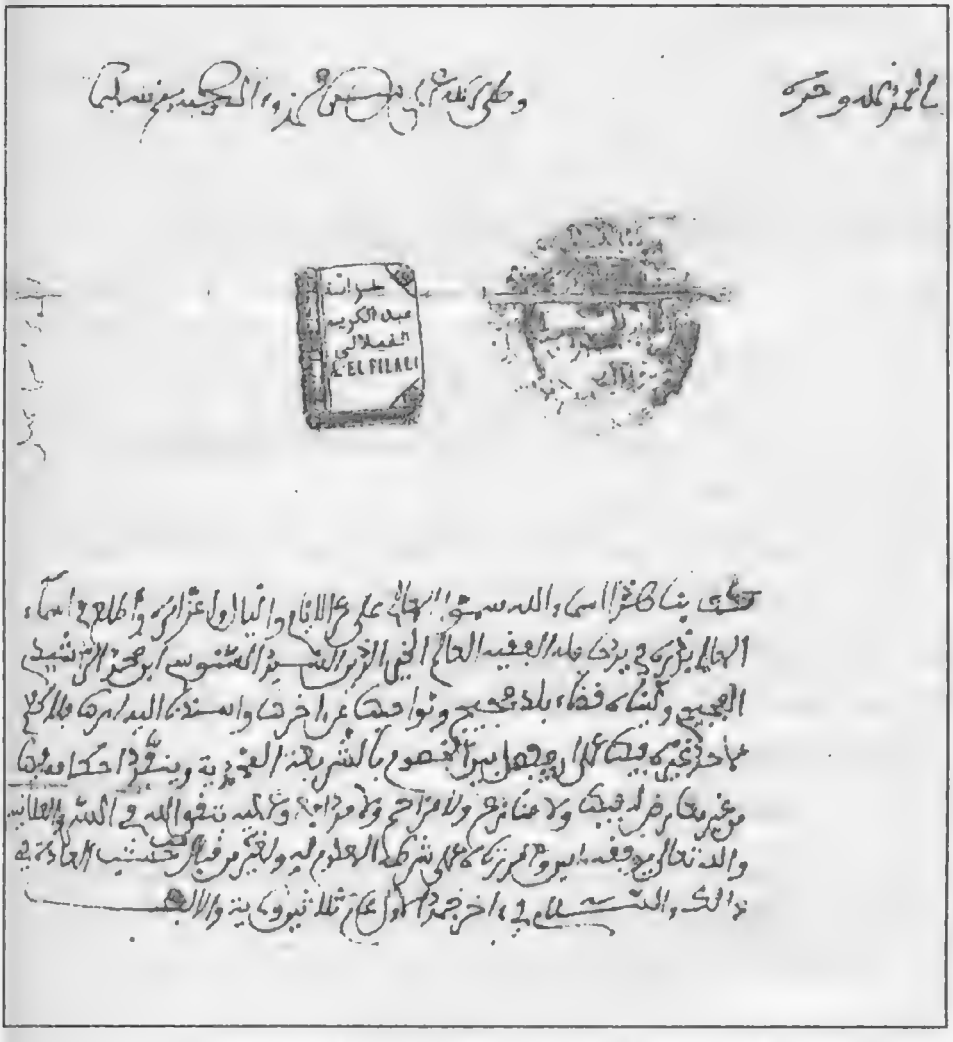

ظهير اسماعيلي باسناد منصب القضاء بفجيج إلى السيد السنوس
بن محمد الرشيدي 1130هـ/1717م

الفصل الخامس والثلاثون بعد المائة

مات السلطان إسماعيل ولم يعهد لأحد من أولاده

في الوقت الذي ارتفع المغرب كدولة إلى مصاف الدول ذات الاعتبار في مطلع القرن الثامن عشر للميلاد، وقرب منتصف الثاني عشر للهجرة، كانت صحة السلطان إسماعيل قد تدهورت، ووقتها قيل أصبح إقباله على مجالس العلم وملازمة العلماء أكثر، كما ازداد فكره السياسي نضجا وتفتحا، وأمكنه أن يقيم أعماله وأعمال أولاده الذين كان لهم ظهور على مسرح السياسة، لكنه انتهى آخر المطاف إلى عزلهم جميعا سنة1130هـ/1717م، ولم يترك غير أحمد بتادلة وقد سماه الزياني بولي العهد "بستان خ43-44 وعبد الملك في مراكش وسوس حسب الذي سنقف عليه بعد موت السلطان إسماعيل وظهور الإثنين على مسرح السياسة.

لقد عرف السلطان إسماعيل كيف يخطط لاستمرار الدولة متمثلة في العرش وليس لاستمرار أولاده أو بالأحرى غير القادر منهم، ذلك أن تخطيطه في ذلك اختلف كلية عن جل الذين تقدموا من الملوك العظام في الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، ذلك أنه أولا قضى على فكرة وجود الأجانب غير المسلمين في الجيش أولئك الذين عرفوا بأدوارهم الخبيثة رغم تسامح ملوك المغرب، منذ عهد علي بن يوسف بن تاشفين إلى عهد إدريس المامون ثم عهد الوطاسيين وأخيرا زيدان السعدي(225) تلك العهود التي عرفت كثرة النصارى وغير النصارى في الجيش وجهاز الدولة، فكانت النتيجة تمزيق المغرب وشتات أهله بفعل المرتزقة الأجانب ثم بفعل الذين كانوا يفسحون لهم مجال التدخل في شؤون الدولة من القمة إلى القاعدة، فالسلطان إسماعيل قضى كلية على فكرة جيش النصارى

---

(225) كانت ضمن جيش زيدان فرقة من الأنجليز حارب بها ابن أبي محلى كما أشارت إلى ذلك مصادر الانجليز راجع دوكاستر. في نفس التاريخ.

وجيش الأتراك داخل الجيش المغربي، وحتى جيش العصبيات القبلية، إلا ما كان من الذين أصبحت عصبيتهم تتمثل في تعلقهم بالسلطان إسماعيل «وولائهم لأسرته» مثل جيش البخاري وجيش الودايا، هؤلاء أصبحوا هم جيش الدولة بدلا مما كان يعتمد عليه قبل من استنفار للقبائل، وبذلك استطاع السلطان إسماعيل أن ينشئ الجيش الذي كونه حسب الخطة التي خطط لها على تعلقه بالدولة لا بالشخص الذي وإن اختلف عليه لا يختلف على ضرورة الرجوع إلى غيره من أبناء السلطان تلقائيا وبدون أن تتجه أفكار قادة الجيش إلى غيرهم بل وأصبحت في العرف والعادة تلك هي قاعدة الاختيار، وعلى ذلك النهج تبعتهم قبائل آيت يدارسن، وآيت يمور، وأهل الريف، ثم أهل فاس بل وغيرها من العناصر التي كان لها ضلع في سياسة الدولة وبيعة السلطان، وهذا ما كان يهدف إليه السلطان إسماعيل يوم أقدم على حرب ابن أخيه أحمد بن محرز، ولم يسترح إلى أن قضى عليه، بل يوم قضى بالحد على ولده محمد العالم، ويوم أقدم على هدم قصر البديع1119هـ/1707م الذي كان يغرى كل من باشر السلطة في مراكش ونواحيها بما لا يتفق وأهداف استقرار الدولة واستمرارها، بل ويوم أقدم على ذلك النهج الخطير الذي لم يعرف قبله والمتمثل في انتزاع الخيل والسلاح من جميع القبائل، ثم أنشأ معاقل الحراسة في عموم تراب المغرب، كل ذلك لم يكن السلطان إسماعيل ليفعله لولا أنه كان يدور في فكره التمكين للحاضر والمستقبل، ثم التركيز عليه وعلى الصالح من خلفه من بعده، مادام لم يعد في البلاد من يتحرك طمعا في السلطان، وهذا ما دفع به إلى عدم التلهف على تنصيب أحد من أولاده كولي للعهد في حياته، بل ولا على التعريف به ليتولى بعد مماته، فالدولة التي أسسها محمد بن الشريف ومكن لها الرشيد، وأرسى قواعدها إسماعيل، ثم مكن لها بالحديد والنار قضاء على الشر والأشرار، لم تكن في نظره دولة عنصر متميز على المغاربة ولا بين المغاربة الذين نظم السابقون مجتمعهم لم يكن أحسن تنظيم حين عرفوا كل طبقة فيه من هي، وما هي، بدءا من آل البيت الطبقة العليا اعتبارا بفضل آثار إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط إلى طبقة "العبيد والحراثين"، وفي عهد السلطان إسماعيل وضع، لكل فصيلة ديوان محكم، وقاعدة لا قدرة لقوة ما على المس بركن من أركانها، وهذا ما ساعد على تركيز حكم السلطان

إسماعيل نفسه، والتمكين له طول عهده الذي تجاوز نصف قرن بسبع سنوات كسلطان، عاش المغرب أكثر من نصف المدة في أمن ظاهر، واستقرار وإنتاج ورخاء، وإن تبين بعد أن ذلك كله كان من أثر ظروف العنف والقهر التي صنعها السلطان، ثم أحاط بها الشعب من كل جانب، أي أن الأمن والاستقرار وكثرة الإنتاج والرخاء كلها كانت تحت قوة القهر وقيود الأغلال التي لم يكن للشعب معها اختيار غير ما يوجه إليه، ولعمري أن ذلك الوضع مع الاستقرار أفضل وقتها من حياة السيبة والفوضى التي سادت بعد موت السلطان إسماعيل.

ومهما يكن فقد ثبت أنه كان للسلطان إسماعيل فلسفته السياسة، ومبادئه التي اقتنع بها ثم طبقها، في أطوار حياته، والتي كان يرتكز في أكثرها على آراء غير الفقهاء الذين كانوا في الغالب بدافع الترهيب يميلون مع اهوائه حيث مال، بل الواقع أن سياسته في مجملها كانت تهدف إلى تحرير الوطن من الدخيل الأجنبي وتقوية الدولة وسلامة المواطنين، وحسب ذلك النهج استطاع السلطان إسماعيل تحرير الموانئ التي كانت تحت الاحتلال، ولم يترك بعده غير محرر إلا مدن الجديدة وسبتة ومليلية، وما بقيت مدينة سبتة لم تحرر إلا لأن جهوده بعد اتجهت نحو الأطلس الكبير والمتوسط، إذ فيهما كان المناوئون له والثوار من أبنائه وإخوته يجدون القوة والعون.

كان هدف السلطان إسماعيل كما رأينا هو التمكين للدولة متمثلة في شخصه ثم في أسرته من بعده، ومن أجل ذلك لم يترك وكما تراآى له من المغاربة إطلاقا من يتوفر على قوة مادية كانت أو معنوية، يتطلع بها إلى الخروج على السلطان، إلا ما كان من قوة قواد الجيش الذي سيجدون أنفسهم وحدهم القادرين على التحرك في الميدان، بل سينطلق قواده كما ينطلق المارد من عقاله إثر موت صاحبهم وزوال نفوذه، فيعبثون بكل مشاشيد السلطان إسماعيل من أمجاد وأسس من نظم ، وتلك عاقبة الاستبداد وما ينطوي عليه من أهوال كما دون التاريخ قديما وحديثا.

لقد قيل إنه عندما اشتد به المرض وأحس باقتراب أجله أرسل إلى الفقيه وهو صديقه، ووزيره اليحمدي ليستشيره فيمن يصلح من أولاده ليعهد إليه من بعده فتردد اليحمدي في ابداء الرأي لأن الموقف موقف شهادة يدونها الحفظة ويسأل عنها. لكن أمام

إصرار السلطان إسماعيل قيل إنه أجاب بكل صدق وأمانة قائلا: «...إنه لا ولد لك...» فقيل إن السلطان رد عليه بقوله : "صدقت والله...؟(226) في حين أن الزياني سبق له أن وصف أحمد بن إسماعيل حين توليته على تادلة بولي العهد، وبها نعته يوم اختاره قواد جيش البخاري بعد موت والده(227) وقد ألح ابن زيدان على نفي ولاية العهد عن أحمد وإن كان يبدو على قوله التناقض حين قال إن السلطان نفسه أمر أحمد وزيدان أن يتحالفا، كما أنه أخر حياة زيدان إلى سنة 1137هـ في الوقت الذي رأينا وعليه اتفقت الروايات أنه قتل بتارودانت سنة 1119هـ، بل إن بعضهم يتهم زيدان بمثل ما اتهم به أحمد الذهبي،حتى قيل في رواية إنه قتل وهو فاقد الوعي من أثر الخمر، ولست أدري كيف يعلل اهتمامه البالغ بمن "سماه المملوك الإسباني وهو دمينيك الذي كتب زيدان في شأنه إلى «الفرايلي» الكبير بروين سيال» كما نرى صورة الرسالة المؤرخة ب صفر 1111 هـ والتي يظهر فيها إلحاحا كبيرا..

ومهما يكن فإنه في نظر التاريخ لا أثر للوصية بالعهد من السلطان إسماعيل لأحد من أولاده، لأنها لو كانت لما أهملها التاريخ الذي سجل كل صغيرة وكبيرة في حق السلطان إسماعيل وأولاد السلطان إسماعيل، ومن حق ابن زيدان وغيره أن يعجبوا مما أورده الزياني الذي أسند ولاية العهد لأحمد الذي سيبايع إثر موت والده وسيعرف بالذهبي، لكن الأعجب من ذلك هو ما أورده أكنسوس وانفرد به من شهادة على لسان

---

(226) أورد هذا أكنوس في جيشه م خ نا ص 72 وعنه نقل ابن زيدان في الإتحاف جـ 1/266، ونسي ابن زيدان وهو المالك لكناشة اليحمدي التي جمعها ولده بأمر من السلطان عبد الله بن إسماعيل أنه ورد في جـ 10 منها ص 105 أن اليحمدي محمد الذي سماه السلطان إسماعيل أحمد كما روى عنه المصباحي الذي كتب في حقه كتابا سماه "سنى المهتدي إلى مفاخر اليحمدي أنه ولد بقبيلة بني يحمد قرب جبل غمارة سنة 1060هـ وتوفي كما سجل ولده يوم الثلاثاء 21 رجب 1132هـ/ 1719م أي قبل موت السلطان إسماعيل بحوالي سبع سنوات، راجع الأعلام للمراكشي السوسي عباس التعارجي 29/5 وفي ذلك دليل على صدق ما وصف به أكنسوس من افتراء وسرقات لو تعرف عليها العربي المشرفي لفعل بأكنسوس أفظع وأشنع مما فعل به في حسامه المشرفي في الرد على الشاب العجر في أكنسوس مخطوط خ. ع 2270.

(227) البستان م خ ص 44. لكن الزياني لم يكن لقوله من القوة ما يقنع خصوصا وأن كل الظروف والمعطيات تجعلنا نتمثل قول اليحمدي الذي أورده عديم الأمانة أكنسوس رغم أن المؤرخ الثبت لا يرتاح لأكنسوس. إلا أن ما حصل بعد موت السلطان يؤكد أنه لم يعهد لأحد. ولو فعل لكان المعهود إليه من القوة إلى درجة يصعب على قواد العبيد بل الإخوة الخروج عليه.

البحمدي وأن ذلك رواه كما زعم وافترى على المولى سليمان التقي النقي الورع، وما كل ذلك في نظرنا الا من أجل ان يكذب الزياني الذي يعتبر كعبه فوق رأس أكنسوس لم يكن من الممكن أن يكون ما ذكره أكنوس صحيحا كما بينا لكن روايته عن السلطان سليمان مفضوحة ومشكوك فيها، ذلك لأن أكنسوس أولا لم يعرف بالصدق كمؤرخ بل عرفناه منتحلا وأحيانا مفتريا بشكل لم نعرفه لغيره من المؤرخين المغاربة المتقدمين إلى درجة أننا نجده في كل موقف قال فيه الزياني رأي حول حادث إنه سمعه من المولى سليمان الذي قضى كل حياته بالقرب منه يقول، أكنسوس كذلك نفس القول، وكان أكنسوس يفعل هذا في وقت متأخر أولا، وفي عهد فاته أن يدرك أن من عادة الزياني أن يستطرد في كل كتبه وأن يورد في اللاحق الكثير مما أورده في السابق، وهذا ما حصل له في «الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب» الذي وقف فيه على حوادث 1228هـ، ثم في الترجمانة الكبرى التي انتهى منها 1233 هـ، ثم في البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف(228) وكذا في تحفة النبهاء، والتاج والإكليل، وغيرها من كتبه، وإذا ما سلخ أكنسوس كتاب «الروضة السليمانية» وبعضا من البستان الظريف للزياني، فإن سبخوخته التي أوحت إليه بذلك حالت دون إدراكه أن كتب الزياني سيأتي عليها عهد تعرف من الاهتمام ما يكشف كل ما أقدم عليه أكنسوس بلا خجل ولا وجل، ولعل أكنسوس التجاني طريقة كان يقصد الحط من قدر الزياني المتحامل على التجاني بطريقته قبل أن يخرج منها أكنسوس هو الآخر وينضم إلى صف المعادين للتجانية، فيكتب فيه العربي المشرفي ما كتب(229) ولقد تعرف عليه بروفنصال الذي أراحنا من المقارنة بين الزياني وأكنسوس إذ لا مجال للمقارنة وذلك حين كتب حول التعريف بأكنوس ثم وصفه بقوله"... مؤرخا باهت اللون متحذلقا في كتاباته، وخصوصا

(228) نتوفر على نسخة كتب الزياني آخر صفحة منها بخط يده في ربيع الأول 1233 هـ. وهي التي نشرناها بمطبعة 1966 م وقد طبعت للمرة الثانية بواسطة مكتبة المعارف بالرباط. وتوجد نسخة منها في الخزانة كتب سنة1316 زاد فيها بعضهم ما يبرر مواقف أبائهم المفضوحة زمن فتنة ابراهيم بن اليزيد والتزوير ضد المولى سليمان بعد سنة1206 إلى 1236 هـ خصوصا بعد الحرب التي انهزم فيها مع آيت أمالو ثم تابع أهل فاس ابراهيم بن اليزيد حتى تظاهروا من القرض الذي أقرضهم المولى سليمان راجع تحفة النبهاء في التفريق الفقهاء والسفهاء خ.ع 241 ك.

(229) راجع م خ ع 2270 ص 1-12.5 الحسام المشرفي في الرد على الشاب العجرفي : أكنسوس.

التاريخية منها، مع أنه لم يكتب التاريخ إلا ليمدح ويتزلف(230) بل زاد الكاتب قائلا في حق أكنسوس الذي تطاول على الزياني(231) حتى يغطي فضيحته التي مسك بها، وكان لص اختلى بفريسة في الظلام حتى طلع عليه النهار، فوصفه بروفنصال الذي حلل "كتابه" الذي سماه "الجيش العرمرم "فقال في حقه" في القسم الأول اكتفى أكنسوس بانتحال ماورد حول هذا الموضوع - حكم المولى سليمان، والمولى عبد الرحمان - في كتابي سابقيه الوفراني، والزياني، فإنه حشر وأدمج في جيشه الفصل الأخير من نزهة الحادي، وقسطا وافرا من البستان، ولم يذكر إلا نادرا المصدر الذي أخذ عنه، ولذا يجوز لنا أن نفرض أنه لو ضاع البستان لتيسرلنا أن نتعزى عن فقده لأن الجزء الأكبر منه ثبت في الجيش"(232) والواقع أنه الروضة السليمانية التي لم يتعرف عليها بروفانصال، وقد سبق أن نبهنا لذلك قبل وأنه لم يميز بين الروضة والبستان. ذلكم هو أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس المولود 1211 هـ والمتوفي يوم 20 محرم 1294هـ=1796 - 1877م والذي يكفي ما سبق لإبطال شهادته التي نسبها لليحمدي والتي عمم فيها جميع أولاد

(230) مؤرخو الشرفاء ترجمة الأستاذ عبد القادر الخلادي رحمه الله ص 136 - 137 ط 1977.

(231) لقد زعم أكنسوس أن الزياني "لم يزد في بستانه على سلخ ما كتبه ابن الحاج في نفس الموضوع في حين أن الزياني أشار في أول الكتاب المذكور إلى المصادر والمراجع التي رجع إليها، ونسي أكنسوس أو تناسى ما كان يبديه للزياني من خنوع وخضوع يوم كان الزياني وزيرا بيده الحل والعقد، ولايفهم من تهجم أكنسوس على الزياني إلا أنه يريد تغطية ما فعل وإبعاد نظر الفاحص بدعوى أنه خصم في حين أننا نجد الزياني في التاج والإكليل م خ نا رقم 108 و م خ ع 241 ك ص 151 ذكر أكنسوس ضمن الذين كانوا ضد التزوير في البيعة التي زورها عبد الواحد السوسي ومن معه من السفهاء ضد المولى سليمان، بل إن الزياني وصف أكنسوس وصفا مشرفا حين قرن إسمه بإسم محمد بن إدريس العمروي بقوله: "ثم مؤيد هذه الشيعة السليمانية وأديبها المتمسك بعروتها وحسيبها، الذي هو في فنون الأدب رئيس أبو عبد الله صاحبنا محمد بن إدريس، ثم رضيعه في ثدي الأدب وشريكه في جرثومة الحسب والنسب، وأديب مراكش والسوس محبنا السيد محمد أكنسوس " فما بال أكنسوس وفضيحته على رأس يهاجم الزياني ولم يكن ثمه من دافع إلا الحسد المكشوف الذي يتعرف عليه كل من قرأ فقط كتاب "الروضة السليمانية" ثم اتبعه بقراءة "الجيش" ووقتها سوف لا يجد غير ما أشرنا إليه، أنه لو قدر وتناول الناقد أثرهما في حياتهما، لكانت فضيحة أكنسوس فظيعة حين يقرأ عليه ما سلخ حرفيا من عشرات الصفحات من كتاب الروضة السليمانية، الذي حسبه بروفانصال البستان.

(232) مؤرخو الشرفاء 142 لقد حصل للكاتب بروفنصال نفسه خلط بين الروضة السليمانية والبستان كما رأينا في ترجمة الزياني، وإذا كان أكنسوس قد سلخ "البستان" فإن ما فعله بالروضة أكثر، حتى إنه أحيانا أخذ الصفحات المتعددة حرفيا وهو ما يقف عليه القارئ بأقل مجهود وأبسط مقابلة راجع الجيش المذكور خ . ع 965 د.2121 والروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية ومن تقدمها من الدول الإسلامية 2114 ك.

السلطان إسماعيل الذين لا يمكن لأحد أن يقول أنهم كانوا جميعا كما وصف... بل كان نبهم عبد الملك التقي النقي، وزين العابدين إسما ومسمى، والمستضئ، وعبد الله الذي يعتبر نسخة من أبيه، لكن الزمان غير الزمان، والناس غير الناس، والذي لا يغفر له ما ارتكب من شطط في سفك الدماء رغم محاولة حفاظه على كيان الدولة وإثباته للآخرين أن ليس لإسماعيل خلف صالح من الأولاد والأحفاد إن ولاية العهد التي لم نحصل لها على نص كما سبق أن أشرنا لا داعي للدفاع عن أحد من أولاد السلطان إسماعيل أنها أسندت إليه، خصوصا وأن أحمد الذي قيل إنه ولي للعهد قيل في حقه ما سنتعرف عليه من رذائل أتى على ذكرها ابن زيدان نقلا كذلك عن أكنسوس الذي قال زعما وافتراء أنه روى أيضا عن المولى سليمان؟ بل إن ابن زيدان زاد مؤكدا عدم صحة نسبة ولاية العهد لأحمد، وحجته أيضا على ذلك أن عبد السلام بن السلطان محمد بن عبد الله هو الآخر لم يذكر أحمد بتلك الصفة في كتابه "درة السلوك وريحانة العلماء والملوك"(233) أما أكنسوس فقد قال في حقه : إنه كان لا ينفع حتى نفسه لعدم صحوه، فهو طافح دائما، وقد حضرنا مدة في مجلس القائد عبد الملك أبه الحاج رحمه الله وذكر بعض طلبته هذه القضية ـ ولاية العهد ـ فقال له السيد عبد الملك سبحان الله هذا غير صحيح، يعني العهد لمولاي أحمد من يوم مات والده وقدمه العبيد ما أفاق من سكرته إلى سكرات الموت..."(234) ولعل لهذا ما يؤكده من شهادة الأجانب حيث قال بعضهم في حق عبد الملك بن إسماعيل الذي زاحم أحمد يوم مات والدهما «إنه كان قنوعا زاهدا لا يشرب إلا الماء..؟ وكان متدينا شديد التمسك بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وقد استولى على العرش لخروج أخيه عن الجادة وتعاطيه للخمور...»(235) وصاحب هذه الشهادة كأجنبي لا يمكنه أن يختلق ما أدلى به في حق الإثنين وسنرى موقف كل منهما بعد.

وهكذا نستطيع القول بكل تأكيد أن السلطان إسماعيل لم يعهد لأحد من أولاده يقينا" منه أنه بحماية الجيش الذي صنعه لم يكن ثمة من يزاحمهم أولا و «حتى لا يقع

---

(233) اتحاف 266/1.

(234) الجيش م خ نا 172.

(235) الإتحاف 297/5 على أن الزياني في البستان الظريف 43 ـ 44 يقول فلما مرض السلطان مرض موته أن يقدوم ولده أحمد ولي العهد من دكالة فقدم وأقام مع والده ثلاثة أيام واخترقته المنية.

في محظور وهو مشرف على نهايته ثانية»، وحتى لا يوقع الشعب والجيش وعلماء الأمة في قيد لا يمكن حله ثالثا، إلا أنه رغم ذلك وقع في بعض ما حاول عدم الوقوع فيه، ذلكم أنه لم يفكر في الخطر الذي خلفه للمغرب والمتمثل في عقد مركب النقص التي كان يعاني منها قواد جيش "العبيد" الذين حاول التخفيف عنهم احتيالا بوصفهم عبيد لما جاء في صحيح البخاري، بيد أنهم لم يعتقدوا ذلك وإنما اعتقدوا ما كان الناس يعتقدون فيهم وأنهم عبيد سوق النخاسة رغم ما بأيديهم من قوة وسلطان. وجاه، بل وكل الدوافع للفساد والإفساد كانت بأيديهم وصدق الله العظيم القائل "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" وسوف نرى نهاية الطغيان متمثلا في ذلك الجيش وقواده بعد وفاة السلطان إسماعيل الذي انتقل إلى رحمة الله يوم السبت28 رجب 1139هـ/22-3-1727م ثم ترك المغرب وأولاده كذلك تحت إشراف باشوات الجيش وقواده بعد ماقسمه كما يلي بالإضافة إلى فرق حماية السواحل.

1) عمالة مكناس ويلحق بها زرهون وما حوله.
2) عمالة فاس ويلحق بها تازة وناحية الريف.
3) طنجة ويلحق بها تطوان وأصيلة ووجدة وفجيج؟!.
4) العرائش ويلحق بها وزان والقصر.
5) الرباط وسلا ويلحق بهما المهدية والبيضاء «أنفا».
6) ناحية دكالة ويلحق بها آزمور وآسفي..
7) مراكش ويلحق بها الصويرة وأكادير وسوس.

أما منطقة تافيلالت فقد كانت تحت حكم واحد من أبنائه دائما ولم يكن بها جيش كالذي كان بمختلف المراكز المذكورة، إذ لم تتجاوز حاميتها خمسمائة نفر، في الوقت الذي كانت الجهات الأخرى تتوفر على فيلق أو فيالق تعرف باسم "المحلة" له قائد أعلى، وقواد الأرحى، وقائد المائة والمقدمون، هذا بالإضافة إلى ست وسبعين قلعة موزعة على التراب المغربي شمالا، وجنوبا، وشرقا، وغربا، كما رأينا، وكانت تلك القوات في جميع المناطق المذكورة تخضع مباشرة للسلطات المركزية وللقائد الأعلى الذي هو السلطان، وقليل ما يفوض لغيره إلا ما كان من ولده محمد العالم الذي رأينا كيف كانت نهايته، ولا

نوتنا هنا أن نشير إلى أن قبائل آيت عطا دون القبائل كانت سائبة، وليس في عهد سماعيل فحسب بل منذ عهود بعيدة لأنها أولا كانت موحدة الصف وثانيا كانت تتواجد في أشد الأماكن وعورة .

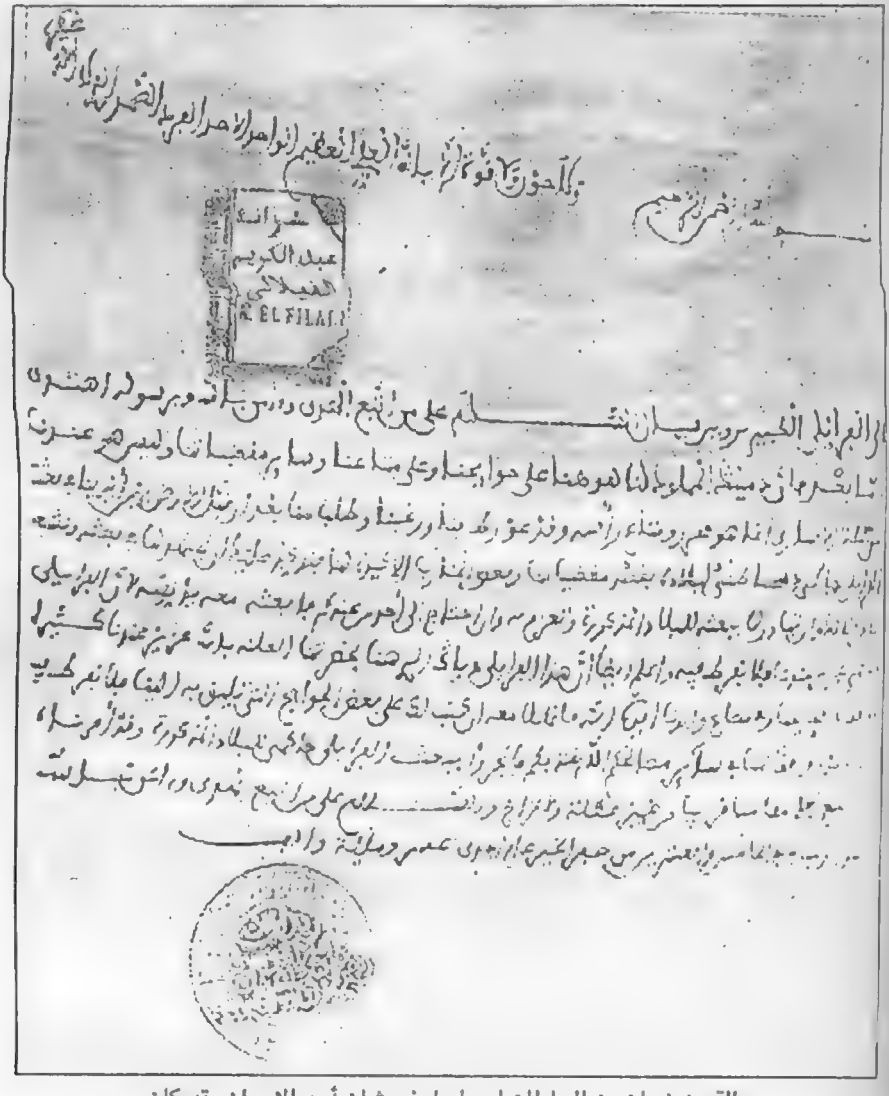

رسالة من زيدان بن السلطان اسماعيل في شان أحد الاسبان وقد كان
في خدمته بتاريخها 1111هـ/1699م

ظهير من الخليفة السلطان بفجيج عبد الملك بن اسماعيل الى ال الرشيدي
بتاريخ 1120هـ/1708م

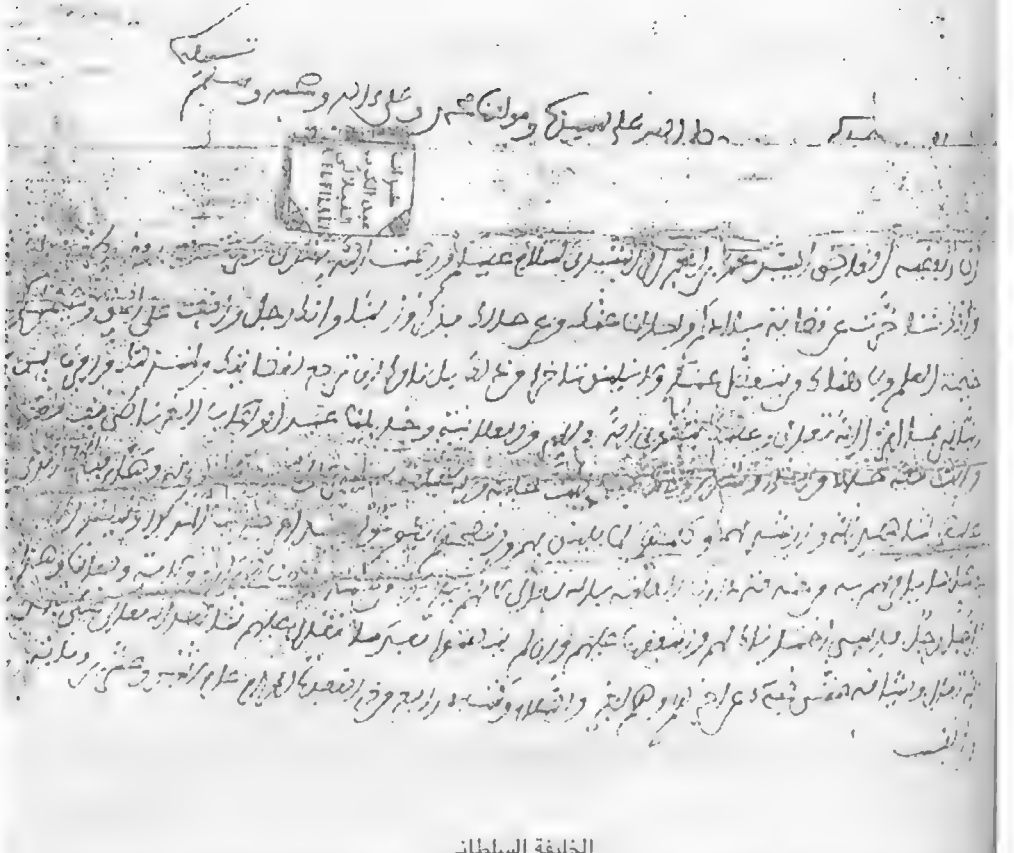

الخليفة السلطاني

ـ الملك بن اسماعيل يلح على محمد بن محمد الرشيدي حتى يستمر في منصب القضاء الذي تخلى عنه بتاريخ

1122هـ/1710م

الفصل السادس والثلاثون بعد المائة

المغرب ومآسي ثلاثين سنة من حرب الوراثة

إنه استبداد جيش العبيد ورد الفعل وانفجار المركب الذي تراكم في النفوس زمنا غيرقصير، عندما توفي السلطان إسماعيل ترك من أولاده المؤهلين للملك عددا كبيرا، عرف منهم على مسرح السياسة في العقدين التاليين أحمد الذي لقب بالذهبي، من كثرة ما نثره على الجيش بلا وعي ولا حساب، ثم عبد الملك، وعلي الأعرج، ومحمد ولد عربية، والمستضئ، وزين العابدين فعلا ولقبا.

هؤلاء الذين نصبهم الجيش ولما بويعوا جزئيا تعرضوا لسفه قواد جيش العبيد، أما الذين كان لهم ضلع في السياسة ولم يبايعوا فهم كثيرون، نذكر منهم الناصر، والمستنصر، والمهتدي، والعباس، وغيرهم، وكان بعض أبناء السلطان إسماعيل هؤلاء على جانب من المعرفة، ولم يكونوا غير متعلمين كلية كما تشهد بذلك تراجم بعضهم في مختلف مصادر تاريخ المغرب وما بأيدينا من وثائق تقر ذلك وتؤكده، ومع ذلك استطاع سفهاء قواد جيش العبيد الذين تخلصوا من أغلالهم بعد موت السلطان أن ينطلقوا كالردة. وأن يبحثوا لهم عن فريسة ينتقمون منها فلم يجدوها أقرب غير أبناء السلطان الذي اتخذهم عبيدا ولم يكونوا بالعبيد أصلا، على أننا حين نعود فنقلب صفحة تلك المأسي من جانب آخر نجدها تفصح لنا عن واقع كان لا بد من ظهوره حتى ولو أن السلطان إسماعيل ترك وصية موثقة يولى بها أحد أولاده من بعده، ذلك لأن حتمية التاريخ تؤكد أن ما أصبح عليه ذلك الجيش الشبيه بانكشارية آل عثمان والطريقة التي حكم بها السلطان إسماعيل وما كان لذلك الجيش فيها من نصيب كان لا بد أن تنتج بعد زواله ما عرفه المغرب من فوضى وأغلال في مرافق الدولة التي لم يهيء لها السلطان من بعده ثم يعطيه الفرصة حتى يظهر بكفاءته وصلاحه وتتعرف عليه دواليب الدولة

ورجالاتها، وقد كان من بين أولاده الذين ذكرناهم قبل من هو أهل لذلك، لكن ولسر خفي لم نتعرف عليه، وان كان حسب الذي يظهر لنا أن طبيعة روح الاستبداد حينما تستولي على شخص ما تحول بينه وبين رؤية غيره في الميدان، مهما كانت الصفة التي يتصف بها الشخص حتى ولو كان ولده.

هذا ما أدى بالسلطان إسماعيل الذي كان يرى أن نتيجة رأيه الفردي وغراسه المتمثل في الجيش كوسيلة للاستقرار، قد أثمرت في نظره، وإن كانت ثمارها لا تعني الدوام والاستمرار، وإنما هو أمن واستقرار بقوة الحديد والنار، خصوصا وقد عاشت الدولة في عهده ولا رأي لأحد في سياستها غير رأيه، وحتى آراء الأربعة أو الخمسة رجال الذين عاشوا معه زمنا غير قصير ثم تحملوا بجانبه بعض أعباء الدولة ومكنوا لها أمثال اليحمدي، وعلى ويش(236) والريفي، ومرجان الكبير، ومرجان الصغير، وابن العياشي، لم يكن لهم رأي ناتج عن اجتهادهم ومعطيات معارفهم حسب ارتباطهم بالشعب،وإنما كان وبدهاء ـ مكنهم من الاستمرار ـ مستمدا من رأي السلطان إسماعيل الذي عرفوا كيف يتكيفون بأفكاره، ويستمدون منه، ثم يعيدوا إليه ما أمدهم به من بضاعة ملفوفة بعدما تكون قد فقدت مميزاتها الأصلية، ويكفي للاستدلال ما فعله علي ويشو مع قبائل البربر التي نزع منها السلاح دون أمر من السلطان، ولما سأله أجاب بما يتفق والخطة التي خطها السلطان نفسه، وأدركها ذكاء "البربري" المنافق المتلون طبعا، فظن السلطان غير ذلك وأقبل عليه ثم فوض له في جميع قبائل البربري التي لم يسأل بعد قط، على أي فعل فعله فيها، وكان من أفعاله كثرة القتل وسفك الدما بلا حسيب ولا رقيب،ومثله كان علي بن عبد الله الريفي في الشمال إلى أن دفع أولاده الثمن على يد عبد الله بن إسماعيل بعد.

حقا لقد استطاع السلطان إسماعيل أن يقضي على كل ما يهدد الدولة والوطن سواء في الداخل أو الخارج، ثم هو ترك الدولة في أعلى درجات القوة والسلامة، من كل تهديد، وحسب خطته التي رسمها في القضاء على عنصر المنافسة لاسرته في البلاد، لكنه نسي الشيء الأهم في استمرار الدولة، وهو علاقة الحاكم بالشعب أولا ثم صدق ولاء

(236) نعود فنكرر أن كلمة يش عند البربر تعني يوسف، وعلى ويش هذا كان من بني حكم.

حاشية ثانية، أما الأولى فقد رأينا أنها لم تكن بالقدر الذي يسمح لنا بالقول أنها سادقة، وأما الثانية، فقد عرفنا التاريخ أن حاشية السلطان إسماعيل التي يمكنها أن تؤثر، كانت لا تتجاوز أصابع اليدين وأنها بدورها كانت تحيا وتعيش على نفس النهج بالطريقة، تحيط بها هالة من الخوف لا علاقة لها بالحب والمحبين.

كان السلطان إسماعيل كما أشرنا يباشر كل صغيرة وكبيرة بنفسه، وكان من الحزم إلى درجة أن من حوله كانوا يحيطوه علما بكل شيء يجري حوله، مادامت له علاقة بشؤون الدولة، وقيمة الآخرين عنده مهما تعددت أصنافهم تعرف بقدر ما يتصفون به من الحزم والعزم، وصورة الشخص حتى ولو كان من العملة في البناء مقرونة دائما بما يتقن وينفذ من أوامر، وإن هو أساء ومهما كانت الأسباب تكون النهاية غير سارة، ومن الذين حوله من بدأ حياته طفلا وقد انتهى إلى الإشراف على الشيخوخة، وربما يكون من الذين يحملون رتبة عسكرية، لكنه وأسرته يسكنون في كوخ قوامه قصب وتبن يطين "نوايل" ولا قدرة لأحد مهما كان على تبديل حاله وأحوال الآلاف من أمثاله إلا السلطان والقواد الكبار في الجيش، أولئك الذين دبت العلل في أجسامهم من كثرة الدروب، وفي العشرين سنة الماضية قبل موت السلطان، لم يكونوا يعرفون غير الجلوس حول قارئ السير: سيرة الظاهر بيبرس، والسيرة الهلالية، وكم فيها من مواقف سياسية خاضها القواد الكبار في سبيل أن يحققوا في الحياة ما حرموا منه بسبب قوة الحاكم المسيطر، وأنهم لا يتنفسون إلا في ظل الحاكم المنحل الضعيف، والسلطان إسماعيل من الصنف الأول الذي كان القوم مهما علا شأنهم فهم في نظره من الذين ولدوا أمامه ثم بدأوا حياتهم بسوق الحمير، وهم اليوم "قواد كبار يتحكمون في قواد الأرحاء(237) وغيرهم من الباشوات، ومع ذلك فهم العبيد أولاد العبيد وينتجون العبيد لا في نظر السلطان فحسب، بل وفي نظر الشعب الذي لم تكن تربطه بهم غير رابطة الخوف وما ألفوه من تسلط يؤكد نزعة حكم الاستبداد.

هؤلاء هل كان السلطان إسماعيل في نظرهم وهو الحائل بينهم وبين فريستهم

---

(237) الإسم مأخوذ من رحى الحرب حومتها، ويقال دارت رحى الحرب نشبت، ودارت عليه رحى الحرب مات راجع المعجم الوسيط ج 335/1 وقائد الرحى في عرف الجيش المغربي قديما، هو الضابط المشرف على خمسمائة من الجنود، وتحت امرته خمس قواد، كل واحد منهم يترأس مائة مقاتل ويعرف ب قائد المائة، وهذا تحته خمسة مقدمين... راجع د الإسلامية 219/7 مادة جيش.

سواء كان الشعب أو بيوت المال محبوبا بل ولا مقبولا؟ إن علم النفس أفادنا أن الولد يكره والده الذي يحول بينه وبين ما يحب، بل وبين ما هو في أشد الحاجة إليه إذا لم يكن له مصدر غير الذي يضع الوالد عليه يده، وقد عرفنا تاشفين اليغمراسني وأبو عنان المريني على حقائق تركز قواعد علماء النفس والسياسة والاجتماع فكلاهما من أجل العاجلة كان السبب في قتل أبيه وكم لهما من نظير. فكيف بالعبيد الذين كان كل منهم يتمنى زوال المانع حتى يجرب ويجرب الناس، والجديد مهما كان وبأي ثمن كان فهو مقبول، ولا يخطئ الاستنتاج إذا قيل إن السلطان في أخريات حياته وحين دب الضعف في جسمه كان يحس ذلك من الجميع، حتى من أولاده، وإلا ما المانع من الوصية بولاية العهد ثم ترك الأمر للأصلح إن لم يصلح المعهد إليه.

مهما نحاول بدافع عاطفة الحب والتقدير للسلطان إسماعيل وتاريخه الذي هو تاريخ المغرب وأمجاده، أن نلون صورة حياة المغرب في عهده حتى نلطف من التمزيق والتشويه الذي أحدثه فيها كتاب الغرب الأوربي من جانب، وكتاب المغرب القدامى والمحدثين الذين اعتمدوا أكثر على كتابات الغربيين المشار إليهم قبل، فإن تلك اللوحة التي جفت ألوانها ثم طبعت رسميا بمصادقة المسؤولين في هذا البلد على إنتاج المرتزقة وعشاق الفولكلور الذين سمح لهم بوضع بصماتهم على تلك اللوحة التي زادوها تشويها وغرابة، فإن عملنا وعاطفتنا لم ولن يغيرا من ذلك الدس الذي أصبح واقعا صريحا ومسلما في نظر كل الدارسين لتاريخ المغرب من خلال ذلك الانتاج الغامض الغريب الذي نال بعض أصحابه كل التكريم من الحكام والمسؤولين في المغرب وفي ذلك أقوى اعتراف لهم وبما كتبوا.

لعل من الأسباب التي سمحت لكل الذين تناولوا الكتابة حول هذه المرحلة من تاريخ الدولة العلوية أنهم لم ينتبهوا لانعدام القاعدة الأهم من القواعد الراسخة التي تقوم عليها سياسة الدولة وبنيانها في كل زمان ومكان، والتي أهمل السلطان إسماعيل إقامتها والمحافظة عليها بل عمل على زوالها والقضاء عليها في تاريخ حياته أكثر من السابقين، تلكم هي قاعدة الشورى والبحث عن الرأي الأصلح بين آراء الآخرين، إذ على كثرة الدواوين وما عرف من تنوعها فيما يتعلق بإدارة الدولة في عهد السلطان إسماعيل، لم يفدنا التاريخ أنه كان من بينها ديوان الشورى، فعلى كثرة ما توفر لابن زيدان الذي كتب

حوله كتابا أسماه "المنزع اللطيف" لم يجد من بين تلك الوثائق ما يسمح بكتابة فصل خاص بالشورى في عهده، بل رأينا عبر حياة السلطان الطويلة أن الجيش وقيادته، بل والاخرين من رجالات الدولة، مثل القائد علي ويشو وعلى بركة، والريفي، وغيرهم من الذين انطلقوا بعنف في نفس الاتجاه الاستبدادي، لم يكن لهم رأي حتى في معارك القتال التي تتطلب الكثير من الحزم والعزم وصالح الرأي وحسن التدبير لأنها تعني أرواح الآلاف من البشر أولا، وكمسلمين مغاربة ثانية، بل نفذوا من خطط الغزو والقتل بلا مبرر يعتبر، ما سبق ذكره في آلاف الرجال، من قبائل آيت أمالو ثم قبائل كروان، وفي تادلة، وسوس ومراكش وفاس، مما كانت نتائجه غير سارة بالنسبة للجيش الذي شب وترعرع دون أن يعرف في حياته غير الحروب الطاحنة وسفك الدماء والمآسي التي طبعت نفوس قادته وحياة أفراده على اعتقاد الشر ضد الشعب، كما كان الشعب يبادلهم نفس الشعور، لأنهم في نظره القوة التي تنفذ بها أوامر الظلم الذي كان الطابع المميز لكل ذي سلطان وما حول السلطان في ذلك العصر بصفة عامة وليس في المغرب فحسب.

وهكذا رأينا إذا ما عرف المغرب فراغا بموت السلطان إسماعيل فإن أحدا غيره مهما كانت مكانته ما كان ليرقي إلي الحكم في الجيش وقواده، بل كان الجيش وحده الذي في استطاعته ملء الفراغ بما كان يسيطر عليه من مواقع، وما تحت إشرافه من سلاح، ناهيك وأن روح الهيمنة التي عرف بها السلطان إسماعيل كان المشرف والمنفذ لها هو الجيش الذي تطبعت قيادته بنفس الطبع، وإذا كانت قياداته قد عاشت كيف كانت الأوامر تصدر ولا تناقش فإنها مثلت نفس الدور حين فكرت في تنصيب أحمد بن السلطان إسماعيل وإعلان بيعته وهو الذي لم يعرف الصحو من الخمر كما قال أكنسوس وتبعه ابن زيدان دون إعطاء الفرصة لأحد في إبداء الرأي فيه ولو كان أبناء السلطان أنفسهم، وبسبب تلك الهيمنة قيل في حقه ما نسب إلى العلامة أبي علي بن رحال : «بموت هذا الجبار يعرف الواحد القهار» لكن رغم ذلك سجل التاريخ ولازال يحفظ أن السلطان إسماعيل بن الشريف كان من أعظم ملوك المغرب، والذي لو لم يكن كذلك لانتهى المغرب إلى أسوأ مصير، بل إن عمله كان يصدر عن صادق قصد ونية أصدق، ولذلك سوف تعمل يد الهدم بعنف طيلة ثلاثين سنة بعد موته، دون أن تنال مما بناه السلطان في صرح الدولة العلوية.

الفصل السابع والثلاثون بعد المائة

أحمد الذهبي وبداية المآسي

سبق لنا التعرف على أحمد بن السلطان إسماعيل الذي سيلقب بالذهبي لكثرة ما نثره بلاوعي ولا حساب على جيش العبيد، ولقد اتفق رأي الذين ترجموا لهذا الأمير أنه لم يكن صالحا ليحل محل السلطان الراحل، ورغم أنه كان كما قيل في حقه، فإن قيادة الجيش اتفقت على تنصيبه سلطانا، واختياره من بين إخوته، ولم يكن اختيارهم الذي فرضوه بحد السيف والذي تبعهم فيه رجالات الدولة وحتى العلماء وذوي الرأي لاخوفا ولا اعتباطا، بل كان بحساب كانوا قد صفوا حسابهم مع ابن الروسي عامل فاس وجماعته التي اذلت الجميع، وبمقارنة انتهت باختيار أحمد الذي قيل لم يفصله والده عن عمله كخليفة له بتادلة يوم فصل جميع أبنائه عن العمل، فلم يترك سوى أحمد وعبد الملك الذي كان بمراكش وسوس، وذلك عنصر حسبه قواد الجيش حتى يحققوا مقاصدهم من عناصر التزكية إن لم يكن أهمها، لقد اختير أحمد من طرف الذين عرفنا ماكانوا يعانون من الحرمان في الوقت الذي يعلمون ما تحويه الخزائن من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والتي لا يحول بينهم وبينها غير السلطان القوى، لذلك اختاروا أحمد الذي سوف لا يسأل عما دبروا ولا عما سيقومون به من تخطيط بلا شك بدأ منذ كان السلطان قد انقطع عن الناس بسبب مرضه الذي اشتد ، والذي عرف أنه سيكون سبب نهاية حياته، ومن أجل ذلك أيضا استقدم الأمير أحمد من تادلة قبل ثلاثة أيام على موت أبيه، وربما في هذه الحالة لم يكن للسلطان إسماعيل رأي في استقدامه، وإنما كان المدبر من قواد الجيش.

بويع لأحمد، وكان من جملة الذين بادروا بالبيعة أهل فاس الذين وجدوها فرصة لينقضوا على فريستهم المتمثلة في عدوهم الألد العامل ابن الروسي وأنصاره الذين بلغوا

الثمانين قتيلا،مثل بهم أهل فاس الذين لاشك أنهم اتفقوا على ذلك مع قواد جيش العبيد الذين مهدوا لوفد أهل فاس حيث استقبله السلطان أحمد الذي تقبل من أفراده الهدية والبيعة دون أن يثير معهم أي شيء، ولم يظهر أنه ساخط على ما اقترفوا من جرم وارتكبوا من فظائع(238)، بل أكرمهم فردا فردا وبالغ في إكرامهم حسب توجيه قواد الجيش المتزعمين للبيعة، والذين يعلمون أن رفض أهل فاس معناه إثارة الفتنة التي لا شك ستجر معها اتفاق البربر، وبالتالي قيام المنافس من أبناء السلطان، ولقد كان حسابهم خاطئا كما سنرى لأن هناك من كان إذا قال فعل، وفعله أقوى وأكبر تأثيرا وهم أهل سوس الذين يوجد بينهم عبد الملك بن إسماعيل وهو أقرب إلى القبول بما عرف عنه من استقامة وخلق كما سنرى.

وهكذا فإن أهل فاس الذين قتلوا عاملهم وثمانين آخرين معه، عادوا من مدينة مكناس وهم يحملون أوامر بتعيين من ارتضوا للقضاء الذي اختاروا له محمد المسكيني والحسبة الطيب المريني، والعمالة محبوب العلج(239) وهكذا تمت وتواصلت البيعات من مختلف الجهات، إلا ما كان من أهل سوس الذين بايعوا عبد الملك بن إسماعيل، ورغم ذلك فقد بقي المظهر الكامل للدولة كما كانت في عهد السلطان الراحل، لأنه صنع لها رجالا ألفوا سياسة العصر وما تميزت به من تطاحن بين الأخوين، ولم يفرق بين عهدهم وما يمثله بعد موت أحمد المنصور غير حياة الأخوين الرشيد وإسماعيل اللذين قضيا على آثار تطاحن أبناء المنصور وما نتج عن ذلك من تمزيق بسبب الذين أمكنهم أن ينافسوهم، ففي عهد أولاد السلطان إسماعيل لم يكن لتلك العناصر وجود وحتى من تخيل واندفع مثل الخارف لوقش وأحمد بن علي الريفي سينتهيان إلى هلاك.

إن قيام عبد الملك بسوس ومراكش لم يكن بالأمر الذي يهدد مخطط قواد الجيش، بل إنه وسيلة الضغط التي جادت عليهم بها الظروف، بل الذين يهددونهم ويهددوا

---

(238) راجع البستان ص 46 ـ48 والإتحاف 267/1.

(239) نفس المصدر السابق الإتحاف، وكان ابن الروسي هو الذي سلطه السلطان إسماعيل مع أخيه أحمد على أهل فاس سنة 1133هـ/1720م ثم أمرهما بقبض المال بلا حساب من أهل فاس، مما أدى إلى كثرة الهجرة وإخلاء المدينة التي فر منها أهل اليسار، بل بلغ الطغيان بابن الروسي إلى أنه قتل رسول السلطان لأنه دخل عليه بدون استئذان وبلا شك كان الرسول من عبيد البخاري.

مخططهم بالإجهاض عليهم أن يزيلوهم من الطريق، وهم أولئك الذين يمثلون الإستمرار بالنسبة لسياسة الدولة الإدارية من الذين بيدهم مراكز التسيير، ولذلك أوحوا إلى السلطان أحمد أن لا سلطان له بوجودهم يتصرفون عمليا في مقدرات الدولة التي ليس له منها معهم غير الإسم، بل لا سلطان له إلا إذا زالوا وزوالهم يقتضي القضاء عليهم والخلاص من كل أثرهم ومن هم هؤلاء الذين صورهم العبيد لأحمد بهذه الصورة المرعبة؟ إنهم أهم رجالات الدولة الذين كان السلطان إسماعيل يعتمد عليهم كل الاعتماد والذين بذل في سبيل تكوينهم العشرات من السنين حتى أصبحوا جزءا من حياته وحياة الدولة، لأنهم شاركوه بناءها بإخلاص لمقاصدهم التي تحققت وتعلقهم بشخص السلطان الذي عرفهم وعرفوه، بل عرفوا سياسته التي كان يعلم أنها ستستمر ماداموا ولو بعد موته وبذلك لم يتخوف على مستقبل الدولة وهؤلاء هم :

1) ابن الأشكر : عامل جبل زرهون والمشرف على أعشار البوادي من مواشي وزرع وزيوت وغير ذلك، وهو الذي يحاسب أمناء وقواد القلاع التي يتواجد بها الجيش في مختلف الجهات شرقا وغربا والذي كان بلا شك للعبيد معه حساب طويل لأنه كان يعرف ما يزنه كل واحد من أولئك الذين عنده عبيد مهما بلغوا.

2) علي بن يشو : قائد أهل الديوان، وعامل البربر، ورئيس العمال، والذي كان من المفضلين عند السلطان إسماعيل، لأنه الذي استطاع أن يجرد البربر من الخيل والسلام وبذلك ساد الأمن والسلام ربوع المغرب خصوصا جهات الوعر.

3) مرجان الكبير : وهو المشرف على خزائن الدولة وبيده سجلات المداخيل والمصاريف والعارف بكل تقاليد البلاط، والمتصلين من الذين لهم صلة ما مع السلطان، إلى جانب ما كان للجيوش وقوادهم من عادات في الأعياد والمواسم، وهو الذي كانت إدارته محور شؤون الدولة.

4) محمد بن العياشي صاحبهم القديم والمكلف بسجلات ديوان "الحراطين" والذي نقل وصلب على سور مكناس وفي ذلك ما فيه من دلالة على تأييد رأي محمد بن عبد السلام جسوس الذي راح ضحيته.

5) مرجان الصغير وكان المشرف على المخصيين أمثاله من الذين كانوا يشرفون

على قصور السلطان، كما كان هو المرجع والمسؤول عن الدخول والخروج على السلطان وعن تلك القصور التي بيده مفاتيحها.

6) عامل مدينة مكناس ابن عدو حيث قتل هو الآخر.؟!.

7) أحمد بن علي اليازغي وهو صاحب السلطة النافذة في مجموع قبائل الجبال وكان صارما إلى درجة أنه كان "يرسل رسولا واحدا في قضايا متعددة فتنفذ الأوامر كلها وفق ما أمر في أقرب الأوقات"(240).

وهكذا دشن قواد جيش العبيد بداية عهد السلطان أحمد الذهبي، بقتل رجالات الدولة الذين كان يعتمد عليهم السلطان إسماعيل، فكان ذلك سبب الفشل الذي تعرض له مخطط الجيش الذي من وقتها لم يعرف الراحة إلى عهد السلطان محمد بن عبد الله الذي سيوزعه بين القبائل التي ستسوق جماعاته بالعصا إلى أسواق النخاسة، بل وكما يقول صاحب الإتحاف(241) نقلا عن الزياني في البستان، فبقتل أحمد بن علي اليازغي ثار أهل الجبال وأضرمت نيران العتو والفساد ورفضت الأوامر السلطانية وانقطعت الجبال وانتشر العبث والنهب في الطرق واتبعت الأهواء.

وبقتل علي بن يشو خرج البرابر من السلاسل والأغلال وتنافسوا في شراء الخيل والسلاح ورجعوا لحالتهم الأولى من سفك الدماء، وقطع الطرقات، ولم يبق لهم زاجر ولا رادع، وبقتل ابن الأشكر كف الزراهنة عن الأداءات وتحصنوا بجبلهم خوفا من البربر وصمموا على قتال من آتاهم، وضاعت أعشار القبائل، ولم يعرف منها نقير ولا قطمير، وبقتل مرجان الكبير جهل الداخل والخارج من أموال الدولة، وأحرقت السجلات، وبذلك نال العبيد مناهم وحصلوا على ضالتهم المنشودة، مما أثار في نفوس قواد جيش الودايا أن يتطلعوا لفعل شيء يحقق لهم مثل ما تحقق لقواد العبيد، لكن مدينة فاس لم تكن مثل مدينة مكناس، فلم يجد الودايا وسيلة في السطو والنهب، ولذلك اختاروا يوم الخميس الذي هو يوم سوق عام يشارك فيه جل سكان فاس كما يقصده أهل القرى المجاورة،وكان يوم 14 من ربيع الأول 1140 هـ/1727م هو اليوم الذي أغار فيه جيش

(240) راجع الإتحاف لابن زيدان 1/268 ـ 269 ـ 270 ـ 271 والبستان والروضة إلخ.

(241) نفس المصدر السابق والبستان ص 47 ـ 48.

الودايا على كل من في السوق نهبا وسلبا، بل قتلوا من توصلوا له رميا بالرصاص نشبت نار الفتنة واستمر القتال مع أهل فاس من الزوال إلى المساء، حيث أخذ الودايا بعض أهل فاس ثم سجنوهم كما احتل أهل فاس قصبة الشراقة، واستمر القتال في اليوم التالي في مختلف جهات فاس إلى يوم الأحد، حيث اجتمع الجميع بروضة أبي بكر بن العربي ثم عقدوا الصلح الذي بمقتضاه سرح من في سجن الودايا، وإثرها ورد كتاب من السلطان يسال : من الظالم من الفريقين، وسيتبين أن ما حصل كان بأمر من قواد جيش العبيد للودايا، حتى يشغلوهم من جانب، ومن جانب آخر حتى لا يتسرب الطغيان إلى المدينة التي قتل عاملها، ولم يؤاخذ أحد من أهلها، ذلك أنه لما اشتدت المعارك بين الطرفين قدم الشراقة ولحياينة وأولاد جامع، لمساعدة أهل فاس ظنا منهم أن ما فعله الودايا كان بزعم منهم، لكنهم أخيرا تحققوا أنه كان بأمر السلطان الصادر عن قواد جيش العبيد، ولذلك انصرفوا، ويوم الأربعاء 20 من الشهر المذكور خرج أعيان أهل فاس للاقات السلطان أحمد الذي حين قدم عليهم تبين أن الأمر ليس أمره وإنما هو لقواد جيش العبيد الذين انحازوا لجانب الودايا فلم يحصلوا منهم على شيء، وبذلك استمر القتال بين الطرفين دون انقطاع، وبحكم ما تميزت به مدينة فاس من قلاع محيطة تمكنها من الحماية، فإن جيش الودايا الذي كان مركزه فاس الجديد، لم يفعل أكثر من الإغارة على بعض المحلات، وإذا ما استمر الحرب بين الطرفين فإن مدينة تطوان هي الأخرى وقد سمعت ما حصل لابن الروسي بفاس قامت ضد طاغيتها العامل ابن علي الريفي وأخيه أحمد صاحب طنجة.

وهكذا عرفت البلاد في هذه المرحلة انتفاضات وثورات كان أهمها وأخطرها على الجيش الذي انكشف وافتضح مخططه الفاسد، ثورة سوس ومراكش ونواحيها .

لم تمض سبعة أشهر على تولية أحمد الذهبي حتى مله الذين نصبوه، لأنه لم يرث قبلا ولا كثيرا من صفات والده، وبالتالي لم يستطع أن يكون لنفسه مكانة ترفعه إلى مقام السلطان بحق، لا في نظر قواد جيش العبيد الذين مهما بلغوا كان مركب النقص ينزل بهم أسفل الدرجات التي تعودوا معها تلقي الأوامر من أعلى، لكن شيئا من ذلك لم يحصل مدة ولاية أحمد الذهبي الذي لم يكن له رأي حتى فيما يتعلق بتوزيع بيوت المال

التي تركها السلطان إسماعيل عامرة والتي انتقلت إلى جيوب الأقوياء من قواد العبيد، بل ولا هو استطاع أن يتقرب إلى الشعب حتى يحميه من سفه المستبدين، الأمر الذي جعل أخاه عبد الملك في نظر الشعب وخصوصا أهل فاس الذين تزعموا الدعاية لصاحبه بسبب ما حصل بينهم وبين الودايا الذين انتصر لهم السلطان أحمد - جعل عبد الملك يصبح وهو المعزز بقوة أهل سوس ومراكش المنقذ المنتظر، ناهيك وأن بطانته عرفت كيف تشوش على قواد جيش العبيد بما كانت ترسل من رسائل تطالب فيها بيعة عبد الملك إلى مختلف الجهات، حتى إن مراسلته وصلت شرقا إلى قبائل توات أواسط ربيع الثاني سنة1140هـ/1727م، والتي بعث بها إثر موت والده وبيعة العبيد لأخيه عادت بعد ثلاثة أشهر في شهر رجب من نفس السنة، وهي تحمل الجواب بإجماع أهل توات" وخاصة المرابطين من أولاد السيد البكري، والسيد محمد، وأهل زاويتي كنته، وعريان الرأس، وأولاد الشيخ بن عبد الكريم، والشيخ بلقاسم، وأبناء الشيخ علي بن موسى بتمنطيط، هؤلاء جميعا بايعوا عبد الملك، ثم أرسلوا بيعتهم في التاريخ المذكور، لكنها كانت من نصيب عبد الله الذي سيظهر بعد.

استدعى عبد الملك من طرف العبيد ليحل محل أخيه أحمد، وكان عبد الملك مثال الجد والإستقامة والخلق، وقد تمكنت تلك الصفات من نفسه أكثر بحكم البيئة التي وجد فيها أولا بين أهل فجيج ثم بين أهل سوس الذين لم يفارقوه حتى يوم استقدم إلى مدينة مكناس ليبايع البيعة العامة، ولعلهم ما قدموا معه إلا تحسبا لما عرف به العبيد من غدر ماداموا قد فعلوه مع أحمد الذي لم يخالف رأيهم الفاسد في شيء، فكيف مع الذين كان بلا شك قد أفصح عن رأيه فيهم بين أهل سوس، ومراكش، ودرعة، من أولئك الذين أخلصوا إليه إخلاصه لهم، وما كاد يحل بالعاصمة حتى بادر أهل فاس فأرسلوا إليه بيعتهم كذلك، وقبل أن يستقر عبد الملك بمدينة مكناس أمر بإبعاد أخيه أحمد حسب اختياره إما إلى مدينة فاس أو إلى تافيلالت، فاختار الأخير حيث بقي خلفه بقصر گحايگ بكافين معطشين كما بقي بعض خلفه وهم قلة بها حتى اليوم(242) ثم بالرباط

(242) منهم علي بن الذهبي وأولاده بالرباط وبعض قرابتهم بالدار البيضاء لا غير إذهم قليلون جدا، ومنهم امرأة بدار الشريفات بفاس المدينة تعرف ب «لالة فاطمة الذهبية» والبقية كانوا بقصرهم بتافيلالت قصبة م أحمد الذهبي.

بسلا والبيضاء وهم اليوم في حالة إهمال وتشرد.

لقد توفرت لعبد الملك كثير من عناصر النجاح لكنه لم يحسن استغلالها فبالإضافة إلى سلوكه الذاتي، حصل الاتفاق عليه من عنصري أهل سوس وأهل فاس الذين ما ثبت أنهما اتفقا قط لما بين العنصرين من التباين في الطبع والأخلاق والسلوك، فطبع أهل فاس الغالب على سلوكهم هو سيطرة روح الإستغلال التي بثها ابن الروسي تحت تأثير سلمة اليهود وأعلاج النصارى سياسيا، في حين أن الغالب على طبع أهل سوس هو الصدق والوضوح وكل ما يرتبط بصفات المسلم وسلوكه، غير أن الذين كان لهم تأثير على عبد الملك لم يحالفهم التوفيق فيما أبدوه له من رأي بحل جيش العبيد والذي لا شك جرهم إليه أهل فاس انتقاما منهم ومن جيش العبيد، فالذين أشاروا على عبد الملك بحله قبل أن يكون له من الجند ما يقاوم به شرورهم وهو الذي لم يكن عنده غير عشرة آلاف رجل مقاتل من أهل سوس ومراكش وما حولها قدموا معه، ثم بعض أهل فاس الذين التحقوا بصفوفه عندما شب القتال بسبب إعلان الحل.بل لم يكونوا موفقين لأنهم لم يحسبوا لكثرة الجيش جيش العبيد والوداية عدديا وهو المسلح والمنظم حسابه، والذي ما كان لينحل بمجرد أمر عبد المالك بحله.

لعل عبد الملك والذين وافقوا على بيعته بل الذين دفعوه إلى إعلان حل جيش العبيد وتفريقه بين القبائل كانوا على صواب، وذلك ما سيلجأ إليه بعد ثلاثين سنة ابن أخ عبد الملك وهو السلطان محمد بن عبد الله، لكن ذلك بالنسبة للزمان والمكان لم يكن مواتيا الخطة التي اتفق عليها عبد الملك، ومن كان معه وقتها، ذلك أولا لأن جيش العبيد لم يكن قد خاض أي حرب منذ سنوات فكان مستريحا، وثانيا كانت صفوفه قد إلتأمت أكثر بحكم ما أصبح لقيادته من امتياز تقدم وتؤخر ما تشاء من أبناء السلطان، ثم هي تقتل وتشرد كما تشاء وتريد، وبالتالي لم يعد في الميدان من يستطيع الحراك سواها، وحتى إذا ما تراخت عضلات القيادة المستجدة في الثراء وبناء القصور، فما عليها إلا أن تشير مجرد إشارة إلى السبعين ألف المحتشدة بمشرع الرملة، لتهب وتواجه ما حول عبد الملك من جيوش لم تتوفر بعد على الخبرة الكافية بالمدينة وما فيها من مخازن السلاح، وكيفية توزيع الجند للقتال والدفاع والحراسة بها، وذلك ما حصل، إذ ما كاد خبر إعلان الحل

يصل إلى قيادة العبيد حتى اجتمعت كلمة أكثر من السبعين ألف الذين كانوا بمشرع الرملة مضافا إليهم ما كان بمكناس، فاشتبكوا في قتال عنيف مع جنود عبد الملك الذين لم يتجاوزوا العشرة آلاف إلا بقليل، ومع ذلك استطاعوا أن يسقطوا من بين العبيد نحو الثلاثين ألف، وما كان لهم أن يغلبوا ولا أن يتركوا لهم فرصة لولا أن زوجة والده خناثة بنت الشيخ بكار بن عبد الله المغافري، وأم الأمير عبد الله بن إسماعيل والتي كانت لها دالة على بعض قواد جيش الوداية(243) هي التي أمرت بفتح أبواب الجهة التي لم يكن عبد الملك وقيادته قدنصبوا من الحراسة عليها ما يمنع ويحول دون تنفيذ الخطة التي دبرتها خناثة لصالح جيش العبيد، في الوقت الذي كان ولدها عبد الله إلى جانب أخيه عبد الملك، والذي أبعد وقتها إلى تافيلالت، خصوصا وقد رأت المنتصر بن إسماعيل وزير عبد الملك وأخوه قد سقط قتيلا بيد العبيد، ولا يستعبد أن ذلك كان باتفاق مسبق لصالح ولدها حتى يرشح للملك بعد انهزام عبد الملك، وذلك ما سيحصل كما سنرى.

كان ما قامت به خناثة سببا في انهزام عبد الملك وانتصار جيش العبيد، لكنهم ولأسباب لم يكشف عنهالم يحققوا رجاء خناثة، بل عادوا إلى صاحبهم القديم أحمد، ولربما بدافع ما ألفوا منه من عطاء لم ولن يقدم عليه عبد الملك الذي بخل عليهم بأكثر من عشرين في المائة مما كان لهم من راتب على عهد والده، ولذلك ارتأوا من الأحسن العودة بأحمد من تافيلالت ثم تنصيبه من جديد أما عبد الملك فقد التجأ إلى حرم إدريس الثاني بفاس التي اختلف أهلها حول فكرة التمسك ببعيته والتحول إلى الذي حل مكانه، والذي أرسل يطالب أهل فاس بتسليم عبد الملك فامتنع أهل فاس من تسليمه، وإذا ما استقر رأي عبد الملك على الاحتماء بالضريح المذكور فإن أهل سوس ومراكش قد عادوا إلى

---

(243) كان والدها قدمها هدية إلى السلطان إسماعيل لما قام برحلته إلى وادي نول بعد مقتل أحمد بن محرز سنة 1098 هـ/1686م راجع ما كتب حولها حيث ترجم لها ابن زيدان في الإتحاف 16/3 ـ 23 ثم أورد لها رسالة موجهة منها إلى أهل وجدة نشك في صحتها، كما نشك في رواية أنها تزوجت في الصحراء قبل أن تصبح زوجة للسلطان إسماعيل وأما لولده عبد الله راجع الموسوعة المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله ص 98 ط فضالة 1976 وبهذا يكون الوداية أخوال عبد الله كما أن المستضئ أخواله دكالة.. إلخ ومن هذا نتعرف ما كان لكل واحد من أبناء السلطان إسماعيل من عصبية بين القبائل والتي لم تفد أي منهم في شيء كما سنرى بل دكالة سوف تعرف أرضها أكبر خسارة حين يتمكن عبد الله بعد فيحيل أرضها خرابا بالعيث فيها لمدة طويلة.

مواطنهم بدل أن تتضافر جهود الجيش ضدهم، أما الرماة من أهل فاس الذين كانوا قد التحقوا بصفوف عبد الملك فإنهم أصبحوا مأسورين للجيش وسلطانه المعادي الذي أرسل كبيرهم القائد صالح اللريني حتى يسترد عبد الملك من أهل فاس، لكن مآل اللريني الذي تجرأ على الحرم ثم انساق لصالح غريمهم السلطان أحمد كان جزاؤه على عرضه فكرة التسليم والبيعة، أن حكم عليه بالقتل بإجماع كبار أهل فاس، ثم علقوه بشجرة التوت بالصفارين وهي شجرة لا تزال قائمة حتى الآن، كما قتلوا الحاج الخياط عديل بباب داره، ثم تكونت جماعة من أهل فاس بقيادة عبد الملك بن إدريس الإدريسي فخرجت بسلاحها للهجوم على الودايا حيث أخذوا جميع مواشيهم ثم ساقوها إلى مدينة فاس حيث بيعت البقرة بستة أوجه والشاة بموزونة يقول الزياني في البستان ومن هذا يتبين أن المواقف المشرفة في مختلف المواقف بفاس كان يقودها الأشراف الأدارسة ومن والاهم من العرب والبربر، أما الفاضحة فكانت لمسلمة اليهود وأعلاج النصارى.

كان ذلك سبب الحرب التي اشتدت من جديد بين أهل فاس والودايا مما دفع بقواد جيش العبيد إلى أن يحملوا سلطانهم أحمد ويتقدموا نحو فاس، التي توجهوا من مكناسة إليها يوم أول محرم 1141هـ/ 1728م، وفي اليوم الثاني منه نزلوا على مدينة فاس التي أطلقت أيدي العبيد في كل ما حولها من بساتين ثم نصبت حولها المدافع وضربت بالقنابل التي استمر إطلاقها مدة أيام بلياليها إلى أن تهدم الكثير من دورها ومات أكثر رجالها في الحرب ومن نجى من الرصاص قتل بالردم، ودامت الحرب خمسة أشهر متوالية، عرفت فيها مدينة فاس الويل والنكال، ولم يكن ذلك من أهلها تعلقا بعبد الملك ولا ولاء له، وإنما لسابق تجربة أن عودة أحمد الذهبي وجيش العبيد سوف تثير عليهم موضوع قتل ابن الروسي والثمانين رجلا الذين قتلوا معه، ثم صودرت أموالهم وأموال السلطان التي كانت بمدينة فاس، وأخيرا حصلت الهدنة وتم الصلح بين أحمد الذهبي وأهل فاس على أن يسلموا عبد الملك، وقبل أن يفعلوا بطريقة تراعى معها حرمة الضريح وتحفظ التقاليد، توجه بعض قواد السلطان ومنهم عبد النبي ولد الباشا مسعود الحياني، وسالم الدكالي، والباشا مساهل بن سرور، اقتحموا الضريح وأخرجوا منه عبد الملك ثم سلموه إلى الذهبي الذي كان محاصرا لمدينة فاس بما يزيد على السبعين ألف من جيش

العبيد، بعده انتقل السلطان بأسيره إلى مدينة مكناس حيث أمر بحبسه بدار الباشا مساهل بن سرور الذي اقتحم عليه الضريح الإدريسي، لكن الذهبي الذي قيل إنه لم يفق من سكره حسب رواية أكنسوس السابقة، قيل إنه أصيب بمرض دل على أن أجله قد اقترب وحتى لا يغادر الحياة ويترك خلفه عبد الملك قيل إنه أمر بخنقه، فتم ذلك ليلة الثلاثاء أول يوم من شعبان، ودفن عبد الملك الشهيد بضريح الشيخ بنعيسى الفهدي(244) وسبحان العزيز الجبار فقدمات أحمد يوم السبت الرابع من شعبان سنة1141هـ=1728م(245) لكننا إذا نحن أدخلنا عنصر تدبير خناثة، وتصرفات مساهل وجماعة القواد نحو عبد الملك وتجربة قواد الجيش لأحمد الذهبي للمرة الثانية لانكار نهضم ماتم من الأمر بخنق عبد الملك ثم مرض وموت أحمد الذهبي اثر العودة من حرب فاس التي دامت نحو الستة أشهر لم تنكب فيها مدينة فاس والعلماء فحسب، وإنما نكب فيها العبيد أكثر بالإضافة إلى ما قتل منهم جنود عبد الملك مما قيل عنه ثلاثون ألف، ناهيكم وأن الفصل التالي في المسرحية كان تجربة جديدة بأحد أولاد السلطان الذي هو عبد الله الذي كان لأمه خناثة ضلع وأي ضلع في تدبير هزيمة عبد الملك، بل وأحمد الذي قيل أنها تآمرت عليه بوضع السم في الطعام.

---

(244) راجع دوحة الناشر، فقد ترجم فيها للشيخ المذكور ص 75 ط 1976 ـ ط 1977وهو بن عيسى الفهدي المتوفى بمكناس في شهر المحرم عام 1041هـ.

وأما ذرية عبد الملك بن إسماعيل فكلهم في أرض تيوت والعين الصفرا وناحية شرق المغرب الذي قصدوه بحكم أن والدهم كان خليفة لوالده بفجيج فبقي له أثر، وإلى هناك إلتجأ أبناؤه بعد ما حل بأبيهم ما حل، وقد بقيت الدولة العلوية في المغرب مهتمة بهم إلى عهد ما قبل الحماية بحيث نتوفر على الوثائق التي تثبت ذلك. ولما حصل المغرب على الاستقلال تردد بعضهم على إدارة الصحراء شهورا بل سنوات فلم يجدوا استجابة من أحد مثلهم مثل أبناء عمومتهم بتافيلالت والذين لا تزال ممتلكاتهم بيد الأملاك المخزنية كما صادرتها إدارة الاستعمار الفرنسي من الذين حاربوه سنوات من 1880بتوات إلى 1932 كما سنرى حيث احتلت تافيلالت ووقتها صادرت ممتلكاتهم التي لا تزال بيد إدارة الأملاك المخزنية ظلما وعدوانا منذ عام 1932م وأدون هذا للتاريخ وللتاريخ فقط.

(245) راجع الإتحاف 5/297ـ 313 وقد أورد في نفس المصدر ص 309 رواية عن صاحب درة السلوك أنه كان أواخر رجب وفي ص 312 توفي شهيدا يوم الأحد 28 رجب 1141 ورحم الله عبد الملك فقد وقفت على رسالة له دونت على مخطوط بالخزانة الحمزوية تحت رقم 44 وهي عبارة عن شرح للمقامات الحريرية لابن ظفر ومضمن الرسالة طلب عبد الملك من آل العياشي أن يمكنوه بكل ما عندهم من طرر أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي الصنهاجي على شرح عبد الباقي الزرقاني لمختصر خليل كما يوجد بنفس الخزانة مخطوط يحمل 311 حبسه عبد الملك المذكور بتاريخ جمادى الثانية عام 1128 هـ وهو عبارة عن شرح خريدة السيوطي، ويستدل من هذا أن عبد الملك كان على جانب كبير من المعرفة وأنه كان مهتما بها في حياة والده.

خط السلطان المستضى أحد سلاطين حرب الوراثة الى الشيخ أحمد الحبيب
اللمطي وهي خلو من التاريخ

جواب الشيخ أحمد الحبيب اللمطي على رسالة المستضيء وفيها يوصيه خيرا بعلماء أهل فاس

عزانة
عبد الكريم
الفيلالي
A. EL FILALI

بعض الخبر عن الصراع بين ابناء المولى اسماعيل السبعة

الفصل الثامن والثلاثون بعد المائة

عبد الله بن إسماعيل وأهوال الاستبداد

عندما قتل عبد الملك خنقا، ومات أحمد الذهبي بعد ثلاثة أيام، كانت السنة قد جاوزت النصف، وبذلك يكون عبد الله بن إسماعيل قد وصل نهاية العشرين سنة مضت من عمره أو جاوزها بقليل، إذ هو من مواليد 15 ذي الحجة 1121هـ/1709م قيل بقصر الفرخ بتافيلالت وقيل بمكناس ومعنى هذا أن خناثة كانت مستوطنة قصر الفرخ المذكور الذي(246) هو من بقايا الشريف بن علي والد السلطان إسماعيل وإليه عاد عبد الله يوم قتل أخوه المنتصر بن إسماعيل في حرب عبد الملك مع جيش العبيد، ومنه أعيد يوم اتفق قواد جيش العبيد والودايا وأهل فاس والعلماء على بيعته، ذلك أن قواد جيش العبيد ما أعلنوا بيعته إلا بعد ما وقع الاتفاق عليه بين جميع الذين كانوا في الإمكان استشارتهم، ومن جملتهم أهل فاس الذين بادروا للبيعة ثم طالبوا باستعجال استقدامه، لكن ما الذي دعا أهل فاس إلى السلطان عبد الله ثم جعلهم يقبلون بالشكل الذي رأيناه، لقد كان بعض علماء أهل فاس على اتصال بالشيخ أحمد الحبيب اللمطي وتلامذته الذين منهم أحمد بن عبد العزيز الهلالي شيخ الجماعة بعد بفاس، وكان للشيخ المذكور أحمد الحبيب رسالة على السلطان إسماعيل وأولاده، حتى إن مالدينا من الوثائق تنص على أن أبا علي

(246) راجع الإتحاف 389/4 لكن ابن زيدان لم يتعرض لوجود خناثة بتافيلالت سواء في ترجمتها ج 16/3. 23 ولا في ترجمة ولدها، وفي الوقت الذي نراه في ترجمة ولدها ينص على ميلاده بقصبة الفرخ وهو القصر المشار إليه في حين أن الزياني اقتصر على قوله ولما فر عبد الملك لفاس توجه هو أي عبد الله لداره بسجلماسة فبايعوه وبايعوا باسمه في المحلة، ومكناس "يقصد العبيد والودايا" البستان 52. كما نلاحظ أن خناثة كان اهداها والدها السلطان إسماعيل عام 1098هـ/1686م وانها لم تلد عبد الله إلا في سنة 1121هـ/1709م أي بعد 23 سنة شيء يحتاج إلى استقراء وإذا كان عبد الله قد ولد بقصبة الفرخ فمعناه أن والدته خناثة قد وجهت إلى تافيلالت أما لصغر سنها، وإذا لم يكن فلربما وهي حامل، وإذا صح هذا فإن خناثة البكارية لم تكن كما قال عنها ابن زيدان وغيره مما بالغوا في النعوت التي اضفوها عليها.

بن رحال لاحظ على ذلك الإقبال الذي كان السلطان وأسرته بل ونساؤه يخصون به الشيخ المذكور، هذا الشيخ بلا شك هو الذي ربط الصلة بين السلطان عبد الله وعلماء أهل فاس ثم جعله يقبل عليهم، وقد فعل بدافع حسن الظن وصالح الطوية، لكنه تعرض لضغط من جيش العبيد استسلم له السلطان عبد الله، وكان موجها ضد أهل فاس فلم يقاومه قبل أن يتمكن.

وهكذا نجد أن السلطان عبد الله توجه رأسا من تافيلالت إلى مدينة فاس، ولم يكن ذلك بغير اتفاق مع قواد جيش العبيد الذين كان للبعض منهم أيضا اتصال بالشيخ أحمد الحبيب ويبادله الرأي في موضوع الإجماع حول السلطان عبد الله، كما نجد ذلك في المراسلات المتبادلة بين الطرفين والتي نتوفر على بعضها.

نزل السلطان عبد الله ترافقه الكوكبة التي استقدمته من تافيلالت بظاهر المهراس من مدينة فاس، حيث خرج للترحيب به أعيان البلد والعلماء والأشراف الذين وعدهم بزيارة الضريح الإدريسي في اليوم التالي، وفعلا نسيت فاس أحزانها ولبست زينتها واستعدت لاستقبال السلطان الجديد المتفاءل بمقدمه، لكن خطأ ارتكب ولم يكن للسلطان به علم، ولربما تسببت فيه قيادة الفصيلة المرافقة للسلطان وبدون قصد كذلك، وهو أن تقدم في طليعة الوفود المرافقة للسلطان وقت دخوله للمدينة حمدون الروسي، وهو أخو ابن الروسي القتيل والذي سبقت الإشارة إلى أن السلطان إسماعيل عينه مع أخيه على مدينة فاس سنة 1133 هـ/1720 ثم أمرهما بجمع المال بلا حساب، إضعافا لأهلها حتى تسببا في إخلاء مدينة فاس من كل الذين لهم يسار من أهلها، وبالتالي فهو مطالب من طرف أولاد بن يوسف الذين قتل أباهم، والذين ماكادوا يرونه ضمن الموكب ولم يكن قبل يظهر خوفا منهم، حتى أخذوا يطاردونه بالقرب منه والإحاطة به أثناء الموكب، وهو يراوغ بشكل ألفت الأنظار وربك الصفوف، مما دفع بحمدون الروسي إلى أن يهمس للسلطان أن القوم يريدون به شرا، قال له ذلك بقنطرة الرصيف فتخلى السلطان عن زيارة الضريح واتجه صوب جامع الحوت على اجزا بن عامر، وخرج على باب الحديد، ولم يزر الضريح الإدريسي، بل قصد فاس الجديد، وفيها قدم عليه أهل المدينة ببيعتهم المكتوبة

بتاريخ(247) يوم الإثنين 7 رمضان وليس صفر كما ورد عند بعضهم 1141هـ/1728م ثم اعتذروا له وأفهموه السبب الذي دفع لحدوث ما حصل، وتظاهر السلطان بعدم المؤاخذة، ثم أمرهم كالعادة أن يجهزوا خمسمائة من رماتهم ليتوجهوا معه إلى العاصمة مكناس، حتى يشاركوا في حفلات العبيد والتنصيب التي ما تمت حتى التفت فيهم بعدما كرم كل الوفود ما عدا أهل فاس الذين حرمهم من عطاء العبيد كالعادة، بل وجه إليهم خطابا ينم على أنه من وحي ما عرف الجيش من حرب وصمود أهل فاس الذين عرفت مدينتهم المناعة الحربية بسبب ما حولها من قلاع وقصبات ألح السلطان في خطابه على أهل فاس كي يسلموها، ثم أمرهم أن يكتبوا إلى قومهم بذلك، لأنها من ممتلكات المخزن، يزاد في خطابه العنيف، وإن أبوا فإني آتيهم وأهدم عليهم تلك القرية(248) فأجابوه بقولهم "السمع والطاعة" لكنهم لما رجعوا إلى مستقرهم اتفقوا على أن الرحيل يكون ليلا حيث عربوا ولم يصبحوا بعد ليلهم الأليم إلا وهم على أبواب فاس، وما فعلوا ذلك إلا بعدما اقتنعوا أن الأمر مدبر مادام السلطان لم يستجب لكل ما التزموا به من طاعة وقيام بواجب الوظائف المطلوب منهم أداؤها للدولة، والتي هي معروفة منذ عهد والده كما أبانوا عن ذلك.

لقد كان هذا أول امتحان للسلطان عبد الله الذي دخل في أول العقد الثالث من عمره والذي بلا شك أفاد من تجارب أمه خناثة، والتي كانت تحيطه علما بكل ما يتفق مع الخطة التي يتطلبها الظرف الذي يوضع فيه المشكل، بحيث كانت اتصالات أمه لم تترك الفرصة للعبيد كي يتآمروا عليه أو يعتقدوا فيه ما كانوا يعتقدوه في أخويه قبل.

رجع رماة أهل فاس الخمسمائة على غيرما رجعت الوفود المشاركة إلى مواطنها منشرحة ومحملة بالعطاء بل رجع أهل فاس فارين في حالة رعب، وما كادوا يدخلون المدينة حتى اجتمع كبارهم الذين ضموا إليهم العلماء ثم أخذوا ينصتون لما تقصه قيادة الرماة، مما حصل ومع ذلك أجمع كبار القوم والعلماء على الرجوع إلى الحوار ومحارلة

---

(247) كانت من إنشاء القاضي إدريس بن المهدي المشاط المنافي كما نسبه الزياني راجع البستان 52 وأولاد المشاط اليوم انتهى بهم المطاف إلى زمور وعن مناف راجع ع كحالة 1142/3 ط دمشق 1949.

(248) نفس المصدر.

إقناع السلطان، ولا خروج عن الطاعة أو تراجع في البيعة التي لم يجف بعد مدادها، لكن العامة بالإجماع رفضوا وطالبوا بالاستعداد للحرب الذي بدأ منذ أوائل شوال، وإذا ما حملت أخباره إلى العاصمة، فإن السلطان هو الآخر كان أكثر منهم رغبة في مثل ذلك الموقف، حتى يلقن به درسا للجميع، على أن سياسة والده السلطان إسماعيل وما عرف به من صرامة لم تمت، وإن هي عرفت العلة لمدة سنتين منها فقد عادت إلى صحتها، وبدأت الحرب في أول شهر ذي القعدة(249)، وإذا ما عرفت فاس ما تعودت من الأهوال، فإن جيوش السلطان هي الأخرى تعرضت إلى الإنهزام، لكن السلطان تغلب بسبب تعرض المدينة المحاصرة للمجاعة، وكشفها بهدم أسوارها وتصميم السلطان بل الجيش الذي لم يأخذ بثأره بلا تردد على ردمها إن اقتضى الحال، خصوصا وقد تعرضت قبة الضريح الإدريسي الذي شيده والده في الثلاثينات إلى الضرب بالقنابل التي تضررت منها "القبة" ثم مات الناس بسبب ذلك والسلطان لم يتراجع عن أمره بتسليم القلاع والحصون المحيطة، وأخيرا تم تسليمها وحصل الصلح يوم 10 ربيع الأول 1142هـ/1729م على يد القائد محمد السلوي ووقتها(250) عين السلطان على مدينة فاس الحاج علي السلوي كقائد ولم يخرج أعيان فاس وعلماؤها من مجلس السلطان بعد الصلح وتعيين القائد الجديد إلا بعدما أعطاهم السلطان ألف دينار ثم كسى الأعيان والعلماء والأشراف، وذلك في اليوم الثاني بعد تاريخ المولد النبوي لكن العامل الجديد الذي هو الحاج علي السلوي بدأ عمله بقتل الشيخ دحمان المنكاد، مما أدى إلى عزله والعودة إلى آل الروسي الذين عين السلطان منهم عبد النبي الروسي عاملا على المدينة.

لما عاد السلطان إلى مدينة مكناس يوم 20 من شوال وبعد حرب فاس التي أخذت

---

(249) عند الزياني في 25 شوال وفيها خرب السلطان عبد الله كل المزارع المحيطة بفاس، كما قطع الوادي على المدينة التي أحيطت بالجنود من كل جانب ثم أمر الأعلاج والنصارى بضربها بالقنابل وحجارة المنجنيق بالليل طيلة مدة الحرب، راجع البستان ص 54 ـ 55 م. خ مصدر سابق.

(250) كذا كتبه الزياني في الإسمين بدون ألف نفس المصدر السابق ومثله أحيانا ابن زيدان في الإتحاف وهما لا يعنيان النسبة إلى مدينة سلا. إذ عائلة آل السلاوي الذين هم بفاس أصلا هم من أسرة معنينو المعروفة بمدينة سلا. والذي استقدمهم إلى مدينة فاس حيث احترفوا حرفة القصابين "الجزارة".. هو السلطان المولى سليمان الذي كانت له بال معنينو السلاويين صلة مودة لعلمائهم.

من الجيش جهدا كبيرا استلهم أن تلك هي الطريقة التي تريحه من الفساد الذي استشرى في قيادة الجيش، وانتقل إلى الداخل الذي هو أسرة السلطان الراحل، بدل أن يبحث له عن العلاج أو يقضي عليه بعيدا عن العرش والأمراء، ولذلك توجه به حالا ناحية أكبر القبائل قوة والتي اعتادت هي الأخرى أن لا تستريح إلا إذا انشغلت قواتها ذات الامتياز تلكم هي قبائل آيت يمور التي احتفظت بخيلها وسلاحها دون قبائل البربر في المغرب، والتي منذ قتل القائد علي ويشوا لم يعرف لها استقرار، وإذا كان بين تلك القبائل والجيش حساب قديم سببه التنافس الذي لا بد منه حتى لا يتفرغ أي منهما للفساد والإفساد الذي ظهر عندما اختفى ذلك العامل بعد موت السلطان إسماعيل.

وهكذا سلط السلطان عبد الله جيش العبيد على القبائل المذكورة، نهب ممتلكاتها وهدم حصونها، يساعدهم في ذلك رماة أهل فاس الذين دب النزاع بينهم، فأدى إلى أن حكم "السلطان" بقتل عشرين منهم كما أرسل لأهل فاس كي يجهزوا فرقة أخرى تلتحق بها، وكلف بذلك عدوهم القديم حمدون الروسي الذي أصبح حسب السياسة التي انتهجها السلطان عبد الله"، أشد وأقوى مما كان ينقم عليه أهل فاس، إلى درجة أنه قتل عبد الواحد بتير، ومحمد بن الأشهب، بباب السجن وأمر بحرقهما(251) ثم أمر بهدم أبواب فاس التي كانت تشجع على العصيان بإغلاقها، مثل باب المحروق، وباب اعجيسة، وباب الحديد، بل إن حمدون الروسي وتلك سياسة كانت مقصودة من الذين هم خلف "السلطان عبد الله" الذي وجدها فرصة استغلها وقتها من عرفه على خبث مسلمة اليهود بفاس، فبالغ في استبداده، ولما أدى مهمته أمر السلطان بقتله ثم تراجع وطرده نهائيا، لكن مدينة فاس ما كانت لتستريح من ظالم حتى تبلى بأظلم منه، فولي عليها السلطان عبد الله كاتبه الطيب بن جلون الذي قيل إن مدينة فاس لم تعرف أكثر منه شؤما ولا أشد نكاسة، حتى سمي حجاج عصره، لكنه عزل آخر الشهر الذي عين في التاسع منه، ثم أبعد سجينا إلى مدينة مكناس التي توفي فيها بعد أشهر، وولى مكانه عبد اللطيف بن عبد الخالق الروسي، وبعده محمد وعلي الزموري، وكانت الأوامر مشددة إليه كي يجرد

(251) البستان للزياني نفس المصدر السابق م خ من السياق يدرك أن الذي كان خلف كل الأوامر إنما هم قواد الجيش.

أهل فاس كلية من المال وقد استمر فيهم على ذلك الحال مدة ثلاثة عشر شهرا اضطر الناس أثناءها إلى الفرار من المدينة(252) وأما الذين سجنوا من أجل دفع المال ثم عذبوا إلى أن ماتوا ولم يدفعوا، فقد طوف بهم محمولين وهم أموات، والمنادي يصيح من حولهم "هذا جزاء من لم يعط مال السلطان " ولم يوقف هذا الظلم الفاحش إلا يوم 16 صفر 1143 هـ/1730م ولما نقل عامل فاس ما جمع من المال ومعه تجار أهل فاس أمرهم السلطان عبد الله بالزيادة ثم سجنوا حتى تم الدفع، وكان من بينهم عبد اللطيف الروسي الذي أمر بجلده ثمانمائة ثم طعنه برمح وأمر بذبحه وجره لباب الملاح، ثم تولى حكم مدينة فاس الطالب محمد ولد علي ويشو، أخو عبد الرزاق، وكان كما قيل في حقه حسن الأخلاق مع العلماء والأشراف وطلبة العلم، إلا أنه كان فظا غليظا مع التجار، وفي هذه المرحلة فر الناس من مدينة فاس، ومنهم من بلغ تونس ومصر والشام. والسودان يقول الزياني ومثله نشر المثاني، وإذا السلطان عبد الله وأمه خناثة اتصلا بجيش الداية "الوداية". فإنه انقلب على جيش العبيد وبذلك دخل معه في صراع لم يكن لعبد الله قدرة على خوضه والاستمرار فيه لأنه لم يقف عند حد جيش العبيد، بل أضاف إليهم أهل فاس الذين فقد ثقتهم فيه وقد جربوه أكثر من مرة.

---

(252) الزياني البستان، وعند ابن زيدان في الإتحاف 4/402-403 نقلا عن ابن ابراهيم الدكالي أن الذي تولى على فاس إنما هو عبد الرزاق ولد على ويشو، ولعل هذا خلط منه لأن الذي تولى بعد محمد وعلي الزموري هو الطالب محمد ولد علي ويشو، كما عند صاحب البستان ص 56 وفيه أن السلطان عبد الله أمر محمد وعلي الزموري بقبض المال وإلقائه في وادي أبي الخراريب ولا تتركه عندهم، وأبو الخراريب يعني الواد الحار؟، وفعلا نزل بدار أبي غ بالمعادى وعين في كل حومة نقيبا عارفا بأهل اليسار، فجمعهم ثم أدخلهم السجن ووظف عليهم أولا خمسمائة الف مثقال... راجع المصدر المذكور، وقد انتهى الأمر بمحمد وعلي بعد فرار السلطان عبد الله إلى وادي نول حين هم السيد بقتله إلى أن فر هو الآخر إلى الزاوية بضريح المولى إدريس الأول بزرهون.

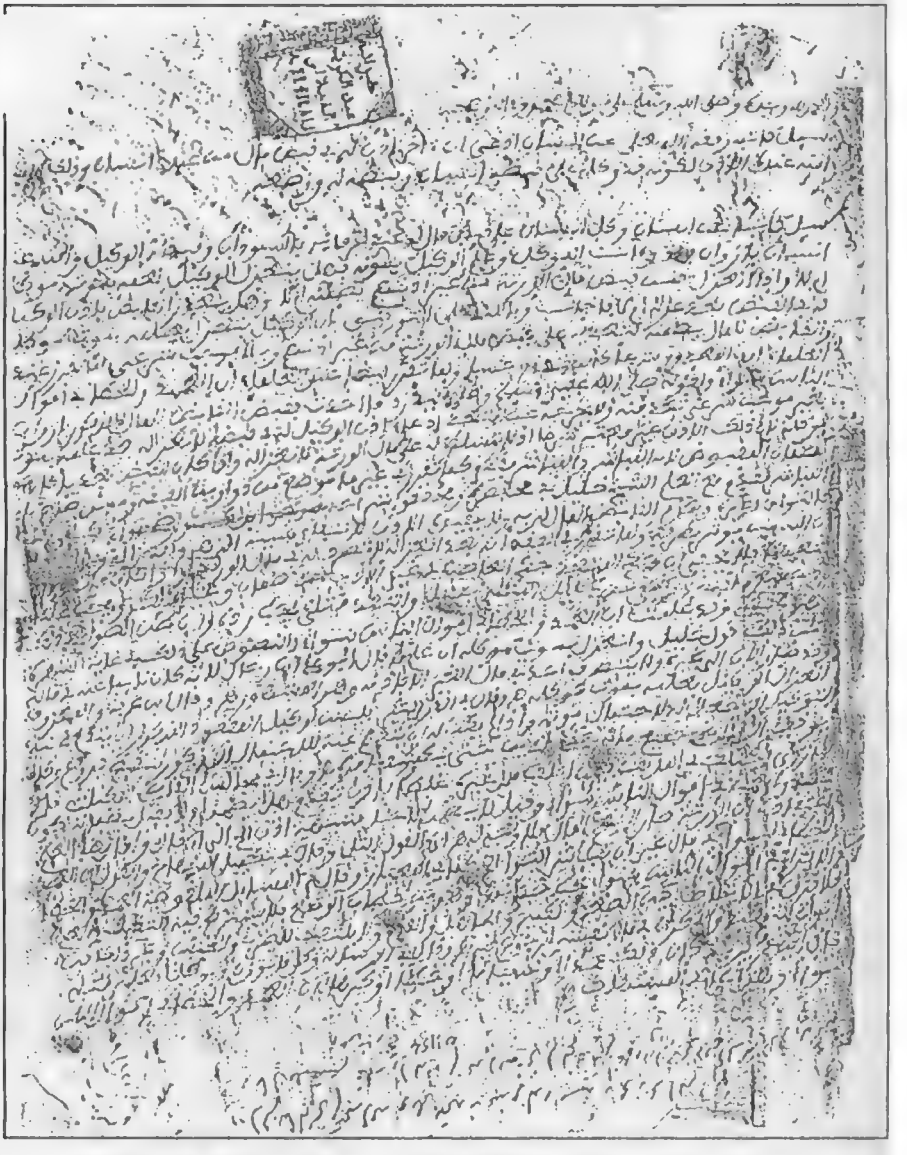

الرسالة من كاتب السلطان عبد الله الى الشيخ أحمد الحبيب اللمطي. وهي تقص واقع ما يجري بين جيش مشرع الرمل ومحمد بن عبد الله الذي كان خليفة لوالده بمدينة مراكش تاريخها 1154هـ/1741م

بقية الرسالة

الفصل التاسع والثلاثون بعد المائة

السلطان عبد الله يسلم من سفك دمه ويفر من القتل

استمر حكم السلطان عبد الله في صراعه الذي لم يفتر قط، حتى أدى انشغاله بفكرة كسر شوكة جيش العبيد من جانب، وأهل فاس من جانب آخر، إلى تعطيل الكثير من المرافق في البلاد، سواء من ناحية العمران أو الزراعة، وهما مجال العمل وقتها(253)، ففي شهر ربيع الأول من سنة 1147هـ/1734م إكتشف بواسطة مخابراته أن قواد جيش العبيد الذين تعرفوا على خطته للقضاء عليهم بعدما قتل منهم أكثر من عشرة الاف، ثم مضى في خلق الميادين لشغلهم بالحروب التي يتعرضون فيها للإبادة من قبائل البربر من جانب، وبأحكامه المستمرة من جانب آخر، فمن أجل ذلك اتفقوا ليس على خلعه، بل على قتله ثم أرسلوا من يستقدم صنوه الذي هو على الاعرج، وكان الذي يتزعم هذه الخطة هو أحد كبار قواد الجيش سالم الدكالي، وبعدما تأكد السلطان عبد الله أن المدبرين للخطة يتمكنون يوما بعد يوم قرر الخروج من مدينة مكناس في يوم الأحد 28 ربيع الثاني من نفس السنة. 1147هـ/1734م وذلك بعد البيعة التي تمت لصنوه على الاعرج بثلاثة أيام، والذي كان قد استقدم من تافيلالت الى مدينة فاس.

لكن ما الذي دفع بعبد الله الى هذا القرار وماذا فعل مع الشعب والجيش حتى انتهى إلى هذا المصير، وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين سنة من عمره: إذ هو من مواليد عام 1121هـ/1709م).

---

(253) ولم يقم السلطان عبد الله بعمل في هذه المرحلة غير إتمام صور القصبة وبناء باب منصور لعلج أكبر أبواب مدينة مكناس حتى اليوم، ولسوف نراه بعد يهدم قصور قواد الجيش وكبار رجال الدولة بقصبة هدراش في الابنة التي عرفت بمدينة الرياض بمكناس.

لقد كان عبد الله بن إسماعيل بحق نسخة من أبيه تقريبا في كل شيء إلا أن الفارق هو أن الأب أشرف على التأسيس والتركيز، ثم هو آستطاع الحفاظ على جانب مهم من الحب المتبادل بينه وبين من حوله من خدامه، من جانب، ومن جانب آخر فكل الذين أصبح لهم شأن في الدولة كان له في صنعهم أثر، ومنهم من آلتقطه من وراء السدر وهو يرعى الأغنام مثل القائد بوشفرة، ومنهم من آشتراه ببضع مثاقيل ضمن قافلة "الحراثين" ورسم شرائه مضمن في سجلات الدولة، والعقد محتفظ به كما يعلم صاحبه، أما عبد الله فإنه ولد وشب بتافيلالت أولا بعيدا عن تعلق وتقدير فراعنة جيش العبيد، وثانيا لم يتول –وقد مضى من عمره واحد وعشرون سنة– إلا بعد ما عملت معاول الهدم بوحشية في البناء الذي خلفه والده، ثم هي نالت منه وصدعته بشكل يصعب ترميمه، والمعاول لا يزال صدى ضرباتها يتردد في كل مكان، ومنها ما هو بيد الإخوة الذين آتخذ منهم قواد الجيش وسيلة لتحقيق أغراضهم وما يتطلعون إليه بعد حرمان من رباع وممتلكات وقصور.

كان عبد الله يعلم أن ذلك هو سبب طغيانهم وأنهم لم ولن يتراجعوا إلا بالقتل أو إذا هو شغلهم بالحروب التي تقودهم الى الفناء لكن خطته لم تحقق الهدف ولذلك إندفع في اتجاه آخر هو القتل الجماعي، ولو بهدم المدينة وردم قواد الجيش بأنقاضها.

وهكذا وإذا ما علم عبد الله أن الذي دفع قواد الجيش إلى الطغيان هو ما أصبحوا يتوفرون عليه من ثروات أخرجها صنوه أحمد الذهبي من بيوت المال ثم وضعها في جيوبهم حتى أخذوا بعد الإكرام يتفننون في تشييد القصور وزخرفتها أكثر مما فعل السابقون، وحتى يضع حدا لذلك قرر عبد الله في ليلة 27 من شهر شوال سنة 1147هـ/1730م أن يهدم مدينة الرياض بمكناس وهي التي بها دور العمال وكبار قواد الجيش ورجالات الدولة، وكان قد سبق له أن جرب في مدينة فاس المدينة التي بدأ في هدمها ثم أخذ يحمل أنقاضها إلى مدينة فاس الجديد، إلا أنه أخيرا وبعد توسل عفى عنها، أما في هذه المرة فقد وقف بنفسه على الهدم الذي أمر به جنود المدفعية التي يجرها النصارى والشعانبة يقول الزياني، بعدها صعد إلى ربوة عالية يشرف منها على المدافع التي أخذت تضرب من كل جانب والناس نيام، فمن أسرع نجى ومن لم يسرع

نه الردم الذي شمل الناس وما يملكون، ومن نجى من جيش الودايا نقلهم إلى مدينة ناس التي أصبحت مرتعا لهم زمنا غير قصير، وإذا علمنا أن مدينة الرياض كانت "زينة مكناس وبهجتها، وبها من القصور والدور مثل دار علي ويشو التي حوت أربعة وعشرون طقة يجمعها باب واحد، ومثلها دار عبد الله الروسي، ودور أولاده كذلك، وهي أعظم منها وإذا علمنا أن كل عامل بنى له مسجدا خاصا به وبقومه، ندرك ما كانت عليه مدينة الرياض من ضخامة والتي تحولت إلى أكوام من تراب(254)ولم يقتصر السلطان عبد الله على ذلك، بل ولا على ما يتصل بجيش العبيد والودايا، بل حتى البربر سواء في الأطلس التوسط أو الكبير، وكذا أهل الشمال، فقد قدم عليه موسى الجراري في ثلاثمائة من قومه فقتلهم جميعا، كما قدم عليه ثلاثمائة من أعيان المجاهدين من أهل الريف الذين كانوا بطنجة يحملون هدية قائدهم فكانت نهايتهم القتل، لأنهم ينتمون إلى ولاية أحمد بن علي الريفي الذي له معه حساب، ثم قتل مائتين من الحجاوة على دعوى قطع ببلادهم بقول الزياني، الذي سجل في حقه قصة ما سبق أن سجلت في تاريخ الفظائع قط بالمغرب، ذلك أنه لما قتل هؤلاء القوم خرج لمحل قتلهم أهل مكناسة والبطالين منهم للفرجة في المقتولين بباب البطيوي، فاتفق خروجه على ذلك الباب، فلما رأى القوم قصدهم، ولما رأوه فروا خوفا منه إلى كهف قريب من المحل ودخلوه وهو يراهم، فقصد محل إختفائهم إلى أن وقف على باب الكهف وكان بقربه أكوام من الحجر للبناء، فأمر المسخرين وهم نوع من الخدم الخاص بوضع السلاح وترصيف الحجر على باب الكهف إلى أن امتلأ بمات ذلك الجمع غما ولم يوقف لهم على خبر، ولم يعرف لهم عدد، ولما صدر منه هذا كتب له أهل الديوان من مشرع الرمل ينكرون عليه قتله للمسلمين دون سبب فوجه لهم الراتب وأمرهم بتقويم الحركة لفازاز(255) حيث قادهم الى الفضيحة والدمار على يد

(254) البستان 56.

(255) نفس المصدر، وفيه أورد الزياني شبيها للسلطان عبد الله في سفك الدماء، هو محمد القاهر العباسي الذي عرف بكثرة سفك الدماء، لكنه إنتهى إلى أن قبض عليه الحاجب سلمه وأمر أن تسمل عيناه، وكان يخرج يوم لمعة يتكفف بالمسجد، ولقد قال في حق أم المقتدر أن القاهر بعدما عذبها وصادر أموالها نفاها إلى مكة في حين أن السيوطي في تاريخ الخلفاء 357- 58. يقول إن ذلك كان سنة 317هـ وإنما عذبت حتى ماتت في العذاب، وأما عن قصة السلطان عبد الله وأهل الكهف راجع الاتحاف لإبن زيدان 403/4.

البربر وذلك قبل أن يفكروا في آغتياله والقضاء عليه كما سبق أن أشرنا، وكان قد وجه ثلاثة آلاف من الودايا لتلك الحرب بقيادة عبد الملك بوشفرة، وخمسة عشر ألف من جيش العبيد بقيادة الباشا قاسم بن ريسون، حيث وجه الجميع لآيت آمالوا الذين جروهم بحيلة داخل الغابات والأدغال حتى آنتهوا بهم إلى أماكن لم يعودوا منها إلا بمشقة وتعب ثم سدوا في طريق عودتهم المسالك الضيقة باكوام من جذوع الأشجار والأحجار، ثم هجموا عليهم من كل جهة، الأمر الذي دفع بجيش العبيد إلى الفرار مخلفا وراءه أثقاله وسلاحه وما لم يستطع جره من الخيل.

وبعدما آنتهى السلطان عبد الله إلى نهاية الصراع المنهك مع جيش العبيد والشعب معا آختار الفرار حسب التاريخ المشار إليه حيث هرب ليلا من مدينة مكناس في آتجاه الغرب فنزل على آيت يدراسن الذين رافقوه بعد تكريم إلى أن بلغ تادلا، ورجعوا عنه فقصد قصبة "بولعوان" التي كان له بها مخازن الزرع فوزعه على عامة الناس، حتى لا ينتفع به الجيش الذي انقلب عليه. ثم تقدم إلى مراكش فسوس ثم الى وادي نول(256) مقر أخواله المغافرة الذين كان السلطان إسماعيل قد رحل إليهم بعد قضائه على ثورة آبن أخيه أحمد بن محرز سنة 1098هـ/1686م وفيها أهدى له الشيخ بكار إبنته خناتة التي ولدت له ولده عبد الله الذي عاد اليوم إلى أخواله، وكان حتى هذا التاريخ -تاريخ الهروب- قد قضى في الملك مدة خمسة أعوام وثمانية أشهر ونصف كلها عناء وشقاء وكانت مدة إقامته عند أخواله ثلاثة أعوام عرفت البلاد فيها عودة إلى صولة واستبداد العبيد أكثر مما كانوا، والذين آنتهوا إلى أسوأ حين إستقدموا عليا بن السلطان إسماعيل هو الآخر من تافيلالت حيث كان ثم بايعوه.

---

(256) يقول الزياني في البستان ص57 إن السلطان عبد الله لما هرب كان معه ولده المولى محمد بن عبد الله الذي سيتولى بعد أبيه عام 1172هـ وكان صغيرا دون البلوغ ثم ولده الثاني أحمد، وكان فوق البلوغ، في حين أننا نجده في موضع آخر يقول إن خناثة تعرضت للسجن من أجل ما كان عندها من مال، وكان معها في السجن حفيدها محمد بن عبد الله وذلك في عهد المستضئ كما سنرى في الفصل التالي مما يدل أكثر على أنه كان لهذه المرأة ضلع في سياسة ولدها عبد الله، والتي عرضته الى ما عرف من تقلبات جرت عليه المتاعب وأفسدت عليه حياته التي لم تعرف استقرارا إلى أن سقط طريحا بمرض ذات الرئة بمدينة فاس قريبا من خصومه الألداء حيث مات وهو يصارع الآلام الذي تضاعفه مرارة الذكريات لأهوال البغي والظلم والاستبداد.

رغم فرار السلطان عبد الله إلى وادي نول وغيابه ثلاث سنوات، كان يحسب أنه لا أحد من إخوته أقدر على مزاحمته، فضلا عن الآخرين، ولذلك سنراه يتردد على العرش ست مرات قبل أن تنتهي مآسيه ومآسي الآخرين معه بظهور ولده المولى محمد بن عبد الله، بل إن تعاقب إخوته الأربعة بعد على العرش، لم يكونوا غير وسيلة تركها هو لجيش العبيد الذي كانت قيادته لا تعرف الراحة إلا إذا هي نفست عن مركبها برد الفعل الذي أنطلقت به يوم مات السلطان إسماعيل، بل إن السلطان عبد الله وربما بوحي من حوله لم يكن يرى في ذلك ضررا على العرش ولا خوفا عليه، ما دام الصراع من أجل تركيز الذات والتمكين لها، ومادام هذا الصراع داخليا ولا يعرف أي تدخل خارجي، ولا طموح من غير إخوته بل كان للسلطان عبد الله سياسة تفرد بها في تاريخ المغرب السياسي هو أستعداده النفسي وقابليته لخوض المعارك بشكل لم يعرف عنه قط أنه ضعف أو تهيب أو خاف، ثم شيء آخر هو أنه كان واعيا أن عصب الحياة هو المال الذي قوامه الذهب العين وفتها، والذي كان يفرغ منه بيت المال ويحمله معه بالأطنان على ظهر البغال أنى رحل أو إرتحل، ولذلك كلما آشتدت الأزمة وضاق القوم ذرعا بالذي يحل مكانه على العرش لأنه لم يجد ما يسدد به نفقات الدولة ومرتبات الجيش، إلا وتطلعت الأنظار وتعلقت القلوب بالذي يحمل ما يكفي من الذهب النضار(257)، وهكذا إذا كان المتنافسون عادة تشتد حروبهم حول العاصمة التي يتجمع فيها من المدخرات ما يغري بالاستيلاء عليها مهما كان الثمن، فإن تلك المدخرات وهو الذهب كان السلطان عبد الله يحمله معه، وكلما وزع منه قسطا أو ضربه نقودا عاد واسترجعه بطريقة أو بأخرى، مع العلم أنه كان سخيا جوادا بكل ما يحمله السخاء والجود من معنى، وذلك هو السبب الذي كان العبيد من أجله يعودون إليه. إلى أن أصبح صفر الكف صريع الداء كما سنرى.

---

(257) أخبر المورخون أنه كان ولما يتجاوز الخامسة والعشرين سنة من عمره يحمل معه في حله وترحاله ألف بساط من الجلد الفيلالي، تحمل على سروج الخيل بأقفالها، في كل واحد ألف دينار، ثم مائة رحى من الذهب كقرص الشمع زنة كل واحدة منها أربعة آلاف دينار، تحمل على البغال بتوازن، وتغطى بالحنابل ثم 285000 ريال و20000 مرزنة... الخ. وإذا علمنا أنه أرسل ضمن هديته للحرمين 23 مصحفا ضمنها المصحف العثماني الذي كان يتوارثه الملوك ثم 2700 حصاة من الياقوت مختلف الألوان نعلم مدى الثروة التي كان يتصرف فيها...

الفصل الأربعون بعد المائة

عبد الله وصراعه مع إخوته وجيش العبيد

لما فر السلطان عبد الله ناجيا من مؤامرة الاغتيال التي كان يدبرها سالم الدكالي وشيعته، عادت قيادة الجيش الى البحث عن مزاحم آخر من بين أولاد السلطان إسماعيل وإخوة عبد الله، فكان علي بن إسماعيل المعروف بالأعرج، والذي كان هو الآخر بتافيلالت أرسلوا كتيبة من الجيش أحضرته بعدما آتفقت قيادة الجيش مع أهل فاس على آقتراح سالم الدكالي، وإذا ما استقدم علي إلى مدينة فاس فإن أهل هذه المدينة آستقبلوه بصفرو وتمت بيعته يوم الأحد 25 ربيع الثاني سنة 1147هـ/1734م، وما كاد ينصب حتى ولى على مدينة فاس مسعود الروسي، وتلك باكورة عمله غير الموفق، ولما آنتقل إلى مدينة مكناس حيث آنشغل بالبحث عن المال ليرضى به قواد الجيش بعدما آستنفد ما كان تبقى في بيت المال، آلتفت إلى أم السلطان عبد الله، وذلك بأمر من قواد العبيد الحاقدين عليها والذين أوحوا إليه أن عندها من المال ما يكفي لحل أزمته، وفعلا ألقي عليها القبض وامتحنها حيث ضيق عليها حتى تعترف بما ظن أنها أخفته من أموال، وكلف بذلك الباشا مساهل والقائد العياشي وغيرهما من الذين كانوا يتطوعون لمثل تلك المواقف المخزية منذ بداية الفتن زمن أحمد الذهبي، لكن خناته وهي كما قيل في حقها، وأنها كانت على جانب من المعرفة إن صح القول، التجأت إلى الشريعة حيث أرسلت إلى العلماء كي يتوسطوا بينها وبين علي الذي بلا شك لم يقبل ما فعل بزوجة والده، وإلا لما لقي من ولدها عبد الله بعد آنتصاره وعودته من الجميل ما جعله يعطيه آمتيازات متعددة بمكناس، لولا أن العبيد نقموها عليه كما سنرى.

وفي نفس السنة التي بويع فيها على ظهر تاجر بسوس إسمه عبد الله بن محمد الگرسيفي آدعى المهدوية، ثم دخل أجادير عنوة ثم فعل بأهله ما يخجل ذكره، راجع

الاتحاف 4/406–407- وأخذ ينادي بين قبائل سوس إن أهل المدينة المذكورة ينقسمون ثلاثة أقسام، ثلث نصارى، وآخر يهود، والثالث عصاة وحطب جهنم، لكنه أخيرا قتل برصاصة أطلقها عليه إبن همان الهواري، ومن جهة ثانية فمن سوء حظ علي كما أشرنا أن ولى على أهل فاس مسعود الروسي الذي لهم مع أسرته حساب دفع إلى رفضه من أول وهلة، خصوصا وأنه أول ما فكر فيه هو الإقدام على الانتقام لأخيه أبي علي الروسي ومعه ثمانون ممن كانوا على طويته، أراد مسعود أن ينتقم بقتل الحاج أحمد بودة رئيس اللمطيين الذي أمر بجر جثته بعد قتله، لكن آتفاق أهل فاس وضع حدا لتصرفات مسعود الذي هرب تاركا المدينة بأيدي الذين آقتحموا السجن بعد قتل حراسه والقائمين عليه ثم أخرجوا من فيه، ولما علم السلطان بذلك كتب إليهم بواسطة أخيه المهتدى الذي حمل رسالة عزل مسعود الروسي وتعيين غانم الحاجي مكانه فرفضوه هو الآخر، وفي هذه المرة ومقابل آهتمامه بهم حين أوفد عليهم أخاه كونوا وفدا. حملوه هدية كالعادة ثم أرسلوه الى السلطان علي بمكناس كي يقنعه بمن أرادوا، لكنه لم يستجب بل آستلم الهدية وأدخل حامليها الى السجن، مما أدى إلى حمل السلاح من جديد وإعلانهم العصيان ضد علي فتوسط بين الطرفين أحد قواد الجيش عبد الله الحمري حيث تم الصلح فولى عليهم نفس القائد المذكور زمنا حل مكانه عبد الله بن الأشكر، ثم رحل الحمري ليكون ضمن قواد الجيش الذين لم يكن يشغلهم شيء أكثر من الثأر لما حل بهم من هزيمة علي يد بربر آيت أمالوا، الذين كان السلطان عبد الله قد وجههم إليهم وقضوا سنة كاملة في الاستعداد لخوض المعركة التي كانوا يقدرون أنها ستغسل ما حل بهم من عار، ولم يكونوا ليدركوا أن معنوية البربر كانت أقوى بحكم ما كان يشاع بينهم أن السلطان عبد الله يريد لهم التفوق للكبش الأبيض على التيس الأسود(258).

وهكذا في شهر المحرم من سنة 1149هـ/1736م كانت قيادة الجيش قد أكملت كل الاستعداد للحرب وتوجهت الجيوش تجاه قبائل آيت امالوا التي عادت إلى نفس الخطة الأولى، والتي لم يتدبر قواد جيش العبيد هذه المرة تفاديها، ذلك أنهم كما سبق توغلوا

(258) الكبش الأبيض يعني به البربر، والتيس الأسود يعني به جيش البخاري "العبيد

بهم في الأدغال وبين الجبال الوعرة والمسالك الضيقة، في الوقت الذي دفعوا من يسد الثايا الضيقة خلفهم، والتي لا مفر لهم وقت الفر من العودة إليها، وإذا ما انتهوا بهم إلى حيث لم يستطيعوا الصمود، أحاطوا بهم من كل جهة ثم ضيقوا عليهم الخناق بعدما أكثروا فيهم قتلا، مما دفع الذين انسوا منهم المنع إلى الفرار، لكنهم وجدوا المنافذ الضيقة موصدة في وجوههم فترجل أكثرهم ثم هربوا تاركين وراءهم الخيل والسلاح وما ثقل من التموين وعلف الدواب، بل توزع أغلبهم بين الجبال تائهين بلا هدف ومنهم السلطان علي الأعرج نفسه الذي انقلب في اتجاه خاطئ يريد العودة من حيث أتى، لكنه وقع في أيدي قيادة البربر حيث كرم واقتيد إلي مدينة مكناس التي دخلها دخول جيشه المهزوم الذي ما كاد يسترد أنفاسه حتى أخذ يطالب السلطان تعويض ما فقده في الهزيمة الثانية التي أذلته وأفقدته الهيبة والاعتبار بين البربر، وإذا السلطان المهزوم كذلك لم يستطع أن يعوضهم شيئا مما فقدوا فإنه لم يعد كذلك أهلا للسلطنة، بل أصبح كل قائد يتزعم عصابة تبحث له عن المال، وبذلك تحولت جموع جيش العبيد إلى مجموعات من اللصوص لم تترك ناحية من النواحي التي تواجدت فيها إلا وتعرضت للنهب والسلب وقطع الطرقات، ثم أضافوا إلى ذلك أنهم خلعوا السلطان علي الأعرج يوم 10 محرم1150هـ/1737م فاقتدى بهم أهل مكناس وتبعهم المتذمرون منهم ومنه في كل مكان، ورغم قصر مدة هذا السلطان فإنه استطاع أن يتخلص مما أوقعه فيه الجيش يقول صاحب الإتحاف(259).

وهكذا سنرى أنه كلما تأزم الوضع سياسيا بسبب الوضع المالي إلا وتفكر قيادة الجيش في السلطان عبد الله الذي كان يحمل بيت المال على ظهور الخيل والبغال، بل والذي كانت هناك جماعة منظمة من رجال الفكر أطرهم الشيخ أحمد الحبيب اللمطي لصالحه في كل ناحية، خصوصا في فاس، ومكناس، ومراكش لأنه كان يغدق عليه بطريقة ظهر معها ثراء الشيخ بكثرة العقارات حول زاويته بقصر الماطي من تافيلالت. وهي أموال بلا شك كانت ثمنا لبيع الضمير الذي كان يتغاضى عن قول الحق ولذلك ذاب وضاع معها أثر هذا الشيخ الذي ملا صيته الفضاء زمن السلطان إسماعيل.

---

(259) 442/4.

وفعلا ذلك ما حصل، فقد ظهرت الدعوة من جديد لفائدة السلطان عبد الله الذي قيل إنه ظهر بقصبة بولعوان، وأخذت المراسلات تتبادل بينه وبين أكثر من ستين من قواد جيش العبيد الذين تحولوا ضد سالم الدكالي صاحب المؤامرة القديمة، بل والجديدة التي يدعو فيها إلى بيعة محمد بن إسماعيل المعروف بـ"ولد عربية"، بل والذي آستدعي هو الآخر من تافيلالت فقدم على عجل، لكنه ما كاد يصل إلى صفرو حتى وجد بيعة عبد الله وللمرة الثانية قد تمت، فلم يكن من محمد ولد عربية إلا أن دخل ليختفي عند صاحبه عبد الرحمن الشامي، الذي يقول في حقه الزياني أنه كان يتصلح عليه"(260)، بل كان يعده ويمنيه، وإذا ما سقط في يد الدكالي ومن معه، ثم التجأ إلى ضريح المولى إدريس الأكبر فإن السلطان عبد الله قد رفض البيعة بالملك المشترك مع الدكالي كما قال، وفعلا أضطر قواد الجيش أن يقتحموا عليه الضريح المذكور ويأخذوه ومن معه في أغلالهم إلى حيث السلطان عبد الله بقصبة تادلة فاستفتى فيه القاضي أبو عنان الذي كان معه فأفتى بقتله، ولما قتل ومن معه رحل السلطان عبد الله إلى قصبة أبي فكران حيث قدم عليه وفد مدينتي مكناس وفاس فقتل من فيها ثم أطلق يد الجيش فيما يملكون من مزارع حول المدينة، مما أدى إلى البحث عن منافس، فكان محمد بن إسماعيل المدعو ولد عربية كما سبق.

بدأ السلطان عبد الله تدشين أعماله الإدارية في مدينة مكناس بعزل القاضي أبو القاسم العمري، وولى على المدينة محمد ولد علي ويشو الذي كان أبوه صاحب السلطة العليا في البربر زمن السلطان إسماعيل، أما في مدينة فاس فإن جيش الوداية الذي نهج نفس النهج الذي سلكه جيش العبيد زمن علي الأعرج، وزاد عليه في النهب والسلب وقطع الطرقات بل كعادته آختار يوم الخميس الذي هو يوم سوق البلد وأحوازها وقد تعودوا على ذلك، حيث يقصده الناس بكل أنواع السلع وما يجلب من البضائع والحيوانات، آستولى الوداية على ذلك من أيدي الناس قهرا، الأمر الذي دفع أهل فاس إلى بيعة محمد ولد عربية الذي كان بدار عبد الرحمان الشامي، يوم 10 جمادى الأولى سنة 1150هـ/1737م لكنهم آختلفوا ولم تكتب البيعة التي ما آنضم إليها قواد جيش

(260) البستان 59.

العبيد إلا بعد خمسة أيام، ومع ذلك واجهت معارضة من بعض العلماء الذين تمسكوا ببيعة عبد الله، فكان جزاؤهم الإهانة من أهل فاس الذين يقول الزياني أنهم امتحنوهم(261) وتعني عنده أنهم ضربوهم، وأخيرا أصبح محمد ولد عربية هو السلطان المبايع قصد أن يتمكن قواد جيش العبيد من مال الذين رشحوه وهم أهل فاس، لكن ما قدمه هؤلاء لم يكن ليرضى فهم الذين أتوا على كل ما كان في خزائن الدولة حتى انتهوا إلى احتراف النهب والسلب، الأمر الذي عطل كل حركة سواء في أسواق البادية أو المدن، بل حال دون قيام الناس بأعمالهم، سواء في الحقل، أو المتجر، فحصلت أزمة خانقة بين الشعب والجيش الذي لم يعد لكل رجالاته شغل غير البحث عن الزرع الذي اختفى، وتعرضت أسرهم للمجاعة والموت وزاد أكثر حملات السلطان عبد الله برجاله بين حين وآخر، إذ كان بعد بيعة أخيه محمد، خرج لناحية الحاجب حيث البربر ثم أخذ يغير على مدينة مكناس برجاله، وفي إحداها قصد الإصطبل الكبير فقتل من فيه وأحرق مساكن جنود الجيش، الأمر الذي دفع السلطان محمد ولد عربية إلى استنفار الجيش واللحاق بعبد الله الذي توجه نحو الحاجب، ولما رأى هذا الأخير قوات الجيش تطارده ترك لها ما كان قد جلب إلى الحاجب من متاع ثم توغل في الجبال حتى يطارده الجيش الذي كان عبد الله قد هيأ له كمينا قوامه قبائل البربر، وفعلا لما يئس الجيش من الحصول على مكان عبد الله الذي اختفى بين جبال الأطلس رجع الجنود في طريقهم اتجاه فاس وفي الطريق خرج عليهم البربر بأعداد أكبر من أن تقاوم، فسلبوا جيش العبيد ما أخذ لعبد الله ثم ما كان معه من تموين وسلاح، ولم يمنع غير أولئك الذين كانوا في المقدمة مع السلطان محمد ولد عربية، أولئك الذين لما اقتربوا من مدينة فاس أمرهم سلطانهم أن يتوجهوا لأهل المزارع والقرى المجاورة، ثم أمرهم بقطع رؤوسهم بعد نهب قراهم وبعث بها لتعلق على أسوار فاس بدعوى أنها رؤس البربر، وأرسل أخاه الوليد لفاس، ثم أمره أن يقبض المال من أشرافها فمن أعطى يترك، ومن أبى يخرج للحركة، مما أحدث رجة في المدينة، وزاد لما دخل مدينة فاس ألقى القبض على الحاج بوجيدة برادة، وكان ثريا

(261) البستان 60.

فقتله وأخذ أمواله وباع ممتلكاته، ومثله فعل بالحاج عبد الخالق الذي آستولى على أمواله، ولما آنتقل إلى مدينة فاس فعل مثل ذلك بكبارها، حتى لم يسلم منه أحد، والناس في محنة عظيمة من المجاعة والفتنة ونهب الدور ليلا، لا ينام أحد من أهل اليسار، وكل الناس رجعت لصوصا، والوداية يعيثون في أطراف المدينة والبساتين، ويغيرون على القصارين بوادي فاس، ولما أخذوا يقصرون الكتان بمصمودة أخذوه لهم، والسلطان معرض عن هذا لا يلتفت إليه، ولقد مات من الجوع عدد لا يحصى وأخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان، من عام 1150هـ ثمانين ألفا وكذا من غير من يكفنه أهله"(262).

وهكذا فإن أيام السلطان محمد ولد عربية لم تكن بأحسن من أيام سابقه علي الأعرج، بل كانت أنحس وأبخس إذ رأيناه سرعان ما تنكر حتى للذين فرضوه فرضا بدافع العناد، وهم أهل فاس نكل بهم، ونصب عليهم الشريف عبد المجيد المشامري الذي أذاقهم العذاب، كما آستسلم لأوامر العبيد في قتل من أمروه بقتله، فكانت نهايته من جنس ما زرع، ذلك أنه لما إنتهى إلى أسوأ نهاية بحث القوم من جديد على منافس، فكان المستضيء بن إسماعيل الذي كان هو الآخر بتافيلالت ولما آتفق رأي قواد جيش العبيد على ذلك وقبل إستقدام المستضيء أخرجوا السلطان محمد ولد عربية من القصر ثم جمعوه مع عامله على فاس عبد المجيد المشامري، وعيد الرحمن الشامي، ثم "سمروا عليهم أكبالا"(263) ووضعوهم تحت الحراسة إلى أن يقول فيهم السلطان المنتظر رأيه، كان ذلك في اليوم الرابع عشر من شهر صفر سنة 1151هـ/1738م حين نقل محمد ولد عربية إلى دار له كانت على وادي ويسلان بجنان حمرية من مدينة مكناس، ووقتها فعلوا ببيعة المستضئ ما تعودوه في السابقين، وجهوا بها إلى مختلف الجهات وفي المقدمة مشرع الرملة، ومدينة فاس، أما المستضيء، فإنه ما كاد يسمع الخبر حتى هب مسرعا، وكان الطريق عادة اتجاه القصبات التي أعدت للأمن وحراسة الطرق في خط يربط تافيلالت بمدينة فاس التي آعتاد كل مرشح للبيعة أن يمر منها للتمويل قبل ذهابه إلى

---

(262) نفس المرجع 61.

(263) نفس المصدر 62 والكبل القيد من أي شيء كان وجمعه آكبل وكبول واكبال: المعجم الوسيط 780/2.

مدينة مكناس العاصمة، ولما بلغ المستضئ إلى مدينة صفرو ولقيه أعيان مدينة فاس وعلماؤهم، وأشرافهم ببيعتهم ثم قدموا معه إلى حيث حل بفاس الجديد، وقبل أن يرحل نصب عليهم القائد أحمد القعيدي الذي جر بدوره شعشوع اليازغي، ثم ولاه خليفة له، وبذلك لم تعرف فاس تغيرا في الحال، بل آستمر الظلم كما كان، ولما آنتقل إلى مكناس أمر قبل كل شيء بإرسال أخيه محمد ولد عربية، سجينا إلى تافيلالت، وبعبد المجيد الشامري إلى مدينة فاس التي عذب في سجنها إلى أن مات ومثل به، كما أخرج ولد مامي من ضريح المولى إدريس الثاني، ثم قتل أبي زيان الأعور(264) وكل ذلك ليرهب الناس ويتمكن، لكن المستضيء كان حسب وصف أبي القاسم الزياني بخيلا، ظلوما، سفاكا للدماء، مهزوم الراية حيث ما توجه، ولقد بلغ به السقوط الى درجة أنه سجن أخاه العالم الطاهر التقي زين العابدين لمجرد أنه قدم من تافيلالت إلى مدينة مكناس، ولم يكتف بسجنه بل بإحضاره وضربه أمامه إلي أن أشرف على الموت، ثم بعث به مقيد إلى تافيلالت مع بعض شرفائها، وقبل أن يصل إلى مدينة صفروا أرسل بعض قواد جيش العبيد من ردوه ثم سرحوه من قيده وبعثوا به إلى القائد أحمد القعيدي ببني يازغة، إلى أن يصل دور تجربته هو الآخر، ويقول الزياني في حق المستضيء الذي ضرب أخاه أمام الناس وفضحه، إن ذلك من قلة مروءته، إذ قانون أهل المملكة السجن والقتل، وأما الضرب فليس من أخلاق أهل الهمم العالية.

وبالتالي ففي أيام المستضيء تحركت الفتن أكثر حتى آنتهت إلى الشمال الذي كان يتولى حكم طنجة فيه أحمد بن علي الريفي الذي آستطاع أن ينتزع من المستضئ أمرا فيه كيد ضد أهل تطوان الذين قال عنهم إنهم شقوا العصا، فأذن له بغزو بلادهم التي آقتحمها ونهبها ثم قتل ثمانية من أعيانها وهدم أسوارها ووظف على أهلها مالا عظيما

(264) البستان 63 وفي مدينة مكناس قتل القائد غانم الحاجي، والقائد سعدون قائد مكناسة، وستة من أولاد الزاني أصحاب السجن. ولقد قارن الزياني بين عبد الله والمستضئ، فقال إن الأول يمتاز عن الثاني بالسخاء، وفعلا فإن جل آنتصارات السلطان عبد الله لم تكن بدافع التعلق بشخصه، بقدر ما صنعت بالمال، ولذلك سرعان ما آنهارت، ولو لم يتداركه ولده المولى محمد بن عبد الله والشيخ أحمد اللمطي الذي قرب إليه الكثير من العلماء الذين جلبوا له من آنتصارات ماديا وادبيا ما لم يستطع المال وحده، لكانت النهاية أسوأ مما عرف عبد الله في آخر حياته وكما سنراه يقضي بقية حياته مهملا وقد أنهكته الأمراض.

بأمر المستضئ الذي سايره في الوقت الذي كان ذلك من الريفي لسبب آخر هو رفض أهل تطوان لولايته قبل، بل حاربوه ثم ردوه خاسرا في الوقت الذي كان يحكمها عمر الوقاش كاتب السلطان إسماعيل، الذي عينه عليها في الوقت الذي آنتهى فيه إلى أرذل العمر، وللوقاش الأديب هذا قصة يرتبط حدوثها بأخريات حياته، وفي الوقت الذي طاش عقله وعمت بصيرته، بل في الوقت الذي عمت الفوضى وأصبح القوم في كل جهات المغرب ولا سراة لهم، وقتها آدعى عمر الوقاش أنه أحق بالملك وقد صدق محمد بن بجة العرائشي حين رد على قصيدته التي آدعى فيها ما آدعى حيث قال الوقاش:

بلغت من العلياء ما كنت أرتجي وأيامنا طابت وغنى بها الطير
ونادى البشير مفصحا ومصرحا هلم أبا حفص فأنت لها البدر
شرعت بحمد الله للملك طالبا وقلت وللمولى المحامد والشكر

إلى أن قال:

أنا عمر المذكور إن كنت جاهلي فسل تجد التقديم لي ولا فخر
ولم يبق ملك مستقر بغربنا وعندي آنتهى العلم المبرح واليسر
ففرطوط والرحمون والغوط عصبتي
وراغون كنزي والصغير به الظفر
أولئك أنصاري وأرباب دولتي
وأهلي وأصهاري هم الأنجم الزهر(265)

فرد عليه الريفي المذكور:

في صفحة الدهر قد خطت لنا عبر منها آدعاء الحمار أنه بشر
من فر عنه الصبا وما رأى عجبا خبره بعجبات دهره الكبر؟
لا تطمعنك الدجاجيل ببرقشة ليس الضلال هدى ولا العمى بصر

(265) راجع البستان 64 ولعل في هذا كفاية للدلالة على ما آل إليه الوضع من سقوط وانحطاط في هذه المرحلة.

إلى أن قال :

ليس التشبه بالعمرين قصدك بل تبغى النبؤة لولا الصارم الذكر(266)

ولعل في آدعاء الوقاش رغم شيخوخته وما قيل في حقه من أنه طعن في السن حتى آنتهى إلى حمق وخبل ما يستدل به على الوضع، السيء الذي آنتهى إليه المغرب في عهد المستضئ الذي جيئ به بعدما تضعضت كل مرافق الدولة، وفرغت بيوت المال، بل تحولت إلى جيوب قواد الجيش، وبعضها آل إلى الريفي حتى أصبح هو الآخر يدلي بدلوه في مجال السياسة وترشيح السلاطين، بل روع الشمال حتى كاد يستقل فيه بنفوذه الذي شمل منطقة شاسعة آمتدت إلى حدود مدينة تازة.

كان المستضيء قد إنتهى إلى أكبر ضائقة عندما لم يجد من المال ما يرضي به قواد الجيش، حتى آنتهى إلى إخراج ما في القصور من مدخرات للبيع، فآقتلع الأبواب والشبابيك النحاسية المذهبة من الشطرنجية ثم باعها لليهود بعدما باع ما في خزائن الدولة من ملح البارود والكبريت، وهما سلاح المدافع في المعارك الطاحنة.

وأخيرا ضرب مدافع النحاس عملة، لكن كل ذلك إلى جانب شخصيته الضعيفة لم يغير من الوضع شيئا، بل آنتهى إلى فشل أكبر عرضه للعزل يوم 14 قعدة 1152هـ/1739م وقتها لم يكن أمام قواد جيش العبيد وديوانهم أيضا غير الرجوع إلى عبد الله الذي يحمل بيت المال في حله وترحاله على ظهور البغال والجمال، فعاد أوائل سنة 1153هـ/1740م لكن لينكل بالجميع وليدفع أكثر إلى تناطح التيس الأسود مع الكبش الأبيض، وقد كان إلى جانب السلطان عبد الله في شيء من الالتزام من البربر آيت بدارسن، ومن الجيش أخواله الشراردة، وقسم كبير من الوداية، ثم عبدة، والرحامنة، وأهل سوس، ولم يكن في حزب المستضئ غير أخواله دكالة وبعض بني حسن ثم أحمد بن علي الريفي بدافع الخوف من السلطان عبد الله(267) ولذلك عندما نفر الناس من المستضئ إلتجأ الريفي إلى الدعوة لصالح زين العابدين المرهون عند القعيدي ضد أخيه عبد الله، ونسي الريفي أن زين العابدين الذي أهانه المستضئ يعلم أن لا أحد أقدر على

---

(266) نفس المصدر 65-66.

(267) راجع البستان 63 المصدر السابق.

قهره والقضاء عليه وعلى كل من معه أكثر من عبد الله، ولذلك بادر زين العابدين وبارك لأخيه عبد الله، ورغم ذلك آستمر الريفي في محاولاته إقناع قواد جيش العبيد، وذلك في الوقت الذي دخل فيه عبد الله إلى مدينة مكناس وعزل قاضيها بلقاسم بن سعيد العميري، الذي زوج نساءه لأخيه المستضيء، وأشرك معه في المؤاخذة على ذلك أحمد الشدادي والعباس بن الحسن بن رحال، والفقيه المسليتي وأحمد بن عبد الله التملي وعلى النضر ومن خليفة القاضي العميري وأزال عمائمهم وفضحهم ثم أمر بسجنهم يقول الزياني، وولى على فاس شيخ الركب عبد الخالق عديل، وعلى قضائها بوشتى أبو عنان وأمره أن يعزل القضاة والخطباء الذين خطبوا بالمستضيء في أي بلد كانوا، وحتى يستمر التناطح بين التيس الأسود والكبش الأبيض، أعطى دار العميري وزير المستضيء إلى أحد قواد جيش العبيد، ثم أمر هؤلاء أن يحتل أي منهم دار من يريد، فأصبح العبد يقف أمام دار من يختار ويأمره بالخروج منها لأن السلطان أعطاه إياها، بل منهم من انتزعت منه آبنته بذلك الأمر الجائر، وعاش الناس فترة قاسية آشتدت فيها آلامهم وازدادت المحن والويلات أكثر بشكل لم يعرف الناس ما يقرب منها ذلة ومهانة قط في تاريخ المغرب السياسي، وقد وجدها أحمد بن علي الريفي فرصة ما دام الجيش والشعب في العاصمة في شغل بما حل بهم وأهل مشرع الرمل غير راضين، لأنهم حرموا مما تمكن منه إخوانهم بمكناس، وقتها توجه الريفي بقواته غازيا أيضا لأهل القصر وأصيلة لأنهم لم يكونوا من حزبه فوجه إليه السلطان عبد الله من يصده، لكن الذين أرسلهم لم يتمكنوا ورجعوا في الوقت الذي قتل فيه قائده على الجبل أحمد القعيدي الذي كان قوة فعالة في جانب عبد الله بالإضافة إلى أن الوداية الذين لم يحققوا ما حققه جيش العبيد بالأمر الظالم آنقلبوا ضده، فتدخلت أمه خناثة للتوفيق بينه وبينهم ولما علم العبيد بذلك آنقلبوا عليه وفكروا في عزله، وإذا كانت أمه قد تعرضت قبل إلى ما تعرضت له على يد أخويه علي ومحمد ولد عربية، فعليها أن تفر إلى مدينة فاس التي حلت بها في ربيع الأول سنة 1154هـ/1741م وذلك بعدما آطمأنت إلى الودايا الذين تودد إليهم ولدها بكل ما لديه من وسائل مادية ومعنوية، لكن لما علم أحمد بن علي الريفي بخلاف السلطان عبد الله مع جيش العبيد واتفاقه مع الودايا سره ذلك وأرسل إلى مشرع الرمل يساوم العبيد في بيعة

زين العابدين الذي كان عنده بطنجة بعد موت القعيدي، فلما اتفقوا معه على ذلك دون إرادة زين العابدين الذي اشترى له الريفي كذلك بيعة أهل تطوان أرسله مع كتيبة من الجيش إلى مكناسة حتى تتم بيعته وذلك في شهرربيع الأول 1154هـ/1741م وهو الشهر الذي رحل فيه عبد الله وأمه خناتة من مكناس إلى مدينة فاس.

لقد علمنا من أمر زين العابدين بن إسماعيل ما كان مع أخيه المستضئ وكيف أن العبيد وجهوه الى القائد أحمد القعيدي ببني يازغة، ولما قتل هذا الأخير ذهب زين العابدين إلى الريفي وقبل أن يذهب بارك بيعة أخيه عبد الله الذي كان يعلم ذلك، ويعلم أنها فقط محاولات الريفي المندفع رعبا من السلطان عبد الله، ولذلك لم يزعجه ما قام به الريفي، واتفق معه العبيد عليه وأن زين العابدين التقي بل الطيب النقي، سوف لا يقبل الخوض في السياسة الملوثة لأن ذلك لم يكن من طبعه وعادته، وبذلك تكون مجهودات الريفي عبثا، بل سوف لا تحدث ما سبق أن حصل مما أدى إلى فرار عبد الله.

كان السلطان عبد الله قد حط رحاله برأس الماء من مدينة فاس، وكان جيش الوداية بهذه المدينة قد تأزم الوضع بينه وبين جيش العبيد، وبذلك لا مطمع لهؤلاء ولا للريفي في محاولة الاتفاق، لا مع الوداية ولا مع أهل فاس، بل في منتصف جمادى الأولى من السنة المذكورة قام جيش العبيد بمحاولة إثارة كانت في صالح السلطان عبد الله، ذلك أنهم أحرقوا زرع الوداية، وعثوا فسادا في كل ما حول مدينة مكناس وما في الطريق إلى مدينة فاس من مزارع، وذلك في طريقهم لحصار فاس والوداية من أجل بيعة زين العابدين، وبينما هم في حصارهم لفاس حيث نزلوا بـ"سيدي عميرة" فر زين العابدين حبا في تقديره للسلطان عبد الله إلى تافيلالت نافرا ومستنكرا قتال المسلمين بعضهم لبعض، فضلا عن قتاله(268) هو لأخيه عبد الله الذي يعلم أنه مبايع قبل، ولما رجع لتافيلالت كان نزوله أولا بقصر أولاد عدو حيث حط رحاله بما حمل من خزانة الكتب

(268) لقد أشاد أبو القاسم الزياني بأوصاف زين العابدين بن إسماعيل وقد صدق، راجع البستان ص70، بفعلا فقد اتصفت ذريته من بعده بما كان يتحلى به هذا السلطان من جميل الصفات، وفي مقدمتها الصبر، وحفدته بمسكان قصر أولاد عائشة بتافيلالت ومنهم المولى عبد الله النقيب قبل المعروف "سيدي عبو" والذي سنجد له رأيا مقرنا إلى جانب الخليفة السلطاني المهدي بن الرشيد كما نجد بقية خلفه وقت غزو الفرنسيين وفي قصر حنا بوهم قرب البشير، وفي مكناس منهم الوطني المقاوم للاستعمار الحبيب الحوات عضو مكتب المقاومة المعروف: زين العابدين بن الحبيب بن العباس رحم الله الجميع.

التي كان قد جمعها والده وفيه ولد له المسمى الحبيب وهو الذي نزح من تافيلالت بعد موت والده حيث كان في حماية الجد السابع للمؤلف مسعود بن عبد الله. وهو المذكور في موضوع الاستيلاء على ممتلكات الأمير المامون بن السلطان إسماعيل فيما تعرض له الضحيفي السوسي الرباطي في حوادث 1197هـ، ومثله الزياني وقبل في رسائل السلطان إسماعيل إلى ولده المامون.

كان فرار زين العابدين من الملك الذي يؤدي إلى ما عاش ورأى يوم 15 رمضان1154هـ/1741م وبذلك خلا الجو لأخيه السلطان عبد الله الذي عرف كيف يوجه الطعنات القاتلة الى خصومه الذين يتقدمهم أحمد بن علي الريفي الذي لما سقط في يده بفرار زين العابدين توجه ثانية إلى المستضيء الذي كان بمراكش التي كان بها أخوه بناصر خليفة له، وإذا هو كان قد آنتهى إلى الإفلاس فإنه لم يمانع في إعادة التجربة المحقق خسرانها مقدما، ومع ذلك قدم إلى مكناس في المحرم من سنة 1155هـ/1742م على أن الوضع بالنسبة للأطراف المعنية بالبيعة لم يتغير بل في هذه المرحلة وبدافع ما ظهر من زين العابدين آنضم إلى الوداية وأهل فاس المبايعين للسلطان عبد الله كلا من لحياينة والشراقة وأولاد جامع بالإضافة إلى بربر زمور، وآيت أمالوا، وگروان، وإذا ما عرف المغرب في هذه المرحلة سلطانين، الشرعي وهو عبد الله، معه قبائل البربر وفاس وما حولها من الوداية وقبائل العرب، والمستضئ كمنافس مدفوع من أحمد بن علي الريفي ومعه قهرا قبائل الشمال وجيش العبيد غير أهل مشرع الرمل، وإذا ما آستمر الوضع كل يتحين الفرصة في صاحبه، فإن السلطان عبد الله تعرض لهزة عنيفة لم تكن منتظرة، تلكم هي موت والدته خناتة بنت بكار المغافرية التي توفيت يوم 6 جمادى الأولى سنة 1155هـ/1742م(269).

---

(269) دفنت بمقبرة الشرفاء المجاورة للقصر الملكي بفاس الجديد وقد كان قبرها معروفا إلى عهدنا حيث موضعه بجدار ساحة المقبرة المذكورة يمين الداخل وناحية الجنوب بالمقبرة المعروفة اليوم "مولاي عبد الله" ولقد زعموا أنها كانت آمرأة داهية شاركت في السياسة بعد موت السلطان إسماعيل ونحن لا نقول مع المبالغين الذين نصبوا منها وزيرة في خيالهم للسلطان إسماعيل ولو أن الذين آعتمدوا قول المختلق أكنوس درسوا شخصية السلطان إسماعيل دراسة علمية لما سمحوا لأنفسهم بذلك خصوصا وأن أكنسوس الذي آبتدع كتابتها على الإصابة قال إن غيره نسب الخط إليها... هذا مع العلم أننا لا نفقد فيها زوجة السلطان إسماعيل ذات الأصل العربي الأصيل والتي برهنت على قوة شخصيتها من خلال ما كتب عن رحلتها إلى الحج جمادى الثانية سنة 1143 راجع الاتحاف 3/16-23 والجيش لأكنسوس 82 ثم قارن مع البستان 71.

لقد كان لموت الأم في نفس ولدها أعمق الأثر حيث نجده يعبر عن ذلك بطريقة عجيبة جدا، فالذي عرف السلطان عبد الله من خلال مراحل تردده على العرش، وما سفك من دماء لا يصدق أنه كان يحسب للجانب الروحي ولا للعاطفة أي حساب، لكن بعد موت والدته ورغم الوضع المضطرب الذي يشوش عليه فيه وجود خصم قوي بماله وعتاده هو أحمد بن علي الريفي الذي جلب إليه قواد جيش العبيد وكبار الديوان، ثم هو ينتظر الإشتباك بين حين وآخر، رغم كل ذلك وقف وقفة إن لم تكن بعاطفة موقتة فهي تدل على أن السلطان عبد الله بهذه الصدمة رجع إلى الدين والتعلق به، ذلك أنه في هذه السنة أرسل هدية ثمينة وعظيمة إلى الحرمين مع وفد الحجيج، وهي عبارة عن سبعة عشر مصحفا بين كبير وصغير، كلها محلاة بالذهب، منبتة بالدر والياقوت، ومن جملتها المصحف الكبير العقباني الذي كان يتوارثه الملوك بعد المصحف العثماني الذي كان عند بني أمية في الأندلس، وانتقل إلى المغرب على يد عبد المومن بن علي، ثم إلى بني مرين إلى أن غرق في البحر أيام أبي الحسن، وبعث مع المصحف 2700 حصاة من الياقوت المختلف الألوان للحجرة النبوية الخ(270).

وإذا ما مرت السنة ثم انتهت وعبد الله مشغول بما ذكر فإن الريفي الذي كان أكثرالقوم خوفا من المستقبل إذا ما تمكن السلطان عبد الله، ولم يكن همه غير الاستعداد للحرب التي كان حسابه لها غير صحيح ولا سليم، إذ كان فقط يحسب حسابه لقوة الوداية وأهل فاس ومن ذكر معهم، ولم يحسب أن السلطان عبد الله لم يكن بارعا في شيء براعته في الحساب لطرق الإيقاع بصاحبه بمختلف الوسائل التي منها الشراء ومن لم يشتري يقتل ولو لم يكن كذلك لما تردد على العرش تلك المرات المتعددة، والتي ما ثبت قط أنه في إحداها ركن إلى الراحة أو الإهمال بل ولا هو قط إستطاب حياة القصور أو سكن فيها. رغم ما كان لمعاصرية من ذوق رفيع نتعرف عليه في الباب الذي عمل على بنائه بمكناس والذي أصبح هو عنوان التعريف بهذه المدينة. والذي احتفظ باسم البواب أو الحارس الذي كان من العاملين به وهو منصور لعلج أي الإسلامي أكثر مما احتفظ باسم عبد الله الذي لم يعرفه به إلا أقل من القليل الذين يستوعبون.

(270) البستان 72 وفي هذا دلالة على أن الرجل كان قد أستولى على كل المدخرات التي كانت في بيت المال وبدار الملك وانه كان يحملها معه أين حل وارتحل حتى مل منها وممن حوله ولذلك أبعدها إلى حيث لم يستفد منها المتاطحون.

الفصل الواحد والأربعون بعد المائة

نجدة وعزيز ورجاله للسلطان عبد الله

في يوم الثلاثاء(271) 22 محرم من سنة 1156هـ/1743م ودون أن يحسب جانب السلطان عبد الله كل الحساب لما قام به أحمد بن علي الريفي، وكان قد نزل هذا الأخير بجموعه الهائلة وقواته الكبيرة بالمكان المعروف بالعسال قرب مدينة فاس آتجاه قنطرة سبو، ونزل صهره المستضيء ومعه جيش العبيد بقيادة الباشا فاتح آبن النويني، بالقرب منه في نفس المكان، واهتزت فاس وما حول فاس لتلك الأعداد التي فاقت ما قيل عنه ستون ألف(60.000) وما لها من استعداد، وإذا ما قضى الناس يومهم في جمع الشتات وتوحيد الصفوف للمواجهة، فإنه ما أن أرخى الظلام ستاره حتى نفر السلطان عبد الله برافقه عشرة ممن حوله ثم توجه إلى حيث لم يعرف أحد قط.

ما قصد، بل لم يعرف أحد من أنصاره ولا حتى الذين رافقوه أي هدف يقصد. لقد قام عبد الله بعمل جد عجيب وغريب، وحبذا لو أمكن لمن يتعشق المواقف الغريبة سياسيا والنادرة في تاريخ المغرب السياسي أن يخرج هذه المرحلة في شريط يعرض على الشعب الذي يجهل كيف يعبر المغربي عن ذاته وإثباتها، والمحافظة على الصفات التي تميز بها، لقد قام عبد الله بعمل أظهر معه بحق أنه رجل سياسة ودولة، وأنه أفاد من ماضيه العنيف المخيف وأصبح يعرف لكل ظرف ما يليق سياسيا ودون آستعلاء، في الوقت

---

(271) راجع البستان المصدر السابق 72 والاتحاف لإبن زيدان 430/4 وقد أخذ عن الزياني حرفيا كما نقل عنه صاحب الاستقصا وصاحب الجيش ط حجر 114/1 ثم تاريخ تطوان 219-220 من ق 2 ج2 وفي هذه السنة ظهر وباء بالمغرب، وكان أشد بمدينة فاس حيث توفي العالم الشهير أحمد بن المبارك اللمطي السجلماسي، يوم الأحد 13 جمادى الأولى من نفس السنة 1156 اهـ/1743م وما قام به السلطان عبد الله من قلبه للسرج في خيمة واعزيز والتي أصبحت من عادة البربر فقد استمدوها من قلب الأتراك للقدر في حالة العصيان وتلك عادة استمدت من الأتراك راجع دائرة المعارف الاسلامية ج77/3 س 17. كما أنه عند البربر عادة أخرى في طلب النجدة هي وضع خنجر أو موسى في الفم وتشبيك اليدين خلف الظهر ثم طأطأة الرأس كما فعل الرشيد مع الشيخ اللواتي في بني يزناسن قبل.

الذي لا ينفع الاستعلاء، لقد قام في تلك الليلة بعمل عجيب جلب به قوة البربر إلى ساحة الدفاع عن العرش المهدد وقتها أكثر مما مضى بأشد خطر، ولولا ما قام به السلطان عبد الله وتمت المواجهة وانتصر أحمد بن علي الريفي الذي كان قد جرب أكثر قيمة المتنافسين الذي لا رأي لأحد منهم وإنما الرأي لقواد جيش العبيد الذين أصبحوا بضاعة تعرض للبيع، وقد إشترى الريفي منها، ما شاء لصالح صهره المستضيء(272) ولم لا يشترى أكثر وبثمن أعلى وكتجربة إذا هو إنتصر لصالح نفسه، فلم لا يدعي ما ادعاه عمر لوقش الذي لم يتوفر على عشر العشر مما يتوفر عليه هو؟

لو حصل ذلك ولم ينفذ السلطان عبد الله خطته أقول بلا مبالغة لانتهى حساب السلطان إسماعيل الذي ترك الأمر ولم يعهد لأحد من أولاده حتى يكون الأقوى حسا ومعنى هو الأحق، وقد كان فعلا عبد الله الذي عرف كيف يحقق فكرة أبيه أولا، ثم يمكن للدولة العلوية ثانية، وأخيرا كيف يلقن جيش العبيد أعنف درس منذ بدأ عمله الاستبدادي لإرهاق الدولة والشعب، ولئن كانت كل دروس السلطان عبد الله السياسية إنما تلقاد عمليا في حياته الخاصة والعامة ومباشرة من البربر، فإن خلاصتها في هذه المرة ستشر ما لم يتعوده في حركة واحدة، وذلك عندما وقف به جواده أمام خيمه عبد الله ولد علي ويشو الذي كان قد قتله قبل قواد جيش العبيد، يوم توفي السلطان إسماعيل ونصبوا أحمد الذهبي، ولعل عبد الله قبل وقوفه على الخيمة التي تبعد قليلا عن العاصمة بما يماثل طلقة جواد قال لأحد رفاقه عندما أقف على الخيمة وأترك الجواد فك حزام السرج وألحقه معي داخل الخيمة، وبينما السلطان عبد الله يتلقى التحيات من كبار القوم ورجالات البربر الذين لا تخلو منهم مثل خيمة علي ويشو، التي لما توسطها السلطان عبد الله إذا بالرفيق ينفذ الأمر ويحضر السرج الذي بادر السلطان عبد الله بقلبه على ظهره ثم وضعه وسط القوم بطريقة أثارت آنتباه كل من حضر، وبشكل فيه رعب واستغراب، ثم آستفهام من صاحب الأمر والنهي في الخيمة التي كادت ركائزها تسقط من فرط ما أصاب القوم من ذعر، وهل يصل السلطان إلى هذا الحد الذي لم يخطر قط على بال ولا حصل ما حصل؟

---

(272) كان الريفي قد زوج بنته للمستضئ حيث أقام حفلات الرفاف بتطوان.

كان جواب السلطان عبد الله الصمت والاستغراق في التفكير وكأنه سرح بخياله إلى حيث ترك القوم وقد أخذت قوات الريفي وجيش العبيد تتحرك وتحيط بهم، وفجأة عاد من جولة الفكر ليرى وجوه القوم وقد آحمرت، وعلامات الانفعال أخذت تبدو في تنفس كل الحاضرين وزفراتهم، لقد عرف السلطان عبد الله كيف يستغل عاطفة البربر الميالين بعنف إلى تحقيق أغراض الفروسية الغالية في طبعهم، وزادها آشتعالا حين قص عليهم ما آنتهى إليه عبيد السوق الذين اشتري أعظمهم وقتها بعشرة مثاقيل كما حصل بالأمس، وما فعلوه قبل بعلي ويشو ومن على شاكلته ممن كانوا عماد الدولة والمحافظين على كيانها، بل وبأولاد السلطان إسماعيل، واليوم يظهر شخص آخر أثرى على حساب الدولة ثم آغتر هو الآخر وأراد أن يتمكن باسم المستضئ الذي زوجه من ابنته. وإذا ما تمكن مثل أحمد بن علي الريفي فإن المصيبة تكون أكثر ولم يزد السلطان عبد الله أكثر من هذا التوضيح.

ثم أمر أن يسرج جواده ليعود من حيث أتى قبل أن يعرف خبر عدم وجوده فيستغل لفائدة خصومه وإذا نحن علمنا أن تجمع كل قبائل الأطلس المتوسط كان وقتها لا يكلف أكثر من إشعال النار في مكان عال ومعين من أرض القبيلة بحيث يرى ضياؤها لتقتدي بها القبيلة المجاورة وكل من رأى النار يستعد للحرب ويقصد المكان المعهود بدافع الحلف المشترك إذا علمنا ذلك نعرف كيف آنتهى وعد القوم للسلطان بالقتال معه والموت دونه، وأنه لم يعد إلى رأس الماء ويأخذ قسطه من الراحة، حتى أخذت الطلائع الأولى لجيوش البربر تظهر للحراس الذين كانوا بالأبراج العالية من مدينة فاس الجديد، فبلغ الخبر إلى السلطان عبد الله الذي أفشى السر وقتها، وبذلك تغير الوضع وتبدلت نظرة القوم إلى المستقبل القريب بل تحقق القوم من الانتصار على الريفي والمستضيء الذي عرفت تجربته الخاسرة وما عرف به من وصف خلده الزياني.

وإذا كانت قبائل البربر قد آلتزمت بالعهد الذي آتفق عليه رجالاتها وفي مقدمتهم آيت يدراسن وعبد الله ولد علي ويشو، فإن السلطان عبد الله لم يكن في المستوى حين غدر بهم كما سنرى، فأدى به الغدر وقلة الوفاء إلى أن دفع الثمن غاليا، ومع ذلك بقي السلطان عبد الله أعلى مثل للصمود حتى النهاية التي كانت كما أراد، والتي تمثلت في

أهلية الولد الوحيد الذي تركه من بعده للملك وجمع الشمل وتوحيد الكلمة، بطريقة لم تتحقق للسلطان عبد الله نفسه ولا لأخوته.

كان أحمد بن علي الريفي وهو يستعد لخوض المعركة المنتظرة بينه وبين السلطان عبد الله، والتي آتخذ لها المستضيء مطية، قد آنتهى الى نوع مشوه من الاستبداد المرهق للآخرين في جمعه للرجال والسلاح، بحيث آرتكب في سبيل ذلك كل الوان الفظائع مع الآخرين باستثناء جيش العبيد الذين كانوا نافرين من السلطان عبد الله، فقد كان الريفي يتودد إليهم ما آستطاع، وإذا هو جمع فقط من رجال القبائل الخاضعة لحكمه نحو الخميس ألف فإن خمسة عشر ألف أخرى التحقت به من أهل "اجبالة" بالإضافة إلى قبائل بني حسن وما أمكن جره من جيش العبيد بقيادة فاتح النويني أحد قواده الذين فضلوا جانب المستضيء، لكن بعدما تم للريفي جمع ما أراد من الرجال والسلاح، أوقفه فصل الشتاء في الانتظار شهرا كاملا بقلعة "ازجن" من أرض مصمودة أرهق فيه المجيشين كل الإرهاق حتى تحطمت معنوياتهم.

كان الريفي في هذه المعركة، وكأنه آقتدى بالسلطان عبد الله في حمل بيت ماله معه، وكذلك فعل الريفي الذي ربما قدر أن المعركة التي سيقبل عليها ستكون هي الفاصلة، والمعارك الفاصلة لا تكون بالرجال والسلاح فقط، وإنما بالمال الذي يجب أن يكون حاضرا كذلك، ولعل استخبارات السلطان عبد الله لم يكن همها غير التقاط أخبار الريفي وما يتعلق باستعداداته، ومنها أحمال البغال المثقلة بصناديق الريال، والجمال محملة بالثياب، ومآت القناطير من البارود كل ذلك آنتهى خبره إلى السلطان عبد الله الذي كان يعرف نفسية البربر وما يجرهم إلى الميدان بجهالة، وهو المال، فأمر أن يذاع خبره بين الجنود، وبالتالي يكون أول حديث بين البربر المنتظر قدومهم ومن سيجدون أمامهم، ذلك أن التجربة وتاريخ الحروب في المغرب أثبتا أن البربر لا يندفعون ولا يغريهم شيء للقتال أكثر من السلب والنهب المنتظر، وتلك صفات ورثوها منذ عهد الفنيقيين الذين استعملوهم كمرتزقة، ومن بعدهم من رومان ووندال بل وغيرهم من الدول التي حكمت المغرب واعتمدت عليهم باستثناء يوسف بن تاشفين، حتى فرنسا في التاريخ المعاصر لم تفتح بهم ما فتحت من بلاد في اسيا وأوربا، بل وفي المغرب الكبير نفسه إلا بإذكاء تلك

الروح فيهم، وما عهود إتمام غزو الفرنسيين للجنوب وحروبهم التي آستمرت إلى سنة1934م والهند الصينية، والحربين العالميين، بالشيء البعيد، بل إن البربري في الحرب لا يتورع حتى عن نهب حليفه(273) ما لم يكن قادرا على قمعه والقصاص منه، بل هو من أجل النهب والسلب يفعل كل شيء يقال له فظيع.

وهكذا إذا ما آنتشر خبر ما تحمله قوافل أحمد بن علي الريفي من أموال تردد صداه بين قبائل البربر، وإذا هو تبجح بإطلاق نيران مدافعه من ربوات الجانب الشرقي من مدينة فاس، قصد الإرهاب وحماية لقواته التي أخذت تجتاز وفي شيء من التحدي قنطرة وادي سبو لتقترب من المدينة حتى تضيق عليها الخناق أكثر، بعدما آهتزت قلوب أهلها رعبا وقد آشتد بهم القنوط من آثار الأزمة الاقتصادية، وغلاء الأسعار ما دام كل شيء آنقطع عنها منذ عهد بعيد، وفي الوقت الذي آنتهت فيه قوات الباشا فاتح النويني من آجتياز القنطرة بعد قوات الريفي ثم لاحظ البربر أنهم آختلطوا بلا تنظيم لمقدمة ولاميمنة أو قلب أو ميسرة، وأن الريفي والمستضيء لم يظهرا ضمن الذين إجتازوا القنطرة، وقتها هبت جموع البربر فرسان ومشاة،كالعاصفة من كل جهة، ثم ركزوا عليهم في المكان المقابل لمقدمتهم حتى لا يتركوا لفرارهم أي مجال لاختيار آتجاه غير الذي قدموا منه، وبذلك عادوا هاربين من حيث أتوا ثم وقعوا في ازدحام، فقتل بعضهم البعض من شدة التصادم فيما بينهم، والسقوط في الوادي، كما أخذ البربر يلتقطون منهم ما شاؤوا، وفي تلك الدوامة الخاطفة ضاع قائد جيش العبيد فاتح النويني، ومآت من جند وجيوش الريفي، الذي فر وقد كان يشاهد من بعيد ما حل بقومه فلاذ بالفرار هو وقومه، مخلفا من المال والمتاع ما كان قبل قليل يعتز به ويفتخر، وقد روى الزياني(274) عن محمد بن عبد الله الذي أرسله والده وقتها في خمسين رجلا ليستولى على بغال المال والجمال الحاملة للثياب بعدما دارت الدائرة على الريفي والمستضيء، وقتل ممن معهما نحو الثمانمائة، أما الذين قتلوا فقد كان على رأسهم فاتح النويني الذي أمر السلطان أن يعلق رأسه بسور مدينة فاس، وأن البغال والجمال وقد كان عددها كما ذكر فقد استولى

---

(273) راجع البستان 79.

(274) نفس المصدر 73.

عليها البربر بطريقتهم ودون إرادة السلطان من شدة الإزدحام وانشغال الناس، وكان من نصيب السلطان وجيوشه قبة الريفي وقبة المستضيء، وكذلك المدافع والمهارز" وأحمال البارود التي بلغت ثلاثمائة برميل كل واحد يحتوي على قنطار، ولم تكن تلك هي الخسارة فقط، بل إن المنهزمين لما مروا على جبل الحبيب آعترضهم أهله وقتلوا محمد ولد المستضيء ظنا منهم أنه من أهل الريف(275) وذلك يوم 5 رمضان 1156هـ/1743م.

لم يعد أحمد بن علي الريفي ليضمض جراحه ويترك الأمر، بل ليستعد لمعركة أخرى زود لها المستضيء بما إستطاع من المال وألف بندقية ثم بقي هو نحو الأربعة أشهر في ذلك الاستعداد الذي علم به السلطان عبد الله، ثم إستعد هو الآخر إستعداد الذي سيرحل لقتال خصمه، وليس لانتظاره كما سبق، وفي شهر جمادى الأولى من نفس السنة 1156هـ/1743م خرج الريفي من طنجة متوجها لقتال السلطان الذي كان أكثرهم شوقا إلى اللقاء، لكنه تركه يغادر طنجة، وإذا كان السلطان عبد الله قبل قد دخل المعركة دون الاستعداد المطلوب، ولا التنظيم المطلوب، كذلك، فإنه في هذه المرة كان على العكس من ذلك، ناهيك وأن القوم عرفوا الانتصار وتحقق لهم ما لم يكونوا ينتظرون، وكذلك وزع المال على كل الجنود ورجال القبائل التي آستنفرها، وفيهم أهل الغرب، والحياينة والشراقة وأولاد جامع، بعد الوداية ورماة أهل فاس، والعبيد الذين إنضموا إليه ثم أرسل إلى قبائل گروان وآيت يدراسن يخبرهم قائلا بكل صراحة: "إن أردتم(276) المال فتأهبوا للحركة معنا لطنجة، فأسرعوا للقدوم عليه في ألفين من الخيل وأكثر منها من الرماة ولما إجتمع القوم وقبل الرحيل، نظمهم حسب الفرق بقيادات كما يلي(277):

1- الفرقة الأولى: مكونة من: رماة العبيد ورماة أهل فاس وعددها ألف رجل بقيادة بوعزة مول الشربيل.

2- الفرقة الثانية: مكنونة من: الوداية، زرارة، وأهل سوس، وعددها ألف ما بين فرسانهم ورماتهم بقيادة ولده محمد بن عبد الله.

---

(275) نفس المصدر 73.

(276) نفس المصدر 74.

(277) نفس المصدر 74.

3- الفرقة الثالثة: مكونة من : گروان، وآيت يدارسن، بقيادة حاجب السلطان عبد الوهاب اليموري.

4- الفرقة الرابعة: مكونة من: الشراقة وأولاد جامع، وأولاد عيسى، وعددهم ألف بقيادة الشيخ أحمد بن موسى الشرقي.

5- الفرقة الخامسة: وهي التي كونها في الطريق بعدما قطع وادي ورغة وقضى ليلته بعين قرواش من ألف بقيادة بوسلهام الحمادي.

6- الفرقة السادسة: مكونة من سفيان وعددهم ألف بقيادة القائد عبد الله السفياني(278).

في الوقت الذي توجه فيه السلطان عبد الله تجاه طنجة، كان المستضيء ألعوبة الريفي مع بعض العبيد لم يلتحقوا بصاحبهم الريفي، بل توجهوا صوب مدينة مكناس غدرا ودون أن يعلم السلطان عبد الله، حيث نهبوها وسبوا منها النساء والأطفال بعدما عثوا فيها، لكنهم تعرضوا أخيرا لرد فعل أهل المدينة الذين قتلوا منهم الكثير ثم ردوهم منهزمين، ومثل المستضئ فعلت جيوش الريفي بأهل الجبل آنتقاما، مما عرضهم للهزيمة أمام قوات السلطان عبد الله بفاس.

كان الريفي بجموعه من أهل الريف والفحص واجبالة، والبداوة، والخلط، والطليق، وأهل العرائش، وأهل القصر، ينتظرون المستضيء، وبني حسن، ولما طال إنتظارهم بالقصر وسمعوا بقدوم السلطان عبد الله إليهم، إستعدوا ثم رحلوا لإعتراضه، والتقى الجمعان بدار العباس على وادي لكس، وكانت قوات الريفي قد نزلت، أما قوات السلطان عبد الله التي لم تنزل بعد، فقد أصدر إليها الأمر بعدم النزول والدخول في الحرب رأسا، ونقل عنه أنه قال بعد إصدار الأمر "إما الغنيمة أو الهزيمة"(279)وبواسطة مثل هذه المواقف نتبين شخصية السلطان عبد الله الانتحارية، وأن الذي يصدر مثل هذه الأوامر يكون بلا شك في طليعة جيشه، وذلك ما حصل حسب الرواية، فقد هَزَمَتْ مقدمة جيشه

(278) لكن تموين هذه الفرق مع الأسف إعتمد فيه السلطان عبد الله على إطلاق أيديهم للنهب والسلب، وسنرى عاقبة ذلك عندما ينتهي الغزو الى قبيلة مسفيوة ناحية مراكش حيث يفر الجميع ولا يبقى مع السلطان من رجال القبائل غير كبارهم.

(279) البستان 74.

المكونة من أخواله ثم العبيد مقدمة جيش الريفي المكون من الخلط، والطليق، وأهل الفحص، والبداوة، حيث كشفوا قلب جموع جيوشهم، ثم حملوا عليهم حملة ثانية، فانهزموا وتوجه جيش السلطان خلفهم، وقد آنهارت معنوياتهم، ثم استسلموا للسلب والنهب بلا مقاومة، ولم يبق بدار العباس غير السلطان عبد الله في قليل من العبيد، ولم يرجع الجند إلى أن ردهم الليل، حيث رجعوا بالغنائم ومعهم رأس الغادر الفاجر المستهتر أحمد بن علي الريفي الذي بعث به السلطان ليعلق بباب المحروق بفاس، أما المستضيء الالعوبة وجيش العبيد الناقم المتاجر بأرواح البشر، فإنه لما سمع ما حصل للريفي وهو في طريقه من مدينة مكناس التي تعرضت للنهب منه وممن معه، عاد إلى بني حسن ومعه عشرة آلاف من العبيد، في الوقت الذي ذهب قاسم أبو عريف لاستنفار أكثر ما يمكن من بني حسن، حيث قدم ومعه أيضا عشرة الاف منهم إلى الرمل، وأما السلطان عبد الله فقد أكمل رحلته الى طنجة التي إستقبله أهلها متوسلين بأطفالهم، وقد حملوا الألواح كما قدمت عليه وفود قبائل المنطقة فعفى عن الجميع ولم يؤاخذ غير حاشية الريفي وقرابته، وكلف السلطان عبد الله الأمين عديل وجماعة من أهل فاس بإحصاء ما في دار الريفي، وأعطى ماشيته للبربر، والزرع لعامة الناس ثم صادر ما فيها من مدخرات، كما آستخلص المال الذي كان بأيدي العمال والمسؤولين التابعين لولاية الريفي، وبعد أربعين يوما عاد فنزل بدار العباس من غير أن يعلم أن المستضيء قد هيأ لقتاله بما معه من قوات جيش العبيد، وبني حسن، التي فاجأه بها، لكن قوات السلطان المنتشية بالنصر فوتت عليها فرصة المباغتة حيث إنقضت عليها من كل جانب، وقد أمرها السلطان بعدم قتل العبيد وقطع دابر بني حسن الذين قتلوا منهم أكثر من الألف، ونهب منهم أزيد من خمسة الاف من الخيل والسلاح، الأمر الذي دفع قواد جيش العبيد وقد علموا أمر السلطان لجنوده بعدم قتلهم أن ينقلبوا على المستضيء فلم يجد ملاذا غير بني حسن المنهزمين، ومعهم أخواله دكالة الذين كانوا قد بايعوه كذلك مع أهل مراكش التي كان بها أخوه بناصر خليفة له.

توجه السلطان عبد الله إلى مدينة فاس حيث فرق الراتب على الجنود والرماة، وأما قبائل البربر فكان نصيبهم النهب وما غنموه من جيوش الريفي وبني حسن، ثم أقام إلى

شهر ربيع الثاني من سنة 1157هـ/1744م، وفيه قدم عليه قواد جيش العبيد الذين كانوا مع المستضيء طالبين منه العفو عما بدر منهم فقبل إعتذارهم بشرط هو القضاء على بني حسن ومن في جملتهم(280) من شيعة المستضيء، وحتى يستغل نشوة الانتصار وأثرها في نفوس الذين معه، عاد فأعلن القيام بحركة غزو جند لها العبيد، والوداية، وأهل فاس ولحياينة، والشراقة، وأولاد جامع، وأهل الغرب، ثم خرج من فاس، ولما بلغ مدينة مكناس قدم عليه ديوان جيش العبيد ثم بايعوه، وكانت هذه المرة الخامسة التي عاد فيها إلى العرش ببيعة تامة(281) وكان وقتها قد مضى من عمره ست وثلاثون سنة.

(280) لكن إذا ما إستراح من المستضيء فإن أحد إخوته قام بأرض توات في نفس السنة، وهو العباس بن السلطان إسماعيل الذي إتخذ مركزه في "سموته" يناصره أعيان لخنافسة، والمحارزة، ثم غار على تيميمون، وطرد عامل السلطان على المنطقة، وكان هو القائد الجيلالي الصفار الذي إنهزم أمامه قرب مركز الحاج راشد، ثم آستولى على كامل الإقليم إلى سنة 1170هـ/1756م وهي السنة التي سيتوفى فيها السلطان عبد الله، وقتها أرسل قوات من الجيش لمحاربة العباس لكنها آنهزمت، وأصبح الحاكم بأمره في مجموع الإقليم إلى عهد محمد بن عبد الله، ونشير هنا إلى أن قبائل بني حسن أصلهم في مصر قرب المنيا على الضفة اليمنى للنيل وهم من الذين قدموا في عهد الفاطميين للمغرب زمن المعز.

(281) البستان 75.

الباب الخامس عشر

الفصل الثاني والأربعون بعد المائة

السلطان عبد الله ونهاية مآسيه

خرج السلطان عبد الله من مدينة مكناس وقد اجتمعت حوله كل القوات المقاتلة المشار إليها قبل، فتوجه عن طريق الفج نحو بني حسن حيث باغتهم ببسيط زبيدة ومعهم المستضيء، فلم يشعروا إلا وكل تلك القوات قد أحاطت بهم ولم يفلت منهم غير المستضيء بنفسه وفرسه، الأمر الذي رد كبار بني حسن يطلبون العفو والأمان من السلطان عبد الله الذي بايعوه من جديد فرد عليهم سبيهم وترك لهم خيامهم ثم توجه إلى دكالة التي فعل بها ما لم يسبق قط أن عرفه تاريخ الحروب في المغرب خصوصا وأن أهلها فروا مع المستضيء الذي توجه ناحية الحوز.

نزلت جيوش السلطان وجنوده ببسيط دكالة في الوقت الذي نزل هو بقصبة بولعوان(282) وإذا كانت أرض دكالة عرفت أكثر من غيرها من جهات المغرب كثرة العمران والأشجار، فإن تلك الآلاف من الجيش والجنود قد أمرهم السلطان عبد الله بهدم القرى ثم دكها وقطع الأشجار بلا تمييز، وكلما انتهوا من قرية تقدموا لأخرى، وبقي الجنود على ذلك لا شغل لهم إلا الهدم والنهب واقتلاع الأشجار لمدة سنة كاملة، فتحولت أرض دكالة وقد كانت أكثر وأهم جهات المغرب عمرانا وازدهارا إلى خراب، ولم يبق بها يقول الزياني ما يأكله الطير أو يتظلل به»(283) وكاد يفعل نفس الشيء بأرض السراغنة.

---

(282) تقع في أرض العونات، وقد بناها الموحدون زمن عبد المومن، وأعاد بناءها السلطان إسماعيل.

(283) نفس المصدر السابق، وعن عمران دكالة وما كانت عليه أورد الزياني في الترجمانة الكبرى ص 78 نقلا عن القسنطيني قوله لما دخلت المغرب في رحلتي له توجهت لقضاء دكالة، ولما قطعت وادي أم الربيع لأزمور وبتنابه ومنه نزلنا مدينة طيط القديمة ثم عين الفطر، ثم مدينة الوليديه القديمة، ثم مدينة إبير، ثم "الزاوية" ثم آسفي "وهو آخر دكالة، وطولها وعرضها خمسة مراحل... وبها زيادة على عشرة آلاف قرية غير مدن السواحل، ومدينتها العظمى في وسطها وبها 25 مسجدا و25 مدرسة معمورة بطلبة البربر من صنهاجة أهلها قل ما تجد فيهم من يتكلم العربية إلخ، واليوم لا يوجد فيهم من يتكلم البربرية.

لولا أنهم قدموا على السلطان بهديتهم ثم قدموا للجيش ما عندهم من مؤونة، وكان هذا في الوقت الذي فر فيه المستضئ وأهل دكالة إلى أرض مسفيوة التي كان أهلها ممن بايعوا المستضيء، وعلى السلطان عبد الله أن يطارده ويسارع للنكال بهم، وبذلك كتبت النجاة لأرض السراغنة وأهلها، فرحل السلطان عبد الله بجيوشه ثم نزل على وادي الزات حيث قدم عليه الرحامنة وزمران وأهل الحوز الذين انضموا إلى جيوشه ثم فعلوا بوادي الزات من أرض مسفيوة مثل ما فعلوا بأرض دكالة، وذلك في الوقت الذي أخذ المستضيء ومن معه في المقاومة، فتحول وادي الزات إلى خراب لم يبق به محل ينتفع به، وبعده انتقلت قوات السلطان إلى وادي كجي، حيث هدمت قراه واقتلعت أشجاره، وكان بينهم المستضئ ثم هرب ووقتها قدم أهل القرى المتهدمة بنسائهم وأطفالهم طالبين الأمان فأمرهم بإحضار المستضيء، لكنه كان قد هرب إلى مراكش التي منعه أهلها من الدخول بعدما قدموا له متروك أخيه بناصر، وكان قد مات بها، ثم أعلنوا بيعتهم للسلطان عبد الله في مظاهرة أمام المستضيء، كما وجهوا وفدا بذلك إلى المبايع الذي قبل منهم ما تقدموا به بعد عتاب، وإذا هم طلبوا منه زيارة بلادهم كما طلب أهل الحوز، فإنه وقد لاحظ فرار الجيوش التي جلبها من القبائل المقاتلة معه، والتي لم يبق معه منها غير رؤسائها، ولما بحث عن السبب وجده اضطرار الناس ونفورهم من غزوه المستمر بلا هدف، والذي دام لمدة سنتين لم يعتمدوا فيها على تموين من السلطان الذي أطلق أيديهم للنهب والسلب، حتى لم يعد في ملك قبائل تلك النواحي ما يسلب وينهب، بل لو مدد السلطان عبد الله غزوه لمدة شهرين فقط، واطلع الناس على واقع جيوشه لانقلبت انتصاراته إلى هزيمة، وكان ذلك سبب عدم زيارته لمراكش التي عين ولده محمد بن عبد الله خليفة له عليها، ثم وجه أخاه أحمد وهو أكبر منه خليفة على قبائل الشاوية وبني حسن ومقره الرباط، ثم عاد إلى مدينة مكناس التي وصلها في ربيع الثاني سنة 1159هـ/1746م ، ولم يدخل القصبة، ونزل بأبي فكران، وفيها قدم عليه جماعة من المجاهدين أهل الريف من طنجة وعددهم فوق المائة، ومعهم زوجة الباشا أحمد بن علي وولداها منه بهدية عظيمة بولغ في وصفها، فقبض الهدية وقتل الولدين ومن معهما من أهل الريف، ثم قتل معهم من بني حسن ثلاثمائة قدموا عليه قصد التهنئة، فكان ذلك

سبب نفور الناس عنه وكثر القيل والقال في الجيش والرعية وانقلب الناس عنه ولم يأته أحد من البربر الذين كانوا كذلك قد صدوا عنه ثم اشتغلوا بحرث أرضهم المجاورة لمكناس، وبسبب غيظه من قطيعتهم أمر العبيد بنهب زرعهم حين بلغ حصاده فازداد ما بينه وبين آيت يدراسن الذين أنقذوه وأنقذوا العرش معه قطيعة أدت إلي انقلابهم عليه بعد ود، كما انقلبوا ضد أمن المنطقة التي نهبت فيها زروعهم، وإذا ما ضاق السلطان عبد الله ذرعا من أثر قطيعتهم له، وأن العبيد كذلك بسبب التذمر العام الذي انتشر ضده، أخذوا هم كذلك يتحرشون به، وأنه إلى جانب ذلك أخذ يفقد أعز ما يملكه وهو الصحة والعافية، حيث بدأه مرض ذات الرئة بسبب حروبه بجبال الأطلس زمن قرها، وإذا ما اشتد مرضه، فقد اختار أن يلجأ مع البربر إلى طريقة الكيد حتى يتمكن من كبارهم فيقضي عليهم بالقتل،كما فعل مع أهل طنجة، وبني حسن قبل، في الماضي القريب.

وهكذا كتب إلى كبير آيت يدراس الذي طالما وقف وقبيلته إلى جانبه في أحرج المواقف، ومنها تلك التي لولاهم لما انهزم أحمد بن علي الريفي الذي قدم على السلطان عبد الله إلى أبواب مدينة فاس، كتب إلى محمد واعزيز الذي كان له عليه دالة، وبينهما ود كبير، كان السلطان بدافعه كثيرا ما ينادي صاحبه أبت، كتب يعتب عليه انقباضه وتخلف قبائله على غير العادة عن الاتصال به وهم شيعته ومواليه؟، وكانت الرسالة بأسلوب أغرى محمد وعزيز ثم دفع به إلى الاتصال بكبار قومه ثم حثهم على إعداد ما يليق من هدية والاستعداد للتوجه إلى السلطان عبد الله قصد تجديد الود ما دام هو الذي سبق إلى طلب ذلك، لكن القوم وقد رأوا ما حل بأهل الريف وبني حسن بلا سبب، اتفقوا جميعا على الرفض ثم حذروا محمد وعزيز عاقبة اندفاعه العاطفي،(284) لكنه لم يتراجع بل تغلبت رغبته على إرادتهم، وتوجهوا في نحو المائة من كبار آيت يدراسن يتقدمهم محمد وعزيز إلى قلعة بوفكران التي استقبلهم في بابها حاجب السلطان عبد الوهاب اليموري، الذي بهت لرؤيتهم ولم يطمئن إلى النتيجة التي لا شك تكون غير سارة، وقد أصبحوا أمام القلعة وجنود السلطان ينظرون، ماذا يفعل،؟

---

(284) راجع البستان 77 ...

سلم القوم خيلهم إلى حرس السلطان ثم دخلوا حاملين لهديتهم التي كان بعضها نقدا والبعض من الماشية ونتاج الأنعام والحرث، لقد أحصاهم بعض الذين كانوا بباب القلعة من الذين استلموا منهم الخيل والسلاح وبعض الهدية، وانتهى إحصاؤهم إلى السلطان، ثم هم لا يلاحظوا على وجوه المستقبلين أي أثر كما يتفق وروح الرسالة التي بعث بها السلطان إلى محمد واعزيز الذي لاحظ بدوره أن الحالة غير عادية، وأن نظرات القوم لا تبشر بخير، ومع ذلك فإن ذكاء البربر في مثل هذه المواقف لا يتخلف ولا يخون صاحبه إذا كان ممن عرفوا بالأصالة وأصدق التجارب التي منها الغدر ونكران الجميل، ومن هذا النوع محمد وعزيز الذي بقيت أسرته تصارع إلى عهد المولى الحسن حيث انتصر عليها محمد أحمو الزياني بالكيد والدس والحيل التي ترضى غرور الحاكم.

دخل القوم على السلطان الذي كان جالسا على كرسي داخل القلعة وماكادوا يسلمون عليه ويمكنوه من الهدية النقدية حتى أحاطت بهم زبانيته، وإذا هو أمرهم بالجلوس دخل فوج آخر من الحرس والعبيد، وقد تجهمت وجوههم وفاحت رائحتهم الكريهة التي تخرج لما يسيل عرقهم النتن عادة كلما ضاقت نفوسهم وحملوا ما لا طاقة لهم به، وكيف وقد علموا ماهم مقبلون عليه من غدر بعد أمان؟ أو غدر وخيانة من أنجد ووفى بماله ورجاله أيام محنة السلطان؟؟؟ وهذه مواقف غدر لم يسبق أن عرفها التاريخ السياسي للمغرب قط أراد السلطان عبد الله أن يختم بها حياته وتكتب في صحيفته التي سوف يقرؤها يوم القيامة...

لقد صاح السلطان في وجوه القوم وبلا مقدمات ثم وجه إليهم ما لم ينتظروا سماعه من الشتائم التي ختمها بأمره للعبيد حتى يقيدوهم بالحبال(285) بدعوى أنهم يعيثون في الطرقات ويغيرون على المستضعفين من العرب وقوافل التجارة، ونسي أو تناسى الجميل الذي قدموه له بالأمس القريب، ولولاهم لما كان له ولا لعرشه أن يستمر حتى يصدر مثل تلك الأوامر، وأما ما عدد عليهم وما وصفهم به، فقد عاثوا وغيرهم بأمره وإلى جانبه ولمدة سنتين كغزاة من أرض بني حسن إلى أرض دكالة والسراغنة ثم مسفيوة ولا وسيلة لعيشهم والقبائل المجيشة معه غير النهب والسلب تحت سمع السلطان

(285) نفس المصدر السابق البستان 77...

وبصره وبأمر منه، إن الدافع شيء آخر غير ما تعلل به، إنه الطغيان بعدما استراح من كل منافس، ثم بقي في الميدان وحده وهو المتعطش للقتل وسفك الدماء حيث عاش على ذلك، بل إن البربر بحكم قبليتهم وظروف عيشهم ماعرفوا قط حياة السلم فيما بينهم، لقد كان من المنتظر أن يقيد الجميع بالحبال وبدون استثناء، لكن استثنى محمد وعزيز والذي ما كاد العبيد والحرس ينتهون من مهمتهم حتى وقف ثم وجه الخطاب إلى السلطان عبد الله بكل هدوء.. أغدر بعد عهد ولست من أهله، فرد عليه السلطان عبد الله : هؤلاء القوم حادوا عن شرائع الدين "؟" وحل مالهم ودمهم لخروجهم عن الطاعة، وبعدهم عن الاستقامة، وقد أعياني أمرهم، وما جئت لهذا الأمر بعد خروجي منه إلا بسببهم، وأردت أن أقابل هذا التيس الأسود، مع الكبش. الأبيض واستريح من غصة من تلف منهما، وأتمسك بالآخر، ولولا أنك بمنزلة والدي ما أطلعتك على ما في ضميري فقم في حفظ الله(286).

فرد عليه محمد وعزيز بما يتفق والشهامة التي كان الأولى أن يتحلى بها المخاطب "والله لا أقوم ولا أتوجه إلا مع إخواني إن ماتوا أموت معهم، ويبقى لك غدرك، ولا يتحدث الناس أنى دفعتهم للذبح ورجعت، فبأي وجه أسير، وإلى أي أقصد وأي أرض تمنعني من عشائرهم، ولا بد لي من القتل، فقتلك لي من جملتهم أوفق بي وأجمل ولا إثم عليك في ذلك، لأني أنا الذي قدتهم لك وأتيت بهم إليك بعد عرضهم على هذا كله".

وإذا كان لكلام محمد وعزيز فعله في نفس السلطان عبد الله الذي أصغى إليه، بتمعن، ثم هو رأى وجوه العبيد، وما تبديه نظراتهم من علامات التأثر الجارح، فإنه أراد أن يصلح ما أفسد حسب ظنه حين التفت إلى حاجبه عبد الوهاب اليموري، ثم قال له : ياعبد الوهاب لا خير في رجل يقول لرجل أبت ولا يشفعه في قبيله خلوا عنهم(287).

وهكذا فتح السلطان عبد الله على نفسه بابا من الشر لم يكن في حاجة إلى فتحه، ثم هو لم ولن يقدر على إغلاقه، بل جر على المغرب والمغاربة الويل والدمار الذي استمر بحرجه مع كل قبائل البربر لمدة سنوات، لم يكن السلطان عبد الله بلا شك يتوقع أن

---

(286) نفس المصدر السابق البستان.

(287) نفس المصدر السابق.

البربر وقد أعتقهم حسب رأيه سيقدمون على العصيان، فضلا عن الحرب مدة أخرى، لكن حسابه كان خاطئا، وظنه كان سرابا، عاد القوم إلى مضاربهم وفي قلوبهم جراح لم ولن تندمل إلا إذا أعطوا للسلطان درسا عكس الذي أعطوه لعدوه الريفي بالأمس القريب، حين انتشلوا السلطان وهو على حافة الدوامة التي كادت تبتلعه إلى الأبد، لقد تعمق الجرح الذي لم ولن يستطيع أحد أن يضمده حتى ولو كان محمد وعزيز الذي نجاهم من الموت المحقق بموقفه البطولي، والذي ناله من عتابهم ما ناله على عدم اعتباره لرأيهم الصائب الذي أبدوه قبل في غدر السلطان عبد الله يوم عرض عليهم رسالته، ولولا علو مكانة وعزيز بين قومه، لكانت نهايته بعد خروجهم، من الطريق إلى جهنم التي صنعها السلطان عبد الله بطغيانه، والتي وقفوا بدافع حسن الظن على بابها بقلعة بوفكران التي كادت تلحق في التاريخ بقلعة الحسن بن الصباح، زعيم الحشاشين، وبذلك فتح السلطان عبد الله على نفسه بابا من الشركان في غنى عنه.

لم ينشغل القوم بشيء من بعد ذلك بعد خروجهم كانشغالهم بالثأر الذي اتفقوا عليه ثم خططوا له:الهجوم المكثف على السلطان عبد الله، ومهما كان الثمن، والذي حددوا له ثلاثة أيام كآخر أجل للاستعداد بعد أن يرجع كبار القوم إلى مضاربهم، ومن تأخر تحرق خيمته ويتعرض للنكال، وكان ذلك بمعزل عن محمد وعزيز الذي رجع إلى خيمته مكلوما متألما، ولما أخبروه لم يزد في رأيه على أن أشار عليهم بقوله دونكم وشأنكم، لكن «أوصوا إخوانكم على حراسة الطرقات(288) وكان الأمر كما قرروا إذ لم يمض الزمان المقرر حتى تم الاستعداد، ولم يشعر السلطان عبد الله إلا وجموع البربر قد أقبلت كالجراد من جهة الحاجب، وفي أعداد تزيد على تلك التي أنقذته يوم كان على وشك الغرق في الحرب مع ابن علي الريفي الذي قصده في أكثر من سبعين ألف، وليس له منها ولو الخمس، فلم يكن أمامه غير الاستعداد للفرار بعدما حمل ماله وأحاط أسرته بمن معه من العبيد ثم إتجه نحو مدينة مكناس التي لم يدخلها إلا بعدما سقط من رجاله ثلا ثمائة، ومن البربر بسبب كثرة أعدادهم خمسمائة، وذلك في مسافة أميالها أقل من

(288) نفس المصدر البستان ص 77 م خ نا.

أصابع اليد، وهكذا أضاع من الرجال ثمانمائة بسبب إنفعال فج وكلمة زائغة سيكون مفعولها في نفوس المعنيين بالتيس الأسود أكثر إيلاما من الحبال التي قيدوا بها كبار أيت يدراسن، وعندما يردد العبيد ما قاله السلطان من قول جارح سمعوه، ثم يأخذ القوم في تحليل ما قيل وحسب عقولهم وما جبلوا عليه من حقد دافعه اعتقادهم أنهم في نظر الآخرين دون البشر، وذلك كان معتقد الجميع وقتها وبه تشتعل النار في الأخضر واليابس ولا يستطيع أحد إطفاءها.

لست أدري إن كان السلطان عبد الله يقصد فعلا أبعاد ما أشار إليه عن التيس والكبش، وهل كان له من الإمكانات ما نتج عن كلمة أرسطو لتلميذه الإسكندر لما انتهى هذا الأخير في حروبه إلى أرض فارس، ومن وقتها عرفت كلمة "فرق تسد" أم أنها إشارة مفلس أشار بها على السلطان الذي لم يحقق منها غير الآلام والأهوال وكثرت المتاعب بدافع الطغيان ومرض النفس التي لم يعرف لها دواء.

لقد فعلت الكلمة مفعولها الخبيث في نفسية العبيد الذين أصبحوا ولا كلام لأحدهم مع الآخر إلا حول ما قاله السلطان عبد الله لمحمد وعزيز وهم يسمعون يوم غلوا كبار أيت يدراسن بالحبال غدرا بعد أمان، وبعدما قدموا عليه بهديتهم، «وحملوا منها أمرا عظيما، وقالوا لم يبق لنا شك أن هذا الرجل ماله غرض إلا في تلفنا وفي هلاكنا، فانظروا لأنفسكم أو دعوا، وكتبوا للديوان يخبرونهم بالواقع ويستشيرونهم في أمره، فأخبر السلطان عبد الله بعض عيونه من العبيد بما دار بينهم من الكلام وببعثهم للديوان، فكتب السلطان عبد الله للوداية يقول لهم «إن كان لكم حاجة بابن أختكم عبد الله فأقدموا عليه الساعة، واشتغل هو يشد قشه وحمل ماله وأسرج خيله وقال لأصحابه حتى يضللهم غدا إن شاء الله نرجع إلى أبي فكران، وبعد العشاء بلغته خيل الوداية في أربعمائة لباب القزدير، فركب وأخرج عياله وقشه وحمل ماله وسار معهم طول ليلته ثم أصبح على فاس فدخل داره وأمن على نفسه»(289). وأما عبيد الجيش بمشرع الرمل الذين كانوا ينتظرون مثل الرسالة لأنهم أهملوا ولم يعودوا يتقاضون قليلا ولا كثيرا من الراتب مثل إخوانهم الذي كانوا بمختلف قلاع المغرب، فإنهم ما كادوا يتصلون

(289) نفس المصدر السابق.

بالرسالة ويوضح لهم ما ورد فيها من المخطط الذي ألصقه السلطان عبد الله بنفسه ولم يحقق منه شيئا، حتى قرروا مغادرة المعسكر الواقع وسط بني حسن خصومهم الذين لهم معهم حساب طويل ومعقد بسبب دفاعهم عن السلطان عبد الله الذي أذلهم يوم كانوا إلى جانب أخيه المستضيء، واختاروا للمغادرة وقتا معينا أذاعوه سرا وهو الليلة الموالية بعد ثلاثة أيام يجمع فيها القوم مالهم من الأمتعة والدواب والأنعام.

وفعلا غادروا المعسكر ثم توجهوا إلى مدينة مكناس التي سبق إليها خبر قدومهم فتفرقوا على أماكن استعملوا مالهم من قوة لاحتلالها وهي القصبة، والأصطبل وبريمة، وهدراس والرحاب المتسعة في المدينة، ولما طال بهم المقام ولم يلتفت إليهم السلطان عبد الله، ثم هم لم يعد ثمة من يتخذوه مخلبا باسم المنافسة، رجعوا إلى أسلوب التحايل الذي لم يبرع فيه العبيد قط، ذلك أنهم فوضوا لكبارهم في العمل على التصالح مع السلطان الذي كونوا وفدا من رجالهم لذلك، ثم أصحبوا معهم القاضي أبو القاسم العميري، ولما وقفوا أمام السلطان وهو الجريح المريض الذي يعيش أزمة نفسية أثقلها ما يعانيه من مرض ذات الرئة إلي جانب مقاطعة الناس له بشكل أليم إلا ما كان من الذين هم في حاجة إلى ماله الذي لم يبخل به كرشوة على الخصوم دون الأصدقاء، ولما جلس بين يديه عبيد الديوان ومعهم القاضي ثم تصنعوا من عبارات التذلل والاعتذار ما طال عهده بعدم سماعها، عاد إليه بعض نشاطه وتاقت نفسه إلى سابق عمله وتحقيق ولو جزء مما صرح به لمحمد وعزيز حول الكبش الأبيض والتيس الأسود، لكنه مع الأسف لم ينجح في خطته، ذلك أنه تظاهر بقبول ما أبداه رجال الديوان الذين كان من جملة مطالبهم عودته إلى دار الملك بمكناس، لكنه وعدهم بتحقيق ذلك عندما يحين الوقت المناسب، ثم أعطاهم من المال ما جعلهم يقبلون عليه وينسون أن مهمتهم تقتصر على التحايل قصد السلب وابتزاز ما عرف به السلطان عبد الله من مال وذهب لم يعد لهم مصدر سواه، خصوصا وأن ما تعودوه من نهب بواسطة الغزو قد انقطع منذ أوقفت الحرب التي كان السلطان عبد الله صاحبها والموجه إليها.

عاد كبار الديوان من العبيد وقد اطمأنوا إلى أنهم حققوا أكثر مما طلب إليهم وأن السلطان عبد الله اطمأن إليهم ثم وعدهم بصدق، ودليل الصدق هو العطاء، لكنهم ما

كانوا يغادرون مجلسه حتى وجه إلى البربر يخبرهم بما حصل عليه العبيد من عطاء، وكان يعلم أن ذلك مما بعث البربر على السخط والإنتقام، حتى لا يحصل تصالح بين السلطان وجيش العبيد، فينتج عنه توجيه السلطان لهم كي يحاربوا آيت يدراسن، في حين أن السلطان أراد أن يحقق ذلك بالطريقة التي اختارها، وفعلا اعترض البربر طريق قواد جيش العبيد وهم عائدون بالمال من فاس فسلبوهم من المال والسلاح والخيل، وحتى الثياب، ثم تركوهم عراة ما عدا القاضي أبو القاسم العميري الذي تركوه بثيابه على بغلته، ولما وصل القوم عراة مجردين إلى مدينة مكناس، وجدوا الخبر قد سبقهم إليها وأن السلطان هو الذي أمرلهم بذلك، كما وجه محمدوعزيز رسالة إلى أهل فاس يخبرهم بما آل إليه أمرهم مع السلطان، ومن الخير لهم أن يحالفوهم مادموا خصوما للوداية، وفعلا دخل أهل فاس في حزبهم كما دخل فيه أهل الجبل بقيادة الحبيب، ثم أهل الغرب، ولم يعد إلى جانب السلطان عبد الله غير الوداية "أخواله" الذين اشتراهم بأغلى ثمن، والذين دخلوا مع أهل فاس في حرب أدت إلى منعهم دخول الحجيج الذين لما وصلوا إلى مدينة تازة كتبوا إلى قومهم بفاس فاستغاث هؤلاء بالبربر الذين أنجدوهم ثم منعوهم «حموهم»، حتى دخلوا إلى المدينة، كما ساعدهم في ذلك لحياينة، ولما دخل الحجاج بقي الحياينة بالزيتون في حراسة المدينة التي دخلها خمسمائة من البربر، لكن الوداية وقد بلغهم خبر دخول البربر إلى المدينة هجموا عليهم وقتلوا منهم كثيرا أمرهم السلطان أن يطلقوا رؤوسهم على أسوار المدينة(290) ولما رأى أهل فاس ما حل بحلفائهم رجعوا إلى الاتصال بالسلطان عبد الله، معلنين رغبتهم في المصالحة والعودة إلى بيعته، لكنه اشترط لقبولها :

1) أن يعطوه زرع العرب المخزون عندهم
2) ويهدموا دورهم ثم يبنوا بانقاضها دار دبيبغ.
3) يختاروا إما أن يكونوا جيشا أو نائبه(291).

---

(290) نفس المصدر السابق.

(291) أي تكون لهم مشاركة في خدمة الجيش بالتجنيد أو يدفعوا تكاليف الدفاع والنايبة. كان أول من سنها بنو السعديون كما سبق لنا بيان ذلك.

وحتى ينصرفوا عنه دون مكروه ردوا الأمر والجواب إلى مشورة إخوانهم والاجتماع بهم، لكنهم كالعادة عادوا إلى مدينتهم ثم أغلقوا أبوابها وأعلنوا رفضهم لكل الشروط المشار إليها، وبذلك دخلوا في حرب ضد السلطان عبد الله بدأوها يوم 7 حجة 1159هـ/746م بمصادرة ما كان للسلطان من أعمال في مدينتهم، ومنها الملابس التي كانت على يد الأمين عديل، وهي عبارة عن ثلاثة آلاف قفطان(292) كانت عنده بفندق النجارين(293) ثم وزعوها على رماتهم الذين استقبلوا بها عيد الأضحى كما سجنوا الأمين المذكور حتى يدفع لهم ما تحت تصرفه من أموال السلطان المؤتمن عليها، فافتدى نفسه منهم بثلاثة آلاف مثقال.

وهكذا لما انتشر خبر ما حصل بين السلطان وأهل فاس الذين تحرش بهم الوداية بأمر السلطان الذي سيتبرأ منه بقسم بعد، ولما سمع البربر ذلك وكانوا يتمنون مثل ذلك الموقف، عادوا إلى عادتهم ثم نزلوا بجموع كبيرة اهتز لها السلطان الذي بلغه أن البربر أشاعوا بين العبيد كذلك أنه الذي أمرهم باعتراض طريق قوادهم ما بين فاس ومكناس وتجريدهم ثم تركهم عراة كما سبق، وهنا اضطر السلطان عبد الله إلى شراء البربر حتى ينصرفوا عن المدينة ويرجعوا إلى مضاربهم، وحتى يجدوا لأنفسهم مبررا، وقد استلم المال محمد وعزيز، وفي طريق عودتهم مالوا على مخيمات قبائل العرب التي جاء بها القائد لحبيب، وهي الخلط، وطليق، فنهبوها ثم انصرفوا، الأمر الذي أدى بأهل الغرب كذلك إلى مصادرة المنطقة، وبذلك فك الحصار على السلطان والوداية الذين كانوا بقصبة الشراقة في فاس الجديد، والسلطان محاصر بدارد بيبغ.

استطاع السلطان عبد الله أن يجرد أهل فاس من أحلافهم الذين كانوا يعتمدون عليهم، مما دفع بهم إلى أن وجهوا إلى المستضيء، وكان بناحية طنجة قصد أن يصارعوا به السلطان عبد الله، لكن المستضيء وقد أدرك أن لا طائل وأنه أصبح وغيره مهددين بالقوة الصاعدة التي أخذت تظهر مع محمد بن عبد الله خليفة والده، بمراكش،

---

(292) كلمة قفطان : تركية الأصل الأصل "قفتان" وهو القباء. راجع تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية ليوسف البستاني ص 57 ط 1932.

(293) فندق أصله يوناني. ومعناه يقبل الجميع راجع نفس المصدر السابق ص 53 ومراده نزل ومنزل.

وذلك لم يستجب، كما أن أهل الغرب لما عادوا بعد نهب البربر لهم، مروا على بني حسن ففعلوا في بلادهم مثل ما فعل بهم البربر ناحية فاس، ومن أجل ذلك قدموا متظلمين إلى السلطان عبد الله الذي أرسل معهم ما تبقى له من الذين يأتمرون بأوامره من الوداية وبعض العبيد الذين توجهوا لحصار قبائل الخلط وطليق بالغرب، والذين فروا إلى العرائش فلا حقهم الوداية ومن معهم، ثم حاصروهم لمدة ثلاثة أشهر أذاقوهم ألوان العذاب، لكنهم أخيرا تلقوا الأمر من السلطان عبد الله بتركهم بعد العفو، ثم أسند قيادتهم وغيرهم من قبائل الجبل إلى القائد الحبيب، أما جيش العبيد الذي كان محاصرا للعرائش فإنه انطلق مع الوداية نحو القصر، حيث عثوا فيه عتوا فظيعا لمدة ستة أيام، وذلك في شهر المحرم من سنة 1161 هـ/ 1748م(294).

لقد أخطأ السلطان عبد الله في الحساب حين ظن أنه بما فعل شغل الجميع ثم تفرغ للبربر الذين كان يحسب أن في استطاعته أن يثير عليهم جيش العبيد الذين أعطى المال لقواد جيشه، وكبار ديوانه، ولم يفهم أنهم حين جردوا مما أعطاهم، بل وأهينوا، وكل ذلك بأمر منه، كما أشاع البربر إنما أصبحوا من خصومه كذلك.

وفي شهر جمادى الثاني انتقل إلى قلعة أبو فكران التي هي بقرب مكناس، بعدما وجه إلى العبيد حتى يلتحقوا به ليحارب بهم البربر، لكنهم لم يفعلوا وعلقوا حضورهم على حضور الوداية والقبائل الأخرى وقد عرفوا تذمر الجميع، وأن أحدا منهم لم ولن يحضر، وفي الوقت الذي كان السلطان ينتظر، قرر كبار آيت يدراسن مهاجمته، لكن محمد وعزيز حول اتجاههم إلى سايس ناحية فاس، للحيلولة بين السلطان وما في هذه المدينة من عبيد، ثم قوات الوداية إن هم فكروا في اللحاق به(295) بل إن البربر ضيقوا الخناق على الوداية بشكل جعلهم ومواشيهم نهبا بينهم،في الوقت الذي لم يجد السلطان وجيوشه حيلة لنجدتهم، بل ولا أهل فاس أو غيرهم فكروا في مساعدتهم، وفي هذه الظروف وقد قام المستضيء أيضا بعمل غير مشرف إزاء عبد الكريم بن علي الريفي الذي استولى على أمواله ثم سمل عينيه، فقام أهل الريف أسوة بالبربر لتصفية الحساب

(294) البستان 79.
(295) نفس المصدر 79.

معه حيث اتفق على قبضه أهل الريف، والفحص، وأهل طنجة، في أول رجب من السنة، فقبضوه وتم تقييده ليسلموه لأخيه(296) وتلك كانت النهاية للمستضيء الذي لا شك كان نحسا وسيء الطالع يقول الزياني، بحيث توجه إلى تافيلالت ولم يغادرها.

وهكذا فإن البربر بعد عشرة أيام وقد وثقوا أن جش العبيد رفض اللحاق بالسلطان، ومثلهم الوداية رجعوا إلى مضاربهم بعدما تركوا كل ما نهبوه للوداية عند أهل فاس، مقابل مشتريات، ما يحتاجون إليه، الأمر الذي دفع أهل فاس وحتى لا يتعرضوا لنقمة المنهوبين إلى المصالحة مع السلطان في شهر ذي القعدة بعدما تعرضت مدينتهم لهجوم الوداية الذين أحرقوا لهم باب المحروق قبل في شهر شوال من نفس السنة 1161هـ، على أن ذلك الصلح كان سببه أحد أشراف تافيلالت، حمل رسالة اعتذار من أهل فاس إلى السلطان الذي قبله ثم أجاب مقسما أنه لم يأمر الوداية بحربهم، وإنما فعلوا ما فعلوه بزعمهم بسبب ما ورد في الكتاب تكون وفد أهل فاس الذي توجه إلى السلطان ثم عادوا حيث تم الصلح مع الوداية بضريح المولى إدريس الثاني، وفتحت المدينة أبوابها بعد حصار دام سنتين وثلاثة أشهر، وإذا ما توجه أهل فاس إلى السلطان في عيد الأضحى فإن البربر وقد أحسوا أن جيش العبيد في طريقه إلى الصفاء والاقتداء بأهل فاس، وحتى لا يتم شيء من ذلك دبروا لهم حيلة أدت إلى صدهم ونفورهم أكثر من السلطان، وذلك أنهم أخذوا يختطفون أولادهم كلما وجدوهم خارج مكناس، وفي المزارع المحيطة التي كانت مصدر عيشهم، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولم يجدوا مخرجا غير الرجوع إلى التفاهم مع البربر والصلح معهم، أجابوا أن الذي أمرهم بما يفعلون إنما هو السلطان، فلما سمعها قواد العبيد ورجال الديوان عادوا بذاكرتهم إلى كلمة التيس الأسود، والكبش الأبيض، فأعلنوها ثورة ضد السلطان، ثم فكروا في قتله، ولما بلغه خبر تدبيرهم هرب، ونزل بدار دبيبغ في شهر المحرم من سنة 1162هـ/1748م.

وهكذا انتهى البربر وجيش العبيد إلى تصالح بحيلة من البربر على حساب

---

(296) ويؤكد الزياني في البستان 80 أن أهل تطوان لم يبايعوا المستضيء ولا اعترفوا به قط ثم راجع ص 99 ـ 100 ـ 101. ونجد في هذا الكتاب بل في الفصل السابق وثيقة باسم المستضيء تاريخها 1-1151هـ كتبها إلى الشيخ أحمد لحبيب اللمطي يستشيره في موضوع زواج ابنته، إلخ راجع مقابل ت 263 وص233 قبل.

السلطان عبد الله الذي لم يحكم التدبير لمناطح "التيس الأسود مع الكبش الأبيض"، بل إن البربر مبالغة في ردع السلطان عبد الله أعلنوا بيعتهم لولده وخليفته بمراكش محمد بن عبد الله الذي مضى على خلافته بها نحو الخمس سنوات، استطاع أثناءها أن يبرهن على أنه أفاد من أخطاء والده التي لم يعمل على كشفها بقدر ما حاول أن يلطف من غلواء الذين اتحدوا ضده من العبيد، والبربر، الذين أرغموهم على بيعة الإبن والخطبة باسمه في كل من مكناس، وزرهون، لكنه لما سمع بذلك وحتى لا يظن والده به الظنون، جهز هدية قدرت بثلاثين ألف مثقال ثم بعث بها إليه كدليل على طاعته واستمرار ولائه، ومع ذلك صمم البربر على أن يتوجه قواد جيش العبيد ليعرضوا البيعة على الولد الذي استقبلهم أحسن استقبال ثم أعطاهم من المال ما يكفي لجبر خواطرهم، وردهم إلى طاعة والده، لكن السلطان عبد الله لما سمع سفرهم إلى مراكش حسب رغبة البربر، أمر أن ينادي في الأسواق بفاس ومكناس حتى يلتحق العبيد به بدار دبيبغ، وكان من نصيب الذين التحقوا أن أعطى كل واحد منهم خمسة دنانير، ولذلك لما عاد الوفد من مراكش وسمعوا ذلك في شهر شعبان، لم يستجيبوا لرغبة محمد بن عبد الله بل طلبوا من البربر أن يعترضوا بسايس طريق كل من يتوجه إلى السلطان بفاس، ووقتها أمروا أن ينادي بخلع السلطان عبد الله في مختلف البلاد، ولما انتهى العبيد إلى هذا المصير وكان محمد وعزيز قد علم بما آل إليه أمر ولد السلطان محمد بن عبد الله بمراكش من قوة، استطاع أن يردع بها ما شاء، وحتى لا يمكن السلطان من فرصة جلب قوة ولده التي لاشك إن فعل تلتف حولها بقية الجهات المتنافرة مع آيت يدارسن، ثم مادام هؤلاء قد لقنوا السلطان عبد الله درسا لا تفارقه مرارته حتى الموت، مقابل ما فعل بهم قبل حين قيدهم وكاد يصفيهم بقلعة أبي فكران، وبالتالي مادام مريضا محاصرا بدار دبيبغ يعيش مرارة ما قدم، ثم إن عاطفة ولده نحوه لم تتخلف، لكل ذلك وجب على محمد وعزيز أن يسلك بقومه أحسن السبل فيقنعهم بمصالحة السلطان و الذهاب إليه في رمضان، وما كادوا يقفون أمامه حتى أقبل عليهم إقبالا يخالف ما عرف به ثم أعطاهم عشرة آلاف دينار وبعدها عادوا إليه في عيد الفطر محملين بهديتهم أعطاهم مثلها ، كما أعطى للوداية وأهل فاس نفس المبلغ، وقضى بقية السنة والتي بعدها 1163هـ/1749م في سلام،

لكن حربا طبيعية عرفتها البلاد بعنف عكرت الصفو، تلك هي حرب الجفاف التي ذاق الناس منها مرارة شبيهة بمرارة السلطان الذي فقد ولده الأكبر أحمد، والذي كان خليفته على الشاوية و بني حسن وصاحب قصة الطرد من أهل الرباط كما فعل أهل مراكش مع صنوه محمد قبل(297). ووقتها قدم الولد الثاني محمد بن عبد الله من مراكش إلى مدينة فاس لمواساة والده ومشاركته في مصابه الذي لم يشاركه فيه جيش العبيد ماداموا لايخطبون باسم عبد الله في كل من مكناس وزرهون، فتبرأ محمد من ذلك وأمر بتركه، وتلك كانت المرة السادسة التي أعيد فيها العرش إلى السلطان عبد الله، والتي كان السبب فيها ولده الصالح الذي كان عزاؤه الوحيد في حياته، ولذلك أشار عليه والده بعدم المبيت في مدينة فاس عندما قدمها لمشاركة والده في مصابه بموت أخيه أحمد، وفعلا كان مبيت محمد بن عبد الله برأس الماء.

كان محمد بن عبد الله في العقد الثالث من عمره عندما واجه ذلك الإمتحان النفسي يوم عرضت عليه البيعة من العبيد أو يتجهوا إلى عمه المستضيء إن رفض، وفعلا رفضها ثم ردهم بعدما طيب خواطرهم ثانية، بالمال الذي كان هو سبب المتاعب والسبب في ثورتهم على والده الذي أعطى منه البربر والوداية وأهل فاس دونهم، بل كتب رسالة إلى والده كي يقبل شفاعته فيهم فقبلها تكريما لولده الصالح، وأعطاهم ثلاثة آلاف، ورغم كل ما بذله محمد بن عبد الله في الإبقاء على سلطة والده كاملة حتى ولو أدى الأمر إلى مطاردة آثار عمه المستضيء والقضاء على كل ما يشوش بال السلطان عبد الله، فإن هذا الأخير لم يعد قادرا على تسيير البلاد بل ولا هو راغب ليخوض في أي عمل يتعلق بتلك السياسة التي كانت في نظره لا تعتمد على غير الحروب وسفك الدماء والعنف العنيف، فقد آلت صحته إلى تدهور فقد معه كل نشاط ابتداء من سنة 1164هـ/1750م، حتى إنه لما قدم عليه أهل تطوان والذين قتل قائدهم الحاج محمد تميم ظلما، بيد مجرم اندفع بأهوائه، لم يزد السلطان عبد الله على أن قال لهم «أنتم قيدتموه وأنتم قتلتموه فاختاروا لأنفسكم من ترضونه» ولم يكن هذا منطق السلطان عبد الله الذي

---

(297) راجع البستان ص 81 مصدر سابق.

نتل بلا حصر وبلا سبب كذلك، بل وإذا كان الذي يتزعم وفد أهل تطوان، هو محمد بن عمر «لوقش» الذي اختاره رجال الوفد وقتها، فإنه لم يعارض، بل وافقهم بمنتهى السهولة وعلى غير عادته، وفي ذلك دلالة على ما آل إليه.

بل إن أهل تطوان أنفسهم لما قدموا عليه في شهر ربيع الأول سنة 1165هـ/ 1751م بهديتهم التي قيل إنها ثلاثون ألف مثقال، وبرفقتهم سفير الأسبان الذي قدم له مائة ألف ريال دورو وغيرها من الثياب قصد التفاوض والمساعدة على إطلاق سراح الأسرى الأسبان، لم يفعل أكثر من قوله حتى يأتي الأسرى المسلمون، ومع ذلك قبض الأموال من السفير ثم أمر أن يفرق منها على ألفين من رجاله، ريالين للنفر، وكان عددهم 2200 بل أدى الأمر بعد إلى أن أبرم لوقش إتفاقية مع الهولانديين بإسم السلطان،(298) مما يستدل به على مدى الملل الذي استولى على السلطان عبد الله الذي لا يقال إنه ركن إلى الراحة مادام ولده محمد قد أظهر المقدرة والكفاءة في التسيير، وإذا كانت مدينة مكناس ومعها زرهون قد عرفتا زلزالا عنيفا شغل الناس بكثرةما تهدم من بناءات،وما مات من بشر ضمنهم 5000 من جيش العبيد سنة 1167هـ/1753م، فإنه في السنة بعدها 1168 توفي محمد وعزيز كبير آيت يدراسن الذين غزوا في نفس السنة أهل كروان، حيث فر هؤلاء إلى مدينة فاس مستجيرين بالسلطان عبد الله الذي آخي بينهم وبين الودايا الذين قاموا معهم ضد آيت يدارسن، فتحولت هزيمة كروان إلي انتصار على الذين نكبوهم ثم قتلوا منهم خمسمائة، فكان هذا التحرك مع ماتقدم من موقف ولد السلطان، مما دفع بقواد جيش العبيد عام 1169هـ أن يطلبوا من السلطان عبد الله كي يرحل إلى مدينة مكناس، ولكنه رفض متعللا بوجود القواد الذين عين أسماءهم حتى ينقم عليهم أهل الديوان، ومنهم محمد السلوي، وزعبول، وسليمان بن العسري، وغيرهم من كبار قواد جيش البخاري الذين تعرضوا للقتل بمجرد دعوة القوم، وذلك إرضاء للسلطان عبد الله، ومع ذلك لم يرحل من داره بفاس الجديد "دار دبيبغ لأنه فقد الثقة في الجميع، بل اكتفى

(298) راجع المصدر الأول البستان الظريف في دولة أولاد مولاى الشريف لأبي القاسم الزياني ص 78 خ نا والذي عنه أخذ أكنسوس الذي حول المثقال إلى دينار والاستقصا 189/7 ـ 90 ـ 90 والإتحاف لابن زيدان 484/4 وفيه نص الاتفاقية التي أبرمها محمد بن عمر لوقش مع الهولانديين باسم السلطان عبد الله.

بمدهم بأربعين ألف مثقال ثم سوفهم، وفي نفس السنة قدم عليه أيضا محمد لوقش صاحب تطوان بهدية فيها مائة ألف ريال دورو وسلع ونصارى غنمهم بحارة تطوان، فأكرمه وأعطاه جاريتين، كما قدم عليه صنوه المخلوع علي بن إسماعيل الذي كان مقيما عند الأحلاف، فأعطاه ما قدر بعشرة آلاف مثقال، وخيره بين الإقامة في مكناس والذهاب إلى تافيلالت، فاختار الأول لكنه تعرض لثورة قواد الجيش، مما دفع إلى إرساله لتافيلالت، أما المستضيء فإن المطاف انتهى به هو الآخر إلى مدينة صفرو، ومنها رحل إلى تافيلالت أيضا، حيث توفي بها سنة 1173هـ/ 1759م(299) لكن السلطان عبد الله كان قد توفي قبله بفاس يوم الخميس 27 صفر 1171 هـ/ 1757م، وذلك بعدما قضى نحو الإثنى عشر سنة في أشد العذاب بما أصابه من مرض ذات الرئة من جانب ، ومن قطيعة الناس له رغم البيعة التي كانت قائمة، وذلك بسبب ما عرف به من شدة وبطش، وبكثرة ما سفك من الدماء بغير سبب ظاهر كما يقول الزياني، وهو ما حاول ولده وخلفه محمد بن عبد الله أن ينسخه من عقول المغاربة بجليل أعماله الصالحة(300).

وهكذا بموت السلطان عبد الله بن إسماعيل انتهى عهد امتدت مآسيه وطال عهد الظلم فيه أكثر من ثلاثين سنة، عرف المغرب فيها من طغيان جيش العبيد وجبروت الناقمين من قواده، ما بعث الدمار وقضى على الاستقرار والازدهار، وذلك ما دفع بالسلطان محمد بن عبد الله إلى نهج سياسة اختلفت في شكلها ومضمونها عن سياسة والده وجده كما سنرى، فنتج عن ذلك عهد عرف المغرب فيه نوعا من التطور والتقدم، وحكما قام على غير سفك الدماء وكثرت الحروب نوعا إلا ما كان من الحرب التي خاضها السلطان بكل ثقله ضد آيت أمالو سنة 1197هـ كما خاضها خلفه المولى سليمان بعد عام1234هـ .

---

(299) راجع البستان ص 87،81 والاستقصا 187/7 والترجمانة الكبرى تحقيق المولف ط 1967 والاعلام للعباس بن ابراهيم جـ 109/5_132 ط 1938 فاس والفتوحات الالهية ط 1945 خصوصا الترجمة التي كتبها المدني بن الحسني.

(300) راجع الترجمانة الكبرى مصدر سابق والروضة السليمانية والترجمان المعرب والبستان الظريف للزياني.

باب مدينة الرياض بمكناسة الزيتون وهو من مباني السلطان عبد الله بن اسماعيل الذي شيده سنة 1146هـ/1733م ويعرف بـ "باب منصور لعلج". وهو اسم الحارس الدائم للباب بحيث كان للسلطان المولى اسماعيل أكثر من خمسين ألف 50000 من الأعلاج الذين شيد بهم مدينة مكناس، وقد أشرنا الى ما جلبوه على المجتمع المغربي من أخلاق اجتماعية ومنها الانحراف الجنسي ومنهم الذين بعدما طال بهم العهد وتناسلوا ادعوا النسب العربي والبربري بل والانتساب لآل البيت.

الفصل الثالث والأربعون بعد المائة

محمد بن عبد الله من السيبة الى الاستقرار المريض

ثم حروب الوراثة ثانية

سبق التعرف على أن الدولة في المغرب على عهد المولى إسماعيل وحفيده محمد بن عبد الله، بلغت مصاف الدول الكبرى، لكن ما بعد تلك المرحلة دخل باقي ما يعتبر من تاريخ المغرب المعاصر بظهور الاستعمار الذي تحول إلى صراع عنيف ومرهق، خاضه الشعب المغربي زمنا غير قصير ضد نفسه ومع الاخرين، مما أخره وعاد به إلى التخلف، فحروبه الأهلية طالت ولم تنقطع زمنا طويلا وطويلا جدا. فمن حروب الوراثة التي استمرت طيلة ثلاثين سنة بعد موت المولى إسماعيل، لم تختف في عهد حفيده محمد بن عبد الله الا لتعود بعد موت هذا الأخير، حيث عرف تطاحن الإخوة الستة، اليزيد، وسليمان، والطيب، وعبد الرحمن، والحسين، وهشام شدة وعنفا ورغم قصر المدة بفضل جهود الزياني وتدخل واعزيز، وبني حكم وأهل فاس لفائدة المولى سليمان فإنها أراقت دماء عشرين ألف من القتلى يقول الزياني، أما الحروب القبلية وقتها وقبل، فهي أكثر من أن يحصيها المؤرخ حتى لو إنقطع لتسجيلها فقط، ويكفي القول أن قبائل حلفي آيت يلمان، وأيت عطا. وغيرها من القبائل العربية والمتبربرة(301) دامت حروبها أكثر من مائة عام، هذا إلى غير ذلك من الحروب التي فرضت على المغرب فرضا، تارة مع الشرق،

---

(301) أشرنا قبل إلى أن نسب بعض أيت عطا يرجع إلى العرب كما يقول العلامة الكبير، أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الوالالي دفين ضريح السلطان إسماعيل بمكناس، والمتوفى يوم 2 رجب 1128 اهـ وهو صاحب كتاب مباحث الأنوار والذي دون فيه نسب آيت والأل اعتماداً على كتاب "أنساب القبائل الذي كان عند أهل الصومعة، وأنهم فوق ذلك من عرب قريش ولابن يعقوب هذا مكانة عالية في مجال المعرفة وله مؤلفات متعددة في مختلف مجالات العلوم من فقه، ونحو، وصرف، وأدب، وبلاغة، ورياضيات، ذكر منها أبن زيدان نحو الثمانية عندما ترجم له في الاتحاف جـ1/340 ط الرباط 1929م.

حيث الاتراك، وأخرى مع العدو المجاور شمالا، والذين هم الاسبان، وكذا ما عرفه مع بعض دول الأبيض المتوسط في البحر، والتي كثيرا ما حاولت غزو شواطئه، مما جعله يتخلف ثم ينتهي الى حالة من الفوضى عرفت العنف في الحروب الدائمة عبر القرون والتي عرف العلويون من أدوائها نصيبهم، خصوصا حروب الوراثة التي لو جمعت لبلغ مجموع سنواتها أكثر من مائة عام من عهد آخر السعديين ثم محمد والرشيد إلى عهد اليزيد من العلويين بحيث لم تنقطع إلا في عهد المولى سليمان، وما بعده إلى آخر عهد المولى عبد العزيز وظهور المولى عبد الحفيظ، إذا اعتبرنا ما حصل مما سبق من حروب قبلية وراثية وهذا ما دفع الكثير من كتاب الغرب الأوربيين ومؤرخيهم الذين إهتموا بتاريخ المغرب إلى وصفه بـ "أرض المخزن وأرض السيبة" ورغم مقاومتنا لهذا الاطلاق في عهد الحماية لأن القصد منه كان سيئا من المستعمرين، إلا أنه كحقيقة تاريخية لا يجمل بنا إنكارها والمرور عليها دون ذكر، لأن ذلك واقع عرفه المغرب وعاشه زمنا غير قصير، وذلك في جهات متعددة من الأطلس الكبير والمتوسط، وفي الشمال، حيث قبائل الريف، وحيث عاشت قبائل كثيرة ومتعددة سائبة بشكل واضح ومعروف، خصوصا منذ ما بعد الموحدين، وقد أشار إليها كذلك آبن خلدون قبل كحقيقة، كما هي مذكورة بتفصيل أكثر في تاريخ عميد المؤرخين المعاصرين أبو القاسم الزياني، سواء في الترجمان، والبستان، وغيرهما من كتبه. وعنه أخذ كل من أكنسوس والناصري في الجيش والاستقصا، فمثل قبائل آيت عطا وبعض آيت ورا. لم تعرف الخضوع لإدارة ما في عهد الدولة العلوية، حتى ان بعضها وقد حاول السلطان إسماعيل نفسه إخضاعها بعد ما آنتهى من حروب آبن أخيه فلم يستطع رغم ما جمع من قبائل يتقدمها جيشه العتيد، خصوصا آيت عطا بل مبالغة في تمنعهم قتلوا أخاه على بن الشريف ومع ذلك لم يجد لردعهم سبيلا وذلك ما حصل لحفيده محمد بن عبد الله، ثم خلفه المولى سليمان، مع قبائل أيت أمالوا، بل إن تخطيط المولى إسماعيل للقصبات وتركيز الحاميات في مختلف جهات المغرب، كان من أجل محو "السيبة" بين بعض القبائل، لكنه عاش حياة حكمه الذي تجاوز النصف من القرن دون أن يكون له سلطان قهري على كل قبائل عطا صاغرو كما أشرنا، ويقرر الزياني ذلك في البستان، ومع ذلك فلا يمكن لأحد أن ينكر أن هذه القبائل

كانت تقر روحيا إمارة المومنين، ويوجد رجالها في صفوف القتال ضد العدو كلما تعرضت البلاد لخطر أجنبي أو كلما نادى منادي الجهاد دفاعا عن الوطن، وهذا ما عاشه التاريخ منذ عهد المرابطين وما سنعيشه بعد إلى عهد دخول الفرنسيين للجزائر، وما ستقوم به قبائل الأطلس المتوسط والكبير من محاربة لإيقاف تيار المد والزحف الذي كان يقوم به الفرنسيون، وكيف أن المقاومة لم تستمر بشدة وعنف أكثر إلا من القبائل التي لم يكن لسلطان الدولة بينها وجود، وهي قبائل أيت عطا وأيت صغروشن، ثم بعض أيت يا فلمان، وهي أيت أحديدو، وأيت مرغاد وخصوصا آيت حمو، وآيت عيسى، وكلها كانت قيادتها بعد في الماضي القريب من أجل الجهاد ومحاربة المد الاستعماري شرقا بزعامة الشيخ محمد العربي بن محمد الهاشمي، صاحب زاوية كاوز بمدغرة، وكذا آيت ورا بزعامة مريده محا وسعيد الوراوي، وقبائل زيان بما فيهم القبيلة السائبة من قديم أيت شخمان بزعامة آل امهيوش والتي قطع بها رأس الأمير سرور عم السلطان المولى الحسن ومعه خمسة وخمسون جنديا 1305هـ/1887م وكذلك قبائل الجنوب الأقصى ايت باعمران، وفي الشرق حيث قبائل ذوي منيع، وأولاد جرير، ولعمور، وحميان، ولهاية، وأولاد سيد الشيخ بزعامة حمزة في الأول وأبو عمامة بن العربي وغيرهم من الابطال الذين أوقفوا تيار المد الاستعماري زمنا خارج إرادة المخزن مثل المولى أحمد بن الحسن السبعي عالم المجاهدين، كما سنرى بعد، والشريف الإدريسي "سيدي بن أحماد السوسي الأصل من آيت كرات بآيت احديد، وزايد وأحماد، وزايد اسكنتي من آيت مرغاد وحمو وحمو بايت عيسى.

تلك حقيقة وواقع ما قيل عن أرض السيبة التي لم يكن لإدارة الدولة بها وجود(302)، لكنها روحيا كانت تدين بالولاء للإمارة المحتم شرعا الرجوع إليها ولو على منابر خطب الصلاة يوم الجمعة بالذكر آخر خطبة الخطيب، لكن قبل هذه المرحلة إن لم نقل المراحل التي عرفت فيها بعض المناطق ما يطلق عليه "السيبة" والتي هي عند مؤرخي الغرب الأوربيين ومن أخذ عنهم لا تعنى غير فترة ما قبل عهد الحماية والاستعمار، ماذا حدث

(302) لقد هدأت الحروب الداخلية في عهد المولى محمد بن عبد الله الذي حل جيش عبيد البخاري، ثم ظهرت بحدة بعد موته ودامت إلى عهد الحماية الفرنسية.

في المغرب، ومن الذي شارك في خلق السيبة والتمكين لها من بعيد أو من قريب، خصوصا إذا نحن علمنا أن المغرب المقابل للشاطئ الأوربي، كان قبل غيره المعني بمحاولات التوسع الأوربي عندما ظهرت طلائع الاستعمار البرتغالي ومحاولاته منذ آخر القرن الخامس عشر، ولولا العصبية التي عناها ابن خلدون وقبلية المغاربة، ودينهم وسلطانه على النفوس، لكان المغرب الضحية الأولى، وقد رأينا الصراع الطويل والعنيف الذي خاضه ضد البرتغال والاسبان مآت السنين، مما أدى وفي مناطق متعددة إلى أن يعتمد المواطنون على قياداتهم الخاصة، بعدما تكون الدولة قد أنهكت أو إنحلت.

إن ما قيل عنه السيبة كان في الغالب نتيجة لطبيعة الحكم الجائر، والمتمزق بل وفساد بعض الأسر التي تعاقبت على حكم البلاد أحيانا من جهة، ومن جهة أخرى نتيجة لطبيعة البلاد وما عرفت به من وعورة إقليمية وحياة قبلية، وما عرف به المواطن المغربي المتعلق بالحرية من رد فعل إزاء سوء التسيير الإداري الذي ساد في القرون العاشر والحادي عشر، والثاني عشر، للهجرة، والسابع عشر، والثامن عشر الميلاديين، والذي سرعان ما يغضب ويثور إذا ما أعتدي على حقوقه وتعرضت للضياع، ومعنى هذا من جهة أخرى، أن المناطق التي كانت عامرة ومزدهرة بالعلم والعلماء القادرين على التربية والتوجيه والإرشاد بإسم الدين وسلطانه على النفوس، كان للحكم والإدارة فيها رواج باسم إمارة المؤمنين، أما التي لم تعرف ذلك ولم تتركز فيها قوة الجيش، فهي التي إعتمدت على شيخ القبيلة الأم ورائدها الذي يشرف على جماعتها التي هي المرجع في السياسة والقضاء والأحكام وشؤون الحرب، والهدنة، كما كان للتجمع في منطقة ما أثره كذلك.

لقد عرف المغرب فترات ظلم عاتية، عاشها بمرارة، تولد عنها ما قيل عنه السيبة، وليس ذلك بقاصر على الفترة المعنية من الأوربيين، والتي يريدون بها البرهنة على أنهم الذين طوعوا تلك القبائل، وقد حصل، بل السيبة عرفت منذ نحو الثمان مائة سنة أو بالأحرى منذ ما بعد الموحدين وآخر عهد بني مرين، وظهور الوطاسيين، ثم فترة ما بعد هؤلاء وظهور السعديين، ثم نهاية هؤلاء بعد المنصور وفتنة أولاده، ثم آنقسام المغرب إلى مناطق نفوذ ودويلات في العقود 2-3-4 من ق 11هـ و17م، ثم ظهور العلويين وحكمهم

الذي تركز أكثر في الساحل حسبما مر بنا في تاريخ تلك المراحل التي آستمر بعضها إلى ما بعد عهد المولى إسماعيل الذي وصف إدارته أبو على اليوسي أصدق وصف وأحسنه في رسالته المشهورة، وكما رأينا من خلال ولاته وقواد جيشه، إلى حد إقتطافهم لرؤوس البشر كما يفعل بثمار الشجر، في آيت أمالو وگروان، ولما آنتهى ظهرت آثار ذلك في تطاحن أبنائه من بعده، وتلك كانت فرصة جيش العبيد والقبائل التي كان لها حساب قديم، حتى إن قبائل بني احكم من گروان وهي على أبواب العاصمة مكناس، عرفت السيبة زمنا غير قصير، هو مدة حروب الوراثة 1140-1171هـ/1630-1660م، كما وأن هذه السيبة عرفت في ظروف خاصة، فهي كذلك عرفت أزمنة مختلفة بالطول والقصر، وحسب عهد الحاكم الذي عرف في المغرب بأمير المومنين، فإذا هو إختار جانب الحق، والعدل، والخلق، حتى ولو لم تكن له قوة رادعة، كان سلطانه يمتد ويسود حتى يعم المناطق السائبة، وقد حصل هذا أخيرا، وفي عهد العلويين للمولى سليمان في موقعة ظبيان التي جمع لها كثير من الجيوش والتي قتل فيها ولده ولي العهد إبراهيم بعدما فر جنده ولم يبق غيره في الخيوان، ولما دخل عليه كبار القوم أعلنوا طاعتهم وولاءهم له بعدما تبرأوا من حاشيته وما حوله، وذلك ما كان أبو القاسم الزياني قد حاول إقناعه به قبل الغزو فلم يقبل.

إن ما عرفه المغرب من تمزق وانهيار وقت ظهور الاستعمار، كان نتيجة لعاملين أثنين: أحدهما داخلي، وهو الفتن التي أشرنا إليها والآخر خارجي، وهما معا مما نتج عن التراجع الذي ظهر بعد موت السلطان محمد بن عبد الله، إذ توفي هذا السلطان كما عرفنا يوم 27 رجب من سنة 1204هـ/1789م فتولى بعده وبدون عهد ولا إجماع وإنما بحد سيوف ذوي الأهواء ولده العاق اليزيد(303)، المتبرأ منه من قبل والده إلى درجة أنه علق

(303) اليزيد هو الذي وقع معاهدة سلام مع الانجليز مكونة من 43 بندا وذلك وقت نهاية القنصل الأنجليزي العام ماترا بتاريخ 1791/4/8م=1206هـ وذلك حتى يتفرغ كما قيل لحصار سبتة الذي دفعه إليه الأنجليزي المغامر جويس الذي جلب له مدافع المورگار مقياس 10 بوصات، والذي درب عليها المغاربة، ولما كانت قوات اليزيد قد أشرفت على أسوار سبتة يوم 1791/9/18 تقول مصادر الأنجليز ومعه 25000 بقيادة الضابط الأنجليزي المغامر المشار إليه والذي أسلم حسب قولهم، لكن جويس توفي في أول الحصار، مما دفع باليزيد إلى التخلي عن الحصار والرحيل الى مراكش لمواجهة القائمين عليه من إخوته، هشام، والحسين، وفي تلك الحروب قتل اليزيد أواخر جمادى الثانية عام 1206هـ/1792م فحل مكانه المولى سليمان الذي جدد معاهدة السلم الأنجليزية مع نفس القنصل =

تلك البراءة على الكعبة بعد إرسالها إلى مصر الأزهر وآل عثمان، ورغم ذلك نصب اليزيد نفسه بحد السيف الذي سينحر عنقه برصاصة يصاب بها من يد أخيه، فاليزيد وإن كانت مدته رغم قصرها من أخطر عوامل الهدم والتمزيق، وبشكل فيه حدة وعنف عنيف، وإذا هو قتل برصاصة في حرب الإخوة الثلاثة بمراكش 1206هـ/1792م فإن التراجع لم يوضع له حد بتولية المولى سليمان، والذي كان بحق أقوى من والده علما وسلامة خلق، لكنه لم يكن في مستواه قوة وعنفا في مجال السياسة والإدارة، بل ولا في نفوس رجالات الدولة الذين ألفوا الأوامر الصارمة والإذلال والتعنيف، بل إن الجيش ورؤساء الجيش القوي برا وبحرا كانت مدة اليزيد كافية لتمزيق أوصاله، وكسر عظامه، وتحويل مجهوده في البحر الى فائدة الرؤساء الذين فقدوا المؤسس الخبير بهم وبشؤونهم، حتى أصبح الجيش في مجموعه مشلول الأطراف غير قادر على العمل المعتاد بل لا يتحرك ولا يقوى على المواجهة، ولو في وجه القبائل السائبة كما ظهر في وقعة ظبيان بآيت أمالو، حتى أصبح المغرب يستشعر الضعف، لا في نظر الآخرين فحسب، بل وحتى في نظر أبنائه ذلك أن محمد بن عبد الله وكما سنرى مثل جده إسماعيل لم يعهد لأحد من أبنائه بل أصدر بلاغا بتاريخ 14 قعدة 1202هـ/1787م تبرأ فيه من أي عهد "راجع الاتحاف 3/181" لكن تولى بعده اليزيد معتمدا على قوة غير شرعية تزعمها فريق من جيش العبيد بدافع الرغبة والطمع الذي طبع كل قواده القداما، أحياه اليزيد في نفوس المستجدين الذين سايروه في ضلاله. ولكم يود المعتز بتاريخ الدولة العلوية كتراث وطني حافظت على الذاتية المغربية في الوقت المناسب وكما رأينا –ان تحدف صفحة اليزيد من تاريخ هذه

= بتاريخ 1805/06/14م ووقعها يوم 20 مارس 1806م، راجع البستان للزياني والترجمان المعرب له أيضا. ويظهر أن اليزيد كان يتعاطى الخمر بحدة إذ أورد الزياني أنه ذات يوم "أن المولى سليمان قدم عليه بفاس وفي يده كأس ربما أفرغها في جوفه ثم أمره بغسلها وإفراغ ما تغسل به في الوادي ثم سأله: هل ما بقي بالكأس يدنس الوادي؟ فأجابه المولى سليمان يقول الزياني فيما ذكر بالنفي وهو طبعا يقصد ما كان عليه" راجع الاستقصا جـ 8/72-73 ولليزيد ترجمة سيئة في مختلف ما كتب المؤرخون مغاربة وأجانب.

فبالإضافة إلى ماله من مواقف يمجها الخلق القويم، يكفي أنه كان السبب في المعاناة التي عرفها والده المولى محمد بن عبد الله الذي مات وهو في الطريق لردع شروره وعقوقه، وأما ما يصفه به بعضهم غير هذا، فهو إفتراء من باب التملق الرخيص الذي يأباه ولا يرضاه تاريخ العلويين الذين حافظوا قبل على هذا الوطن وكرامة أهله وكل المقومات الروحية للمغاربة فيه.

الدولة. لأن تلك الصفحة وما تحتفظ به من سقوط ليست من تاريخ الملوك العلويين ولا من خلقهم وشهامتهم في شيء. وبالأخص تلك التي نجدها في تاريخ ومذكرات بعض الانجليز الذين ليست لهم غاية من تدوين ما عرفوه مباشرة من سوء أخلاق اليزيد إلا أنها كمذكرات. لكن قراءتها من كل الذين يتعرفون عليها تشوه جمال الصورة التي رسمها السلف ثم تدفع إلى التحقير والازدراء مثل ما ورد في رسائل السيدة تولى شقيقة ريتشارد تولى قنصل الانجليز في بلاط طرابلس الغرب والتي نشرت منذ أواخر القرن 18 ثم أعيد نشرها بترجمة فرنسية 1819/1912م ثم عربت وقد كتبت فيها حول اليزيد ما عاشت ورأت من اخلاقه وسلوكه الذي يخجل المعتز من ذكر ذلك أو التعرض له، فهو لم يقتصر على الإدمان والتظاهر بكل ما ينفر من الأخلاق بل تعدى إلى قطع الطريق في بلاد بعيدة والقتل لاتفه الأسباب، بل والاختطاف للنساء حتى انتهى إلى آبنة زعيم من أهم زعماء القبائل الصحراوية في برقة هو سيف كما عرفت به الكاتبة. بل قتل وذبح من أجل المال الأمناء المرافقين لأخته حبيبة التي زفت الى شريف مكة وغيرهم ممن أرسلهم والده ومعهم أموال الصلات التي كان والده يصل بها بعض الأشراف والعلماء في كل من مصر والحجاز، وبعد كل هذا حول المغرب بعد موت والده الى سعير لا يطاق، ولعل المؤرخين المغاربة لم يدركوا الاسباب التي دفعت باليزيد إلى ما عرف عنه وهي تكمن في تصرفات والده الذي قلنا في مكان آخر إن في حياته نقط استفهام تركناها لأنها تحدث فجوات في تاريخ حياة هذا العاهل العظيم رحمه الله الذي بدأت صناعة الاعلام المغربي في عهده.

لقد أفادت الامبراطورية العثمانية كثيرا من مال المغرب وذهب المغرب في عهد السلطان محمد بن عبد الله الذي كان يعطى خارج المغرب بلا حساب، في الوقت الذي بدأ سلاطين آل عثمان سيرهم إلى المنحدر بسبب تصرفاتهم الشاذة وسلوكهم السيء الذي عرفه بعض رجالات المغرب في الوقت الذي رفض السلطان محمد بن عبد الله تغيير سلوكه معهم بل ومع غيرهم بحيث آنشغل عن الداخل فكان من نتيجة ذلك ما ظهر من ولده اليزيد الذي دشن بداية ضلاله بالسطو على بيت المال بقبة الخياطين بمكناس تسانده عصابة من گروان يقول الزياني الذي هو الآخر عرف من ظلم اليزيد ما سجله

في مختلف كتبه. فبعد بعد الصيت وتدبير شؤون الدولة بقوة وحزم تزينهما الشجاعة ويركز لهما ما في قلوب الآخرين من هيبة وسلطان زمن محمد بن عبد الله، والذي طلب منه آل عثمان بالأمس القريب، وعلى لسان سلطانهم عبد الحميد بن أحمد بواسطة السفير أبو القاسم الزياني قرضا بمبلغ مائتي ألف ريال "دورو" وهم في حرب مع الروس، أجابهم السفير وقبل مراجعة صاحبه "يعطيكم مليونين هبة..." وفعلا أرسلها السلطان في شكل سبائك عن طريق السفير الزياني وحراسة كل من ملكي إسبانيا وفرنسا، قبل حتى يشعرهما أن الإسلام واحد، أهله وأرضه، وأن أموال المسلمين حيث كانت فهي قاسم مشترك بين الجميع، وهذه نادرة من نوادر التاريخ السياسي في المغرب، بل محمد بن عبد الله الذي إستطاع وبروح عالية أن يخلص الأسرى المغاربة أنى وجدوا، بل وغير المغربة من المسلمين وحتى غير المسلمين ومن الأوربيين أحيانا، ولهذا كانت سفاراته في كل أنحاء أوربا تقابل بالإجلال والتعظيم الذي لم يفد منه المغرب بعد موت السلطان محمد بن عبد الله بل هو الذي طلب إليه الرئيس الأمريكي جورج واشنطون 1732/2/22–1789/12/14م التوسط في الخلاف الذي نتج بين أمريكا وطرابلس وتونس، طلب إليه ذلك رغم ما حصل بين البلدين من حرب إنتصر فيها المغرب لإخوانه دفاعا عن الإسلام في القطرين، ولم يمنعه ذلك رغم أن النتيجة لم تكن كما أراد واشنطون، فقد كان جزاؤه الشكر ذلك لأن المولى محمد بن عبد الله كان أول من إعترف باستقلال أمريكا، وكان لاعترافه حسابه بين الدول وقتها، وذلك بفضل ما كان للمغرب في عهده من قوة، وسطوة، وسلطان في البر والبحر، دفعت الكثير من دول أوربا إلى طلب وده والتقرب إليه، ومنها من كانت تدفع للمغرب أتاوة سنوية مقابل مسالمتها في البحر الذي كانت بواخر أهل الرباط، وسلا، وتطوان، من المغاربة كرؤساء تصل إلى شاطئ المانش، ثم هي مسيطرة في البحر الأبيض المتوسط، وشرق المحيط الأطلسي، وإذا كانت السويد مثلا تدفع للمغرب سنويا عشرون ألف بياستر بمقتضى معاهدة بين الدولتين سنة1192هـ/1776م كما كانت الدانمارك تدفع 25000 وهانبورغ 5000 وبريم 2000 والبندقية1800، وفي عهد هذا السلطان كان المغرب تقريبا مرتبط بمعاهدات مع هولاندا سنة 1760م ومع الولايات المتحدة 1767م ومع السويد 1757 – 1763 – 1803، ومع

الدانمارك1767(304) ومع إيطاليا 1762–1767م، ومع إسبانيا 1776–1781–1799 ومع فرنسا 1179هـ/1765م– 1767، ومع البرتغال 1772/1799م الخ.

وهذه المعاهدات الأمنية والتجارية، هي التي فتحت موانئ المغرب على شاطئ الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي، أمام دول أوربا، التي عرفت وقتها نشاطات تجارية في كل من تطوان وطنجة، والعرائش، وسلا، والرباط، والدار البيضاء، والجديدة، وآسفي، والسويرة، وأجادير، وما ذلك إلا بفضل ما كان للمغرب من قوة رجاله في البحر والبر فرضت آحترام المغرب ومكنت لسلطانه مؤقتا، لكنها آلت إلى الضعف بسبب التراجع المشار إليه، إلا أن قوات البحر التي لم تعتمد كلية على الدولة بقدر ما كان لها مجال أوسع بفضل جهود الرؤساء الذين كانوا ذوي شأن في هذا المجال، وما كان لهم من مصالح دفعت بهم إلى رعاية الأسطول والمحافظة على نشاطه في البحر، لكن ذلك لم يستمر كما كان، وبالتالي لم يستطع مسايرة التطور الآلي الذي عرفته أوروبا في هذه المرحلة، الأمر الذي هدد المغرب بصدام كانت تريده كل تلك الدول التي كانت لها مع المغرب معاهدات أمن في البحر، وتدفع مقابل استمرارها للمغرب أتاوات سنوية، خصوصا وأن المغرب في هذه المرحلة كان لايزال يتمتع بظل خيال في مجال البحر.

(304) هي المعاهدة التي أبرمت بين محمد بن عبد الله وكريستيان 7 سنة 1181هـ/1767م ولم تلغ إلا في عهد المولى عبد الرحمن، وكريستيان 8. حيث تفاوض في ذلك قنصل الانجليز نيابة عن الدانمارك وهو جون درمند داي، مع بوسلهام بن علي أزطوط العرائشي يوم 27 ربيع 1261هـ/ 1845/4/5م، وقد تنازل المغرب وقتها عن التخلف من ديونه علي الدانمارك والسويد، راجع الإتحاف 5/218–23.

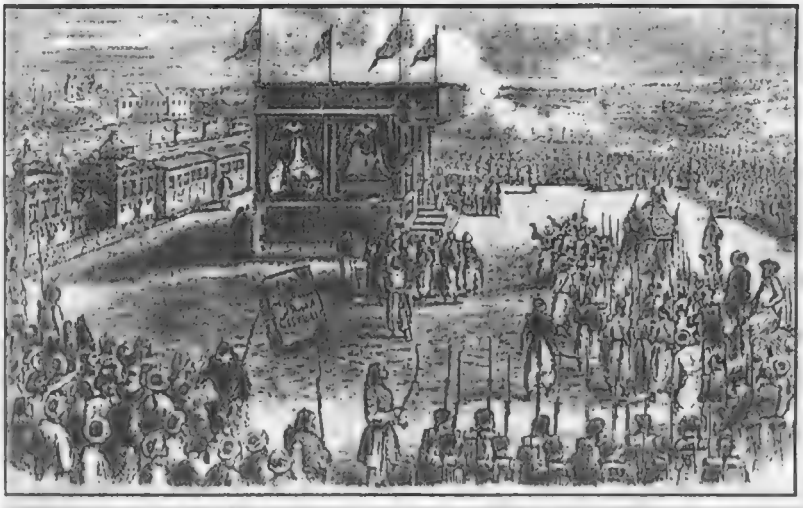

مشاهدة الحجاج المغاربة لخروج الركب في مصر القاهرة زمن السلطان محمد بن عبد الله

جانب من مدينة السويرة

مدينة السويرة وهي من بناء السلطان محمد بن عبد الله

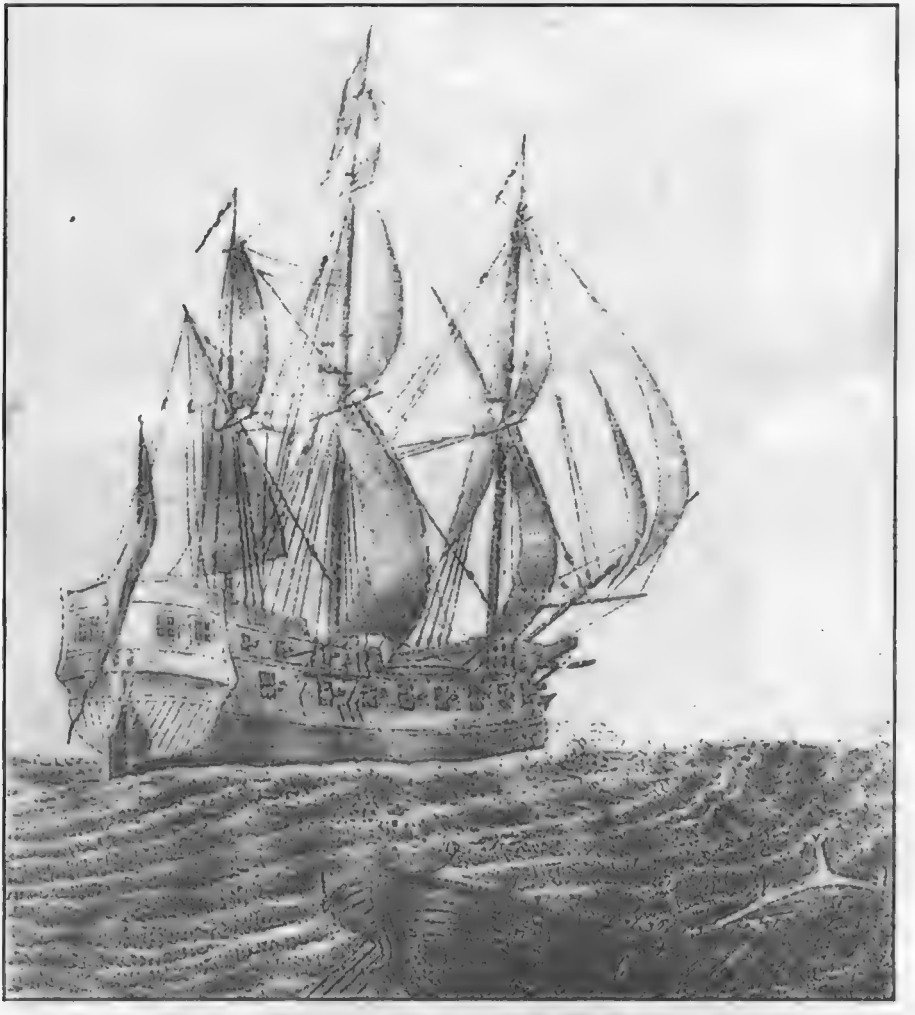

فركاطة ذات طبقتين عليا وسفلى في كل طبقة صفان من المدافع النحاسية وكانت هذه السفينة في الأصل لاهل العدوتين صنعوها من بقية أخشاب جامع حسان وضافوا لها اقامة من اخشاب دورهم فأخذها منهم السلطان سيدي محمد تسمى المعونة (وسفينة الكراكجية كما في تاريخ الضعيف) ولما كانت في صنعتها خشونة وجهها لجبل طارق فتولى الانجليز اصلاحها وأعادوا صناعتها من جديد وسميت فركاطة وجاءت من أحسن الامثلة حسبما تدل لذلك صورتها وعدد بحارتها 330 ومدافعها النحاسية 54 ورئيسها سلام الطرابلسي.

الاتحاف لابن زيدان، الجزء الثالث، صفحة 259

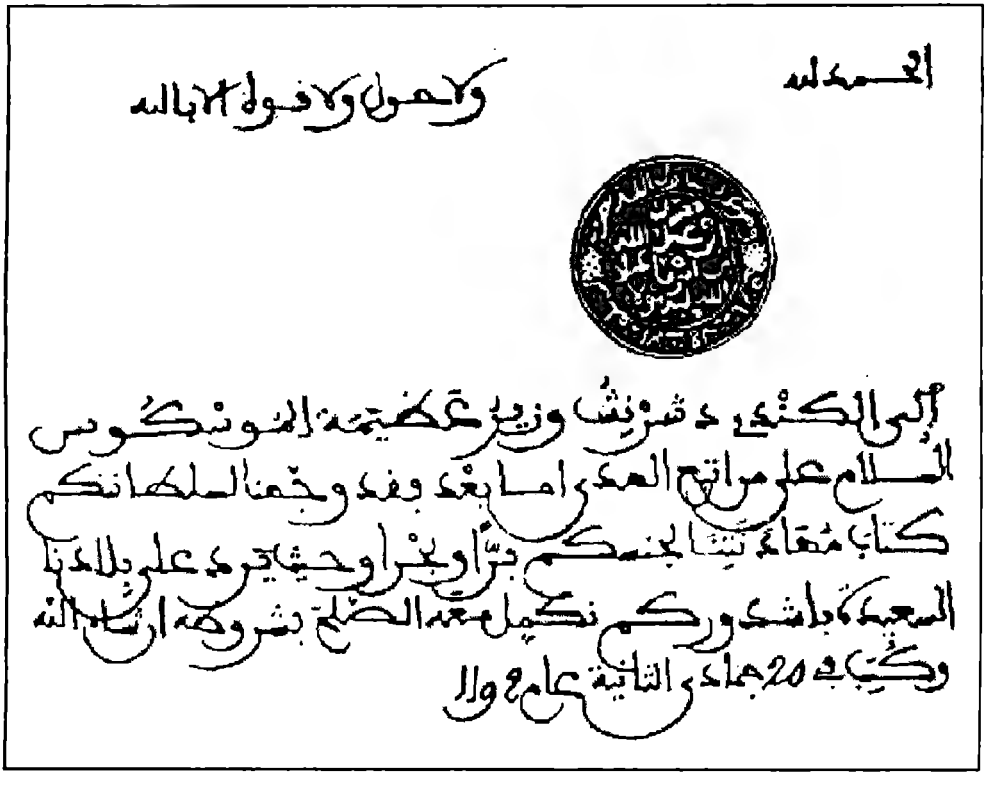

رسالة أمير المؤمنين محمد بن عبد الله بن مولانا إسماعيل إلى تشيرنيش وزير الملكة كاثرينا عظيمة الموسكوس بتاريخ 20 جمادى الثانية عام 1192=16يوليه 1679 حول الكتاب الذي يتضمن المهادنة، مع موسكوبرا وبحرا في انتظار وصول السفير

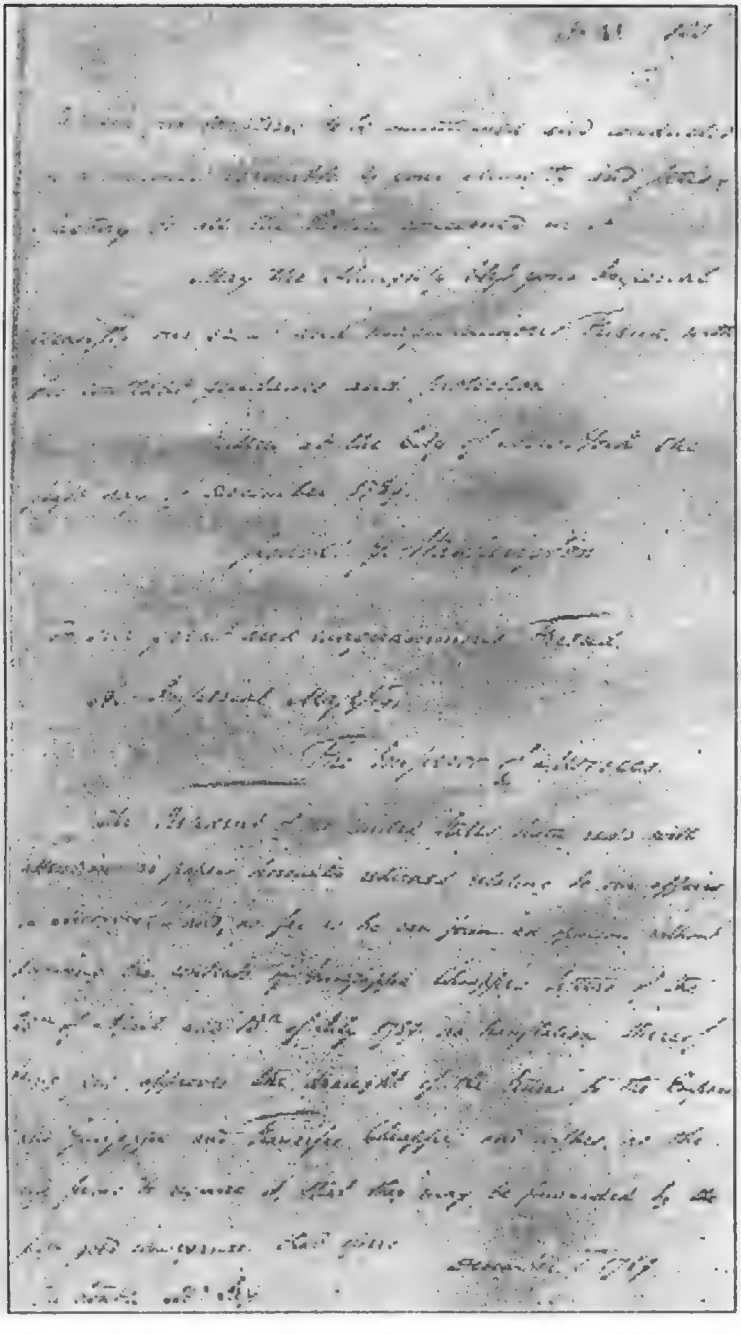

فقرات من الجواب الطويل الذي حرره جورج واشنطن يشكر وساطة الملك "... لقد كان للبادرة التي تفضلتم بها جلالتكم أثر عميق في الولايات المتحدة التي تؤكد تقديرها لشجاعتكم وحكمتكم وأريحيتكم..." ومن المعروف أن هذه الوساطة اخرت الاصطدام بين الاسطول الامريكي والليبي حقبة من الزمن.

الجنرال واشنتون

رسالة جواب من ملك المغرب محمد بن عبد الله إلى الرئيس الأمريكي جورج واشنطن الذي كان قد التمس وساطة المغرب بين الولايات المتحدة الأمريكية من جهة وبين ولاية تونس وطرابلس من جهة أخرى... وهي بتاريخ 15 ذي القعدة 1202هـ-1788/8/17 م.

كتاب من السلطان محمد بن عبد الله الى لويس 16 ملك فرنسا جوابا على رسالة أخبره فيها بموت جده لويس 15 تاريخها 1188هـ/1774

الفصل الرابع والأربعون بعد المائة

الثورة الفرنسية وانعكاساتها الرجعية على أوربا والمشرق العربي

لم يكن في إمكان المغرب الكبير عموما، والمغرب الأقصى كذلك، وهو في الشاطئ المقابل لأوروبا أن يبقى بعيدا عنها وعن تياراتها وما يحدث بها، حتى لو أراد ذلك، بل رأينا كيف آستمرت العلاقة منذ مآت السنين قبل الإسلام وبعده، وكيف كانت الحضارة تصدر من الشرق الإسلامي العربي إلى أوربا عن طريق المغرب الكبير ثم الأندلس، ولذلك عادت أوروبا وقد إنقلبت الأوضاع وأصبح الغرب الأوربي قويا متحضرا بالقدر الذي أصبح معه الشرق العربي ضعيفا متأخرا، وهي المرحلة التي أعدت لها أوروبا منذ ما بعد صلاح الدين والحروب الصليبية، وبعدما آكتشفت أن عوامل رقيها وتقدمها تكمن في البحث عن الديمقراطية وتحقيقها مهما كان الثمن، والوصول إليها من أي طريق وبأي ثمن أيضا. وإذا ما عرفت أوربا عباقرة أمثال جان جاك روسو، ومونتوسكيو، ولوك، وهوبز، وغيرهم، وإذا هي أخذت تتبين المعالم الكبيرة الواضحة للطريق، فإن الصهيونية وقد تحققت من نجاح الإتجاه عملت على أن تكون في المقدمة، حتى لا تطعن بآسم التقاعد بعد النجاح، وتقدم الصفوف بعض اليهود باسم البنائين، كما تخلف آخرون ليكونوا في ركب الماركسية التي ستظهر بعد منتصف القرن 19م، وحتى يتسنى لهم هدمها من الداخل وهذا ما لم يدركه بعمق مؤرخونا المعاصرون.

لقد بدأت أوروبا ثوراتها السياسية والاجتماعية والصناعية في الوقت الذي رأينا كيف أخذ المغرب ضمن قافلة العرب والمسلمين طريقه نحو المنحدر الذي سينتهي به إلى أحط الدرجات، وكل ذلك كما رأينا نتيجة الصراعات الداخلية في بلاد الإسلام ومنها المغرب وما نتج عنها من حروب أهلية كما رأينا، بل إن أوروبا كانت في هذه المرحلة قد

تنفست الصعداء، وأصبحت الدولتان القويتان فيها وهما فرنسا بعد بريطانيا، تبحثان عن مناطق النفوذ والتوسع شرقا وغربا، بعدما أخذت تفقد سلطانها في القارة الأمريكية، وقد أمكنها الحصول على مناطق في الشرق الأقصى والقارة الهندية، وعليها أن تعمل لإضعاف الإمبراطورية العثمانية، حتى تتمكن من الأقاليم التي كانت تخضع لسلطانها، وليس في أوروبا فحسب، بل وفي آسيا وإفريقيا، وقد حصل ذلك حتى أصبح آل عثمان مهددون في عاصمة سلطنتهم.

ولئن عرفت أوروبا عموما، وفرنسا بالأخص، وبالنسبة لنا مثل الفوضى التي عرفها المغرب بعد موت محمد بن عبد الله، فإن فرنسا بالمثل عرفت نفس المصير بعد موت لويس الرابع عشر الذي عرفنا عصره قبل، حيث آلت أحوال المجتمع الفرنسي أيام حفيديه لويس 15 الذي حدثت في أيامه حروب كثيرة نتيجة عهد سلفه. أفادت منها النمسا ما بين1750–1763م، وإن كانت فرنسا قد حصلت في هذه الحروب على اللورين، وكورسيكا، إلا أنها ضيعت الكثير من مستعمراتها، وبقدر ما طال حكم لويس 15 من 1715 إلى1774م، فقد طالت معه متاعب فرنسا تحت وطأة حاشيته وأصهاره الكثيري العدد، والذين لم يهتم بغيرهم وغير شهواته، الأمر الذي إنتهى بالمجتمع الفرنسي وبكتابه الناقمين على لويس، وبجانبه رجال الدين من الرهبان اليسوعيين إلى أسوإ مصير، حيث بدأت النقمة تتبلور بعد طردهم من البلاد، وبعد تدهور الإقتصاد الذي نتج عن علاقة فرنسا بجارتيها إسبانيا وإيطاليا، كما فقدت إعتبارها من جراء ذلك في نظر كل من بريطانيا وروسيا، وإذا كان لويس 15 قد حل مجلس النواب قبل موته، ثم ترك البلاد تعيش تحت وطأة طبقات ثلاث هي: طبقةالأمراء بلا وظيفة، ثم رجال الدين، ثم الطبقة الدنيا التي تتمثل في عامة الشعب، وإذا كانت الإدارة وكل المقدرات تتجمع في يد الطبقتين الأوليين اللتين حاول لويس 16 بأولاهما وهي العابثة، أن يصلح البلاد، فإنه عبثا فعل، وانتشرت النقمة حتى عمت جميع النفوس التي لم يكن لها من هدف غير الملك المستهتر الذي ضاق واستشعر الخطر، فجمع زوجته وأخته وابنه وبنته في عربة يوم 1791/1/20م، ثم ركبها ليفر من وجه الناقمين الذين كانوا له بالمرصاد، ورغم السرية فإنه افتضح أمره في المدينة "لافارن" وأنه سيفر بأسرته، فقبض عليه وأهين بيد ابن مدير البريد، وكان ذلك سببا في

الحط من قدره وفي نظر العامة أكثر، خصوصا بعدما صدر أمر الحكومة بإرجاعه الى باريز قصد المحاكمة، الأمر الذي دفع مطلب الجمهوريين إلى الوصول بسرعة عجلت بها الجمعية الوطنية الفرنسية التي وجدت نفسها وجها لوجه أمام حقيقة هي أن لويس 16، تخلى عن العرش مادام قد فر، لكن هذا لم يكن ليحل المشاكل ويعيد الاستقرار إلى فرنسا، بل وقعت في قبضة أسكافي حقير النفس هو "روبسبير ما كسيمليان" 1758-1794م وهو أستاذ نابليون بونابرت الذي خلا له الجو بموت ميرابو يوم 1791/4/2، والذي أرتكب من الإجرام في حق فرنسا والفرنسيين، وفي ظرف قصير ما لم تعرفه في عشرات السنين، فكانت نهايته الذبح بنفس المدية التي ذبح بها غيره، كما تعرضت فرنسا في الخارج إلى حرب كانت قد أعلنتها ضدها بروسيا، وألمانيا، في 1792/6/20م، وقد دامت هذه الحرب ثلاثة وعشرين سنة كانت الغاية منها بالإضافة إلى ما عرف بينهما إيقاف التيار الذي ظهر في فرنسا حتى لا تعود أيام لويس 14 باسم الملكية الدستورية، وتلك كانت محاولة المتآمرين مع الملك والملكة وحتى على الشعب الفرنسي نفسه.

ألغت فرنسا نظامها الملكي بواسطة المؤتمر الوطني الذي أنعقد بعد فرار الملك وإرجاعه بقرار يوم 1792/9/21، وتمت المحاكمة والإعدام يوم 1793/1/21م، كما حوكمت شقيقته إليزابيت دوفرانس، التي قتلت ظلما يوم 9 مايو 1794 والتي أظهرت من الشجاعة ما لم يكن لأخيها الملك(305).

ولئن تعرضت فرنسا لهزات وهزائم في هذه السنة، فإنها سرعان ما حولت هزائمها إلى أنتصارات ظهرت سنة 1794-1795 حيث أنتصرت على النمسا، واحتلت هولاندا ثم حولتها إلى جمهورية، وحطمت محاولات بريطانيا. ثم تقدمت بجيوشها إلى حدود ألمانيا. وأعلنت روسيا أنسحابها من الحرب حيث تنازلت لفرنسا على جزيرة "سان دمنجو" ثم أرجعت جيوشها التي كانت خلف جبال البرانس، ومعني هذا أن الذي بقي في الحرب فقط إنما هي بريطانيا، والتي سيشتد الصراع ويدوم بين الدولتين، وبعدما تنهي فرنسا حربها مع النمسا التي ستقرر حكومة الإدارة الهجوم عليها من واجهتين، عن

(305) راجع ظروف محاكمة لويس 16 في كتاب الإسفار عن فوائد الأسفار لمحمد عوض ص132-144 ط مصر 1893.

طريق الراين ثم عن جهة إيطاليا، وكانت هذه بقيادة الكورسكي الشاب نابليون بونابارت في شهر أبريل 1796م، ولم يكن وقتها قد تجاوز 27 سنة، إذ هو من مواليد 15 أوت من عام 1769م، بأجاكسيو من جزيرة كورسيكا، حيث كانت أسرته الفقيرة جدا، فارتفع صيته وكأنه المنقذ الذي علا إسمه على جاندارك وغيرها من أبطال فرنسا، لقد هزم النمسا في موقعة "لودي" بتاريخ ماي من نفس السنة، ثم في موقعة "ريڤولي" بتاريخ1797م، وأخيرا إستولى على قلعة "مانتو" وهي الحصن الحصين للنمساويين، مما دفع هؤلاء إلى توقيع معاهدة الصلح المعروف بـ"كامبو فورميو" بتاريخ أكتوبر 1797م، وبها إستولى نابليون على إيطاليا باستثناء البندقية، ولم يعد أمامه من يحارب غير الانجليز العدو التقليدي كما سبق، لكن حساب نابليون كان خاطئا، وفيه كثير من الغرور، حين حدد لمعاركه مع الانجليز في بلاد الشرق الأوسط. ونسي واقع بلاده عسكريا في البحر، حيث كانت التقاليد العسكرية وقتها قد ميزت الانجليز في البحر كما ميزت الفرنسيين في البر، كل بما له من معدات ممتازة في ميدانه، حتى وصف الانجليز وقتها بحوت البحر، والفرنسيون بأسود البر، وحصلت محاولات ضد الانجليز لكنها لم تثمر، لأن الميدان لم يكن مواتيا لانطلاق الجيوش الفرنسية التي وجدت نفسها أمام مخاطرة غير ناجحة إن هي آجتازت المانش.

لقد تخلصت فرنسا من كل المعوقات التي كانت تقف في طريق ثورتها، ثم هي أصبحت مثالا يحتدى من طرف كثير من دول أوربا التي شاهدت قفزات فرنسا بعد الخلاص من مثبطات آل بوربون التي كانت تعرقل تطلعها، بل جل دول أوربا أفادت من الثورة الفرنسية لا بقلب أنظمتها، وإنما بإدراك أهداف الثورة، وفي البلاد الواعية في بعض البلاد، مثل بروسيا، حيث تقدمت الديمقراطية خطوات جد واسعة وسليمة، وحيث تحرر العبيد باقتراح قانون أكتوبر 1807م، الشيء الذي تقدم به "شتاين" حتى تقطع الطريق على كل من يفكر في التجديد بنفس الثمن الذي دفعته فرنسا، أو التمكين للنظم الرجعية، وهذا ما سيقرره مؤتمر ڤينا 1815(306) ثم "تروباو" بعد 1820م لكن سرعان ما

(306) راجع تاريخ القرن19 ص: 90، والجمعيات الوطنية لعبد الرحمن الرافعي ط مصر 1922، وموجز تاريخ العالم هـ.ج. ويلز، ترجمه عبد العزيز توفيق جاويد ص286-93 ط2 مصر 1955. ص291 من الكتاب السابق.

تخلت فرنسا عن مبادئ ثورتها التي صيغت من بعضهم بروح ملؤها الإيمان "الحرية والاخاء والمساواة" بل أصبحت فرنسا حربا حتى على مبادئ حقوق الإنسان 17، وسنرى ذلك في غرور وغزو نابليون(307) لمصر، وبعد فشله تتحول أفكاره التوسعية وبتوجيه من محمد علي صاحب مصر وفرعونها القزم إلى استعمار الجزائر قلب المغرب الكبير، وهي الولاية التابعة روحيا لآل عثمان وقتها، فعندما آنتصر نابليون في إيطاليا وجد نفسه وسط مجموعة هائلة من أركان حربه وكبار العلماء، وعلية المثقفين الذين زينوا له ماراج في ذهنه من فتح مصر والاستيلاء على كنوزها، وزاد الفكرة قبولا ذلك العداء التقليدي للانجليز الذين إستولوا على مستعمرات فرنسا قبل في كل من كندا وأمريكا، وأصبحت قوتهم اليوم في الشرق الأقصى تتطلع نحو مستقبل إمبراطورية مزدهرة لم تكلفها شيئا، ورغم هزيمتها أمام الثوار في أمريكا، فإنها بالنسبة لفرنسا لا يزال هناك ثأر يجب أخذه، وليس ثمة فرصة أحسن من آستغلال فرصة الإنتصار التي يعيشها الفرنسيون على النمساويين والإيطاليين وانسحاب الروسيين، حتى تقتنع حكومة الإدارة بمشروع غزو مصر التي سيمكن فتحها من الإشراف على الأبيض المتوسط والربط بينه وبين البحر الأحمر، بحفر القناة التي طالما ردد التغني بها الكثير من علماء الماضي البعيد والتي ستمكن الفرنسيين من غزو الإمبراطورية الانجليزية في الهند، لكن كل هذه الأحلام التي تخيلها نابليون أصبحت سرابا حين تنبه المغرور من نومه على طلقات مدافع نلسون الذي كان وقومه أضبط حسابا من خيال الفرنسيين بقيادة الكورسيكي الذي سيأخذ درسا قاسيا في كل من مالطة وأبي قير، والاسكندرية، بمصر كما سنرى.

كانت الحملة على مصر التي دامت ثلاث سنوات من 1213 إلى 1216هـ وأول يوليو1798–1801م فاشلة رغم أنها كلفت فرنسا ومصر بل الشرق الأوسط الكثير من الدماء بلا طائل، بل هي التي كشفت عورة نابليون وهيأة أركانه وقتها، فعرف الانجليز عنه وعن تخطيطاته الفجة، أماكن الضعف التي سيستغلونها بعد في شبه جزيرة إيبيريا،

(307) راجع تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان، بعد تاريخ الجبرتي، أما حقيقة نابليون فقد أجملها ولز في سطور معالم تاريخ الانسانية لنفس المؤلف والمترجم جـ4 /1189 ط القاهرة 1961 ثم تاريخ الدولة العلية مصدر سابق ص:180.

لكن الحملة رغم ذلك فتحت على الشرق العربي الإسلامي أبوابا متعددة من الشر لم تستطعها الحملات الصليبية قبل، بل لم يكن الشرق العربي ليعرف أمثال محمد على القولي(308) الذي بعدما استراح من المماليك بمساعدة الغزو الفرنسي شق العصا على الدولة العثمانية فجر عليها الضعف والهزيمة، وذلك ما كانت تتمناه كل من فرنسا وبريطانيا حتى أن الأولى كادت تستعمله بعد لاحتلال الجزائر. بل خدمة للصليبية غزا بلاد نجد واحتل ولده ابراهيم باشا القرى المجاورة للدرعية في نجد، ثم استقدم عبد الله بن سعود بعد أمان ليذبح ظلما وغدرا بيد محمود خان الثاني حسب رغبة الضابط الفرنسي فيسيير الذي سمي أشير باشا، ومهما يكن فإن الفرنسيين رغم ما فعلوه في مصر من عنف فإنهم كذلك تعرضوا لمقاومة شديدة وعنيفة من الشعب المصري بزعامة عمر مكرم، كما شارك فيها درقاوة أتباع الشيخ العربي الدرقاوي الزروالي الذين كانوا بشرق الجزائر بزعامة ابن الأحرش كما سنعرض لذلك بعد حيث شارك المغاربة في كل من المنيا، وأسيوط، وسوهاج، وقنا، من أرض مصر، كما حاربوا ضدهم في أرض فلسطين، وهي الحرب التي كانت بقيادة نابليون في يافا(309) يوم 28-2-1799م؟1214هـ، وكذلك بعد سنجد للمغاربة آثارا في الدفاع عن الشام، ومقاومة دخول الفرنسيين لبيروت، ثم مقاومة الأنجليز في فلسطين، إذ كان المغاربة يتواجدون في مختلف بلاد المشرق العربي، وتركيا، وغيرها لأسباب دينية واقتصادية وثقافية.

لقد إندفع نابليون من إيطاليا إلى مصر بنوع من مرض النفس التي حدثته بالعظمة الرومانية التي قيل إنه تخيلها بعد قراءته لتراجم بلوتارك الكاتب الإغريقي، فمنها استمد أحلام يقظته بالتوسع نحو الشرق، حيث ترقد الكنوز التي لم يحصل عليها جنوده الجياع العراة في إيطاليا التي فرض عليها عشرون مليونا لم تحقق لفرنسا

(308) راجع الموسوعة العربية ص1661- 1662 ط القاهرة 1965م.

(309) راجع الترجمان، والبستان والترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني، والاتحاف لابن زيدان، خصوصا ترجمة محمد بن عبد الله، ومحمد بن عبد الرحمن جـ3 المصادر السابقة، ثم راجع تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ط المقتطف جـ 193/2 بتاريخ 1889م، ثم لمؤرخ مصر عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ2، وكذلك تاريخ العلاقات المغربية المصرية للدكتور يونان لبيب رزق- محمد مزين. ط الدار البيضاء 1982م، وتحفة الزائر في تاريخ الجزائر 117/1 ط 1964/2.

المفلسة وقتها من طموحات قائدها المغرور ما أمل وقدر يوم أصبح بأغلبية المندفعين، هو القنصل الأول وصاحب السلطان الأكبر في فرنسا فجر على فرنسا من الولايات مما أدى بهما إلى الإفلاس وبه إلى الدمار، وإذا هو انتهى في الشرق العربي الى فشل ساعدت فيه الطبيعة بالوباء الذي ظهر بين جنوده وقوات آل عثمان، التي تحركت لمقاومته، وبحرية القيس أمير آل نلسون الانجليزية، التي حازته عند خليج أبي قير، مساء يوم أول أغسطس 1798م حيث تساقطت قطع أسطول "أرمادا" التي احترقت بنيران الانجليز وكأنها قطع من حطب تزيد النار اشتعالا، إلى درجة أن فر نابليون ناجيا بنفسه إلى فرنسا، وفي الطريق كاد يصبح أسيرا لطرادة إنجليزية بالقرب من صقلية، وما غطى عليه هذه الهزيمة المهينة، غير ما كانت عليه فرنسا التي عاد إليها في ظرف قيل إن أقدارها ساقته إليه، ذلك أن فضيحة أخرى ألمت بفرنسا في إيطاليا حيث كان نابليون بالأمس القريب يتبجح بانتصاراته، كما وأن الذين أصبحوا سادة البلاد بعد الثورة في فرنسا، أشرقت عليهم الشمس وهم عراة وفي أيديهم من مال الفضائح والاختلاسات مما عرض فرنسا للإفلاس، وكان نابليون لم يعرف شيئا من ذلك مما رجحه أول الثلاثة القناصل للعودة إلى الطريق المؤدي بالحياة الدستورية إلى شاطئ السلام، وأصبح قيصر فرنسا بعد شتات مجلس الخمسمائة ليحل محله المثلث المحكم بقبضة "القيصر نابليون"، الذي جعل له هيأتين صوريتين: الأولى "تشريعية، ولها أن تصوت على المشاريع، ولا تناقشها، والثانية قيل عنها "التربيون" ولها أن تناقش المشاريع وليس لها أن تصوت عليها؟؟؟ وكلا الهيأتين ينتخبهما مجلس شيوخ، أعضاؤه معينون من بين أفراد طبقة خاصة عرفوا بـ "ذي المكانة" في فرنسا ينتخبهم "ذوو المكانة في المديرية أو المحافظة" الذين كان ينتخبهم "ذوو المكانة، الكوميون" الذين كان ينتخبهم الناخبون العاديون؟ وكان الاقتراع على انتخاب ذوي المكانة في الكوميون حقا مباحا للجميع، فكان هذا هو المظهر الوحيد للديمقراطية في هذا الهرم المذهل المحير(311) بل أصبحت أوروبا وليست فرنسا فحسب بالنسبة لنابليون كمنزله يفعل فيها ما يريد، ويتصرف كما يشاء نصب أخاه

(310) راجع المصادر السابقة والموسوعة العربية 1812 ط1965.

(311) راجع ولز معالم تاريخ الانسانية جـ 4/1240 ط2.

جوزيف ملكا على إسبانيا. والثاني على هولاندا، والثالث على وستنفاليا، واحد قواده على نابولي. وآخر على السويد. ثم نصب ولده ساعة ولادته ملكا على روما، كما وزع اخواته وقريباته على عروش أوروبا، وحرص على أن يتزوجهن الملوك، لكن كبرياءه تحطم امام عظمة مدام ريكاميه التي فضلت عليه العظيم "شاتو بريان" 1768م-1848م القائل "ما تجاسر مخلوق على الله كالإنسان"، ومعنى هذا أن نابليون أصبح يتبختر بخيلاء على قنة جبل النهزات ذاك العظيم، كما يتبختر الديك الفرخ فوق تل من الروث، فإن الشخصية التي كونها لنفسه في التاريخ شخصية بها ما لا يكاد يصدقه عقل من الغرور بالنفس، والاحتقار الوقح(312) لكل من وثقوا به وعدم الإكتراث بهم، وجنون عظمة يقلد به قيصر، والإسكندر، وشارلمان تقليد القردة لولا أنه مخضب بالدماء الإنسانية مما صيره في التاريخ مبعث السخرية والاستهزاء، حتى جاء كما يقول فكتور هوجو بطريقته الهائلة "يوم ضاق الزمان به ذرعا" فقذف به الدهر ركلا بالأرجل ليختم أيامه في ركن منعزل يشرح ويشرح كم كانت أشنع أخطائه مسرحا للذكاء والمهارة، وهو يتربص في أرجاء جزيرته الحارة الموحشة، متصيدا الطيور ويتشاجر شجارا وضيعا مع سجان منحط التربية، لم يكن يوليه الإحترام اللائق، أو كما وصف بعض الكتاب. وما اكتشفته الدراسات الانجليزية أخيرا من أنه كان نصف رجل.

ذلكم هو نابليون الاستعماري الكورسيكي المتفرنس الذي لو تدبر المؤرخون حياته السياسية وما جرته على بلاده أولا، وعلى الإنسانية قاطبة لما كتبوا عنه بغير هذا الأسلوب الذي آتفق فيه الفكر الانجليزي والفرنسي والذي يحط من قدر الفرنسيين قبل كل شيء كل من يحاول أن يصور نابليون بغير هذا اللون الذي يليق به نابليون هذا هو الذي حول النصرانية المسالمة كذلك إلى سياسة آستعمارية معادية للشعوب في شخص الرهبان الذين خطط لهم خطة ساقطة ودنيئة، تمسك بها كل الذين جاؤوا بعده، حتى بعض حكام المسلمين في بلاد الإسلام نسجوا على منوالها بين رجال الدين والطرق

(312) يقال "وقح" - يوقح". وقاحة ووقوحة: وقح الرجل : قل حياؤه وأجترأ على أقتراف القبائح ولم يعب، بها، فهو وقيح ووقاح، وهي وقاح ج وقح ووقح. المعجم الوسيط جـ 1060/2 ط 1961.

وعن شاتوبريان راجع ترجمته في كتابه الإسلام في الأندلس ترجمة الأمير شكيب أرسلان ط بيروت1985م.

الضالة من أجل تحقيق الشهوات، فحولوا العلماء الذين قيل عنهم "ورثة الأنبياء" حولوهم الى سدنة في محاريب شهوات المفلسين من حكام المسلمين، إلى أن حلت الكارثة بالجميع ولا تزال متمثلة في عدم الثقة المفروضة على الشعوب بقوة الحديد والنار. يقول نابليون وكأنك بحاكم مسلم اليوم يردد ما قاله مشوه النصرانية بالأمس "قد آتجهت رغبتي إلى إعادة إنشاء مؤسسة الإرساليات التبشيرية الأجنبية، إذ أن المبشرين الدينيين ربما كانوا ذوي نفع كبير لي في اسيا، وإفريقيا، وأمريكا، وذلك أني سأكلفهم بالتعرف على كل الأراضي التي يزورونها، ولن تقف قداسة ثيابهم عند حد حمايتهم، بل سوف تخفى وراءها أبحاثهم السياسية والتجارية، ولن تكون روما بعد اليوم مستقر رئاسة المرسلين، بل باريس(313).

وبالتالي فإن نابليون بحق فشل في أن يكون رسول الثورة الفرنسية، كما فشل في أن يكون قيصرا، وإلى أن تنتهي أيام نابليون وذكره يعترضنا ويعترضنا كما وصفه فكتور هوجو، وويلز، وهي الصورة التي إن لم تكن أشد من تلك التي يجب أن يذكره بها الأوربيون عموما، والفرنسيون بالأخص، لأن نابليون أو قيصر فرنسا، هو الوحيد الذي سجل في حقه تاريخ الحروب أنه ضحى بـ 600 ألف من البشر، سنة 1812م في غزوه الفاشل لروسيا، وذلك ما آنتهى به إلى التنازل قهرا، وبعد ما تعرضت فرنسا لحملة جامحة من الشرق، والجنوب، قام بها الألمان والنمساويون والروس، كما غزاها الانجليز والاسبان ناحية جبال البرانس، ورغم قتال نابليون، فإن باريز إستسلمت في شهر مارس من 1814م ، وما التنازل بعدها من نابليون الذي كاد يقتل من العامة ومعهم الملكيون في بروڤانس وهو في طريقه إلى الخارج، وإذا ما إستطاع الإنفلات من منفاه 1815م والعودة إلى فرنسا التي ندمت على عودة آل بوربون الذين دعى إليهم أهم رجالات نابليون "تاليران" فإنه رغم محاولاته التكفير عما سبق من طغيان، لم يلبث أن عاد بفرنسا وهي غير قادرة إلى عادته الأولى في الحروب، لكن تجربته هذه المرة لم تكن أكثر من مائة يوم عمل على آختصارها الدوق الانجليزي ولنجتن الذي آقترح كيفية تكوين الجيوش في مؤتمر ڤينا الذي شاركت فيه 7 دول ضد نابليون، فأبعدها إلى جزيرة هيلانة حيث بقى

(313) ولز 4/1243-12. مصدر سابق. والتاريخ العام مصدر سابق فقرة 951م ص409.

بها إلى أن توفي بالسرطان 1821م(314) وهكذا إنساقت الثورة في طريق شائك موحل، جرها إليه نابليون الذي حقق أحلام يقظته دون حساب لما ينتج عن ذلك، ومنذ إنتهى نابليون وفرنسا تصارع في محاولات علها تستقر، لكنها دخلت دوامة أخرى هي الصراع لفائدة الطبقة الجديدة التي عرفت بـ "البرجوازية"(315)، وهم سكان المدن الفرنسية إذ الطبقة المتوسطة هي التي قاومت الإقطاع وفكرة الحق الإلهي للملوك، كما ناضلت من أجل تصحيح الدستور والمساواة بين الأفراد، والتمكين للحكم النيابي السليم، وذلك بوضع قواعد التنظيم على أسس عملية، سواء فيما يرجع لحياة الفرد أو الجماعة، بل وأصول الحكم والسياسة العالمية، والعلاقة بين الدول في الحرب والسلم.

والواقع أن فرنسا بعد الانجليز وخارج مرحلة نابليون كانت سباقة في جل تلك الميادين، وكان لها أن تخطو خطوات أوسع قبل، لولا مرحلة نابليون، كما أنها كانت السباقة في ميدان الاستعمار بحد السيف وقوة السلاح فيما بعد، وتلك هي بصمات عصر نابليون "التي يعتز" بها التاريخ الفرنسي، ذلك لأنه عندما عرفت أوربا بعض الاستقرار بعد مؤتمر ڤينا الذي سنتناول منه ما يعني المغرب الكبير في الفصل التالي، وقتها ظهر في تفكير الفرنسيين الدعوة الى رفع المستوى لطبقات الشعب حتى لا تنقض على الطبقة الممتازة أو طبقة البرجوازيين كما عرفت وقتها، ولم تكن ثمة من وسيلة غير البحث عن طرق أوسع للتجارة، وهذه جرت إلى الاستعمار، خصوصا وأن فرنسا عرفت مردود الاستعمار الذي كان قد حققته في كل من أمريكا وآسيا وإفريقيا، مثل غيانا وجوادلوب في جزيرة الانتيل ومرتينيك، وفي أمريكا الشمالية، جزر سان بيير وميكلون، وفي إفريقيا ساحل السنغال، وفي اسيا بوندشيري، وشندرنا جور، وكريكال، وما هي، ويانو، في الهند، لكنها جميعا لم تكن كأقطار المغرب التي ستعمل فرنسا جاهدة

---

(314) هناك دراسة أنجليزية حول شخص نابليون تقول إنه في أخريات حياته أخذ يتحول من الذكورة إلى الأنوثة، كما ظهر من خلال الهرمونات.. الخ راجع تاريخ معركة الطرف الأغر 1805 وما انتهى إليه بعد بيعه ولاية "لويزيانا" على نهر المسيسيبي لأمريكا بمبلغ 15.000.000 دولار أمريكي أنفقها على المعدات للحملة ضد الانجليز، ثم راجع ترجمة الأميرال نلسن، ثم حرب روسيا وفرنسا 1806، وفرنسا وبروسيا 1807، ومحاربة الانجليز والميركان حملة نابليون على موسكو 1812م، وقيام روسيا والنمسا ضد فرنسا 1813م وغزو الحلفاء لفرنسا 1814.

(315) راجع ولز 1271/4، و م ع العربية 196-197.

للاستيلاء عليها والتي أفادت أكثر مقابلتها للشاطئ الفرنسي.

بعد عهد نابليون حاول الفرنسيون العودة للملكية، لكن فرنسا إنتكست مدة عودة أسرة آل بوربون، إذ في هذا العهد حاول لويس 18 وقد عاد من منفاه الطويل أن يضع أسسا جديدة للملكية، تجمع بين القديم والجديد، وإن اقتبس من نظام الأنجليز بعض ما ورد في دستور 4 يونيه 1814، لكنه ما كاد يتمكن حتى عاد أنصاره إلى الثأر والانتقام على نهج النابليونيين حيث عم الإرهاب "الأبيض" الذي أصبح شعار الملكية في ظل مجلس النواب، مما أفسد على ريشليو عمله واعتداله فشعر لويس بتحرج الموقف مما أدى به إلى حل مجلس النواب بقرار اتفق عليه مع ريشيليو الذي ذهب وحل محله "ديكازيس" الذي هو أفسد رجعية ثم "ڤلنيل" المغرور بتزمته وتعصبه، وهو الذي سيفكر في الخروج بعد موت لويس سنة 1824م/ 1240هـ وتولية شارل 10 الذي دخل في صراع عنيف مع رجال الثورة المهاجرين، الذين عادوا ثم انتظموا في حزب سياسي، مثل "لافاييت" و"جريجوار" في مجلس النواب، كما ازداد الصراع أكثر عندما قتل الدوق دي برى" ثاني ولدي الكونت دارتوي ولي العهد، وكل ذلك كان في صالح الملكيين المتطرفين، وتبين أن لا تفاهم، مما حول النزاع بين الملك والشعب إلى صراع استوجب تأليف حزب للمقاومة في ظل الدستور، وإذا لم تنجح فبالقوة، وكان برأسة لافاييت، و"تاليران" و"جيزوت" و"تيير"، وفعلا لم تنجح المسالمة في إقناع الملك شارل 10 بالعودة إلى الاعتدال بل استرسل في التنقل من خطأ إلى خطأ، ساعده فيه كل من مارينياك، وبولينياك اللذين أسندت لهما رأسة الوزراء تباعا، إلى درجة أن حل مجلس النواب واستعملت القوة، لكن الإنتخابات خيبت أمله فألغاها بقرار مؤرخ بـ 26 يوينه 1830م مقدرا أن الانتصارات التي حققها بغزو الجزائر ستمكن له، بيد أنه تعرض لثورة عارمة قادها الجمهوريون مؤيدين بالشعب الذي استولى على باريز، ثم ألف هيأة للرعاية ريثما تشكل الحكومة الجديدة، ووقتها تراجع شارل 10 عن قراراته، لكنه كان قد إنتهى إلى كراهية وتحقير أججهما الحزب الجمهوري الذي قرر عزله وترشيح دوق أورليان مكانه، وهو إبن الدوق أورليان المشهور بإسم فيليب المساواة، أحد أعضاء المؤتمر الأهلي الذين ذهبوا ضحية حكم الإرهاب، وقد رشح لأن الدول لا ترضى بإقامة جمهورية، ولأن المرشح معروف بشدة

إخلاصه لمبادئ الثورة التي إشترك في الدفاع عنها في موقعة "جيماب" وأنه يفهم الدستور كما يفهمه الأحرار، ويعتبر نفسه مدينا بعرشه للشعب، لكل ذلك ومن أجله إنتخبه مجلس النواب وكيلا عاما للبلاد، فأسرع إلى مقابلة لافاييت، زعيم الجمهوريين لاسترضائه، ثم عانقه أمام الجماهير، وبعدها نادى به مجلس النواب ملكا للفرنسيين، فسقط في يد شارل الذي غادر البلاد يوم 29-8-1830م/1246هـ وإن كانت أوروبا وقتها لم تنظر إلى ذلك الانقلاب بعين الرضى طبقا لقرارات مؤتمر تروبا و1820م، ولأنها تعهدت بمناصرة عائلة البوربون، لكن رابطة أوروبا وقتها بدأت في الإنحلال أو إنحلت، ولكل منها من مشاغلها وأوضاعها ما يكفي، ومنها فرنسا أيضا التي وجهت نشاط الشعب نحو الاستعمار الذي بدأته وقتها بالجزائر لمدة ثلاث سنوات قبل كما سنرى.

الفصل الخامس والأربعون بعد المائة

أوروبا والمغرب الكبير وأسطوله المثير

تلك هي الثورة الفرنسية ثورة الماسونية وانعكاساتها الرجعية على أوروبا والمشرق الإسلامي العربي باختصار، فما ذا عن المغرب الذي كان في هذه المرحلة قد آستقر تحت حكم المولى سليمان الذي كان عهده لاتزال فيه بقية من رجالات العلم والسياسة الذين هم نتاج عهد والده الذي إمتد ثلث قرن من الزمان، بل وكانت القوة التي لا تزال متماسكة بنظامها وعتادها هي قوة البحر وأسطوله المغربي والغير المتجزئ الذي كان يتمتع بصولة في البحر قبل ظهور الآلة واستعمال البخار، كما رأينا من معاهدات الأمن بين محمد بن عبد الله ومختلف الدول، وإذا كان هذا الأسطول قبل يقوم بجولات في عرض البحر فإنه بعد وفي عهد الرعونة التي آبتكرها نابليون وأخذت تتمرس عليها دول أوروبا في عهده وبعد الخلاص منه، أصبح على المغرب أن يسلك خطة جديدة في علاقاته بدول حوض البحر الأبيض المتوسط، مبتدئا بالجار شمالاً والعدو التقليدي الذين هم الاسبان، وحتى لا يعطي لهم ولا لغيرهم من الدول المسيحية فرصة الدفع بهم لخلق الفتنة، خصوصا في الوقت الذي كان نابليون مشغولا بحروبه المشار إليها، وقتها فكر المولى سليمان في عقد معاهدة أمن وتجارة مع الاسبان سنة 1214هـ/1799م(316) وهي التي قيل عنها أنها أول طعنة قاتلة في جسم المغرب، والتي ظهرت بكثير من الامتيازات في مختلف المجالات لم تكن لأحد قبل في هذا البلد، وقد آندفع إليها المولى سليمان بلا

(316) راجع مركز الأجانب في مراكش للمرحوم محمد أحمد بن عبود ص28 ط القاهرة 1950م وتلك المعاهدة هي التي آتخذت أساسا لكل ما جاء بعدها من مختلف الدول ومنها الاسبان أيضا بعد حرب تطوان، إذ نصت تلك المعاهدة على: حق الاقامة، والتنقل، وحرية المساكن، وحق العبادة التي حولها إلى تبشير وغزو، كما خطط له نابليون، ثم حق التجارة، والامتياز القضائي، والمالي فيما يرجع للضرائب التي لم يدفعوها، وحق التملك العقاري... الخ.

شك تحت ضغط الظروف الداخلية التي آختلقها الإخوة الخمسة بالحروب فيما بينهم، بعضهم ضد بعض، ثم بعضهم مع المولى سليمان، وهشام الذي حاول معه الاسبان حتى أدت إلى قتل عشرين ألفا من المغاربة يقول الزياني، كما قامت إسبانيا بتصفية مشاكلها مع فرنسا حتى ظهر وكأنها تستعد لحرب مع المغرب، حيث أبرمت معاهدة بازل 1210هـ/795م، ثم معاهدة دفاع وهجوم 1211هـ/1796م، وكلاهما من سياسة أمانويل غودي الذي رأس الحكومة في عهد شارل 4 من سنة 1788 إلى 1808م، وفي عهده قام دومينكو باديا الجاسوس المتنكر الذي عرف بـ "علي باي العباسي" قام بمغامرته في المغرب، المجهولة أسراره، حيث تقدم لحكومة بلاده بمشروع قيامه بالتجسس لفائدة حكومة الاسبان فتلقفه نابليون حين اطلع على ما كتب عن أسفاره سنوات 1803– 5–6–7، فكان من نتيجة ما كتب أن أرسل نابليون مهندسا فرنسيا من سلاح المهندسين بالجيش، للقيام بوضع خرائط لمدينة الجزائر، وهو الكومندار "بوتان" وذلك حوال 1808م، أي بعد المعاهدة السرية التي أبرمتها فرنسا مع روسيا حتى تنفرد الأولى باحتلال الجزائر، وذلك في الوقت الذي كان قد آحتد الصراع بين الفرنسيين والأنجليز، وأن "بوتان" رغم أسره من طرف الانجليز، وإحراقه ما كان معه من تقارير وخرائط، عاد فوضع أخرى إقترح فيها على نابليون إن هو أراد الاستيلاء على الجزائر كما أشار عليه حاكم مصر محمد علي الذي كان يقصد من ذلك قطع كل علاقة لآل عثمان بالمنطقة التي كانت مثل مصر ترجع إلى الباب العالي وفعلا سينزل نابليون قواته بالمكان المعروف "بسيدي فرج" على بعد 25 ك.م من الجزائر المدينة، وذلك ما عرفه بكل الاستحكامات ومدى التسلح الذي تتوفر عليه المدينة، ومن وقتها والصراع بين الفرنسيين والانجليز إلى أن سيتم التنازل عليها لفرنسا أمام الأمر الواقع، أما ضومنكو باديا الذي آغتر به المولى سليمان حتى آنتهى لمساعدته ماديا على الرحلة قصد الحجاز من المغرب، فإن مغامراته باءت بالفشل والنهاية السيئة، لأنها مغامرات لم تقتصر على المغرب، بل إنطلقت لصالح فرنسا في بلاد الشام وفلسطين، ومصر، بعدما ذهب إلى الحجاز 1807م/1222هـ حيث كان الانجليز له بالمرصاد، فتعرض للقتل في قلعة البلقا ببلاد الشام، قرب الزرقاء في أول شهر سبتمبر1818م/1234هـ، وضومنكو هذا ولد ببرشلونة 1767م، وفي عهد الاستعمار نصب

الاسبانيون له مثالا بمدينة طنجة مرتديا لباسه الشرقي وكأنه شيخ من المشايخ على الطريقة التركية، وذلك اقتداء بالفرنسيين الذين نصبوا تمثالا لليوطي بالدار البيضاء.

إن حل المشكل الذي يعتبر عقدة بالنسبة للمغرب مع أوروبا، لم يكن مع الاسبان فحسب، بل كان يعني جل دول أوروبا ما دام الاسطول المغربي قويا في عرض البحر، وهو الذي سيوحد حتى بين المتنافرين والمتباعدين سياسيا من دول أوروبا، إذا ما طرح موضوع المغرب للبحث، مما أدى بالمولى سليمان عام 1232هـ/1816 إلى إطلاق سراح كل الأسرى المسيحيين الذين كانوا في المغرب بسبب جهاد المغاربة في البحر وإلى التفكير في موضوع الأسطول الذي رأى أن ليس في الإمكان الاستمرار في السياسة البحرية، خصوصا مواجهة القرصنة كما كان يطلق عليها الأوربيون، وما هي عند المغاربة إلا نوع من حروب الجهاد وحماية الأوطان التي كانت وقتها تغلب على حياة الأساطيل في الشرق والغرب، أما القرصنة التي تعني الغزو والإغارة على الشواطئ واختطاف الأبرياء فقد أبتدعها الأوربيون في بلادهم كنوع من أنواع اللصوصية، ثم انتقلوا بها بعد اكتشاف هنري الملاح لشواطئ المغرب الى إفريقيا، وبالتالي إلى غيرها من أقطار الأرض، أما في بلاد المشرق العربي والمغرب العربي، فقد كانت كرد فعل تطور إلى سياسة حرب زمن خير الدين وأخيه أوروج 879-924هـ/1453-1518م بحيث كانت مطاردة الظالم المعتدي تقضتي البحث والتنقيب الذي كان يقود إلى مصادمات أصبح لها مجال في التاريخ السياسي للمغرب الكبير بعد، خصوصا مع الاسبان، والبرتغال، والانجليز، وأمريكا، والدول الاسكندنافية، وإيطاليا، وهامبورج، وغيرها وهي الدول التي عقد المغرب معها معاهدات أمن كما رأينا، بل كانت دول أوروبا قد انتهت إلى حقد جد كبير، والفرنسيون ضد الجزائر خصوصا والمغرب عموما، ولنسمع الى السيدة تولى صاحبة رسائل العشر سنوات في بلاط طرابلس إذ تقول فيما كتبت بتاريخ 28 غشت 1788م "لست أستطيع أن أصف لك العادات الجزائرية خيرا مما يعبر عنها حادث جرى هناك منذ مدة ليست بالطويلة، ومن شأنه أن يبين معاملة المسيحيين في تلك البلاد، ففي اتفاقية الصلح الأخيرة التي تمت بين فرنسا والجزائر اشترط أن لا يتوجه أي مركب قرصنة إلى سواحل فرنسا، أما قبل الإتفاقية مع إسبانيا 1785م فكان أهل نابولي قد أغرقوا مركبا

جزائريا على مقربة من الساحل الفرنسي، وساعة وصول الخبر إلى الجزائر بعث الداي رسلا من عنده إلى دار القنصلية الفرنسية، وبدون أن يتركوا للقنصل فرصة أو يسمحوا بسماع إيضاح منه جروه فورا إلى حبس العبيد، وقد أرسل الفرنسيون 21 مركبا إلى الجزائر يوم هذه الواقعة، لكن الجزائريين طلبوا 40 ألف "سكين" ثمنا للضرر الذي لحق بهم، لأن الفرنسيين سمحوا لأهل نابولي أن يسحبوا المركب الجزائري إلى ساحل بلادهم، وقد أرسل الفرنسيون سفينتين من الجزائر إلى فرنسا لتعود بتعليمات حكومتهم بصدد إنهاء القضية، كما صرفوا بقية سفنهم جميعا إلى مالطة رضوخا لرغبة الداي...الخ(317).

ومن هذا يستدل على ما كان لأسطول الجزائر من صولة، كانت كذلك تستمد نسماتها من الأسطول التركي الإسلامي الذي كان صاحب الصولة عبر البحار، والذي ستتفق ضده كل أوروبا التي كانت نواقيس كنائسها وأجراسها تقرع زوال كل يوم حتى يهرع الناس إلى الصلاة فيها والدعاء ضد آل عثمان الذين كانت صولتهم تهدد البابا بالإفلاس بعدما سلخت منه اللوثرية، أسوج والنرويج، والدانمارك، وهولاندا، وانجلترا، وروسيا، وسكسونيا، وبوهيميا، والولايات المتحدة الأمريكية، وأرسل البابا رسله إلى مختلف البلاد يثيرون النقمة ضد الأتراك، وبسبب ذلك تم الحلف بين الاسبان والبندقية1571م، وتتابعت مثلها بقية الدول الأوربية إلى أن حصلت معركة 22 أكتوبر1827 م التي انتهت فيها صولة الأسطول العثماني وهو التاريخ الذي نزل فيه أسطول الفرنسيين لغزو أرض الجزائر كما سنرى.

وفي عهد المولى سليمان بالذات رأينا الحرب تشتعل بحرا بين الأمريكيين وكل من طرابلس وتونس، وفيها انتصر الأسطول المغربي للقطرين الشقيقين سنوات من 1801 الى1805م، ومع ذلك لم تنقطع العلاقة مع الأمريكيين لأنهم وقتها كانوا يقدرون واقع المغرب المسلم والذي لم يناصبهم العداء. بل كان أول بلد آعترف باستقلالهم وذلك هو الاعتبار الذي قدره السلطان محمد بن عبد الرحمان بعد.

---

(317) راجع المصدر المشار إليه قبل ترجمة الديراوي ص330 ط طرابلس ليبيا بدون تاريخ.

يقول السلطان محمد بن عبد الرحمن(318) لكن ما عرف البحر من تطور البواخر التي أصبحت بخارية، جعل الأسطول المغربي غير قادر على المسايرة أولا، ومستهدف للتدمير ثانيا، وعامل مهم تتعلل به أوروبا لخلق المشاكل ثالثا، بل وما سيعرفه المغرب من طاعون "كوليرا" ومجاعة، وجفاف وهذه هي الدوافع التي حدت بالمولى سليمان إلى التفكير في حله للأسطول خصوصا بعدما رأى من إطلاق سفن الديكاتور النار على ساحل طرابلس وحملته على الجزائر 1815م، وضربه لقرطاجنة، إلى أن أرغم الداي على التنازل عن الجزية، وإطلاق سراح الأسارى بعدما كانوا يدفعون الضريبة للجزائر، مقابل تأمين سفنهم منذ 1795م، بل كان تاليران الراهب المتلبس، ووزير خارجية فرنسا، يبحث جاهدا عن الاسباب التي تمكنه من الصدام مع الشعب الذي قيل إنه عدو الكاثوليكيين، وإلا كيف يكتب إلى المولى سليمان يطلب منه قطع العلاقات مع بريطانيا البروتوستانتية، وقد تضمن الكتاب آخر الانتصارات الفرنسية، كما جاء فيه أنه سوف يتم طرد بريطانيا قريبا من البحر المتوسط، وسوف تحتل فرنسا سبتة، وختم تاليران خطابه ينصح السلطان بترك بريطانيا والانضمام إلى فرنسا في قضيتها(319). لكن المولى سليمان وإطاراته السياسية الناضجة، وقتها كانوا يعرفون المصير بحرا وبرا، ومصالح بريطانيا الجار، أكبر من أن تمسها فرنسا المنهزم "قيصرها" نابليون أمام نلسون في أبي قير، ذلك لأن المولى سليمان بلا شك كان على علم بسياسة الاندفاع الفرنسية، وما حل بها في الشرق على يد الأنجليز، لذلك لم يهتم بخطاب تاليران كما لم يهتم بمحاولات نابليون الذي كان يريد ضمه قبل لكتلة الحصار الذي انضم إليه الاسبان ضد بواخر الانجليز المحملة بالحبوب من المغرب إلى جبل طارق سنة 1221هـ/1806م، بل أولى المولى سليمان

(318) في كتابه لبار كاش من أجل التعزية في الرئيس إبراهيم لنكولن بتاريخ 27 ج من 1285هـ/1868م والذي قتل بطعنة مجنون راجع الإتحاف لابن زيدان 3/536-37-38. ولقد كانت مراكب الأسطول المغربي للدولة 50 وللخواص 60 من المراكب.

(319) راجع تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية تأليف ب.ج. روجرز. ترجمة د. يونان لبيب رزق ط المغرب ص:176. ط1981 ثم راجع ما حصل للعائلة المالكة الاسبانية كارلوس الرابع وعائلته على يد نابليون الذي نصب أخاه يوسف ملكا على إسبانيا مما نتج عنه حروب استمرت من 1808 إلى 1813 هلك فيها ما يزيد على 400.000 راجع كتاب الاسفار ص:156. مصدر سابق.

وجهته لتحسين العلاقة مع الأنجليز الذين لا أمان لهم، والذين وإن كان قد رفع رسوم الصادرات لهم من المغرب وقتها، فإنه لم يفعل بالنسبة للألفي رأس من البقر التي كانت مقررة سنويا، ترك رسومها بخمس ريالات كما كانت، وإذا ما تضرر الانجليز وطلب المقابلة، قنصلهم جيمس كرين الذي حل مكان ماترا المتوفى يوم 1806/3/29 والذي كان قد نجح في عقد معاهدة مع السلطان 1801م، فإن السلطان آستقبل القنصل الجديد جيمس كرين آستقبالا طيبا بفاس، في شهر سبتمبر ثم وعده بتخفيض الرسوم على المواد التموينية المصدرة لجبل طارق، كما سمح بتصدير أبقار أخرى برسم مقداره 26 ريالا على الرأس، لكنه عاد أمام كثرة إلحاح كرين على التخفيض فألغى ما سمح من زيادة في تصدير البقر، وذلك بقرار صدر 1807م/1222هـ ولم يبق غير الألفين المصرح بهما قبل – مما دفع القنصل العام كرين إلى التذكير بما يجب نحو الأنجليز الذين يقوم أسطولهم- حسب زعمه، بحماية الشواطئ المغربية من الغزو الفرنسي، ونسي القنصل أن المولى سليمان كان يعرف الوضع من كل الوجوه وما يحتمه على الأنجليز من حماية لمصالحهم وقاعدتهم بجبل طارق قبل كل شيء، وأنه لا يعتبر أمر الشواطئ المغربية بل ولا المغرب وقتها بالقدر الذي يعتبر بريطانيا التي ليس لها ما تعتمد عليه في دوام تموين قاعدتها غير المغرب الذي أخذ يتحول إلى سوق رابحة بالنسبة لها دون أية تكاليف، ورغم أن المولى سليمان كان يخطط لسياسته الابتعاد عن الصراع المحتدبين القوتين الانجليزية والفرنسية، إلا أنه بالنسبة للأولى التي تعتبر جارا لم يجد بدا من فتح باب المعاملة التجارية معها بشكل سينتهي بها تقريبا إلى إحتكار، لأن تلك السياسة لم تقوى على الصمود بعد عهد المولى سليمان، حيث بلغت التجارة مع الانجليز 75٪ بدافع سياسة القناصل الذين كان ضمن ميزانيتهم المقررة من وزارة الخارجية الانجليزية مبالغ لارتشاء المغاربة حاشية السلطان من القمة إلى القاعدة، حتى أصبحت عادة لا يخجل من الجهر بها أحد، بل من الشروط التي يتدخل في تحديدها قناصل المغرب بجبل طارق ودار النيابة بطنجة، وتلك كانت نتيجة عمل طبقة من التجار المغاربة اليهود ومسلمة اليهود، بل وحتى الانجليز الذين وجدوا ضالتهم في جبل طارق، فتطوعوا بالإعلام لفائدة المنتوجات الانجليزية حتى أصبحت أهمية جبل طارق كمركز تجاري لا غنى عنه لكل من

يريد التعامل مع المغرب بما في ذلك البضاعة الفرنسية، مما خلق نوعا من الصراع بين الانجليز والفرنسيين والاسبان، موضوعه المغرب الذي كان المدخل أيضا لغيره من أقطار إفريقية، خصوصا وأن مركز المغرب كذلك عرف أيام الحروب التي قامت سواء بين الانجليز والأمريكان 1812–15 بسبب رغبة الأمريكيين في تمتع سفنهم بحقوق الحياد وفي الحرب التي حصلت بين الأتراك والروس زمن السلطان مصطفى خان الرابع 1193هـ/1807م، وهو الذي حكم إلى عام 1223هـ/1808م والذي طلب من المولى سليمان مساعدته بحرا بحراسة البوغاز حتى لا تمر سفن الروس التي سبق أن استعملت البوغاز في غزوها للمجر، وكان ذلك عام 1222هـ/1807م وبعدها بسنة اضطر الى إبعاد عشعاش وعزله من تطوان. ليتولى مكانه محمد السلاوي بسبب ميله للعربي الدرقاوي وعدم شدته مع بحارة الريف الذين سنرى بعد دورهم زمن المولى عبد الرحمن كما عرف مركز المغرب كذلك في الحرب التي حصلت بين بريطانيا وفرنسا 1808–14م وهي التي انضم فيها البرتغاليون ورجال العصابات الاسبان إلى الأنجليز، ضد الفرنسيين في شبه جزيرة إيبيريا، حيث رفض البرتغاليون الإذعان لنابليون في تنفيذ النظام القاري الذي سينسلخ منه عام 1811م، فاحتل الجنود الفرنسيون البرتغال بمساعدة إسبانيا، وذلك بمقتضى إتفاقية سرية في أكتوبر 1807م، وفيها إنتهز نابليون فرصة وجوده بالجزيرة وقيام فتنة 1808م التي دبرت لخلع الملك شارل 4 وتولية ولده فرديناند 7، واحتل مدريد وبعض مدن إسبانية أخرى ثم قمع الثورة التي قامت وأغرى كلا من شارل 4 وولى عهده فرديناند 7 بالذهاب الى مدينة "بابون" بفرنسا حيث أكرههما على التنازل عن العرش، ونودى بأخي نابليون جوزيف بونابارت ملكا على إسبانيا في 1808/6/15م ثم نصب يوم 7/10، وجوزيف هذا هو الذي عرض على المولى سليمان آسترجاع، مدينتي سبتة ومليلية مقابل الإعتراف به ملكا على إسبانيا وما كان له أن يفعل الا بمشورة أخيه نابليون الذي أرسل إلى المولى سليمان، لكن المولى سليمان وقد عرفنا إدراكه للأوضاع في المنطقة كما أشرنا، لم يقبل العرض الذي لم يكن محققا أولا بقدر ما كان فجا مرتجلا، وثانيا حتى لا يحسب عليه أنه طعن من الخلف وبيد مستعارة، ناهيك وأن الشعبين الكاثولكيين لا يستسيغان وقتها تعاون حاكم أحدهما على الآخر، مع المسلمين رغم ما فعله نابليون

بالبابا بيوس السابع، الأمر الذي حول عنه الإكليروس الكاثوليكي، وجعل أتقياء الكاثوليك مستائين ومتذمرين في كل مكان، ناهيك وأن حرب الأنجليز ضد الفرنسيين في إسبانيا جعل بونابرت نفسه يقود 180.000 جندي ليدخل بهم مدريد في 1808/12/8 حيث جمع الأعيان من أجل أن يقسموا يمين الولاء لأخيه جوزيف، ثم أمر بإلغاء التكاليف الباقية من عهد مجالس التفتيش، وأغلق ثلثي أديرة الرهبان، الخ بل تحركات الاسبانيين ظهرت ضد الفرنسيين في كل قرية ومدينة، وما كان الفرنسيون يلاقونه من عنف ومقاومة وكراهية من الاسبانيين مؤيدين بالانجليز الى درجة أن حرب الفرنسيين للاسبان كلفت الفرنسيين 300.000 قتيل قضى عليهم الاسبانيون بحرب العصابات التي نظموها في مختلف الجهات، كما أنهم كانوا يعاملون أسراهم من الفرنسيين بالشدة والقسوة، حتى إنهم كانوا إذا وقع أسير فرنسي في أيديهم وضعوه بين الواح من الخشب ثم نشروه بالمنشار مع تلك الألواح، أو يعذبونه تعذيبا فظيعا ثم يقتلونه بصورة تقشعر منها الأبدان.

كل هذه الحقائق كان يتردد صداها في المغرب الذي لم تنقطع المواصلات بينه وبين إسبانيا، والتي كان المولى سليمان على علم بها وبتهور وغزو نابليون وصدى تصرفاته التي كان الانجليزيون يعرفون كيف يبلغونها إلى المغاربة وغير المغاربة بعدما يضيفون لها من البهارات ما يجعل رائحتها تفوح فتزكم. خصوصا بعدما أحرق الأسطول الأنجليزي جميع السفن الفرنسية التي كانت راسية في مرفأ "روشفور" بتاريخ أفريل1809.

وكل ذلك كان يزري بالفرنسيين في نظر المغاربة ويخدم العلاقة مع الانجليزيين الذين كان المغاربة إقتصاديا لهم إتصال كبير عن طريق جبل طارق الذي أصبح وقتها صلة الوصل بين المغرب وأوروبا أكثر من غيره من مدن غرب إسبانيا.

بل إن المولى سليمان في هذه المرحلة ترك التجارة في المغرب تنشط مع الانجليز الذين حاولوا حصار سبتة، وتبودلت المراسلات بينهم وبين السلطان وعامله على طنجة وقتها، عبد الله بن عبد الملك، بل آستورد السلطان من الانجليز آثنى عشر مدفعا من النحاس زنة 18 رطلا مع كل واحد مائتا طلقة، وكذا عربة بعجلتين مغطاة ومزخرفة

بالنحاس المموه بالذهب(320)، كما تدخل القنصل الانجليزي العام لدى وزير الحرب اللورد، ليفربول حتى يجعل حدا للتصرفات غير السليمة التي كانت تصدر عن بعض السفن الحربية، ويقصد منها المعاكسة لغير المغرب، فكانت تقع على سفن المغرب بل تمكنت العلاقة بين المغرب والأنجليز إلى درجة دفعت الملك جورج 3 أن يعترف كتابيا وبأسلوب طيب للمولى سليمان بالجميل الذي قدمه هذا الأخير للجنود الأنجليز أثناء حربهم في شبه جزيرة إيبيريا، حيث أمدهم بـ 30.000 قنطار من الحبوب مكنت للصداقة بين البلدين على حد تعبير الملك جورج، والتي من علامتها رحلة ولى العهد إبراهيم بن سليمان إلى الاسكندرية في طريقه إلى الحجاز ذهابا وإيابا بحراسة الطرادة الانجليزية التي قادها الكابتن باجوت من الإسكندرية إلى طنجة سنة 1227هـ ماي 1812م ولم تتأثر تلك العلاقة حتى عندما تطاول حاكم جبل طارق "جورج دون" على مخلفات قنصل المغرب بجبل طارق أحمد بن عمر بجة الذي توفي بالجبل 1237هـ يناير 1821م دون وريث وقد خلف تركة بلغت أربعين ألف جنيه ودون وصية، وحسب الشريعة الاسلامية ترجع إلى السلطان، بيد أن القانون في الأراضي الأنجليزية كذلك يردها إلى ملك الأنجليز، وقد حصل من أجل ذلك خلاف كبير، لكن المولى سليمان تلافاه، وإذا هو أثير في عهد المولى عبد الرحمن، فإن القضية سويت على حساب المغرب، وتلك صورة من صور الفساد السياسي والإداري المعروف في كل زمان(321) ومكان، ولعل ما عرفه عصرنا لم يعرف في تاريخ المغرب قط، وذلك بعض ما تناولناه في كتاب "المغرب والضلال" وغيره من الكتب المصادرة لنا عام1968م(322).

لقد كانت سياسة المولى سليمان إزاء الاسبان جد حكيمة ، لم تخلق من التوتر ما كان الفرنسيون يودون وجوده بين المغرب والانجليز بل العكس، ولقد ظهر نضج تلك السياسة عندما قام الاسبان والبرتغال بثورتهم التي إضطرت جوزيف بونابارت إلى مغادرة البلاد طريدا يوم 1-9-1808م /1223هـ كما رد الفرنسيون عن سارا جوسا،

---

(320) بقيت هذه العربة بمدينة مراكش وفي القصر الملكي الى عهد الاستقلال ولم أدر ما فعل الجهل والتخريب بها وبغيرها من الآثار الهائلة ومنها المنبر المشهور الذي كان بقصر البديع بقي هو الآخر إلى عام 1959.

(321) راجع تاريخ الدهور ص419 و ت ع لروجرز 176-178. والروضة السليمانية م خ نا ص29.

(322) راجع التاريخ المفترى عليه في المغرب للمؤلف ص218 ط1969.

ونزلت قوة أنجليزية بقيادة ولنجتون لمساعدة الثوار البرتغاليين، وهزمت إجبوتني جونو، في موقعة فيمبيرو يوم 21-9-1808م/1223هـ، فسلم جونو لشبونة، ووافق على إجلاء جنوده عن البرتغال وإعادتهم إلى فرنسا "إتفاقية سينترا" وغزا السيرجون مور إسبانيا، فسارع نابليون بنفسه إلى إسبانيا يقود حملة من مائتي ألف مقاتل حيث دخل مدريد يوم3/12/1808م/1223هـ وأمر المارشال صول بمطاردة مور الذي أكرهته هزيمته في كورنا على الإبحار بجنوده من إسبانيا، ولكن ولنجتن أو الدوق الحديدي كما كانوا يطلقون عليه لأنه كان صارما في تطبيق النظم العسكرية والذي قاد قوات مؤلفة من30 ألف جندي إنجليزي و40 ألف برتغالي أحرز عدة أنتصارات في أفريل 1809م أقصت الفرنسيين من أراضي البرتغال وصد هجومهم في بوساكو عام 1810م/1225هـ وحال دون إنضمام قوات صول إلى جيش ماسينا 1811م/1226هـ وهزم ولنجتن -الذي صار القائد الأعلى لقوات الملك، كلا من جوزيف بونابارت، والمارشال جوردان، هزيمة محقرة في فيتوريا 1813م/1228هـ وغزا فرنسا ووصل إلي تولوز يوم 13-4-1814م/1280هـ وهناك بلغته أنباء تنازل نابليون يوم 22 يونيه بعد هزيمة الفرنسيين في معركة واترلو يوم 18 يونيه 1815م بجنوب بلجيكا، وبذلك أنتهت حرب شبه الجزيرة والتي لو لم تكن نهايتها كما رأينا وكان النصر فيها للفرنسيين لعرف المغرب رد الفعل العنيف بسبب رفضه الاعتراف بجوزيف.

لقد زالت هيبة فرنسا بل سقطت وارتفعت هيبة بريطانيا في المنطقة وانتهى عهد نابليون بانتصاراته الباهتة دون أن ينزلق المغرب في الفخ الذهبي الذي نصب له من المتربصين به وبأسطوله، ورغم ذلك استمر المولى سليمان مصرا على تفكيره وتدبير كيفية تسريح الأسطول. وكان ما يجد كل يوم من أحداث، وما تعرفه علاقة الأوربيين فيما بينهم من تطور نحو القضاء على كل المشاكل الحاصلة بينهم(323) مما يؤيد تجاه المولى سليمان للحيلولة دون أية مواجهة للمغرب مع الأوربيين الذين جمع بينهم وقتها حماس الاتفاقات وما حققواه من نصر على طغيان نابليون الذين كان بمثابة مدرسة تعلمت منها كل دول

(323) حصلت مابين 1812 - 1815م عدة معاهدات أوروبية لتسوية المشاكل بين الدول ، منها: معاهدة «أبو» : حصلت بها السويد على حق الاستيلاء على النرويج جزاء مساعدتها الحلفاء ضد نابليون، وفي كليش فبراير 1813 تعهد القيصر بأن تمتد حدود بروسيا إلى ما كانت عليه سنة 1806م وفي تبلتز سبتمبر 1813م ردت النمسا أملاكها التي كانت سنة 1805م وأن يحل أتحاد الرين ويعود الأمراء إلى التمتع باستقلالهم، وفي معاهدة ريد أكتوبر 1813م حصل ملك باڤاريا علي حق أستبقاء كل ما أخده من الأراضي على يد نابليون، ماعدا التيرول والمقاطعات =

أوربا التي تفتحت مداركها بعده على طرق الاستعمار وكيفية تحقيقه، ولم يبق الا أن تخطط للاتفاق على حل المشاكل وتوزيع الاسلاب داخل القارة الاوروبية، فكانت البداية مؤتمر فينا الذي آنعقد يوم 1-11-1814م/1229هـ والذي تبعته مؤتمرات ومؤتمرات إقليمية ودولية، بحيث حاول مؤتمر فينا إعادة الأصنام المكسورة إلى أماكنها على حد قول أحدهم، وذلك بعودة الملوك الذين لم يرضهم غير روح الاستبداد، رغم أن المؤتمر قرر سيادة الشعوب، وعدم شرعية ما كان يعرف بالحق الإلاهي، لكن هذا لم يرض الملوك الذين ألفوا الحكم المطلق، فكانت محاولاتهم السبب في الانقلابات السياسية التي عرفتها مختلف الأقطار التي حدث معظمها في العقود التي تلت مؤتمر فينا الذي كان مؤتمرا للملوك الذين يمثلهم بحق شارل العاشر 1824-1830 من آل بوربون الذي قيل في حقه القولة المشهورة "لا يتعلم البوربوني شيئا ولا ينسى شيئا" وبالتالي فإن كل الذين أعيدوا لعروشهم من الملوك عادوا إلى عاداتهم القديمة التي ما كانت لتزول إلا بزوالهم والقضاء على كل آثارهم فكان للشعوب الأوروبية مؤتمراتها المتتالية 1820-1830-1848. وهي المؤتمرات التي كانت رد فعل لما قام به الوزير النمسوي الأمير "مترنيخ" الذي تزعم الدعوة من أجل العودة بالحكم إلى ما قررته المسيحية بحيث أثرت دعوة ما بين 1815-1848، فكان من نتيجتها المعاهدة المعروفة بالتحالف المقدس الذي كان من أعضائه روسيا والنمسا، وبروسيا، وقد كانت أهدافه المزعومة المحافظة على الدين والسلام والنظام، حسب تعاليم المسيح، وكذا رعاية حقوق الشعوب والعمل لصالحها، لكن شيئا من ذلك لم يتم، وكان ما سنتعرف على بعضه بعد، من ثورات كانت في مقدمتها تلك التي قامت بفرنسا 1830م "راجع التاريخ العام لفيليب فان ص416-419 مصدر سابق.

= النمسوية الواقعة علي نهر « المان» وفي معاهدة شومنت « مارس 1-1814م» تقرر أن تسترد الولايات الألمانية أستقلالها، ولكنها ترتبط باتحاد عام فيما بينها وفي معاهدة باريز « مايو 1814م» تقرر أن تستولي النمسا علي البندقية ولومبارديا تلحق جينوة ببيدمنت، ويستعيد باقي الأمراء الإيطاليين استقلالهم القديم، وأن يعتبر باستقلال سويسرا وأن تعود هولاندا تحت حكم أسرة أرانج، وتضاف إليها الأراضي الواقعة بين حدود فرنسا الجديدة والرين، وأن تعيد إليها إنجلترا مستعمراتها، على أن تستبقى مستعمرة الرأس نظير مبلغ من المال تدفعه لهولاندا، وكذلك تستبقى جزيرة مالطة، وفي معاهدة كيل يناير 1814م التي أبرمت علي إثر غزوة أملاك الدانمارك، ونزلت هذه المملكة عن النرويج مقابل التخلي لها عن « لونبرج» واستبقت بريطانيا هيلجولند والأسطول الذي أخذته من الدانمارك إلخ ت ق 19 لمحمد قاسم، وحسني حسين ص : 83 ط دار الكتب المصرية1924.

الفصل السادس والأربعون بعد المائة

اسطول الجزائر في مؤتمر ڤينا
وبداية متاعب المغرب الكبير

لقد كان من جملة إهتمامات مؤتمر ڤينا واقع دول المغرب الكبير وسياستها الاقتصادية، وأحوال أساطيلها، وعلاقة الأساطيل مع غيرها من أساطيل أوروبا، ولربما لم يكن الحديث حول المغرب وقتها بنفس الشدة والعنف اللذين كانا حول الجزائر، لأن المغرب كان يعيش مأساة الجفاف والجراد وانعدام المحصول، وهو على غير عادته يستورد ولا يصدر، بل هو في تلك الأثناء سوق لجميع البضائع الأوربية حتى الفاسدة منها، وبأغلى ثمن، وبعملة الذهب والفضة التي كان يسيل لها لعاب اليهود والأوربيين، حيث كان المغاربة يموتون جوعا كل يوم بالعشرات ومن أجل ذلك وكما أشرنا قبل أطلق المولى سليمان سراح الأسارى من الأوربيين الذين كانوا بالمغرب حتى لا يتعرضوا لما يتعرض له المغاربة، فيكون ذلك سببا وذريعة للصدام مع المغرب وأسطوله المثير، كما سيحصل مع الجزائر، ومما تناوله مؤتمر فينا كذلك إلى جانب القرصنة، حرية التجارة وتحرير العبيد من الأوربيين الذين كانوا يوجدون بأعداد كبيرة في أوروبا، وفي أقطار المغرب خصوصا الجزائر أولا، والمغرب بعدها، والذين كانت سوقهم رائجة يستعملون في خدمة المنازل والفلاحة وتجديف السفن وغير ذلك ، كما كان كثير منهم في السجون ينتظرون الفدية من ذويهم أو من حكومات بلادهم، وكان الصراع الذي إحتد بين الإسلام والمسيحية وقتها في هذه المنطقة زمنا، قد فعل مفعوله قبل، وفي هذه المرحلة، تحت تأثير فرسان مالطة وماكان بين الجانبين من مطاردات(4-32) في البحر أدت إلى إغراق أسواق

(4-23) كان لأسطول الجزائر جولات في حوض الأبيض المتوسط وعلى شواطئ أوربا، عرفت جلب الرقيق من إسبانيا وفي إيطاليا، وكورسيكا، وهولندا وغيرها، وكان لهم تأثير ظاهر على الاقتصاد الجزائري الذي سيتأثر عندما يتفق على تحرير الرقيق الأبيض، وبزعامة السير سيدني بعد، والذي أسس جمعية فرسان تحرير الأسارى في أقطار المغرب - وهي الجمعية التي ذاع صيتها بأوروبا دفاعا عن الإنسانية، وتقول الرواية إن الكاتب الفرنسي الكبير شاتوبريان كان ضمن أعضاء هذه الجمعية.

المغرب الكبير بالرقيق، وفي مدينة الجزائر حيث حكم الأتراك، وطبقة المورسكوس التي أثرت وتمكنت ثرواتها، تكاثر عدد العبيد من الأوروبيين الذين كانوا يكتبون خلسة إلى أوطانهم بطريقة مثيرة بلغ تأثيرها إلى مؤتمر ڤينا، فأدى إلى تذمر المؤتمر(235)، وكان موضوع الجزائر وذكريات حروب الماضي أكثر حرارة، ذلك لأن لها مع أوروبا تاريخ طويل في هذا المجال، وفي جل المصارعات كانت تفوز بالنصر، حتى أصبح أسطولها يرعب جل الأساطيل قبل عهد البخار، وبذلك كثر الأسرى فيها بالأخص، فقد كانت الجزائر منذ عهد خير الدين وأخيه أوروج بل منذ فشل هجوم شارل الخامس على الجزائر سنة 948هـ 1541م بعد الانتصار الذي أدى به إلى الغرور في تونس كما سبق 942هـ 1535م زمن الحسن الحفصي، وكانت الحملة التي قادها الإمبراطور الاسباني معززا بأندري دوريا لغزو الجزائر تتألف من 12300 بحارا وجيشا بريا مكونا من 2400 جندي، وإذا هو قام بذلك بعد فشل الدون دي جوده فيرا 922هـ 1516م، والدون بوجوده منكاد 926هـ/ 1519م، فإن حظ الإمبراطور كان أسوأ، إذ نزل عند مصب نهر الحراش يوم 13/10/1514م حيث كدية الصابون المطلة على المدينة وقبل أن يوجه هجومه حصل نوء وعواصف كأنها الزلازل فتفرق الجنود وهم يصارعون الطبيعة التي لم يعرف لها مثيل في تلك القسوة التي أمرها الله بها في ذلك الوقت، وانقطعت المواصلات بين الجميع ودخل الرعب قلوبهم، حتى إنهم أخذوا يفرون إعتباطا، فقتل منهم ثمانية آلاف 8000 جندي، وسبيت لهم 15 سفينة حربية و140 سفينة نقل، ولاشك كانت هذه الذكريات التي تحتل الصدارة في تاريخ أوروبا، وشارل الخامس ، مما ورد في حديث المؤتمرين بفينا، حتى تتحرك المشاعر ويطغى الحماس، ولاشك أيضا أنهم كانوا يعلمون أنه منذ ذلك العهد بدأ جهاد الجزائريين في البحر، والذي نتج عنه من السبي ما أصبحت الأسواق به عامرة، لعل تاريخ أوروبا مهما حاول بعضهم طمس الحقائق لايستطيع إنكار أن المسلمين وشريعة الإسلام فرضت معاملة أولئك الأسارى، ومهما قيل عن القسوة في المعاملة فهي

(325) حضر عن روسيا القيصر ووزيره نسلرود، وعن بروسيا فردويك وليم ووزيراه هاردنبرج، وهمبولت، وعن النمسا فرنسيس الأول، ووزيره مترنيخ، وعن انجلترا لوردكاسلريه وولنجتن، وعن فرنسا تاليران الذي شارك بدعوى أن أوربا ماكانت تنازع نابليون، كما أرسلت بقية الدول الأوربية مندوبين عنها ماعدا تركيا راجع المصدر السابق.

أشرف مما كان الأوربيون يعاملون بها الأساري من المسلمين، فقد كان بعضهم يشتري الأسير المسلم لا ليشغله فيما يريد من الأعمال ومهما كانت شاقة بل ليتقرب بقتله إلى بعض المجرمين الذين قست قلوبهم من أثر توجيهات بعض رهبان الكنائس الباقية عن عهود التفتيش التي كانت من أثر الراهب الإسباني «ومينيكوس» في طليطلة 1216م، لكن ماذا عن الأساري وخصوصا في الجزائر والذين كانوا من إهتمامات مؤتمر فينا، بل وفي الجزائر التي كانت محور إتفاقهم بالذات، بل والتي ستكون أول بلاد الإسلام تستهدف للاستعمار في المغرب الكبير لأنها كانت بحكم ما عرف اسطولها من صولة أذلت الأوروبيين الحاقدين فمنذ حوالي منتصف القرن 18م كان الأسرى الأوربيين في الجزائر كمايلي: 1740م كان عددهم 1441 أسيرا، وفي سنة 1767م كان ع 2062 أسير وفي سنة 1769م. كان .ع 1800 أسير، وفي سنة 1813م، كان .ع 1669 أسير وفي سنة 1816 انتهوا إلى 1200(326).

وفعلا قرر مؤتمر ڤينا تحرير الرقيق الأبيض الذين تكلم باسمهم الأميرال السير سيدني سميث مطالبا بإلغاء القرصنة وتحرير الأوربيين في المغرب الكبير، واقترح سميث نفسه كقائد على رأس قوات تشارك فيها الدول الأوروبية للقيام بهذه المهمة وبحراسة الأبيض المتوسط، وماعسى أن يعرفه من نشاط البحارة المغاربة المسلمين ضد الأوربيين، ثم حمايتهم من المسلمين، بل المقاومة ضد الاتجار في الرقيق بما فيه الأسود قصد هدم إقتصاد المغرب الذي كانت الأعمال الفلاحية في بعض مناطقه تعتمد على الرق الأسود، إلى غير ذلك من الاقتراحات التي نالت الإجماع، بيد أن الغاية كانت غير ذلك، بل الدخول في تجربة الاستعمار والعمل بحقد لم يفصح عنه بعضهم لأنه مخالف لمبادئ الحرية والتحرر التي دعت إليه «الثورة» المتفق على أهدافها(327) كما أن دول أوروبا من وقتها إتجهت نحو سياسة المؤتمرات لحل مشاكلها والتمكين لارتباطاتها، خصوصا بعد الاتحاد الأوروبي، إذ عرفت مؤتمر لاشابل 1818م 1234هـ، وكانت خطته محاولة ضم فرنسا إلى

---

(326) راجع دائرة المعارف الإسلامية 6/419-20 وفيها أن سجون الجزائر في النصف الأول من ق 17 كانت تضم نحو 25000 و35000 من الأوروبيين كما يقول جرامادي.

(327) كان مؤتمر ڤينا هو المنطلق الأول للاستعمار الذي اتفق عليه بين دول أوروبا.

عصبة الحلفاء وسحب جيوش الإحتلال منها، ثم مؤتمر تروبا و1820م 1236هـ ومؤتمر ليباخ 1812م ومؤتمر فيرونا 1822م 1238هـ الخ.

وهكذا إذا ما قررت خطة مقاومة الوجود المغربي عموما بالبحر الأبيض المتوسط في مؤتمر ڤينا، فإن بريطانيا وجدتها فرصة عندما أسر مركب لها من طرف قوات البحر الجزائرية التي ربما تكون قد استدرجتها لذلك، والتي كان رؤساؤها لا يهتمون بالسياسة العامة التي هي من اختصاص الباب العالي حتى يتابعوا التحركات الأوروبية وما تم في مؤتمر ڤينا، وإنما كانت مهمتهم رعاية الشواطئ وحمايتها بضرب من يقتحمها بلا إذن، وذلك ما فعلوه مع السفن الانجليزية التي كان عليهم قبل ذلك أن يتدبروا الموقف وما يقتضيه من حيطة، لكن عمل داي الجزائر بحجزه للسفينة الأنجليزية أدى كذلك إلى القيام باستعراض عضلات الأسطول الأنجليزي في شواطئ شمال إفريقيا وموانئه، وكان القصد منه الإرهاب، ومثله فعل الأسطول الهولاندي بقيادة اللورد إكسيماروث، إلا أن هذا الأخير وقد رأينا كيف تم الاتفاق في المؤتمر ربما يكون قد تطوع بتنفيذ ما اتفق عليه، ولذلك نراه يتحرش بالجزائر حين يكتب للداي رسالة أورد بعضها صاحب تحفة الزائر(328)، يقول فيها الكاتب إنه لا يريد سفك الدماء ولا خراب البلاد «ولكن أطلب معاهدة مربوطة بشروط هي:

1) إطلاق الأسارى عموما من غير استثناء؟
2) إرجاع ما دفعته لكم سردينيا ونابولي في السابق عن أسراهم؟!
3) إبطال عادة الأسر بالكلية؟!
4) أن تكون هذه الشروط بعينها جارية بين حكومة الجزائر وباقي الدول؟!

---

(328) سنة 1815 والذي كان قبل سنة 1228 هـ 1813م قد استولى على كثير من مراكب الدانمارك، ثم فرض مليون ونصف فرنك سنويا على البرتغال، كما كان سلفه الرايس محمد سنة 1207هـ 1792م قد صادر للامريكيين حوالي 20 مركبا بسبب تأخرهم في دفع المفروض عليهم من أتاوة الأمان في البحر، إلى أن وقع الإتفاق على أداء مليونين ونصف أيام الداي بابا حسن راجع التحفة 114/1 ثم راجع تقويم المؤيد لعام 1322هـ ص : 85 - 90 وص 114 - 122 وقد سماه « اكسمون»، ثم راجع زامباور في الأسر الحاكمة 128/1 ط القاهرة 1951، بل وفي هذه السنة 1815م 1231 وجه الأمريكيون فرقة من بحريتهم لتهدد الداي حتى يتوقف عن المطالبة بالجزية السنوية التي كانت تدفعها له سنويا ، وفعلا ضرب الكوموندو الأمريكي سفينة الرايس حميد سنة 1815 م.

هكذا يظهر من هذه الشروط أنها غير واعية ولاهي ممن يقصد التفاهم لأنها لا تصدر إلا عن غالب منتصر بعد حرب، بيد أنها من جانب لم يكن قبل عنده من سبب يدفعه لذلك إلا ما كان مما قيل عنه الأسارى، وهؤلاء لم تكن تلك هي طريقة فك أسراهم وتخليصهم ، وإنما كانت العادة والتقاليد تقتضي الفدية أو التبادل، خصوصا وأنه بلاشك ثمة أسارى من الجزائريين في مختلف الدول الأوربية، لكن داي الجزائر عمر أغا 1230– 1232هـ 1814– 1816م لم يكن من العاجزين حين ضرب بشروط إكسيماوت عرض الحائط، بل أمر بإلقاء القبض على مجموعة من الصيادين الأوربيين كان الانجليز والهولانديون، قد دفعوا بهم تجربة وكرأس حربة للصيد في المياه الإقليمية بدون إذن، كما قبض على القنصل الأنجليزي حين رحل أسطول بلاده، ولم يكن الداي في هذا بالمصيب، وربما اندفع بسبب ما تكشف له بعد من اتفاق مسبق على التآمر ضد بلاده، ووقتها تولى اللورد إكسيماروت الهولاندي الذي عهد إليه بتحرير الأساري بمهمة ضرب مدينة الجزائر بالقنابل رغم أنها لم يكن بها من أسارى القرصنة وقتها غير 1200 أسير(329)، والذين كان في الإمكان التفاوض ولو لمدة أطول من أجل تسريحهم، لكن أسلوب الخطاب المفتعل كان مثيرا ومدبرا قبل بطريقة تحقق المتفق عليه بين المؤتمرين ضد الجزائريين ومدينتهم، ورغم أن التفاوض حصل في شهر شوال من سنة 1232هـ أوت 1816م فإنه لم يحقق شيئا ، ولربما تجاوز أثناءه القوم كل الحدود الى درجة التهديد والقوم علي أبواب المدينة مما دفع بالداي إلى إصدار الأوامر بضرب السفن الهولاندية التي ألحق بها أكبر الخسائر حيث أحرقت بمساعدة الرياح كما قتل من الهولانديين ثمان مائة 800، مما دفع بالانجليز إلى العودة بأسطولهم لقنبلة الجزائر بأربع وعشرين ألف قذيفة(24000) أضرت بالمدينة وأغرقت معظم الأسطول الجزائري، وهنا لم يكن أمام الداي عمر مفر من إطلاق سراح الإثنى عشر مائة من الأساري الأوروبيين الذين كانوا بالمدينة معظمهم من الاسبان والإيطاليين، مما عرضه لغضب الشعب عليه والفتك به ثم تنصيب على خوجة من ذي القعدي 1232

(329) هذا في الوقت الذي كان أكثر من ذلك بكثير من المسلمين المغاربة والجزائريين وغيرهم في أقطار وسجون أوروبا، وإذا لم تكن لدينا إحصائية عامة لنقس على ماكان سنة 1200هـ785م فقد كان بها من الأسارى المسلمين حوالي 48000 وزيادة ، راجع الأعلام للمراكشي 129/5 ط فاس 1937م.

إلى جمادى الأولى1233هـ 1816– 1817م حيث تولى مكانه حسين داي، رغم صرامته فإن الوقت كان في غير صالح الجزائر وأسطولها، بل وأسطول المغرب كذلك، حسب مقررات مؤتمر لندن أيضا 1816م.

هذا ماعرفته الجزائر ظلما وعدوانا ودون سابق إنذار بعد مؤتمر ڤينا، وقد كان المغرب يعرف مثل ذلك أو أشد لولا سياسة الإتزان والمرونة التي عرف بها عهد المولى محمد بن عبد الله وخلفه المولى سليمان الذي كان بحق يتمتع ببطانة جلها من أعلام المغرب في مجال المعرفة.

وهكذا أفلا يحق للمولى سليمان وقتها تجميد أسطول المغرب أمام هذه التحركات والتحرشات التي ظهرت في أوروبا بل والتي أخذت توحد صفوفها في الوقت الذي بدأت تتمزق فيه صفوف المسلمين ودولتهم العظمى شرقا، وهي دولة آل عثمان التي تطاول عليها والي مصر القولي محمد على بتدبير أوروبي كذلك بفصله مصر عن الباب العالي، بل زاد وبخيانة حين أراد لطرابلس وتونس والجزائر أن تفصل كذلك فوجه نابليون لاحتلال الجزائر.

حين أقدم المولى سليمان على اختيار العزلة في وقت لم يعد فيه مجال لتلك العزلة، لم يكن له اختيار أمام ماجد من تيار التجديد، وما عرفت أوربا من الإنطلاق الالي والتجاري، وذلك في الوقت الذي عرف المغرب أيضا أزمات إقتصادية حادة، ساهمت في خلقها والتمكين لها أحوال الطبيعة، حيث دام الجفاف والجراد والوباء مدة سبع سنوات من 1225 إلى 1232هـ/1810– 1816م، بل عاد الوباء «الكوليرا» سنة 1234هـ 1818م وفي هذه السنة أيضا عرفت البلاد فتنة عظيمة وحربا طاحنة، لولا روح الدين لراح ضحيتها السلطان نفسه، ذلك أن قبائل آيت أمالو بالأطلس المتوسط أعلنت عصيانها ضد تصرفات حاشية السلطان، وأتخذت لذلك وسيلة هي ثورة قبيلة آيت شخمان من آيت يسرى وإشقيرن التي تجمعت حولها قبائل المنطقة بشكل لم يكن منتظرا، مؤيدة لها في مطلبها الذي كان يتمثل في رفضها تولية أحد عليها من غير أبنائها، وحفظا لكرامة الدولة أعلن السلطان عليها الحرب بالاستنفار العام، لكنه تعرض للهزيمة حتى بقي وحده في خيمة ثم جرده اللصوص من ثيابه ولم يتركوا له غير قميص كما فعلوا مثل ذلك مع

الجلالي ولد محمد الصغير الذي تخلف معه بعدما قتل ولد السلطان وهو إبراهيم(330) ولي العهد وفر الجيش ولم يبق معه أحد. ولما دخل عليه كبار القبائل وليس معه إلا الجلالي ولد محمد الصغير جدّدوا بيعتهم للسلطان وأبدوا عذرهم وآراءهم في تصرفات حاشيته الحربية، ثم حملوه منصورا إلى مكناس وفاس التي كان أهلها عندما علموا بالهزيمة أعلنوا خروجهم عليه حتى يتخلصوا من الدين والقرض الذي كان قدمه لهم من بيت المال قبل خروجه لتلك الحرب وهو 250.000 ريال لمدة سنة(331) وكان الدافع لهم رجل إئتمن على مال كثير ذكر اسمه المؤرخون لكنه عاد منصورا ومؤيدا بسلاح القوم الذين هزموه وقتلوا ولده، لا عن قصد وسابق إصرار وإنما دفاعا عن النفس وضد التصرف الذي إندفع إليه السلطان وهو لا يعلم الحقيقة والواقع، كما قامت ثورة ضد الودايا وجموحها يوم الثلاثاء 30 رمضاء 1235هـ/ 1819م وهي التي راح ضحيتها يهود ملاح فاس وغيرهم من أهل فاس، مما انتهى إلى شبه استقلال المدينة التي تولى الحكم فيها ثلاثة من رجالها بسبب تزوير المفتي ابن إبراهيم في رسالة السلطان التي أمر فيها أهل فاس أن يحالفوا البربر كي يدافعوا عن مدينتهم ضد الودايا.

أما أهل فاس الذين أوقدوها فتنة حين بايعوا أخاه ثم ابن أخيه بدافع مادي صرف فإنه عاد لا لينتقم منهم رغم ما فعلوه بولده علي من مضايقات، بل ليسامح ويعفو،

---

(330) كان ذلك يوم 27 شعبان 1234هـ 1818م راجع تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء، وأيضا كتب الزياني: البستان ، والروضة ، السليمانية، والترجمات المعرب، وغيرها.

(331) راجع تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء م خ ع. 241ص 190، وكتابنا التاريخ المفترى عليه في المغرب ط 1969، فقد بايع أهل فاس إبراهيم بن اليزيد الذي كان وقتها ساكنا بحومة الطالعة من مدينة فاس يوم 9 صفر 1236هـ = 1820/11/4م راجع الوثيقة التي كتبها عبد الواحد السودي بالخزانة الملكية ضمن مجموعة رقم 3772 فهرس جـ 410/1، ولقد وقع الناسخ للروضة السليمانية في خطإ حين أرخ لذلك ب 20 محرم 1236 راجع ص 351م خ ع 257ك

ثم اشترطوا عليه عدم مطالبتهم بالمبلغ المقترض، ولما توفي إبراهيم بايعوا أخاه السعيد، وليس هذا فحسب مما ظهر من المشاكل في آخر عهد المولى سليمان فثمة مشكل أهل تلمسان، ودر قاوة، في عهد العربي الدرقاوي الزروالي وخروج التلمسانيين على حكامهم الأتراك الذين أهملوا بلادهم، كما سنرى وإبراهيم بن اليزيد هذا هو الذي صادر ما كان بدار «المرايا» بزقاق الماء من فاس والتي كان بها أحمد التجاني المتوفى 1233هـ وربما لم يفعل الإبتوجيه من بعض العلماء السلفيين وقتها والذين استنكروا دجل التجانية والتجانيين خصوصا وأن الاتصال بأفكار محمد بن عبد الوهاب كان قد حصل في تونس والمغرب.

لأن المغرب وقتها كان في ضيق مادي ومعنوي، وكان الناس في مجاعة استلزمت استيراد مائتين وخمسين ألف قنطار(250,000) من القمح، بأسعار غير معقولة، بلغت في مجموعها سبعة ملايين فرنك، هربت مقابلها عملة المغرب الذهبية، والفضية، بواسطة اليهود وعملائهم بشكل فظيع ظهرت نتائجه فيما بعد، كما وأن المولي سليمان بسبب تلك الأحوال منع بعد تصدير الصوف والزيوت والمواشي، ثم فرض على الواردات حماية للاقتصاد، ضريبة 50٪ لكنها عادت بغير ما توقع بل إهتز اقتصاد المغرب الذي ازداد بمنع المغاربة من الخروج والاتصال بالعالم الخارجي، ولم يكن هذا المنع مشددا في حق اليهود بقدر ما كان في حق المسلمين، مما أدى إلى مضاعفات عرفت نتائجها الضارة، لا في عهد المولى سليمان فحسب، بل وفي عهد خلفه المولى عبد الرحمن ثم محمد بن عبد الرحمن وأكثر في عهد الأول الذي عرف سيلا من المعاهدات بعد مرور سنتين على تنصيبه، ومع مختلف دول أوروبا، وكلها لفائدة الأطراف الأخرى كما سنرى، بل إن اليهود الذين لم يشدد عليهم وجدوها فرصة أكثر لتهريب الأموال حتى عرف المغرب عند المحترفين أنه مخزن القطع الذهبية والفضية ذات الوزن الثقيل التي كانت تستوجب المغامرة وعمل كل شيء من أجل الحصول عليها، لكن السبق كان لليهود الذين اتخذوا جبل طارق مصدر حمايتهم وموضع مخازنهم التي تحولت بعد إلى بنك يهودي بنفس الجبل، كان له أخطر الأثر على اقتصاد المغرب وسياسته بعد ، ومثل هذا حصل من اليهود بتواطؤ مع بعض المتمغربين في السنوات الأولى لعهد الاستقلال وربما ستجد لذلك تفصيلا في مذكرات الشعب المفترى عليه إذا قدر لها أن تنشر.

في هذه المرحلة وفي جو هذه الظروف اختار المولى سليمان للمغرب عزلته السياسية، وحل الاسطول، وكيف وقد رأى وعاش تلك الحوادث والحروب الطاحنة التي حصلت بين الأقارب وأبناء الملة الواحدة والدين الواحد، وقت سيطرة روح الدين على النفوس في أوربا، فكيف لو حصل مايؤدي لذلك وقتها مع المغرب الذي كانت أوربا كلها تبحث عن طريق يخلصها منه ومن متاعبه، ولو بتقديم المنطقة هدية لصاحبة النفوذ الأكبر فيها وقتها وهي بريطانيا ذات الفضل على الأحلاف التي حررت أوربا من غلواء فرنسا

بل إن إختيار المولى سليمان الذي سبق بقطع حد الأجانب مدينة طنجة(332) بدلا من خطة والده الذي كان إختار تطوان، كان هادفا إلى الصيانة، بل حتى الذين كانوا يتاجرون مع الموانئ منهم، كانوا يقومون بذلك في النهار وفي الليل يعودون إلى مراكبهم بالبحر، بل إن الاسبان الذين حاولوا غير ذلك بمقتضى معاهدة 1214هـ فاتح مارس 1799م تعرض نائب قنصلهم للقتل ، وتلكم هي العوامل التي دفعت بالعالم السلفي السلطان المولى سليمان إلى حل الأسطول الذي لم يعد في مقدوره مواجهة التيار وتسريح الأسارى، حتى لا تحصل التعرية والكشف، فيتعرض المغرب لأخطر الكوارث، لقد تصرف كما رأينا قبل وهو يعلم أنه لو أثار قضية سبتة ومليلية أيام طلب منه الاعتراف بأخي نابليون ملكا على بلاد الاسبان مقابل استرجاعهما فلم يفعل، لانه قدّر ما قدر وقد حصل، ولو فعل لأعطى بذلك فرصة الدفع بالمنتصرين بعد إلى الانتقام الأعنف، خصوصا، وأن قوة نابليون وغطرسته التي ضجت منها أوربا، كانت ببلادهم، بل لو حصل لما أمكن للأنجليز أن يقفوا ذلك الموقف الذي هو في الحقيقة من أجل مصالحهم التي إذا ماعورضت لا يعرفون التراجع ولو كان في ذلك دمار غيرهم، وقد فعلوا ذلك مع أساطيل البحرين، وعمان وزنجبار، فما المانع مع المغرب الذي أصبح معروفا حتى في الأدب الانجليزي من خلال مذكرات أسراهم وذكرياتهم المريرة وعلاقتهم بالبحارة المغاربة الذين بلغ عدد العطاويين فقط بينهم خمسمائة(333) استقدمهم الزياني بأمر إلى طنجة ومنها إلى جبل طارق ليتدربوا على سلاح البحر زمن السلطان محمد بن عبد الله – وبلاشك أنه من أمثالهم قبل استمد شكسبير 1564 – 1616م قصة «عطيل» كما قال بعضهم لأنهم كانوا يترددون على شواطئ بلاده وقتها منذ عهد الوطاسيين والسعديين ومنهم من استعيد بواسطة القرصنة.

إن بعضهم ليقول إن الأسطول المغربي وقتها كان يتوفر على سبع وأربعين قطعة كلها مجهزة بالمدافع والمعدات الكافية للعمل في مجال البحر، بما كان فيها من الجنود

---

(332) كانت أول قنصلية أجنبية بالمغرب هي القنصلية الأمريكية سنة 1820م 1235هـ.

(333) راجع البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف للزياني م خ ع 1577. فقد أرسلهم السلطان محمد بن عبد الله من أجل أن يتكونوا في علوم البحر.

البالغ عددهم ستة آلاف، وما كان على المولى سليمان أن يترك الشواطئ عارية وقتها، لكن الذي يقول ذلك عليه أن يراجع تاريخ أوربا في سنة 1232هـ 1816م، وما بعدها إلى سنة 1827م يوم هوجمت الجزائر بلاحق، وكيف تم ذلك الهجوم رغم ما كانت فرنسا تعانيه من تمزيق في الداخل زمن لويس الثامن عشر، ثم شارل العاشر الذي تم الهجوم بأمر منه.

ومهما يكن فإن التيار الخارجي وقتها، والذي كان في كل الاتجاهات لا يعرف استقرارا في أوروبا قاطبة، بل وفي الدولة المجاورة، والتي لها حساب مع المغرب في الماضي القريب والبعيد، ولم يكن في مقدور المغرب أن يواجهه ولا أن ينشغل به، لأن مده كان جارفا لا يقاوم، وذلك ما حصل منذ بداية القرن 19م، وبه انشغل السلاطين الذين بذلوا جهدا لاينكر دفاعا عن الحق وتمكينا للذاتية المغربية التي صارعوا من أجلها إلى عهد الحماية كما سنرى، ورغم ما تخلل هذه المرحلة من فساد الحاشية وسوء التسيير.

انتهى عهد المولي سليمان الذي حل مكانه وبعهد منه ابن أخيه المولي عبد الرحمن بن هشام يوم وفاة الأول في منتصف ربيع الثاني 1238هـ/1822م وكان سن السلطان الجديد 32 سنة فهو من مواليد شهر ربيع الأول 1206هذ/1791م، وماكاد يباشر ما يتصل بالجيش والأسطول حتى وجد من الوطنيين المتحمسين من يزين له العودة به إلى ماكان عليه من نشاط في البحر، خصوصا وأن إطاراته رغم تجميده لا تزال قائمة ومستعدة لاسترجاع نشاطها في زمن قصير، وفعلا عاد إلى جولاته ببعض القطع، فاختارت فرنسا وهي التي كانت وقتها تدبر ماتدبر، أن تبرم معاهدة تنويم مع المغرب وقعت يوم1824/3/27م، وثانية بعد سنة يوم 1825/2/28م، وظاهريا أخذت السياسة والتجارة الخارجية تسترجعان بعض اعتبارهما شكلا، كما أصبحت في الشواطئ حراسة كانت قد انعدمت، وإذا كان ذلك لم يرض دول غرب أوروبا فإنها لم تبادر بمثل ما فعل الأنجليز قبل في الجزائر إلا لكون الاتفاق تم على ذلك ونفذه الانجليز، بعد وجود سبب، أما في المغرب من يتزعم إذا لم يكن الانجليز الذين هم أحق بالشفعة بحكم الجوار مادام الأسبان لاقدرة لهم لكن الانجليز ماكانوا ليفعلوا وهم على إتفاق أكثر مع المغرب المفتوح لتجارتهم بما فوق العادة، ولربما كان هذا مما أثار على المغرب عداوات الفرنسيين

والألمان أكثر كذلك، وفي سنة 1243هـ 1827م إصطادت سفن المغرب سفنا تجارية نمساوية اقتحمت(334) الحما واخترقت المياه الإقليمية دون ترخيص حسب الشروط التي تربط المغرب بالدول الأخرى، وكأنها متحرشة، فأخذت أسيرة إلى العرائش وطنجة، ووقتها قامت قائمة النمسا التي سبق لها القيام بمثل هذا الدور سنة 1815م، وهي السنة التي انعقد فيها مؤتمر ڤينا، وكان إدعاؤها على المغرب من جملة المواضيع التي تناولها المؤتمر(335)، وفي هذه المرة كذلك قامت النمسا بضجة مفتعلة ضد المغرب الذي أصبح بحمايته لشواطئه يهدد الوجود الأوربي في المنطقة، وحتى يشعرهم الأنجليز أنه موجود في المنطقة، قام أسطولهم باستعراض ثم حاصر طنجة، أما النمسا فقد وجهت خمس سفن تحمل خمسمائة جندي تحميهم المدافع إلى مدينة العرائش التي هاجمتها ثم عثت في البر وما كان بميناء المدينة من سفن، لكن الجنود النمساويين أخيرا لاقوا حتفهم إلا قليلا منهم وقع في الأسر، وبعد عقد الصلح مع النمساويين تدخل فيه الأنجليز الذين كانوا يراقبون تحركات فرنسا وقتها في الجزائر، تلك التحركات التي تحولت من حرب إلى محاصرة دامت ثلاث سنوات ثم تحولت إلى إحتلال كما سنرى، كما تأزم الوضع بين الإسبان والمغرب سنة 1245هـ 1829م، ثم مع فرنسا بسبب تلمسان 1246هـ 1830–1832م، وهنا أدرك المولى عبد الرحمان ما كان لسلفه من حكمة في تجميد الأسطول الذي لم يعد قادرا أمام ماجد من اتفاق أوربا وتطورها الآلي فما كان له إلا أن يفعل ما فعل سلفه.

---

(334) أقحم في الموضوع عبد الرحمن باركاش، وبريطل، وهما رئيسان من رؤساء البحر الرباطيين وقتها راجع الإتحاف لابن زيدان مصدر سابق.

(335) راجع موسوعة البستاني والموسوعة العربية ص 1770ط 1965... كانت المؤتمرات التي اجتمعت فيها دول أوروبا من أجل تعديل خريطتها إلى هذا العهد ثلاثة هي: مؤتمر وستفاليا 1648م بعد حروب الثلاثين سنة وفيها قررت حل جميع المشاكل التي كانت معلقة بينها، ثم «أوتريخت» 1713م ثم مؤتمر «ڤينا» إثر سقوط نابليون 1815م، وبعدها عرفت أوربا ثلاث مؤتمرات لتسوية مشكلاتها هي: مؤتمر باريس 1856 ومؤتمر برلين1878م، ثم مؤتمر ڤرساي 1919م كما سنرى بعد، ووقتها كانت قوة المغرب الكبير البحرية قد إنتهت إلى زوال، كما اتفقت أوروبا ضمنيا على خلق المتاعب للمغرب إنتقاما من ماضي « القراصين» الجهادي في البحر.

الفصل السابع والأربعون بعد المائة

الجزائر شعب ودولة

جزائر بني مزغنة بهذا الإسم أصبح يعرف المغرب الأوسط من تلمسان غربا إلى الحدود التونسية شرقا، ولقد عرفنا كيف كانت الجزائر قبل انفصالها عن المغرب الأقصى أيام الموحدين، ثم عرفناها أيام الحفصيين شرقا وبني عبد الواد غربا، ثم عرفناها أيام خير الدين وإخوته، وكيف كان لهذا الرجل أثره في التمكين للإسلام وقهر خصومه من الأسبان والبرتغال، ولولا سياسة الأتراك وقتها واهتمامهم بالمنطقة لكانت الأيام غير الأيام والناس غير الناس، ومهما يكن فمنذ مابعد خير الدين وبعد ما تولى ولده حسن(336) وهو من أم عربية جزائرية من وقتها أصبحت الدولة الجزائرية بأرضها ومقوماتها دولة ذات سيادة لها حكومة، وإدارة يسيرها وزراء، سواء في السياسة الخارجية أو الداخلية أو الحربية، كما كانت تتوفر على جهاز قضائي محكم وإداري أحكم، تحت إشراف الداي « خال » الذي كان صلة الوصل بينه وبين الحكومة هو «الباش كاتب » بمنزلة الكاتب العام.

كانت الحكومة الجزائرية تتكون من وزراء منهم وزير البحرية، والخارجية، والذي يطلق عليه «الأغا» كما كان يعرف وزير الداخلية باسم الخزنجي وهو الذي كان يشرف كذلك على المالية، ثم وزير لأملاك الدولة، كما كان هناك شيخ للإسلام على طريقة الأتراك يتولى شؤون القضاء حسب الشريعة الإسلامية، ومعه مجموعة من القضاة في مختلف المدن والقرى تحت إشرافه.

وما قيل قبل عن خضوع دولة الجزائر إلى سلطان آل عثمان فمنذ ما بعد خير

---

(336) تولى حسن أغا في ذي القعدة 939هـ 1532م وتوفي في ربيع الثاني 959هـ 1561م وذلك من قبل الباب العالي الذي نصب بعده 13 واليا باسم أغا من 950 إلى 990هـ ثم باشوات لمدة 3 أعوام من 995 إلى 1069هـ، ثم أغوات ومعهم الديوان إلى 1075 ثم ولاة بلقب داي إلى يوم سقوط الجزائر بتاريخ 13 محرم 1246هـ 1830م راجع معجم الأسر الحاكمة لزامباور جـ 1/127 – 129ط جامعة القاهرة 1951.

الدين تحول الوضع إلى علاقة روحية أكثر، وذلك لأن ظروف الجزائر وموقعها البعيد من الباب العالي جعلها غير قابلة للتسيير من إسطنبول، وذلك كان شأن تونس التي انتقلت هي الأخرى، ومما يؤيد ما سبق هو أنه كان للدولة الجزائرية عملتها الخاصة بها، والتي كانت وحدتها تعرف بـ : السلطاني ونصف السلطاني وربع السلطاني وهو من الذهب، والقرش، والريال، والموزونة، والصائمة.

كانت الجزائر من الوجهة الإدارية مقسمة إلى ولايات قسطنطينة شرقا، ومدية في الوسط، ووهران في الغرب، وكان لكل ولاية حاكم يطلق عليه اسم «بك» ينصبه الداي، معه قائدان عسكري ومدني، الأول مهمته الأمن والثاني مهمته جمع الخراج، أما القضاء الذي يشرف عليه شيخ الإسلام ثم قاضي القضاة، فإن سلطانه كان يمتد إلى عموم الولايات، وينصب عليها من القضاة ما يتفق وحاجة المواطنين، أما غير القضاء الشرعي فقد كان يباشره الأشياخ، كما كان هناك استئناف ونقض يشمل أحكام القضاة ، سواء في المسائل الشرعية أو المدنية أو الجنائية التي كانت تخضع في ربوع المغرب الكبير إلى الشريعة الإسلامية التي كان المواطنون يلجؤن إلى الأصح والأسلم من فتاوي العلماء والمختصين سواء كانوا داخل الوطن أو خارجه لأن تاريخ المغرب الكبير في المغرب وغير المغرب يتميز بصفة خاصة أنه كان في هذا المجال لايفرق بين علماء المسلمين حيثما كانوا وأينما وجدوا ، فكان طالب الفتوى للتأييد يلتمسها من فاس أو تونس ولا حرج، بل قيل إن السلطان إسماعيل استفتى علماء مصر في موضوع جمع عبيد الجيش كما سبق.

وبالتالي كانت الجزائر تتوفر على مجتمع إسلامي متقدم، له من الأصالة ما يحفظ التاريخ، مما عرفت به الجزائر سواء في مجال المعرفة حيث كانت مدارسها من تلمسان إلى بجاية وقسطنطينة وبونة ومازونة، وغيرها تزخر بكبار العلماء في مختلف العلوم والفنون من تفسير وفقه وفلسفة وطب وحساب ومنطق وأصول ونحو وصرف، وبلاغة وغيرها، وبنظرة خاطفة على تراجم علمائها(337) يتحقق المرء من حقيقة ما سبق، ويكفي

---

(337) راجع معجم كشف الظنون وأعلام الزركلي، ثم معجم المطبوعات الإسلامية والبستاني ووجدي ومعجم الجزائر لعادل نويهض ، ومعجم المؤرخين والمعيار والروض،،، الخ والتحفة المسكية في السفارة التركية لمحمد الجزولي التمكروتي ط حجر بدون تاريخ ص 139 وهي في عهد محمد الشيخ السعدي 967هـ والترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني ط 1967 تحقيق المؤلف.

القول أن فرنسا الاستعمارية بقيت بها أكثر من مائة وثلاثين سنة لم يمر منها يوم قط دون أن تستعمل وبوحشية فاجرة وعنف عنيف كل ما كان لديها من وسائل القهر والهدم، لكنها لم تحقق في شعب الجزائر المسلم، ولا في تراثه الإسلامي القوي قليل ولا كثير من أهدافها، ذلك أن المجتمع الجزائري المسلم لم يفقد أصالته عبر التاريخ، وإن كان للأسف قد فقد الرجال الرواد في عهد إستقلاله بعد عام 1962 حيث تقدم جهاله وتأخر علماؤه. لقد كانت الدولة الجزائرية قوية بنظامها وشعبها وإمكاناتها، ولعل في المعاهدات التي كانت تربطها مع مختلف دول الأبيض المتوسط ما يستدل به على ذلك. وبالأخص مع فرنسا التي ما أدركت أن الضعف السياسي دب في أوصال الجزائر، حتى هاجمتها بأساطيلها، لكن ما عرفته البلاد وقتها من إستبداد الولاة وإهمالهم لشؤون الدولة أدى إلى الأنهيار المادي للدولة(338).

---

(338) المعاهدات والاتفاقات التي عقدت بين فرنسا والجزائر قيل هي:
1 – صلح وتجارة : إمتيازات إفريقية: 21 مارس 1619م
2 – صلح وتجارة : 19 سبتمبر 1628م
3 – إمتيازات إفريقية : 23 سبتمبر 1628م
4 - إمتيازات إفريقية : 8 يوليه 1640م
5 – صلح وتجارة : 9 فبراير 1661م
6 – صلح وتجارة : 17 مايو 1664م
7 – إمتيازات إفريقية: فبراير 1670م
8 – صلح وتجارة : 11 مارس 1679 م
9 – صلح وتجارة : إمتيازات إفريقية : 28 أبريل 1684م
10 – تجديد : إمتيازات إفريقية : 1686م
11 – إمتيازات إفريقية : 12 مارس 1689م
12 – صلح مائة سنة : 24 سبتمبر 1689م
13 – إمتيازات إفريقية : 5 مايو 1690م
14 – تجديد صلح وتجارة : 27 ديسمبر 1690م
15 – إمتيازات إفريقية : 3 يناير 1694م
16 – تجديد . صلح وتجارة. إمتيازات إفريقية : 4 مارس 1698.
17 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 23 يولية 1698.
18 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 19 يوليه 1700م
19 – تجديد . إمتيازات إفريقية : صلح وتجارة : نوفمبر 1705.
20 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 8 مارس 1707م
21 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 30 مارس 1710م =

علمنا كيف أصبحت الجزائر قبل تابعة لآل عثمان إسما في بداية الأمر وقت إنضمامها إليهم بسبب الانتصار الذي حققه أوروج وإخوانه يتقدمهم خير الدين كما سبق،وقتها أصبح نظام الجزائر خاضعا للبكلربية«بكلربك» الذي دام من 924 إلى

= 22 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 14 أغسطس 1710م
23 – إمتيازات إفريقية : 15 يوليه 1714.
24 – تجديد . صلح وتجارة : 26 يناير 1718م
25 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 6 أبريل 1718م
26 – تجديد . صلح وتجارة : 7 ديسمبر 1719م
27 – صلح وتجارة : 20 مارس 1724م
28 – تجديد . إمتيازات : 20 مارس 1724م
29 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 6 يونيه 1731م
30 – امتيازات إفريقية : 23 سبتمبر 1731م
31 – إمتيازات إفريقية : 10 يونيه 1732 م
32 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 15 ديمبر 1743م
33 – تجديد .إمتيازات إفريقية 2 نوفمبر 1735م
34 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 18 فبراير 1748م
35 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 29 ديسمبر 1754م
36– صلح وتجارة : 16 يناير 1764م
37 – إمتيازات إفريقية : 23 مايو 1767م
38 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 10 يونيه 1768م
39 – تجديد . صلح وتجارة . إمتيازات إفريقية : 23 مارس 1790م
40 – إمتيازات إفريقية : 23 يونيه 1790.
41 – تجديد . صلح وتجارة . إمتيازات إفريقية : أول يوليه 1791م
42 – تجديد . إمتيازات : 30 مايو 1793/ سبتمبر 1795 معاهدة تحالف بحرية بين الجزائر وأمريكا.
43 – قرض من الدولة الجزائرية إلى فرنسا (250 ألف في 1797م ارتفع القرض إلى ملايين ذهبية.
44 – هدنة لغير أجل 19 يولية 1800م
45 – صلح وتجارة : 20 سبتمبر 1800.
46 – صلح وتجارة : 29 ديسمبر 1801.
47 – تجديد . صلح وتجارة : إمتيازات : 26 ديسمبر 1805.
48 – تجديد . إمتيازات إفريقية : 8 نوفمبر 1808م
49 – تجديد . صلح وتجارة : 11 يولية 1-181م
50 – تجديد . صلح تجارة : 30 مارس 1815.
51 – تجديد . صلح وتجارة : 16 أبريل 1815.
52 – إمتيازات إفريقية : 11 مارس 1817م
53 – إمتيازات إفريقية : 26 أكتوبر 1817م
54 – تجديد . صلح وتجارة : 29 مارس 1819م =

996هـ 1518-587م ثم عهد الباشوات من 996 إلى 1070هـ 1659م، ثم عهد الأغوات إلى 1081هـ 1670م، ثم عهد الدايات من 1082 إلى 1246هـ 1671 - 1830م وهو العهد الذي عرفت الجزائر فيه الفوضى وعدم الاستقرار في الحكم، إذ في هذه المدة التي تزيد على السبعة

= 55 - تصريح ، قروض جزائرية لفرنسا : 23 ديسمبر 1819.

56 - إمتيازات إفريقية : 24 يوليه 1820.

وهذا هو النص الكامل لآخر معاهدة صلح بين الجزائر وفرنسا التي وقعت في 17 ديسمبر 1801م = 1216هـ، ونقدم فيما يلي نصوص المقدمة وبعض المواد من هذه المعاهدة. وهذه النصوص تثبت بالتأكيد أن فرنسا كانت معترفة بالسيادة الجزائرية.

- تقر الحكومة الفرنسية والجزائرية على أن الحرب بين الدولتين لم تعد لها صفة طبيعية وأن مما يلائم كرامة كل منهما ومصالحهما أن تستأنف العلاقات القديمة.

- ونتيجة لهذا فإن كلا من الداي مصطفى باشا باسم المملكة (الجزائرية) والمواطن الفرنسي شارل ديبوا تانفيل القائم بالأعمال والوكيل العام للعلاقات التجارية في الجمهورية الفرنسية والذي منح النفوذ الكامل كقنصل أول لقصد عقد الصلح مع المملكة (الجزائرية أنهما اتفقا على المواد الآتية:

المادة 16 : القائم بالأعمال المدير العام للعلاقات التجارية في الجمهورية الفرنسية يستمر في التمتع بكل التشريعات والحقوق والميزات التي نصت عليها العقود السابقة. وسيحتفظ بالأولوية على سائر وكلاء الدول الأخرى.

المادة 17 : أن مسكن الوكيل الفرنسي العام مقدس لا تدخله أي قوة عمومية إذا لم يطلب ذلك هو نفسه من رئيس الحكومة الجزائرية.

المادة 18 : في حالة قطع العلاقات (والله يحفظ من وقوع مثل هذا الحادث) يترك الفرنسيون مدة ثلاثة أشهر ليتمموا شؤونهم ويتمتعون خلال هذه المدة بكامل الحرية والحماية التي تمنحها العقود في حالة السلم واشتراك السفن الراسية في موانئ المملكة خلال هذه المدة في نفس المزايا.

المادة 19 : يعين سعادة الداي السيد صباح خوجة ليذهب إلى باريس بصفة سفير. كتب في الجزائر في 7 نيفوس من العام العاشر (17 ديسمبر 1801) وفي 22 من شهر شعبان من السنة الهجرية 1216هـ.

الإمضاءات

(مصطفى باشا) ديبوا تانفيل

وبناء على هذه المعاهدة استؤنفت العلاقات بين فرنسا والمملكة الجزائرية، وفي 29 ديسمبر أعلن الصلح في الجزائر رسميا بواسطة طلقات المدفعية.

معاهدات بين الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية

معاهدة صلح وصداقة في 5 سبتمبر سنة 1795م - 1215هـ

المادة الأولى (إعلان الصداقة).

المادة 2 : يحق للسفن الأمريكية أن تزاول التجارة مع المملكة الجزائرية مقابل رسوم معهودة، ولا تدفع رسوم عن التوريدات البحرية والعسكرية.

المادة 3 : سفن الدولتين حرة في سيرها.

المادة 4 : تستلم الطرادات الجزائرية جوازات السفر من طرف قنصل الولايات المتحدة ولا يحق للطرادات الجزائرية أن توقف غير رجلين اثنين لتفتيش جوازات السفر على سفن التجارة الأمريكية التي تصادفها في طريقها.

المادة 5 : يمنع رؤساء الطرادات الجزائرية من القبض على أي شخص يوجد على سفينة أمريكية أو إذايته.=

عشر عقدا من الزمان قتل جنود الانكشارية فيها بالجزائر أربعة عشر دايا من مجموع الولاة «الذي هو سبعة وعشرون(339) من حاج محمد إلى حسين داي الذي

المادة 6 : تقديم المساعدة للسفن الجانحة.
المادة 7 : لايحق للجزائريين بيع سفن حربية للدول التي تكون في حرب مع الولايات المتحدة.
المادة 8 : إذا كانت سفينة مدانة للمملكة الجزائرية ووقعت في ملك مواطن أمريكي فإن الشهادة التي يمنحها القنصل تحل محل جواز السفر.
المادة 9 : لايحق لدولة محاربة للولايات المتحدة أن تبيع في الجزائر الغنائم التي أخذتها من الولايات المتحدة.
المادة 10 : يحق للولايات المتحدة إذا كانت في حرب مع إحدى الدول أن تبيع في الجزائر من غير رسوم الغنائم التي أخذتها من هذه الدولة.
المادة 11 : تستقبل السفن الحربية الأمريكية في الجزائر استقبالا كريما كالعادة. ويلزم رد الأسرى الذين يلجأون إلى هذه السفن.
المادة 12 : يجب الافراج عن الرعايا الأمريكان الذين أخذوا في السفن المعادية إذا كانوا يحملون جوازات سفر.
المادة 13 : تسلم إلى القنصل أملاك الرعايا الأمريكان الذين ماتوا من غير أن يخلفوا مورثا.
المادة 14 : لايرغم مواطن من الولايات المتحدة أن يشتري بضائع لايريد شراءها. وليس القنصل مسؤولا عن الديون التي يرتكبها المواطنون الأمريكان.
المادة 15 : الخلافات التي تحصل بين الأمريكان والجزائريين تسوى على يد الداي. أما الخلافات بين الأمريكان أنفسهم فالقنصل يسويها.
المادة 16 : إذا جرح أمريكي أحد سكان المملكة أو قتله فإنه يعاقب بمقتضى القوانين السارية في المملكة، فإن فر فليس القنصل بمسؤول.
المادة 17 : يتمتع القنصل بالأمن الكامل وله أن يؤدي شعائر دينه بكل حرية، وهو حر أيضا في أن يركب أية سفينة توجد في مياه المملكة «الجزائرية».
المادة 18 : في حالة حرب بين الدولتين المتعاقدتين يغادر القنصل ومواطنوه المملكة من غير أن يؤذوا.
المادة 19: يفرج عن مواطني الدولتين المتعاقدتين إذا أخذوا في سفينة مملوكة لدولة محاربة لاحدى الدولتين المتعاقدتين.
المادة 20 : تحية السفن الحربية 21 طلقة بالمدفع.
المادة 21 : لاتدفع رسوم عن الأشياء المخصصة لاستعمال القنصل الشخصي.
المادة 22 : لا تعلن الحرب في حالة نزاع حتي تنفذ كل وسائل التفاهم.

لكن كل هذه المعاهدات تعرضت للضعف بسبب المعاهدة الدولية بين الأتراك ودول أوروبا منذ عام 1761م والتي وسمت بالمعاهدة المذلة للدولة العثمانية لأنها أعطت لقناصل أوروبا صلاحيات واسعة فيما يتعلق بوضع رعاياهم الذين أصبح لهم بمقتضاها حق النقض أمام قناصلهم في مختلف الولايات العثمانية. ورغم ما سبق مما قلنا عنه شبه استقلال للدولة الجزائرية فإنها خضعت لبنود هذه لاتفاقية التي مكنت القناصل من الحكم على مواطنيهم في القضايا المدنية الجنائية. كما مكنت الرعايا الأوربيين من حق حرية التنقل في جميع ممتلكات آل عثمان وضمان حق السكن وحرية التجارة والحرية الدينية، وأكثر من هذا بعد حكم القنصل له الحق في أن يطلب من السلطة استعمال قواتها للتنفيذ، وبذلك أصبح للقناصل من النفوذ والقوة ما جعل ولات الاقاليم في موقف ضعيف لم يستسغه داي الجزائر كما سنرى.

(339) راجع معجم الأسر الحاكمة ازامباور 1/128 - 129.

استسلم لشهوات نفسه ولإغواء اليهوديين نفتالي بوشناق، ويشو بقرى اللذين دفعاه لحب المال الذي جره إلى ما انتهى إليه من ظلم واستبداد وإطلاق أيدي اليهودي الذي أصبح بيده الحل و العقد في كل شيء، يقول يقر «د. المعارف»(340) عن اليهود في الجزائر الذين كان لهم في بعض الأحيان الشأن الأكبر في الشؤون الجزائرية بعد أن أصبحوا يتولون أمور الداي المالية ويقومون بالوساطة الرسمية بين الولاية وبين الدول الأوروبية، وقد ظل نفتالي بوشناق خمسا وعشرين سنة 1780 – 1805م يستغل نفوذه في تنصيب البكوات والدايات، وخلفهم والتصرف في أمور الدولة، أو قل بإيجاز إنه كان يدير السياسة الداخلية و الخارجية للنيابة ويصرفها وفق مصالحه الخاصة، مادام يوفر للداي من الأموال ما يكفي لرشوة القوم الذين هم في الباب العالي بالقسطنطينية، ولقد كان لهذا النفوذ العظيم الذي بلغه بوشناق رد فعل حيث إغتاله أحد أفراد الجيش من الإنكشارية عام1805م 1220هـ وأعقبت ذلك فتنة دموية قتل فيها جل أغنياء اليهود أو أخرجوا من البلاد ونهبت حوانيتهم وصودرت أملاكهم، ونقص عدد اليهود إلى أربعة آلاف كما يقول روزيه(341).

كانت حكومة الداي في هذه المرحلة لا تتوفر على قوة تمكنها من حكم الجزائر، بل كان سلطانها قاصرا على المدينة العاصمة كما كانت بعض الجهات الخاضعة للبايات هي الأخرى لا تتعدى المدن التي تعتبر عاصمة الإقليم لهم إلى جانب بعض المراكز مثل، الجزائر، بجاية، قسنطينة، لمدية، مليانة، مازونة، تلمسان، وكان لكل من الداي أو الباي إدارة مكونة بطريقة بقيت كما نظمت منذ إنضمام الجزائر إلى دولة آل عثمان، كولاية معتمدة على الانكشارية وقوتها قبل كل شيء، ورجالها هم الذين انتهوا بعد إلى سلطة مطلقة على الداي ومن حوله إلا إذا كان هذا الأخير عرف كيف يسلب قيادتها ويسخرها بالرشوة لمصالحه، فتصبح طوع إرادته وإرادة المسيرين للشؤون العامة معه، ولقد كانت إدارة الداي تتكون من أغا العسكر للدفاع والحرب ووكيل الخراج للبحرية «بيت المالجي»

---

(340) دائرة المعارف الإسلامية 419/6 وقد أورد صاحب تحفة الزائر 127/1 أنهما كانا وكيلين لفرنسا وسماهما "يعقوب كوهين بكري" و"ميخائيل أي زناك ولربما وقع في خلط. إذا كما رأينا أن نفتالي بوشناق الذي سماه ميخائيل قتل بيد أحد الجنود وسنة 1805م.

(341) راجع الدائرة المصدر السابق 419/6.

مدير الأملاك، وخوجة الخول جابي الضرائب، والخزنجي = وزير المال، وشيخ المدينة للأمن والشرطة والقضاء في العاصمة.

هكذا عاش نظام الحكم في الجزائر لمدة ثلاثة قرون، وفي الغالب لايعرف ما بعد العاصمة بأميال إلا وقت الجبايات، وكل إهتمامات رجالات الديوان في الثلاثة قرون، كانت موجهة للبحر الذي منه أهم الموارد بالبحث عن الغنائم وأسرى المصارعين الذين كانوا يباعون في أسواق البلاد كرقيق، فيساهمون في النشاط الاقتصادي بأعمالهم في مختلف المجالات، أو يفتدون بما كان يقدر لكل منهم حسب اعتباره، وكثيرا ما كانت الأثمنة غالية خصوصا للذين ينتمون إلى عائلات مثرية، وقد أشرنا قبل إلى أن الجزائر إستطاعت أن ترعب دول حوض الأبيض المتوسط زمنا في هذا المجال، وبقلة من رجالات البحر الأتراك الذين كان لهم سلطان في مجال البحر، مما أدى إلى حقد كل من فرنسا، وبريطانيا، وهولاندا، وتنافس هذه الدول ضد الجزائر، والعمل على إحتلالها بعدما تعرضت للضعف والاستنزاف طول سبعة عقود تقريبا، الأمر الذي استنهض همم فريق من أبنائها بحثا عن طريقة خلاصها مما آلت إليه تحت سلطة الدايات ونفوذ اليهود وقهر الإنكشارية، وإذا كان الدين سلطانه على النفوس في كل زمان ومكان من أرض الإسلام، فإن الجزائريين إلتمسوا وسيلة تحريرهم بواسطة الدين واتخذوا وسيلة لذلك الطائفة الدرقاوية التي كان لها أنصار في الجزائر وقتها، والتي يوجد مؤسسها في شمال المغرب بني زروال، تلك الطائفة هي التي كادت تخلص الجزائر وتدفع بها إلى الأمام لولا تدخل سلطان المغرب وقتها المولى سليمان - الذي تدخل لفائدة آل عثمان بدافع طبيعته وسلوكه الإسلامي الحنيف، وبدعوى أن لآل عثمان بيعة في أعناق الجزائريين كما قدر، ويجب أن يستمر ولاؤهم دون اعتبار منه لما آلت إليه أحوال دولتهم وعلاقاتهم السياسية مع كثير من الولايات، ومنها الجزائر التي أهملوها، ثم علاقتها كذلك مع بعض الدول القوية وقتها، والتي أجمعت على التآمر ضدها مما سيعرف بعد بالمسألة الشرقية وما نتج عنها من تحالف دولي ضد الرجل المريض(3-42) الذي انشغل بمرضه عن بقية الأقاليم، خصوصا

(3-42) راجع ذلك في تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد بك، ترجمة محمود خان الثاني ص: 197 وعبد المجيد خان ص : 237ط القاهرة 1912م، والتحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، لإبراهيم بك حليم 190 - 202ط 1205، وتاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية، إنتهاء الدور الأخير للخلافة 1774 - 1920 للدكتور محمد ضياء الدين الرايس وتحفة الزائر في تاريخ الجزائر الخ.

بعد ظهور محمد علي القولي بمصر والذي كانت خيانته من أكبر عوامل الهدم ومساعدة الاستعمار من أجل أن يتحرر من ربقة السلاطين وتبعيته لهم، ولم يقتصر ما سبق على الدايات بل حتى البايات مثل صاحب قسنطينة الذي وصفه لنا الزياني في الترجمانة الكبرى(343) وذلك زمن المولي سليمان، وهو حسن باشا الذي تحدث الزياني عن خمرياته ولياليه ثم هيامه بالمال مما أدى إلى الثورات المتوالية ضد الديات والبايات ومثله كان محمد بن عثمان وولده عثمان بوهران الخ.

(343) ص 156ط 1966 تحقيق المؤلف.. لقد اخترنا الكتابة حول هذه الطريقة الدرقاوية لأنها كانت سليمة وهادفة في الوقت الذي ظهرت فيه الطريقة التجانية بالمغرب أيضا وهي طريقة استغلالية اندس تحت ردائها الاستعمار والمستعمرون وبقدر ما كانت الدرقاوية طريقة جهاد وتحرير، كانت الأخرى ممثلة في أسرة الشيخ أحمد التجاني طريقة عمل فاجر لصالح الاستعمار الفرنسي، سواء في المغرب أو الجزائر أو السينغال والأقطار الإفريقية كما سنرى بعد، على أن الطريقة التي كان لها شأن في الجزائر هي الطريقة القادرية، وهي الطريقة التي كان من أتباعها بعض الديات والبايات، وكذا أسرة الأمير عبد القادر كما يخبرنا صاحب التحفة 113/1 ط 2.

الفهرس

*** الباب الرابع عشر**

الفصل الثاني عشر بعد المائة: زيدان وابن أبي محلى العباس الفيلالي 7

الفصل الثالث عشر بعد المائة: الحاحي أبو زكريا وابن أبي محلي 25

الفصل الرابع عشر بعد المائة: ظهور ابي عبد الله العياشي والجمهوريات الثلاث 29

الفصل الخامس عشر بعد المائة: العلويون بالمغرب أصول وفروع 55

الفصل السادس عشر بعد المائة: من الحسن الداخل الى علي الشريف 65

الفصل السابع عشر بعد المائة: بداية ظهور الدولة العلوية بقيادة الشريف
بن علي ضد الإلغيين والدلائيين 73

الفصل الثامن عشر بعد المائة: سلطنة محمد بن الشريف بتافيلالت ونهاية الدلائيين 83

الفصل التاسع عشر بعد المائة: الأخوين محمد والرشيد والتمكين للدولة العلوية 87

الفصل العشرون بعد المائة: صراع محمد بن الشريف والأتراك شرقا وما أفاده
الرشيد من ذلك الصراع 93

الفصل الواحد والعشرون بعد المائة: قيام الرشيد ابن الشريف 99

الفصل الثاني والعشرون بعد المائة: دخول الرشيد لفاس وقضاؤه على الدلائيين 107

الفصل الثالث والعشرون بعد المائة: الرشيد وملاحم التوحيد من فاس الى سوس 113

الفصل الرابع والعشرون بعد المائة: من الرشيد ابن الشريف الى إسماعيل
ابن الشريف 123

الفصل الخامس والعشرون بعد المائة: الجيش والعمران وبناء الدولة في
عهد إسماعيل بن الشريف 137

الفصل السادس والعشرون بعد المائة: مشكل العبودية بن السلطان وعلماء فاس 157

الفصل السابع والعشرون بعد المائة: تجربة الجيش في حرب قبائل فازاز
ومأساة قبائل كروان 169

الفصل الثامن والعشرون بعد المائة:المغرب وأوروبا قبل وفي عهد
السلطان اسماعيل 177

الفصل التاسع والعشرون بعد المائة: العلاقة مع الأنجليز 183

الفصل الثلاثون بعد المائة: المغرب وفرنسا في القرن السابع عشر 193
الفصل الواحد والثلاثون بعد المائة: المغرب وعلاقته بالإسبان 217
الفصل الثاني والثلاثون بعد المائة: السلطان إسماعيل وحقيقة أولاده الألف المفترى عليهم 225
الفصل الثالث والثلاثون بعد المائة: ثورة الأمير محمد العالم ابن المولى إسماعيل ودوافعها 233
الفصل الرابع والثلاثون بعد المائة: إعلان الثورة وما بعدها 243
الفصل الخامس والثلاثون بعد المائة: مات السلطان إسماعيل ولم يعهد لأحد من أولاده 253
الفصل السادس والثلاثون بعد المائة: المغرب ومآسي ثلاثين سنة من حروب الوراثة 265
الفصل السابع والثلاثون بعد المائة: أحمد الذهبي وبداية المآسي 271
الفصل الثامن والثلاثون بعد المائة: عبد الله بن إسماعيل وأهوال الاستبداد 285
الفصل التاسع والثلاثون بعد المائة: السلطان عبد الله يسلم من سفك دمه ويفر من القتل 293
الفصل الأربعون بعد المائة: عبد الله وصراعه مع إخوته وجيش العبيد 299
الفصل الواحد والأربعون بعد المائة: نجدة واعزيز ورجاله للسلطان عبد الله 313

*** الباب الخامس عشر**

الفصل الثاني والأربعون بعد المائة: السلطان عبد الله ونهاية مآسيه 325
الفصل الثالث والأربعون بعد المائة : محمد بن عبد الله من السيبة إلى الاستقرار المريض ثم حروب الوراثة ثانية 243
الفصل الرابع والأربعون بعد المائة: الثورة الفرنسية وانعكاساتها الرجعية على أوروبا والمشرق العربي 361
الفصل الخامس والأربعون بعد المائة: أوروبا والمغرب الكبير وأسطوله المثير 373
الفصل السادس والأربعون بعد المائة: أسطول الجزائر واتفاق الأوروبيين في مؤتمر ڤينا وبداية متاعب المغرب الكبير 385
الفصل السابع والأربعون بعد المائة: الجزائر شعب ودولة 397